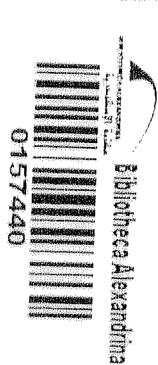
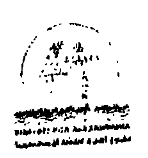




دكتورة نعمات أحمد فؤاد





الطبعة الثانية



١٩٨٣

اهداءات ١٩٩٨
مؤسسة الاهرام للنشر والتوزيع
القاهرة

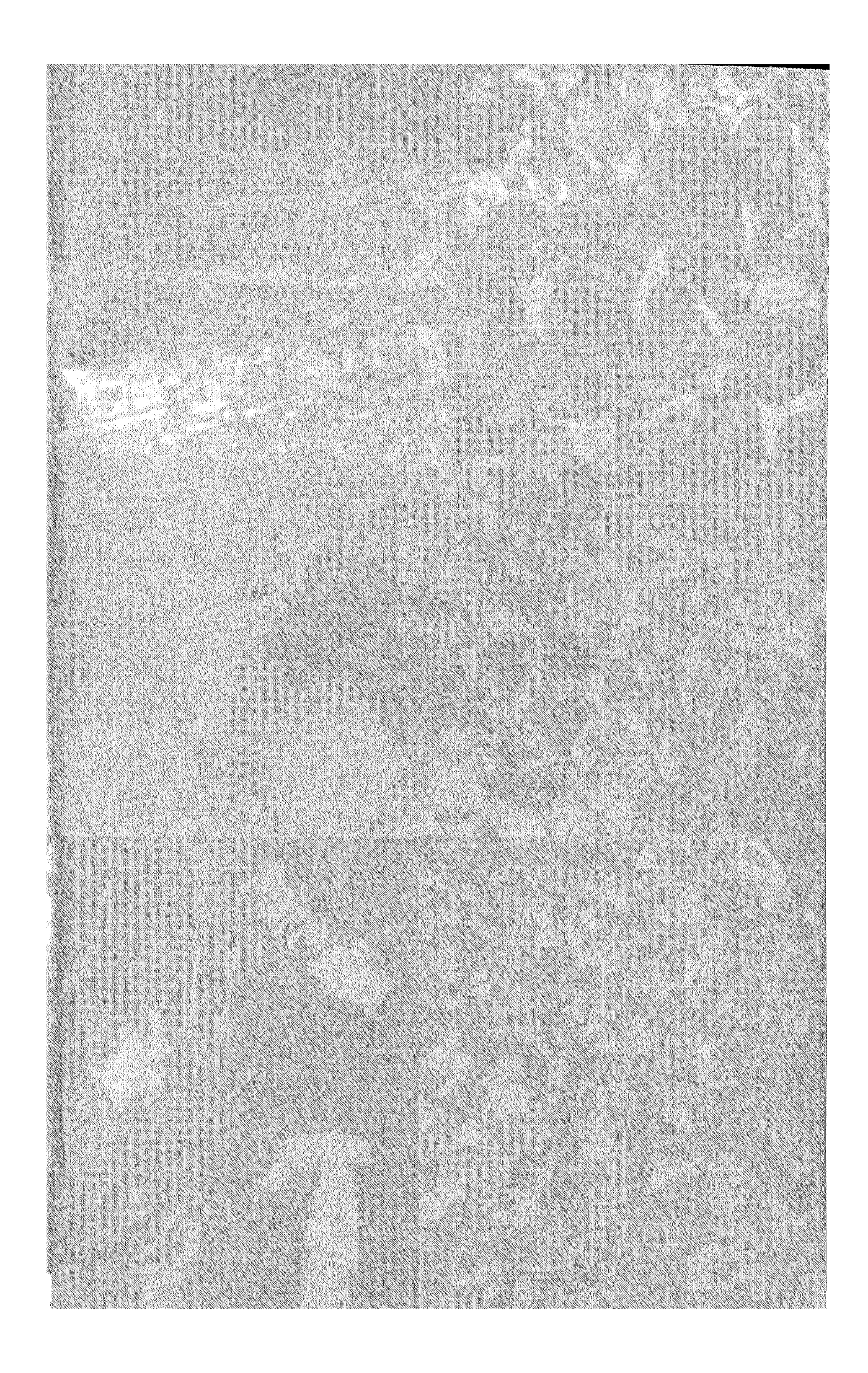
أمّ كلثوم

وعصر من الفنّ

دكتورة نعمات أحمد فؤاد




ولدتها مصر




وأسعدت العالم

الغلاف وتصميم مداخل الأبواب
الإخراج والإشراف الفني
عبد السلام الشريف



ايها الصوت من السماء

يا حبيبة الملايين وكل معنى كريم يا أم كلثوم ٠

حين غنيت أوبريت (رابعة العدوية) شدا صوتك وأن وبكى ثم طار على جناحين الى السماء معلنا صعود رابعة الى الملأ الأعلى ٠

الآن أنت فى طريقها الى عالم الحور والنور ٠ وشفت الرؤية وانجلى البصر فهل تذكرين كيف تعارفنا ؟

كتبت اليك وأنا طالبة بالجامعة لا أزال ، بعد ليلة من لياليك ومـا أكثر لياليك ، وما أهنا لياليك ، وما أبعد الآن ، عنا ، لياليك ٠٠٠

كتبت اليك خطابا ظللت تعتزين به وتحتفظين ٠٠٠ حتى قبل أن ترانى عيناك أو تراك عيناى ٠٠٠

وطلبت أن تلقى صاحبة هذا الخطاب ٠٠ وتلاقينا ٠٠ وكان ملحنك القصبجى حاضرا هذا اللقاء ٠٠ وما أسعدنى فى طراءة السن اسمعك ومن وراءك الشهرة والمجد والأضواء تقولين لى أنا طالبة الجامعة :

لقد كتب لى وعنى كتاب وشعراء وخطباء ولكن كلاما كهذا لم اسمعه أو أقرأه من قبل ٠٠٠

شريط مسجل ذلك اليوم لا أنساه ولا تمحوه الأيام ٠٠٠

الخطاب الذى كتبته فى ذلك الحين ومر عليه الآن عشرون عاما أرانى أردده اليوم وأحسب أن الملايين تردده بغير حروف ٠٠٠

هذا هو الخطاب الذى أرسلته اليك يوما على أرض الواقع الذى ملأتيه ، أرسله اليوم الى السماء التى ترفعك الى أعلى عليين ٠٠٠

أيها الصوت من السماء :

كلما أصغيت اليك أمسكت بالقلم طامعة فى تسجيل رفرفة نفسى الفرحة المرتاحة لنشيدك ، فأحجم لأن الجمال اذا بلغ الغاية من الكمال قد يفسده الوصف مهما تأنق وافتن ، وهيهات للشعاع أن تمسكه اليد أو تحدق فى شمسه العين ٠ ولكنى هذه المرة أقدمت على الكتابة لأنى لم أقو على الدمعة التى تألقت فى عينيك المفداة ٠ يغمطك قدرك من يزعمك تغنين فحسب ٠ انك فى مقامك شادية وشاعرة وخطيبة وداعية الى الآمال الكبار ، وباكية على آلامنا الكبار أيضا ٠ انك قطعة منا ٠ انك ذخر كبير من ثروتنا القومية ٠ انك رى لظمأ هذا الشعب الصادى ، والمتاع

الوحيد فى حياته الكابية يعوضه عما يعانيه من ضنى وحرمان · ولعل هذا السر فى أن الكثيرين يجودون بمالهم القليل ليصلوا اليك مؤثرين نعيم الروح على غذاء الجسم الضارع المحتاج الى الغذاء ولكنه يؤثر فرحا داعى السماء ·

أيها الصوت من السماء ·

ان الشعب الذى يصغى اليك بحواسه كلها مكبوت وعندك يجد متنفسا تغنينه وتشجينه ، وتسرينه وتبكينه ، وهو سعيد سعيد بالشجو والغناء والسرور والبكاء على السواء · انه ليس أمام مغنية ولكنه يعتقد باحساسه أنك قيثارة الله · فما هذه الألحان من الأرض التى تتنكر للفن فى زحمة المال والعلم ·

ايها الصوت من السماء ·

اننا نصغى اليك ، فاذا بنا أشف نفوسا وارق احساسا واطهر قلوبا وأعمق ايمانا · حتى الغفاة يفيقون على سبحاتك كما يفيق وسنان على آذان الفجر فى هداة السحر · لكأنك رقيا ساحر تحيل الغفوة صحوا، والاثم طهرا فاذا العيون تدمع واذا القلوب تخشع ، حتى اذا فرغت من انشادك وقع الكل فى بحران من الحماسة السكرى يهللون ويكبرون ·

منك يتعلم هذا الشعب المعانى التى يصوغها له الشعراء وعنـــك وحدك يفهم مرامى الألفاظ • بل ان شعر الشاعر تسمو بلاغته على شفتيك بما تضفينه عليه من ظلال وألوان صوتك الغنى الموهـوب • ان قصيدة (النيل) ما كان يطمع (شوقى) أن تسرى فى نفوسنا الى هذا العمق لولاك • ان ما فيها من فرحة ومهرجان وتسبيح ، من صنعك أنت •

حتى النغم يلحن الملحن لأصوات كثيرة فلا نحس بها لأنها لا تنفـــذ الى قلوبنا مواطن الاحساس ، ولكن لحنه حين تؤدينه يقيمنا ويقعدنا ، ويبكينا ويسعدنا • هل هذا كله عمله هو ؟ كلا ان جانبا كبيرا من عملك أنت وبدعك أنت •

ايها الصوت من السماء

لقد كانت الشهور العربية حتى ظهورك بيننا تتيه باســـتهلالها مع بزوغ الهلال فى السماء فاذا بالشهور الأخرى تنافسها بسطوع بدر باهر السناء ، لألاء الضياء يسلسل النور لحنا يرقرقه ونغما يشـيعه • نور يضىء النفوس ويجلو صداها ويمتعها بلذاذات لا تنتهى فتهدأ من روع ، وتسكن من خوف وتستشعر الرضا وتنعم بالغبطة وتستروح بالأمل •

من لنا بشاعر عبقرى يحدث الملأ عنك حديثا لا مراء عنـــدى أنه

سيتأمله طويلا وسيعتز به كثيرا لأنه يتصل بك فانت مجلاه وانت موحيته ·
يحدث الملأ عن الشجى والرقة والاستعطاف فى « ياللى بكاى شجاك » ·
شاعر يحدث الناس عن التحدى العذب فى « عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك » · يحدثهم عن المعانى التى يحشدها صوتك ولا أدرى كيف فى « حتى الجفا محروم منه » · يحدثهم عن تصوفك الرفيع فى « نهج البردة » · يحدثهم عن « ولد الهدى » بيتا ، بيتا ، وما أخلق الهمزية بحديث طويل ·· يحدثهم عن أغاريدك الأولى التى حجبت عنا الآن · ولكنى مع هـــذا أسمعها تملأ على نفسى · وكيف أنسى أو ينسى الناس تغريدك « النيل جارى والليل سارى» ورفعك الصوت مرنا قويا فى اول « جارى » وانتهاءك به ناديا رقراقا فى الحرفين الأخيرين من الكلمة (الراء والياء) · وكأنك تمثلين النيل من منبعه حيث يتدفق قويا جارفا عند هضـــــبة البحيرات وينتهى هادئا عذبا رقراقا عند الزمالك حيث يجرى من تحتك ، طروبا بقربك ، فخورا بشدوك تتواثب مويجاته نحـــو الشاطىء كأنها تسعى لتقبيل يديك ·

شاعر يحدث الناس عن « اذكرينى » وما فيها من ألوان · يحدثهم عن « هلت ليالى القمر » وما فيها من همسات · يحدثهم عن « وهـــوى الغانيات مثل هوى الدنيا » وعن « حمامة الأيك من بالشجو طارحها » يحدثهم عن ليالى الأرغول ، وعن « الأمل » ، وعن (الورد الجميل) الذى

ينمقه صوتك وكأنه يخلع عليه ألوانه وينفحه العطر والشذى . وقصارى القول يحدثهم عن « السعادة » .

حسبنــا من زماننا عذب نشـــيدك

وحســـبنا من دنيانا حلو تغريدك

أيها الصوت من السماء

لا حرمناك تترسل بيننا لحنا لحنا

* * *

أيها الصوت من السماء

بعد هذا الخطاب لم أكتب اليك لأنى اتصلت بك وأخذت أقرؤك باذنى وعينى ووجدانى . . .

والآن طارت (حمامة الأيك) . .

ومن جديد سأكتب اليك .. « من أجل عينيك » :

وستصلك رسائلى عبر الأرض الى السماء ترفرف على جناحى ملك يصل هتفة من مصر ببضعة من مصر التى وصلت بين قلبينا بالانتماء .. .. والولاء .. والغناء .

فقد كانت وحدها ليلانا معا .. ونجوانا معا كلما ضمنا مجلس ، أو دار بيننا حديث .

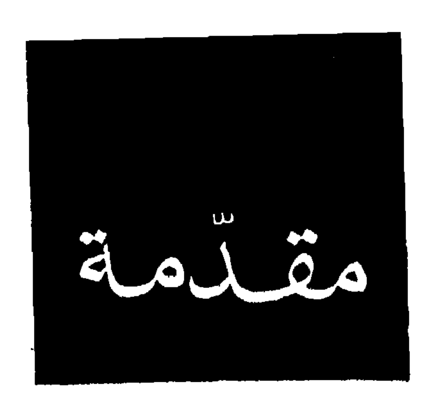
يا عقد الفل على صدر مصر
يا ست الكل بين سيدات مصر
صوتك آية
واسمك راية

فالكلثوم هو الحرير يكون فى أعلى العلم .

وقد كنت لنا حريرا ، ونميرا ، وخيرا كثيرا ، وذخرا كبيرا .

كنت لنا علما ومعلما
ثم غدوت لنا التراث والرصيد
والتاريخ والنشيد
والفخر والتمجيد
أنت أم كلثوم وستبقين أم كلثوم
ما بقيت مصر
وجرى النيل

دكتورة : نعمات احمد فؤاد



مقدّمة

هذا هو كتابى الثانى عن « أم كلثوم » ٠

كان الأول قصة حياة بطلتها « أم كلثوم » ٠

أما الثانى فقصة عصر ، سيدته « أم كلثوم » ٠

ما جاء فى الكتاب الأول من أخبار مولدها وطفولتها وقصتها مع الكتاب وقصتها مع القرية قبل أن تقف على أعتاب الشهرة ، ومجيئهـــا

الى القاهرة أول مرة .. وما حدث لها من مفارقات .. ذكريات روتها لى بنفسها .. ومنذ صدر كتابى سنة ١٩٥٢ يضم ذكرياتها هذه وهو مصدر لكل من كتب عن أم كلثوم بعده . فهو أول كتابة وكتاب عن أم كلثوم . وفى عام ١٩٦٤ روت ذكرياتها مرة أخرى للأستاذ على أمين بمناسبة صدور مجلته (هى) وقد نشرها فى الأعداد الأربعة الأولى تحت عنوان : مذكرات أم كلثوم .

وصدرت بعد هذا كتيبات عن أم كلثوم أساسها هذه الذكريات المسطورة فى كتابى ثم فى اعداد مجلة (هى).

ورحلت أم كلثوم فاذا جميع الصحف والمجلات فى مصر والعالم العربى تصدر أعدادا خاصة عن أم كلثوم .. وقد قرأتها جميعها فاذا بها فيما يتعلق بنشاة أم كلثوم تدور حول هذه الذكريات أو المذكرات حتى العشرين سنة الأولى من حياتها ثم تقف .. فان أضافت فانما هى أخبار من هنا وهناك حول زياراتها الأخيرة من أجل المجهود الحربى مما هو قريب ملموس ...

وهنا ياتى دور هذا الكتاب **فقد أكمل معها رحلة العمر كله ... ومن ورائه العصر الذى عاشت فيه .**

وكتابى الثانى عن أم كلثوم شرعت فيه فى منتصف الستينات .. واستغرقت كتابته ست سنوات .. رجعت فيها الى محفوظات دار الكتب بالقلعة وأرشيف الأهرام وأخبار اليوم حيث قرأت جميع الصحف والمجلات المصرية منذ صدورها — بعضها فى القرن التاسع عشر — حتى الستينات من القرن العشرين . ثم ادخرته فترة حتى يسكن الجهد المبذول ، وحتى أستطيع أن أعاود قراءته برؤية جديدة .. وهنا أضفت وحذفت وغيرت .. بما يحقق هدفى منه ، فقد أردت له أن يكون جامعا . وأن يكون مرجعا .

فليس هذا الكتاب حديثا وأخبارا جذابة وريبورتاجات صحفية ولكنه حديث التاريخ فى حقبة من أهم مراحله امتدت على طريق الفن العربى مائة سنة طوى الفن فيها صفحات وفتح صفحات أخرى امتلأت بالأحداث والتطورات والأسماء والأماكن والعهود والملامح والسير .

ليس حديث فرد عن فرد ولكنه حـــديث الفن بألوانه من مسرح وسينما وموسيقى وقراءات وآذان وأذكار وتواشيح ·· حـديث الأدب الذى لم يغب عن الصورة حتى حين هبطت (الكلمة) الخضراء وجفت وأقفرت وتخلت عن رسالتها ، فان الاحساس بالهبوط هو في ذاته نداء للأدب أن يأخذ دوره ويملأ مكانه ·

أم كلثوم تشغل مكانا كبيرا فى هذا الكتاب لأن عصرها يشغل مكانا كبيرا فيه ، وهى معلم من معالم العصر وملمح من ملامحه ولعل هذا هو السر فى أن الحديث عنها لم يكن عزفا منفردا ولكنه نغمة فى سيمفونية كبيرة هى النهضة الفنية فى مائة سنة بل النهضة الحديثة ·

أم كلثوم فى هذا الكتاب خيط طويل من خيوط كثيرة متوازية حينا ومتشابكة أحيانا تلتقى وتتفرق وتتشابه وتتميز ولكنها كلهـــا بعد هذا ، بمجموعها ، بمتناقضاتها واتساقاتهـــا تكون النســـيج العريض الذى نسميه الفن العربى الحديث ·

أم كلثوم كفن وكحياة ، مادة غنية للكتابة لأنها امتدت بامتداد النهضة ولدت فى بواكيرها وشبت معها وتطورت بتطورها وأخذت منها وأعطتها وتمثلتها ومثلتها وتركت فى النهاية بصمتها عليها ·

وأم كلثوم كشخصية مصرية بالنسبة الى - كاتبة ودارسة - جزء من شخصية مصر التى أعيش لها وأشتغل بها تاريخا وفنا وأدبا ودينا ، فشخصية مصر بعطائها كله ، قبلتى والمحراب ·· وسطورى صلاة ··· وأم كلثوم عطاء مصر فى الفن طرحتها الارض السمراء الخصبة الطيبة ، وصاغتها من المنجم الغنى الذى صاغت منه العقاد والحكيم والزيـــات وطه حسين والشيخ محمد عبده ومصطفى كامل ومحمد فريد والرجـــال والنساء ممن شكلت حيواتهم اضافات جديدة ·

وأم كلثوم كشخصية عربية ، خليقة بالكتابة والتحليل بما جمعت من قلوب العرب ووحدت من كلمتهم ما عجزت عنه السياسات والاذاعات والدعايات والصحف ، فالعرب لم يلتقوا من الخليج الى المحيط فى اتفاق ورضا حول أحد ، كائنا من كان ، بدون غضاضة أو شائبة ، كما التقوا واتفقوا على أم كلثوم ·

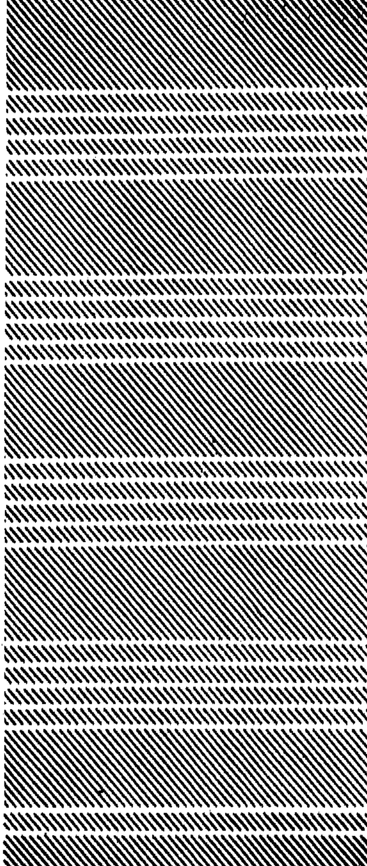
كانت « المركب » فى مصر القديمة ، محبة ، بما وصـــلت بين المصريين والنيل ·

وكانت « أم كلثوم » فى مصر الحديثة ، محبة ، بما وصلت بين المصريين والعرب .

من أجل هذا كله مجتمعا ومتفرقا ، كتبت هذا الكتاب .

دكتورة : نعمات احمد فؤاد


القرن
التاسع
عشر



فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر استهدفت مصر السهام من كل جانب وتوالت عليها المظالم من الداخل والخارج مما يفصله تاريخ هـذه الفترة السياسى والاقتصادى • ولكن مصر الجريحة المثقلة بالجراح والديون ، لم ينقطع عطاؤها للفن •• ابداع الفن دائما أبدا ، هواهـا وهوايتها بل لعلها أشد ممارسة لهذه الهواية فى محنتها •• الألم يصهرها فتضىء بنور الفن •• وليس هذا صناعة انشاء فالواقع التاريخى لمصـر يؤيد عطاءها الفنى فى هذه الفترة بذلك العدد الضخم من الأسماء الفنية وكثير منها على الأقل قام بدور ستلمحه السطور التالية •

وقد امتد عطاء مصر فى أكثر من ناحية فشمل الأدب والموسيقى والغناء والتمثيل وفنونا أخرى • واذا كان المسرح أبا الفنون كلها فلنبدأ بتصوير تطلعات مصر فيه فى ذاك الحين باعتباره ركيزة للقرن العشرين •

ولنعد فى القرن التاسع عشر الى الوراء •• الى الأربعينات حيث حديقة الأزبكية مستنقع ينبت فيه النبات المائى الكثيف وينشر منـه البعوض العدوى فيما حوله • ولكن الحال تبدلت فى النصف الثانى من القرن نفسه اذ أزيل المستنقع وشجرت الأرض وأقيمت فى وسـطها الفسقيات وتناثرت فيها مصابيح الغاز وبنيت الجبلاية على أبدع طراز وقامت فيها الأكشاك الحديدية أو الموسيقية بما حوت من تخوت الطرب وما سمعت من تطريب الغناء •

وفى سنة ١٨٦٧ أنشأ اسماعيل به مسرحا للكوميديا تشبهـا بالمسرح الفرنسى (الكوميدى فرانسيز) واحتفل بافتتاحه فى مساء ٤ يناير ١٨٦٨ ٠

وبعد عام بنيت الأوبرا أى سنة ١٨٦٩ وأول رواية مثلت فيهـا « دريجولوتو » ثم طلب اسماعيل الى (فردى) أن يؤلف لمصر أوبرا عايدة ٠

وفى سجلات الأوبرا ـ قبل الحريق ـ عقد بين الخديوى اسماعيل وفردى ينص على أن يتقاضى مسيو فردى مقابل هذا العمل مبلغ ١٥٠ ألف فرنك (ستة آلاف جنيه) ٠ كتبت من هذا العقد نسختان فى باريس فى ٢٩ يوليو سنة ١٨٧١ ٠

ومن الطريف ان فردى قبل ان يوقع على العقد اشترط :

أولا : الدفع يجب أن يكون ذهبا ٠

ثانيا : اذا حدث حادث غير منتظر مهما كان ولا علاقة لى أنا به أعنى لغير تقصير منى فلم تمثل الأوبرا فى القاهرة خلال شهر يناير من سنة ١٨٧١ يكون لى الحق فى تمثيلها أينما شئت بعد مضى ستة اشهر من ذلك التاريخ ٠

أملى فردى على اسماعيل شروطه هذه ولكن اسماعيل لم يفكر بل لم يخطر له على بال أن يحتفظ لمصر بأى حق من حقوق شراء التاليف أو التلحين ٠ ثم حدث أن مثلت رواية (عايدة) فى جميع انحاء العالم على مرأى ومسمع من مصر ٠ وكان المفروض أن تدر عليها أرباحا طائلة ٠

بدأت محاولات المسرح الأولى بالاقتباس فاظهر لنا عثمان جلال (الأربع روايات فى نخب التياترات) وأهمها مسرحية (الشيخ متلوف)٠ حتى مسرحية (مصر الجديدة) التى وقع فى روع الكثيرين ، بحكم اسمها ٠ أنها مؤلفة ، كانت مأخودة عن قصة لاميل زولا ٠

ثم انتقلت مصر من الترجمة الى التاليف على يد يعقوب صنوع ٠ كان ذلك فى عام ١٨٦٩ حين فكر يعقوب صنوع فى تأسيس مسرح مصرى ، فى العام نفسه الذى أنشئت فيه دار الأوبرا ، تعرض على خشبته تمثيليات مصرية ٠

وكان ذلك حدثا جديدا · فالى ذلك الحين لم يكن أحد قد كتب أو مثل على مسرح وطنى أمام النظارة ٠٠ كما يقول الناقد الفرنسى (جان لويس بارو) ان قضية انشاء مسرح عربى ، فى ذلك الوقت ، كانت مسالة فى غاية الصعوبة ، لم يستطع أن يقوم بها غير صنوع وحده ٠٠ لما تميز به من أصالة واصرار بالغين ٠٠ وكان انشاء مسرح عربى فى ذلك الوقت ، يعد مجازفة كبرى ، لاعتبارات كثيرة ·

وهكذا بدأت الحياة المسرحية فى مصر ٠٠ بدأت فيها وبها قبل أن يفد عليها سليم نقاش وزملاؤه لائذين بها أمام ضغط السياسة أيضا ·

يعقوب صنوع هو صاحب أول مسرح مصرى كان هو فيه المؤلف والمعرب والمخرج والممثل الأول والمصلح الاجتماعى صاحب الرسالة اذ تجرى فيما ألفه أو اقتبسه أن يكون وسيلة لنقد عيوبنا الاجتماعية · بل تجاوز بالنقد الساخر ، المجتمع ، الى الأجانب والخديوى نفسه ، والانجليز الذين رمز اليهم بشخصية « جون بول » · كما خلق للتعريض بالخديوى والتنديد بأعوانه شخصيات (السنجق ظالم آغا) و (طرطور آغا القواص) و (شيخ الحارة) ، أما الشعب المصرى المرزوء بهؤلاء جميعا فقد رمز اليه بشخصية (أبو الغلب) ·

وسارت الصحافة المصرية وراء يعقوب صنوع فى الرمز ،والكاريكاتير خاصة ·

ولكن الخديوى ما كان ليتركه يكشف سوءاته فأغلق مسرحه بعد أن كانت قد لاحت منه بادرة عطف على فنه فى البداية ، ثم أراد أن ينعم بالأمان الكامل فنفاه من مصر سنة ١٨٧٨ فلاذ الرجل بأوربا (باريس) حيث لحق به اسماعيل بعد سنة لا غير ، منفيا أيضا ·

فى الوقت نفسه لاقى مسرحيون ـ ممثلون وكتاب ـ بالشام المصير نفسه · ففى سنة ١٨٤٨ ترجم مارون نقاش ، وهو تاجر استهواه الفن ، رواية البخيل عن موليير ومثلها فى منزله ودعا قناصل الدول وأعيان بيروت الى مشاهدتها ٠٠ وكانت خبرا أعلنته الصحف الأوربية لأنه لم يكن فى الشام فى ذلك الوقت صحافة عربية ٠٠ ومن الطريف أن مارون قدم مسرحيته الى ضيوفه بخطبة مسجوعة استهلها بقوله :

(وها أنا متقدم دونكم الى قدام ، محتملا فداء عنكم امكان الملام ، مقدما لهؤلاء الأسياد المعتبرين ، أصحاب الادراك الموفورين ، ذوى المعرفة الفائقة ، والاذهان الفريدة الرائقة ، الذين هم عين المتميزين بهـــذا العصر ، وتاج الألبا والنجبا بهذا القطر ، ومبرزا لهم مرسحا أدبيا ـ هكذا كانوا ينطقون كلمة المسرح ـ وذهبا افرنجيا مسبوكا عربيا) .

ولكننا اذا تجاوزنا الشكل الى الموضوع أى اذا نحينا السجع جانبا نجد أن الرجل يحس احساسا طاغيا بأنه مقدم على مخاطرة قد يدفع ثمنها لوما وتأنيبا ، بل مقدم على عملية فدائية .. وفى الحقيقة أن « مارون » كان صادق الاحساس .. فعلى الرغم مما قوبل به من حماس اللحظة الا أنه لم يلمس الصدى البعيد لحركته بل ان خلفه ومواطنه (أحمد أبوخليل القبانى) ابتلى بالتقريع اللاذع والمحاربة السافرة حتى بلغ الأمر بقومه أن أطلقوا عليه صبيانهم فى الشوارع ينادون عليه ساخرين :

أبو خليـــل مين قالك على « الكوميديا » مين دلك
ارجع لكارك أحســن لك ارجـــع لكـــارك قبـانى

وكان ذنب أحمد أبى خليل القبانى أنه خطا خطوة أوسع بعـــد مارون نقاش فأشرك فى التمثيل البنات وكان فى بادىء أمره يجعل الصبيان يقومون بأدوار البنات .. وضمن المسرحية رقصات كرقص السماح كما ضمنها الغناء والشعر والحوار مقربا بهذا كمـــا يقول الدكتور الراعى ، بين فنون العرض التى تسعى الاتجاهات الحديثة فى المسرح الى الوصول اليها .. بل مقتربا من فن المسرح الشامل الذى عرف قبل الاتجاهات الحديثة ، فى بلاد الشرق الأقصى والهنــد ، كما عرفه الشرق العربى فى فنون السوق المعروفة فى المغرب ، أو فى مسرح (الســامر) الذى تولع به القرى المصرية .

وحميت المعارضة وثارت فورتها وأفرغت شحنة غضبها فى أزجال تشيعها بين الناس منها :

أبو خليـــل النشــواتى يـــا مزيف البنـــات
ارجع لكارك أحســـن لك ارجـــع لكارك نشــواتى
أبو خليـــل القبـــانى يا مرقص الصـــبيان
ارجع لكـــارك أحســـن لك أبو خليـــل القبـانى

حين جعل الرجل الصبيان يقومون بأدوار البنات فهو مزيف البنات ، وحين أشرك النساء فى التمثيل باء بغضب المحافظة والتقاليد حتى بلغ الأمر بأحد الشيوخ أن سافر الى الآستانة واستصدر من الباب العالى أمرا باغلاق مسرح القبانى الذى عاث الفساد فى البلاد وأقلق راحة العباد ٠٠ ولكن الشيخ سعيدا الغبراء الذى اضطلع بهذه المهمة الخطيرة لجأ دون أن يدرى الى حيلة مسرحية اذ انتظر يوم الجمعة ، وخرج من بين صفوف المصلين فى حضرة الخليقة وأخذ يصيح وينادى بالويل والثبور وعظائم الأمور ، ويهيب بالخليفة أن يدرك الاسلام والمسلمين من بلاء المسرح والممثلين ٠٠ وهو فى موقفه هذا ممثل كبير ٠

لم يحدث هذا فى مصر فانها بطبيعتها المتفتحة لم يبتل فيها يعقوب صنوع بأمثال الشيخ سعيد الغبراء بل ان مسرحه قام على أكتاف الناس العاديين الذين اشتركوا فى التمثيل ، والناس العاديين الذين تحمسوا لمشاهدته وتزاحموا عليه بل شاركوا فيه بطريقتهم الخاصة وهى التعليق على الأحداث وتوجيه الأبطال فى عملية تأليف فورية .

هل يعزى هذا الى طبيعة الشعب المصرى أم الى المناخ الثقافى فى مصر ؟ أم الى سبقها فى الاتصال بالغرب منذ الحملة الفرنسية وما أعقب الصحوة من ارسال البعثات الى أوربا والوقوف على أسرار التقدم بوعى متفتح يميز الفروق دون أن تصدمه الفروق حتى أن الشيخ رفاعة الطهطاوى ابن الازهر وابن الصعيد فرق فى هدوء وواقعية بين الرقص الشرقى والرقص فى الغرب الذى تشترك فيه النساء والرجال ٠٠٠ فرق الشيخ الطهطاوى بين العفة وبين الاختلاط ٠٠ ولم ير فى مشاركة المرأة ، الرجل خطرا عليها طالما كانت محصنة تحصينا صحيحا بالتربية الحقة والتعليم الجوهرى ٠

لقد اشترك فى كتابة المسرحية فى القرن التاسع عشر الزعيم السياسى المصرى مصطفى كامل مؤسس الحزب الوطنى فكتب مسرحيته (فتح الأندلس) سنة ١٨٩٣ ٠

وكان المسرح فى ذلك العهد عليه طابع البدايات المتواضعة وكان ممثلوه بعامة وممثلاته بخاصة من الأقطار الشقيقة اذ كان الحجاب مضروبا على المرأة المصرية حتى انها حين سمح لها بمشاهدة المسرح جعلوا الدخول اليه من باب خاص بسلم خاص ٠

وكانت رواتب هؤلاء الممثلين تتراوح بين ١٥٠ قرشا و ٧٥٠ قرشا في الشهر ، أما الممثلات لندرتهن فكانت أجورهن تتراوح بين ٣٥٠ قرشا وعشرين جنيها .

وكان لبعض الممثلين والممثلات ليال خاصة بهم (خصوصية) يوزعون تذاكرها ويأخذون ايرادها . فكان الشيخ سلامة حجازى يبلغ راتبه فى آخر أيامه ٣٠ جنيها فى الشهر وله ايراد ليلة (خصوصية) كل ثلاثة أشهر .

وكانت الملابس والمناظر ، وكل شيء ، بدائية متواضعة ، تتكرر من رواية الى أخرى حتى أن الشيخ سلامة حجازى كان يمثل شخصيات من قرون عدة ببذلة واحدة .

نبه ظهور المسرح المغنين الى مجال جديد لطاقاتهم فمالوا اليه وفى طليعتهم الشيخ سلامة حجازى الذى كان قد عدل عن الانشاد فى حلقات الأذكار الى التخت والتطريب ثم تطور أكثر فشرع وهو فى فرقتى القبانى وفرح يلحن بعض القصائد الغزلية . فافلحت تجربته ولحن طائفة من المطارحات الغرامية ثم بعض المراثى ثم بعض المخاصمات مترقيا من حال الى حال الى أن أخذ يحاكى عصف الرياح وهدير الأمواج وعزيف الجن الى ما هو أصعب فى رواية (الطفلين الشريدين) ورواية (ابن الشعب) .. وأظهر تفوقا كبيرا فى روايات : الافريقية وتليماك وعظة الملوك .

وهو بهذا قد وضع أساس الغناء التمثيلى فى مصر ونقل الموسيقى من التخت الى المسرح وأوجد للمسرح الموسيقى جمهورا يسمع فيه الألوان الموسيقية التى عرفها ولكن فى داخل قصة أو رواية ذات مواقف وأحداث .

ولا يعنى هذا أن الموسيقى تغيرت فىعهد الشيخ سلامة حجازىولكن الذى تغير هو طريقة اخراج هذه الموسيقى .

ومن الطريف أن هذا الرائد فى الحقل الفنى نشأ نشأة عامية ساذجة فعمل صبى حلاق وشارك مع المقرئين والمنشدين فى الأذكار وتعلم أثناء ذلك العزف على (السلمية) ولحلاوة صوته وهو فتى ،

اقترح عليه أن يؤذن الفجر فى مسجد بالاسكندرية فكان صوته يجذب النهار .. ويوقظ الطير فيغنى للصباح الجديد .

والناس .. الناس .. كانوا ينظرون مذهولين كأن الآذان انهل عليهم من السماء ، عليه نفحة من روح بلال مؤذن الرسول .

وغنى الشيخ سلامة فى بداية حياته الفنية بتلحين (السلامات) ثم رتل الألحان للجوقات .

وحين اختلف مع الفرق التمثيلية كون لنفسه فرقا مستقلة بل كون لنفسه دارا سماها (دار التمثيل العربى) .

وعلى أرض شريف بالقاهرة ـ وكان مشجعا للمسرح ـ ظهرت أول فرقة مصرية منظمة ـ وبمال شريف ـ على رأسها الشيخ سـلامة حجازى .

حتى اذا كان عام ١٨٩٩ هدم مسرح أرض شريف وشيد مكانه مسرح حديث مزود بالكهرباء .

والتفت المصريون الى المسرح وكعادتهم اذا تحمسوا لشىء كتب له مولد جديد ، فدخل الحقل المسرحى منهم وجوه على مختلف المستويات فكادحون وأغنياء ومحترفون وهواة ومثقفون وموظفون فعبد الرازق عنايت المفتش بوزارة المعارف وعبد الرحمن رشدى المحـامى ، ومحمد تيمور الثرى والتشريفاتى بالقصر .

وظهر على مسرح الكتابة المسرحية مصرى آخر هو اسماعيل عاصـم المحامى الذى كتب روايات (صدق الاخاء) ـ (حسن العواقب) ـ (هناء المحبين) .

تقول روز اليوسف فى مذكراتها عن تلك الفترة ، ان هذه الروايات لابد أن يكون بطلهـا مطربا ، ولابد أن يغنى المطرب فيهـا بضـع قصائد لا علاقة لها أبدا بموضوع الرواية .. بل لمجرد اجتذاب الناس الذين كانوا لا يشهدون الا اذا كان فيه « مغنى ») .

وعلى الرغم من شيوع الروايات الغنائية فى البداية فان فرقة الشيخ سلامة حجازى لم تكن تضم فرقة موسيقية أو حتى آلات وترية تفتح له باب النغم .. ولم تكن بالفرقة مطربة ترد عليه فى الالحان الثنائية .. واذ عثر على هذه المطربة بعد ذلك فى شخص (لبيبة مانيلى) استغنى عنها وألغى جميع المقطوعات الثنائية منفردا بالغناء وحده .

وحين ضم سنة ١٩٠٩ الى مسرحه فرقة عبد الحميد على الموسيقية قصر مهمتها فى حفلاته على عزف مقطوعات خلال الفصول التى كان يحلو له أن يختمها بفصل مضحك لا موضوع له ولا هدف منه الا (الاضحاك) لا غير ترويحا وترويجا . ومن باب الترويج أيضا كان الشيخ سلامة يزج بالأغانى فى مسرحياته حتى الدرامية العنيفة مثل هملت وعطيل بل كان يزج فيها منولوجات الوعظ والارشاد مثل منولوج (فتى العصر) (فتاة العصر) .

ويبدو أن تقليد (الفصل المضحك) انتقل من فرقة الشيخ سلامة ورواياته الى فرقة عكاشة .

ومن طرائف التمثيل فى ذلك العهد أن المسرحية كانت احيانا تختتم باستفتاء غنائى عن الرواية المعروضة . فقد ختمت مسرحية (البدر لاح) لعبد الحميد كامل بهذا الاستفتاء :

مش بشرفكم وبذمتكم الروايـــة دى جت على كيفكم

قولوا الحق يا أيـوه يا لا ما حدش راح يزعل منكم

وكانت بداية القرن العشرين بداية كبيرة للمسرح المصرى عمادها جورج أبيض وعبد الرحمن رشدى المحامى وعزيز عيد ونجيب الريحانى وعمر وصفى وأحمد فهيم وأمين صدقى ومحمد بهجت وفؤاد سليم وعبد العزيز خليل ومحمد عبد القدوس ومليا ديان ومرين سماط وايريز ستاتى وألماظ ستاتى وسرينا ابراهيم وصالحة قاصين واستر شطاح واحسان كامل وغير هؤلاء .

ومن بين هؤلاء كون جورج أبيض فرقته التى عملت على مسرح برنتانيا القديم) ـ الذى يحل محله الآن محل شملا بشارع ٢٦ يوليو .

وكان جورج أبيض قد عاد من فرنسا عام ١٩١٠ . واحدثت فرقته

ثورة فى المحيط الفنى بروايات (أوديب) و (لويس الحادى عشر) و (عطيل) حتى ليعد أحد الكتاب سنة ١٩١٢ التى عرضت فيها هذه الروايات (أنجح المواسم اطلاقا فى تاريخ التمثيل العربى) ٠

وكون سلامة حجازى على الرغم من الفالج فرقة مع جورج أبيض باسم (أبيض وحجازى) على مسرح « برنتانيا القديم » ومسـرح « الكورسال » ـ مكان داود عدس عماد الدين ـ وقدمت روايات :

صلاح الدين ـ شهداء الغرام ـ الافريقية ـ الولدان الشريدان ـ وهى آخر رواية مثلها سلامة حجازى ٠

وكان لانضمام عبد الرحمن رشدى المحامى الى المسرح وفؤاد سليم الأديب الشاعر أثر كبير فى جذب الهواة الى هذا الفن فتقاطروا عليـه وألفوا فيما بينهم جمعيات تمثيلية ٠ من أظهرها (جمعية أنصار التمثيل) وتكونت من : محمد عبد الرحيم ـ ومحمد تيمور ـ واسماعيل وهبى ـ محمد عبد القدوس ـ فكرى أباظة ـ محمود مراد ـ سليمان نجيب ـ داود عصمت ـ ابراهيم رمزى ـ دكتور عبد السلام الجندى ـ زكى طليمات أحمد رامى ٠

ولكن هؤلاء الهواة لم يتقبلهم المجتمع ، مجتمع السراة ، بسهولة حتى ان السلطان حسين كامل الذى شاهدهم على مسرح الأوبرا فى رواية (عزة بنت الخليفة) ثار لرؤية محمد تيمور على خشبة المسرح والتفت الى أحمد تيمور باشا غاضبا يقول :

ـ جرى ايه يا باشا يصح ان ابنك يعمل أراجوز ، جرى ايه لأولاد الذوات ؟

واستمر السلطان يهدر كالجمل ، والرجل العالم مطرق :

ـ اذا كنت مش قادر عليه فأنا أقدر عليه ولا يمكن أن أسمح لأولاد الباشوات بمثل هذا العبث ٠

وغداة الحفلة أصدر مرسوما بتعيين محمد تيمور (تشريفاتى) بالقصر السلطانى ٠

ولكن (محمد تيمور) استقال من منصبه ، ولم ينصرم عام ، عائدا الى الأدب والفن مكونا جمعية جديدة سميت جمعية رقى الأدب والتمثيل ،

من أعضاء جمعية إنصار التمثيل التى انحلت عقب الفضبة السلطانية المصرية أو التركية ، كما ضمت من الأعضاء الجدد : مصطفى فتحى ، دكتور مصطفى حمودة ، دكتور حسين فوزى وغيرهم ٠

ومضى الهواة على الطريق ٠٠ واتسع نشاطهم لحفلات الكونسيرت التى كانت تضم منوعات تمثيلية تهيىء فرص الظهور لأكبر عدد ممكن منهم ، وفتح لهم النادى الاهلى الذى احتضن (الوطنيات) من كل لون ، صدره وبابه ، فأقام الحفلات بصفة منتظمة ٠

وعلى طريقته فى اخراج النجوم الرياضية ، أخرج من النجوم الفنية : محمد عبد القدوس ويوسف وهبى وحسن فائق وغيرهم ٠

ازدهى النجاح جورج أبيض فضم اليه ، فرقة موسيقية وترية بقيادة عبد الحميد على الذى كتب له بعد ذلك النوتة الموسيقية لالحان الروايات مما وضعه لها سلامة حجازى ٠

كما ضم جورج أبيض الى فرقته أيضا بعض الراقصات الأجنبيات ، واستحدث جورج الاعلانات رصع بها الجدران ووزعها باليد فى كل مكان ٠

حتى البرنامج المطبوع أخذ به جورج أبيض ٠

كما قام عزيز عيد لأول مرة بالاخراج فى تاريخ المسرح المصرى ٠

والدكتور الراعى يروى عن السيدة فاطمة رشدى زوجة عزيز عيد أنه كان أول من استخدم حيلا فنية كثيرة رفعت من فن الاخراج ولفتت النظر الى اهميته كعنصر ثالث الى جوار المؤلف والممثل ٠٠ فبنى عزيز عيد جسرا حقيقيا فى مسرحيته (الولدان الشريدان) ٠ وبنى الديكور المسرحى على عربات كانت تسحبها الى المسرح رمته وذلك فى مسرحية (الجريمة والعقاب) وبث ممثليه فى قاعة المتفرجين ليصعدوا منها الى الخشبة فى مسرحية (يوليوس قيصر) ٠

ووضعت للمسرح المصرى ــ لأول مرة ــ لائحة تقول :

المادة الأولى :

يوضع المسرح تحت رقابة السلطات المحلية أيا كان مالكه ٠ وكل من يضمن تمثيله أو حواره شيئا مما يمس الاحترام الواجب أداؤه للجمهور يحاكم ويوضع فى السجن عقب انتهاء التمثيل مباشرة ٠

المادة الثانية :

اذا أثار شخص ما ، ضجة ، أو قام بما يعكرصفو الهدوء العـــام لسبب أو لآخر يطرد حالا الى الخارج ، هذا فى المرة الأولى واذا كرر فعلته هذه يمنع نهائيا من دخول المسرح • وهذا النظام يطبق على الأفـــراد الذين يقصدون احداث شغب •

المادة الثالثة :

يمنع التدخين منعا باتا • وكل من يخالف هذا الأمر يطـــرد الى الخارج •

المادة الرابعة :

يمنع الصفير ، واحداث الأصوات بالعصى أو الأرجل والتشويش منعا باتا ، ويطرد المخالفون الى الخارج •

المادة الخامسة :

فى الحالات غير المبينة ، وغير المنصوص عليها ، تتخذ الاجراءات اللازمة بحسب نوع المخالفة •

المادة السادسة :

ينبغى أن يتخذ ثمانية من الجنود و (شاويش) مراكزهم داخـل المسرح لتنفيذ الأوامر التى يصدرها مدير الشرطة •

جمهور المسرح :

جمهور المسرح باب وحده ، وقبل أن أتحـــدث أعرض وصف المويلحى له فى (حديث عيسى بن هشام) لاتفاقه مع التسلسل التاريخى فقد وصف جمهور مسرح القرن التاسع عشر بأنه :

(اخلاط من الطبقات اختلفت أزياؤهم ، واتفقت أذواقهم وأهواؤهم وعلا ضجيجهم وصياحهم ، وكثر لعبهم ومزاحهم سبا وشتما ، ولكزا ولكما ، ثم يتمايل بعضهم على بعض ويضربون بعصيهم وأرجلهم ظهر الارض ، رجالا وغلمانا ، شيبا وولدانا ، متظاهرين بملل الاصطبار ومطالبين برفع الستار) ص ٢٧٣ ، ثم فاصل وصفي للمقاصير ومس فيها من الجميلات ثم النظرات والاشارات (وفوق أعلى الشرفات أقوام وأى أقوام ، متزاحمين أكواما على أكوام ، كأنهم فى سوق من أسواق الانعام ، لا ينتهون فيه عن الشجار والخصام) ص ٢٧٤

ويصف الممثلين فى القرن ١٩

ارتفع عن الملعب ستره المسدول ، وظهر فيه أمامنا طائفة من الممثلات والممثلين ، ما بين ملحنين ومرتلين ، على طريقة يمجها السمع ، ويعافها الطبع ، وبكلام مبهم ، والفاظ لا تفهم ، كأنهم حداة فى مفازة ، أو سعاة فى جنازة ، وهم فى أزياء متعاكسة وأشكال غير متجانسة ، وثياب تنافرت ألوانها ؛ على أشخاص تباينت أوطانها ؛ وظلوا يعبثون بالأناشيد والتلاحين ٠٠) ص ٢٧٤ ٠

(لقد سئم الباشا وأحسب كثيرين احسوا معه الشعور نفسه من منظر المراقص والملاعب ، فما أشبه بعضها ببعض ، وما أجمعها لأشتات النقائض والرذائل على اختلاف أوضاعها) ص ٢٧٦ ٠

وفى بدايات القرن العشرين قبل الحرب العالمية الاولى كان جمهور المسرح جمهورا محدودا غالبيته العظمى من الرجال ٠ اما السيدات اذا حدث أن ذهبن الى المسرح فكن يشاهدن التمثيل من مقصورات خاصة مغطاة بالستائر حتى لا يبعدن كثيرا عن الحرملك ، وحتى لا تلمحهن عيون النظارة ٠

وتعزى قلة الجمهور العددية الى نوع المواصلات فى ذلك العهد فلم تكن السيارات الخاصة معروفة بعد أو حتى العامة ٠ كان الترام وحده سيد الموقف ٠ وكان ينتهى فى العاشرة مساء ٠ فكان الاثرياء يحضرون ــ اذا حضروا ــ فى عربات خاصة أو أجرة ، أما سائر الشعب فيحضر على ظهور الحمير ٠ فكانت ساحة المسرح تعج بالحمير والمكارية ٠

اما طرائف المسرح بالأقاليم فكثيرة لعـــل اهمها التحية التقليدية لجمهورها فكان الشيخ سلامة حجازى يظهر مستهلا بقصيدة مطلعها :

مرحبـــا بالســـادة النجب ســـادة العـــرفان والأدب

وآخر بيت فى هذه القصيده التحفة :

فلتعش مصـــر ونهضتها وليعش منيلـــا العـربى

وللشيخ سلامة فيراط فى هذا البيت فله الحق فى تغيير اســـم مصر باسم المدينة التى يمثل فيها وان أحل بالورن رض الخليل بن احمد ام كره .. مادام يجبر خاطر طنطا والزقازيق والواســـطى والفشن ... الخ

اما أسعار الدخول فكانت :

٥ قروش أهل التياترو وتتضاعف فى المقاعد ضعفين أو ثلاثة . فاذا اراد المشاهد (بنوار أو لوج) فعليه دفع نصف جنيه أو حتى ٦٠ قرشا

ومن طرائف الصــــحافه الفنيه فى هذه الفترة ، ثورة مالله عنى كتب بجريدة المؤيد (١٩٠٦/١٠/١٤) محتجا على المسرح لأن الخــدم الذين يقومون بخدمه النساء هم من الرجال وهذا لا يليق أبدا .

بل هذا فى نظره (هو ما يحمل كثيرا من الرجال المصريين أرباب العائلات على اعتبار ذهاب نسائهم فى هذا المجتمع شائنا معيبا) .

اما السينما فى ذلك العهد ـ اواخر القرن التاسع عشر وأوائـل العشرين .

فقد ذكر المرحوم احمد شفيق باشا فى كتابه (مذكراتى فى نصف قرن) ان أول دار للسينما فى مصر كانت فى (حمام شنيدر) بالقرب من معبد شبرد القديم . وقد افتتحت فى ٢٨ يناير سنة ١٨٩٥ وكانت تعرض مناظر من اختراع المسيو لوميير الفرنسى . وكان يطلق عليهـــا (الفوتوغراف المتحرك) . وقد تهافت عليها الجمهور جريا وراء الجـــديد الغريب . وكانت أسعار الدخول ٥ قروش للكبار وقرشين للأطفال .

دار السينما الأول هذه تحولت يوما الى مسرح ثم الى كباريه عملت

به أشهر الفرق الاستعراضية والمسرحية لفترات ثم تعود بعد كل منها الى دار للسينما .

وأثناء هذا كله حملت أسماء عدة فالفوتغراف المتحرك ، وسينما الشعب بكسر الشين ، ومسرح ريجال ثم سينما أوديون .

ثم اشتعلت الحرب .

واذ أعلنت الاحكام العرفية سنة ١٩١٤ تحدد السهر وتكبل المسرح والصحافة . فعمل المسرح بالنهار وأقام لأول مرة الحفلات النهارية (الماتينيه) .

وامتلأت مصر بخليط من الجنود من كل لون وشكل . ولم تعد القاهرة المدينة التى تعرفها وينسب اليها أهلها كل جميل من اعتزاز بها فاذا كان الذوق كما يقولون متعلقا بباب النصر . فان الهوى والعبث كانا يعيشان فى عماد الدين حيث أجهزت الكباريهات والحانات على المسرح . وانكمش الفن وانكمش المصريون فى بيات شتوى ينظرون الى الجنود السكارى ويحلمون « بالمخلص » عقيدتهم التقليدية . ولم يبق فى الميدان الا فرقة جورج أبيض تبدىء وتعيد فى الفرسان الثلاثة : أوديب وعطيل ، ولويس الحادى عشر .

أما عزيز عيد فكان يحلم بالرواية المصرية الصميمة النابعة من أعماق الأرض الخضراء . كان يسير وحلمه معه حتى التقى فى طريق الحياة بأمين صدقى (١٩١٧) . فالفا دراما مصرية ريفية من فصل واحد اسمها (القرية الحمراء) .

وعمدة القرية الحمراء هو الذى أوحى الى نجيب الريحانى بعد قليل شخصية العمدة الكوميدية كما أوحت اليه (لوسى) اسمه فقد كانت تناديه « كشكش » .

والحقيقة أن شخصية « العمدة » لا أدرى الى من ننسبها ... الى المويلحى فى حديث عيسى بن هشام حيث طاف به القاهرة ، أو ننسبها الى الريحانى فى مسرحية (كشكش بك) .

وعلى الرغم من كابوس الحماية والاحتلال والجنود وثقل وطأة هؤلاء جميعا .. كان فى القاهرة ما بين ١٩١٤ ــ ١٩١٩ حرية فنية

تكرس نفسها للمسرح وينتزعها عزيز عيد بأحلامه العريضة وأعماله العريضة أيضا · لم يكن فى القاهرة فى ذلك الوقت الا مسارح معدودة لا تبلغ أصابع اليد الواحدة حتى عز على عزيز عيد أن يجد مسرحا حين كان يقوم بتمثيل رواية (خلى بالك من اميلى) فقرر أن يستأجر صالة (جاراج) فى شارع الفجالة ، فيها ما يشبه خشبة المسرح غير أنها مكشوفة ليس لها سقف ، وأرضها واسعة ليس فيها مقاعد ، ونشر فى الاعلانات عن الرواية (ان على كل مشاهد أن يحضر معه مقعدا ليجلس عليه) ·

ولعله كان أول مسرح فى الهواء الطلق عرفته مصر ·· وتروى فاطمة اليوسف فى مذكراتها أن كل واحد من المتفرجين كان يجيء بخادم يحمل له مقعدا أو (فوتيلا) ضخما من الفوتيلات المغطاة بالتيل الأبيض التى كانت شائعة فى البيـــوت فى ذلك الوقت ، فاذا جاءت أسرة بأكملها احتاجت الى حمولة عربة من المقـــاعد والفوتيلات ! فكان هذا المسرح من أعجب المسارح فى تاريخ التمثيل ·

طرائف المسرح :

ومن طرائف المسرح فى ذلك الوقت الذى كان يقوم على الروايات المترجمة أن جورج أبيض حين انضم الى أسرة رمسيس تقرر أن يقـوم جورج وممثلون بتمثيل رواية : (سيرانو دى برجراك) · وهى روايـة تحتوى على حوالى ستة عشر منظرا · وهى تحتاج الى أداء محكم سريع واستعداد فنى كامل لتغيير المناظر فى وقت قصير · وهو مستوى لم يبلغه المسرح المصرى فى ذلك الوقت · فكانت النتيجة أن استمر تمثيـــل الرواية فى الليلة الاولى من الساعة التاسعة مساء حتى الساعة الرابعة· فى الفجر ·

ونام الكثيرون منكمشين من البرد ، فلما خرجوا وجدوا القاهـــرة قد استيقظت مع تباشير الصباح ٠

وفى اليوم التالى اجتاحت القاهرة موجة من الطلاق بسبب هـــذا الحادث الفنى الفريد ٠

وكانت سنة ١٩١٥

والقى عزيز عيد قنبلة (فنية) اذ أعلن أو بشر بظهور أول ممثلة مصرية ٠ وبسرعة فوسفورية ارتسمت علامات الاستفهام على الوجـــوه والشفاه ولج الفضول فى الموضوع فهذه فرصته وما هى الا أيام وظهرت الاعلانات تذيع اسم منيرة المهدية كاول ممثلة مصرية ٠

انها هى ٠٠ لقد كانت منيرة مطربة وراقصة فى المقاهى فى ذلك الحين أى لم تكن غريبة على الناس ومع هذا اكتظ المكان فقد أراد النظارة أن يشاهدوها ممثلة ماذا عساها تصنع ؟

وكان دور منيرة الأول غناء قصيدة الشيخ سلامة حجازى « ان كنت فى الجيش » ألقتها بصوت فنى غنى جميل فسر الناس ومضت منيرة تلقى كل ليلة قصيدة من قصائد الشيخ سلامة حجازى والناس يتزايدون ٠ وابتسمت منيرة فى خبث وقررت أن تنسحب من فرقة عزيز عيد وتكون فرقة خاصة بها تحمل اسمها ٠ وأخـــذت منيرة تمثل روايات الشـــيخ سلامة : صلاح الدين ــ روميـــو وجولييت ــ عائدة ــ على نور الدين ــ صدق الاخاء ٠

ومن الطريف أن منيرة ظلت تصدر اعلاناتها بهذه اللافتة :

(أول ممثلة مصرية) وكان اللقب حلا لها ٠

ولكن (أول ممثلة مصرية) هذه لم تمثل اطلاقا ، دور سيدة ، وانما كانت تقوم بأدوار الشيخ سلامة وتلبس لباس الرجال بل وتنتضى السيف ٠ ومع هذا شجعها الجمهور وأقبل عليها من حلاوة الصوت ٠٠ وحفزها النجاح أن تمثل رواية خاصة بها فتطلعت الى رواية (كارمن) التى عربها لها فرج أنطون وبذل فيها ما سمح له أن يسميها (اقتباسا) وكانت هذه هى المرة الأولى التى يستعمل فيها لفظ (اقتـــباس) فى

الوسط المسرحى ، وتداول بعد هذا ، وقامت منيرة بدور كارمن فكانت المرة الأولى التى تقوم فيها بدور سيدة ٠

وفى ذلك الحين ، عاد الى الظهور ، فن (خيال الظل) الذى كان مقهى « الابيه دى روز » يقدمه ضمن النمر المختلفة واشتغل بخيال الظل فى ذلك المقهى الريحانى وستفان روستى ٠

وكان اسم الرواية يتبعه تعريف تفصيلى ٠

مبروك عليك ٠

كازينو دى باريس ٠

جوق الممثل المجيد (محمد أفندى بهجت)

والرواية من تأليف : الروائى المصرى عبد الحميد أفنـــــدى كامل ٠

ومقدماتها الموسيقية وألحانها من تنغيم : كامل الخلعى

وكاتب نوتتها : محمود أفندى خطاب ٠

ومن الطريف أن يشمل التعريف أيضا اسم صاحب الطلب كأن يقول (ارادة الاديب الماجد » محمود بك جبر ») ــ وهو زوج منيرة المهدية ــ وذلك فى رواية أدنا أو أكسـير الحب ٠ كما كانوا ينصـــون على الاقتباس فهذه الرواية اقتباس (فرح أفندى انطون)

والأديب الماجد والكاتب المتفنن ترمز الى حب الالقاب ٠ وكان هناك ظاهرة أخرى طريفة هى (الدعاء) فيقولون تغنى بها فلان حفظه الله ٠

وكثيرا ما كان العاملون فى الحقل المسرحى يتعاونون ويتساندون ولكنهم كثيرا أيضا ما كان النجاح يفرق بينهم اذ كان كل منهم يعزوه الى شخصه الكريم فيبدأ يملى شروطه ٠ وهو عيب فينا مزدوج : عيب الناشىء الذى لا يعرف أن انفصاله قبل الاوان يضيعه ، وأن ما يصنعه مع الآخرين لا يستطيع أن يصنعه بمفرده ٠٠ وعيب صاحب العمل القديم الذى لا يعرف أن كل انفصال عنه يضعفه ، وأنه من الخطأ أن يتغاضى عن حقوق الناشئين ٠

* * *

شارع عماد الدين

كان شارع عماد الدين فى القرن التاسع عشر أرضا زراعية وكانت فيه حديقة كبيرة يملكها (جلال باشا) الذى سمى به شارع جلال الذى أصبح الآن شارع زكريا أحمد وهو اسم أقرب الى طبيعة الشارع الفنية.

ومن الطريف أن الحديقة كانت تسقى من بئر عميقة مكانها الآن (مسرح ريتس) .

وكان فى المنطقة التى تحمل اليوم اسم نبى الوطنية المصرية محمد فريد ، سيرك يونانى يعرض ألعابا بهلوانية مثيرة .

وعلى مقربة من عماد الدين حى الازبكية بملاهيه ومغانيه منذ أيام الفرنسيين .

وفى طلائع القرن العشرين انتشرت فى الشارع العتيد ، الملاهى والمسارح وخاصة أثناء الحرب العالمية الأولى ومن أشهرها مسرح « كازينو دى بارى » (مكان استديو مصر) . وكانت صاحبته مدام مارسيل تستقدم له أشهر الفرق الاستعراضية وأجمل الراقصات الباريسيات فجذبت رواد الأزبكية وملاهى (ألف ليلة) و (نزهةالنفوس)

وعملت فى مسرح مدام مارسيل هذه فرقة الممثل الكوميدى مصطفى أمين الذى أتى بعلى الكسار من مسرح الكلوب العصرى بسيدنا الحسين ثم أشركه معه فى التمثيل فى أول رواية قدمها وهى رواية (حسن أبو على سرق المعزة) . وهو الذى خلع عليه شخصية (البربرى فى باريس) التى أذاعت شهرته وارتفع أجره بسببها الى ٦٠ جنيها فى الشهر وطمع بعدها الى اطلاق اسمه على الفرقة .

وكانت (مارسيل) من معالم شارع عماد الدين . تلك الفرنسية البدينة القصيرة التى كان لها حزم قادة الحرب فى المعارك . كانت تعيث الفساد فى مصر فتستجلب النساء الجميلات من أنحاء أوربا لتنصبهن على الموائد شباكا ينفذن (شريطة الفتح) بدقة واقتدار لتتقاضى هى الثمن أضعافا . فاذا سافرت الى فرنسا أنفقته على فقراء قومها وقريتها حتى أطلقوا عليها - هناك - اسم القديسة مارسيل !

ولكن هنا .. كانت تستحق اسما آخر

وعلى مسرح الكورسال مثلت فرقة جورج أبيض رواية (فيروز شاه) وهى أول رواية غنائية من تلحين سيد درويش .

وعلى مسرح الكورسال مثلت فرقة عبد الرحمن رشدى . أما عزيز عيد فقد كان يعمل على مقربة منها على مسرح (لابيه دى روز) خلف مسرح برنتانيا القديم .

وكذلك فرقة رتيبة وانصاف رشدى وسعاد محاسن ، وعلية فوزى ، ونعيمة المصرية .

كان مسرح الكورسال فى ذلك الوقت من المسارح المعدودة وهوالذى كان مسرحا لخيال الظل والالعاب البهلوانية وأشهر نمرها (القرد العجيب) مسيو جوزيف الذى كان يركب الموتوسيكل ويأتى بالعجائب .

كما عملت عليه فرق تمثيلية واستعراضية استقدمها من اوربا مسيو (دلبانى) .

وعلى خشبة الكورسال رقصت أنا بافلوفا أثناء طوافها حول العالم ومثلت سارة برنار فى أواخر أيامها ، كما مثل الممثلان الايطاليان المشهوران زاكونى وامرينى نوفيللى أشهر أدوارهما ، ومثلت فيه منيرة المهدية مسرحية كليوباترة ومارك انطونيو .

وكانت منيرة لنساء العصر موديلا يقلدن فساتينها وخلاخيلها أيضا .

وقد جمعت ثروة طائلة حتى تقدمت يوما لشراء حصة فى شارع عماد الدين . أقصد عمارات الخديوى الكائنة بهذا الشارع .

وعلى مسرح كازينو دى بارى مثلت فرقة نجيب الريحانى سنة ١٩١٨ ومعها عزيزعيد وأمين‌صدقى وأمين عطا الله وسيد درويش وابراهيم فوزى وكميل شمبير ، روايات استعراضية اشتهرت فى ذلك الوقت مثل (خلى بالك من اميلى) و (دخول الحمام مش زى خروجه) و (خلى اتى أمانة عندك) و (كشكش بك) و (حمار وحلاوة) ثم (العشرة الطيبة) . وقد كان أغلبها من اخراج عزيز عيد وتاليف أمين صدقى وتلحين كل من كميل شمبير وسيد درويش وابراهيم فوزى .

ثم اختلف أمين صدقي مع الريحاني فشرع يكتب للكسار بينما استعاض عنه الريحاني ببديع خيري · وكان المنافسان أو الفرقتان تبديان رأيهما احداهما في الأخرى في عناوين الروايات · التي تحمل السباب والجواب عليه مثل :

(راحت عليه) ، (ولو) ، (ورن) ·

وفي سنة ١٩٢٣ تألفت فرقة رمسيس وعملت على مسرحها المعروف الآن باسم ريتس ·

وعلى أثر ظهورها ظهرت الصحف الفنية والنقاد الفنيون لأنها كانت تجمع كبار النجوم مثل : يوسف وهبي - عزيز عيد - روزاليوسف زينب صدقي - حسين رياض - أحمد علام - مختار عثمان - فتوح نشاطي - محمد عبد القدوس - زكي طليمات - فاطمة رشدي - أمينة رزق - علوية جميل - عزيزة أمير - فردوس حسن - أمينة محمد ·

كان هناك سبع صحف فنية غير الصفحات الكاملة للفن في الصحف اليومية الكبرى ·

وكان للنقاد الفنيين في النهضة المسرحية دور لا يقل عن دور القائمين بها أنفسهم ·

لم تكن هناك سينما كما أشرت ولم تكن فنون الرسم ، وهكذا تركز النشاط الفني كله تقريبا في التمثيل المسرحي الجدي ·· واتجه النقاد والأدباء كلهم تقريبا الى الكتابة عن المسرح ·

وكانت كل جريدة أو مجلة تفسح للمسرح صفحة أو صفحات ، وتخصص كاتبا من كتابها اللامعين للنقد المسرحي · كان الأستاذ التابعي يكتب عن المسرح في « الأهرام » بتوقيع « حندس » · والأستاذ ابراهيم المصري يكتب في مجلة « التمثيل » · والاستاذ محمود كامل المحامي في جريدة (السياسة) ، ومحمد علي حماد في (البلاغ) ، وزكي طليمات في (المقطم) ، وعبد المجيد حلمي في (كوكب الشرق)·· وظل الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية الاسبق زمنا يكتب عن الفن في (روز اليوسف) أول صدورها ، كما كان الاستاذان ابراهيم عبد القادر المازني ومحمد توفيق دياب يكتبان أيضا عن المسرح من حين لآخر ·

وكان أديب مصر ابراهيم عبد القادر المازني من نقاد الفن في ذلك الحين . ومما يروى أن المازني كان مختصا بكتابة النقد الفني في جريدة (الأخبار) التي كان يصدرها المرحوم أمين الرافعي ، وحين مثلت فرقة رمسيس رواية (المجنون) نقد يوسف وهبي نقدا ساخرا لاذعا فخاطب عبد الخالق مدكور أمين الرافعي راجيا عدم نشر المقال .

وصمم المازني على الاستقالة من الجريدة ان لم ينشر المقال . وبعد مفاوضات طويلة ، عاد المازني ولكنه امتنع عن كتابة النقد الفني طيلة أيام فرقة رمسيس .

ومن نقاد المسرح الأساتذة حبيب جاماتي وجمال الدين حافظ عوض وفكري أباظة وحنفي مرسى الذي كان يوقع باسم (الأحنف) .

وفي بداية العشرينات بزغ في سماء المسرح نجم جديد تالق مع الأيام في السماء العربية كلها بل في سماء الفن المسرحي على المستوى العالمي .. وهو توفيق الحكيم الذي استهل تاريخه المسرحي سنة ١٩١٩ بالمسرحية السياسية « الضيف الثقيل » . وكان يعني بها انجلترا في مصر . وقد رفضت السلطات القائمة وقتئذ السماح بتمثيلها .. ثم كتب المسرحية الاجتماعية « المرأة الجديدة » سنة ١٩٢٣ فكان فيها من حيث النقد الاجتماعي ، امتدادا لصنوع وفرح أنطون ومحمد تيمور .

وانتشرت المسارح في الثلاثينات في القاهرة . وتركزت في شارع عماد الدين الذي كان يسمى شارع الفن كما كان يسمى شارع الغرام ومذابح الغرام وكان فيه مسرح عباس الذي كان قبلا سينما (الكوزموجراف الأمريكاني) أمام (الكوزمو) . وكذلك مسرح « الأجبسيانة » الذي عمل فيه الريحاني طويلا ثم أصبح مسرح برنتانيا وهو الآن سينما الكابتول .

ومسرح الماجستيك كان يعمل عليه الكسار .

ومسرح بديعة وقد عملت فيه ببا بعد ذلك .

ومسرح سميراميس وقد أنشأه أمين صدقي بعد خلافه مع الكسار .

ومسرح الهمبرا مكان سينما لوكس الآن

كما عاد الى الظهور فن (خيال الظل) واشتغل به الريحاني واستفان روستي .

ولكن المسرحية فى مطلع النهضة الحديثة سارت بخطى وئيدة حتى مسرحيات توفيق الحكيم الأولى بما فيها من دراما كانت تقرأ أكثر مما تمثل • ومسرحيات شوقى شقت طريقها بالشعر وتودد الشاعر الى التراث العربى أو المصرى • ثم عنصر الموسيقى والملابس •

اما مسرحيات الريحانى فقد نجحت من أجل العامية المصرية • على أن مسرحيات الريحانى أكثرها فرنسى الفكرة اقتبسها الرجل الموهوب ومصرها واجاد توزيع الأدوار ثم يأتى بعد هذا كله (شخصية الريحانى) وكان لها اثر كبير •

كانت المسرحية قائمــة على الاقتباس والتعريب كمسرحيات نجيب الريحانى وسليمان نجيب وبعض مسرحيات تيمور العصرية ، أو متمثلة التاريخ والأساطير كمسرحيات الحكيم وباكثير وعزيز اباظة •

هذا الى مسرحيات شعبية تشيع فيها الفكاهة والنكتة أو مسرحيات غنائية (أوبريت) مثل (العشرة الطيبة) •

ولكن المسرح الحديث ظل فترة طويلة يسير فى اتجاهين : الاتجـاه الكوميدى وعلى رأســه الريحـانى ويشــاركه فى التاليف وادارة العمل المسرحى نفســه بديع خيرى ، والاتجاه الميلودرام وعلى رأســه يوسف وهبى •

يواكب هذا محاولات لخلق فن مسرحى يستمد أصوله من التراث الدرامى العالمى فترجمت أعمال مسرحية كبرى الى العربية •

* * *

مقاهى القاهرة :

كان غير قليل من مقاهى القاهرة فى ذلك العهد أشبه بمنتديات ، (فقهوة الفن) يجتمع فيها نقاد الفن كما كان يجتمع الادباء ــ طه حسين ــ الحكيم ــ أبو شادى ــ د• ناجى ــ أحمد رامى ومدرسة أبولو ــ وكانوا ينظمون الشعر فى كواكب عماد الدين ، كما شهدت (القهوة) معارك

حامية بين النقاد وأصحاب الفرق المسرحية · ومقهى متاتيا أو مقهى السياسة الوطنية فقد كان يرتاده الأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول والعقاد والمازنى وحافظ ابراهيم أيضا وامام العبد والشيخ فهيم قنديل صاحب جريدة عكاظ ·

أما (القهوة التجارية) فى مدخل شارع محمد على فكانت منتدى للفنانين خاصة حتى لكانها نقابة لهم · وقد استقل بها اليوم فلول (حسب الله) ·

وفى نفس الشارع مقهى الكتبخانة اذ كان يقع أمام دار الكتب المصرية · حيث يتصدره حافظ ابراهيم · وفى أوقات العمل الرسمية يندو اليه موظفو الدار والأدباء والظرفاء فترى العين فيه الشاعر حسن القاياتى والشاعر عبد المطلب ومحمد البابلى والشيخ عبد العزيز البشرى وأحمد جاد وعلى راتب ·

وبار اللواء وهو مقهى الحزب الوطنى الذى يحمل اسم جريدته كان يتردد عليه مصطفى كامل وأخوه على كامل والشيخ عبد العزيز جاويش والصوفانى وأيضا داود بركات وأنطون الجميل ومحجوب ثابت وغيرهم من الأدباء والصحفيين ·

وينافس بار اللواء فى اجتذاب المثقفين والوجهاء بار الانجلو وبارتز ·

أما بار سان جيمس وبار صولت فكان أظهر جلسائهما أمير الشعراء · وتكتمل الحلقة فى العاشرة مساء بعد أن يصل شوقى فلا تنفض الا فى الواحدة مساء ·

ومن مقاهى الفن والأدب وسائر طبقات المجتمع فى الحقيقة ، خاصة فى رمضان (الفيشاوى) ·

وكان هناك فى شارع خيرت مقهى مرح يعلو فيه صوت ظرفاء هذا الشارع · ويستطيع السائر أن يميز صوت امام العبد وحسين الترزى وهما يتنادران ويتضاحكان والأخير من أساتذة أم كلثوم فى فن النكتة ·

وهناك قهوة البوديجا ، وقهوة بيروت وبوفيه الكوزمجراف وقهوة استراليا وقهوة دينالسكا ·

ومن المقاهي الفنية ، قهوة عثمان آغا المشهورة التي كانت في وسط غابة من الأشجار موضع حديقة الأزبكية الآن وبهـا اشتغل عبده الحامولى صغيرا لحساب المعلم (شعبان) ثم اجتذبه (المقدم) المغنى المشهور فى ذلك الوقت وألحقه بتخته • واستمر يغنى على الطريقة المعروفة عند محترفى هذا الفن من المصريين وقتئذ • واصلها يرجع الى رجل اسمه شاكر أفندى من حلب الشهباء آوى الى مصر فى عام ١١٠٠ هجرية حيث كان فن هذا النوع من الألحان فيها مجهولا فنقل اليها عدة تواشيح وبعض قدود ، كانت البقية الباقية من التلاحين التى ورثها أهل حلب عن الدول العربية •

أما مقاهي روض الفرج الخشبية فى حمى النيل وقربه فقد كانت تعج بالفنانين اصحاب الأسماء الكاريكاتورية وهى بأنسها الشعبى مصيف القاهرة للمتواضعين •

ومن بين هذا الزحام من المقاهى ، مقهى يهمنا الوصول اليه ، هو كافيه ريش ذات الرمال الحمراء والأمسيات الساجية والليالى الغنائية التى طالما أحياها صـالح عبد الحى والشيخ أبو العلا فتلميذته أم كلثوم التى جاءوا بها فى أثوابها العربية المتواضعة تنشد التواشيح يرددها وراءها أبوها وأخوها • ولكن صوتها وحده هو الذى كان ينفذ الى القلب ويسرى فيه رقيقا نقيا فضيا لا ينسى •

وكما غنت فى كافيه ريش ، وغنت فى كازينو البوسفور القديم ــ كما غنى عبد الوهاب أيضا ــ غنت كثيرا فى محـل سـانتى المشهور بطعامه الشهى وقصاده الارستقراطيين •

وغنت أم كلثوم فى النادى الأهلى وعلى ذوقه كانت تتحدد ثقتها فى أغانيها الجديدة • فاذا نجحت الأغنية فى النادى الأهلى نجحت خارجه •

الموسـيقى :

فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كان بمصر خمس مدارس لتعليم الموسيقى منها مدرسة الخانكة ، ومدرسة العزف بالنخيلة ، ومدرسة الطبول والأصوات ، ومدرسة الطبول بمصر ، ومدرسة الآلاتية بالقاهرة •

وقد أنشأ محمد علي هذه المدارس من أجل الجيش الذي كان يكيف انشاءاته كلها . على أن الجيش فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر بدأ يستبدل بالقطع الموسيقية الغربية قطعا عربية أى (الأدوار) .

وفى الوقت الذى اعتملت فيه الرغبة فى التغيير والتجديد اتصل عبده الحامولى فى رحلاته الى الاستانة بالموسيقى التركية واستطاع أن يدخل فى موسيقانا نغمات الحجاز كار والعجم غير أنه جدد فى التلحين والالقاء فعدل عن النواح والأنين . واتسمت ألحانه بالقوة بعد أن شاعت فى ذلك العصر المواليا المملة وما تبتدىء به من النداء (ياليل) وهذا التكرار الثقيل السقيم الذى يكرره المغنى للكلمة (حتى يولى الليل هاربا) .

وقد أخذ الحامولى فيما أخذ عن الموسيقى التركية عبارة (أمان ياللى) التى كان يرددها مرضاة لاسماعيل . وكان ينقل ترجمة الأغانى التركية الى العربية وينظمها الشعراء ، مثل موشح (بلبل الأفراح غنى أمان فى الرياض السندسى) مع بعض التصرف مساوقة للغزل العربى .

وعبده الحامولى كان نقطة بداية على طريق الموسيقى المصرية بعد أن كانت التواشيح التركية أو السورية هى السائدة .

أوجد عبده المذاهب والأدوار وغنى القصائد على (التخت) وأوجد (الكورس) الذى يردد ما يستحق الترديد والاعادة .. وظهرت البشارف التى يؤديها الموسيقيون .

وكان تخت الحامولى يتكون من الليثى والعقاد وسهلون واحمد حسنين وبركات ونخلة المطرجى (الحلبى) أكبر العازفين على القانون فى مصر . وكان لا يستطيع اللحاق بصوت الحامولى لقوته وكثة مقاماته وغريب تصرفه وسعة حيلته وبحة فيه وجلجلة تلمس المقامات الموسيقية كلها .

ومن طريف ما يروى أن المطرجى هذا أعياه مصاحبة الحامولى فى الغناء فامسك قانونه وطرحه أمام (عبده) وقال له : « خلاص يا سى عبده أجيب لك منين » .

ولم يكن المطرجى فى عجزه بأول فقد أعيا الحامولى أيضا القانونجى المشهور « محمد العقاد الكبير » .

ومع هذا كان الحامولى لا يجيد العزف على العود كغيره من مطربى العصر .

وللحامولى مدرسة من أعلامها : المنيلاوى وعبد الحى حلمى وأحمد حسنين وابراهيم القبانى والشنتورى وعلى عبد البـــارى وأحمد فريد ومحمد السبع ومحمد سالم العجوز وصالح عبد الحى وأبو العلا استاذ أم كلثوم ٠

ومما يثير الدهشة حقا أنه قد لمعت فى القرن التاسع عشر اسماء كثيرة منها : (محمد عثمان) وكان له طابع علمى فى لحنه فقد شرع فى جمع الفن الموسيقى وترتيبه ووضع نظام له ٠

كان عبده الموسيقى المرتجل وكان محمد عثمان المنظم ٠

نظم الأدوار والمذاهب ووضع نظام (البروفات) وكان حريصا على انتقاء أفراد (تخته) لدرجة أنه كان المطرب الوحيد الذى يصرف لفرقته مرتبات شهرية للمحافظة عليهم ولكى يكونوا جميعا معه فى أية حفلة ٠

كان يكثر من البروفات وكان يعلمهم حتى الموال الذى تعود الجميع على القائه عفو الساعة ٠ ومن يشذ من أفراد التخت بحركة لم يكن قد لقنها فى البروفة كان جزاؤه الفصل بل علقة ساخنة ٠

والغناء كما هو معروف أنغام (ووحدة) أو أوزان فكان محمد عثمان أول من وضع وأكثر من الأوزان الضابطة ٠٠ فاعجب الجمهور بهذا اللون الجديد ٠ واستطاع محمد عثمان ان يكون زعيما بفنه ونظامه الى جانب عبده الحامولى بصوته الذهبى ٠

بل ان الوحدة الموسيقية كانت تهز جمهور محمد عثمان هزا فيرقص عليها من فرط الطرب والاعجاب ٠

وكان للموشح أكثر من لحن ٠ فمن المالوف فى (سفينة الفلك) أن يعطيك موشح صبا ضربه مصمودى مثلا ثم يقول (وله تلحين آخر نيروز عجم ضربه مصمودى أيضا) ٠

ولصاحب السفينة أرجوزة بديعة فى آلات الطرب واللهو جمعت بين أطراف الجد والهزل والمرح واللهو ٠

ومحمد عثمان وعبده الحامولى نشآ فى « الفحامة » وهى مكان عند بولاق كان به مقاهى بلدية ٠ والأغانى اذ ذاك كانت تقال من صنف الموال على الأرغول والقانون والعود ٠ وكانت أماكن اللهو فى حديقة الأزبكية ٠

كان عثمان ينشد وهو صبى على الأرغول هذه المواويل · وكذلك عبده · أما من سبقوهم مثل الشنتورى وغيره فقد كانت نشأتهم بوساطة الانتشار على الذكر · وهذه الطريقة أدركها عبده اولازمها الشيخ يوسف حتى مات· وكانت طريقة شهرة الشيخ سلامة حجازى · ولازمت الشيخ على القصبجى طول حياته · أما أحمد صابر فكان يذهب ويتلقى هذا الفن من أفواه القائلين على الأرغول ثم ظهر بمظهر مغاير لهؤلاء · فاستبدل وحدة الذكر ونغمة الأرغول بوحدة (النقرزان) · ومنهم سعيد باشا ذو الفقار رجل القصر الذى كان يعزف على العود عارفا بالضروب والأوزان ·

ومن العوادين باشا آخر هو (السيوفى باشا) الذى كان يجيد العزف على الطنبور القديم ، ولا يخرج عن القواعد الحديثة قيد شعرة اذا جدد لحنا أو ابتكر نغمة ·

وأحمد الليثى الذى حضر الى مصر ولم يكن فيها تخت للآلات الوترية معروف سوى تخت المرحوم منسى الكبير · وآل منسى من الموسيقيين فى القرن التاسع عشر · فابنه قسطندى منسى وأخوه عبد الله منسى كان بارعا فى العزف على القانون ·

وفى تخت منسى ترعرع محمد عثمان (١٨٥٥ م) وان كان تلقى أصول الصنعة فى تخت على الرشيدى الكبير ·

ومن الملحنين محمود الخضراوى ·

واذا ذكر التلحين ذكر داود حسنى الذى كان له تخت خاص غنى عليه مدة طويلة ثم تفرغ للتلحين وابتكر فيه نغمة سماها بالزنجران وهى التى لحن منها دوره « أسير العشق » ·

وموسيقى داود حسنى موسومة بطابع شرقى جذاب ومصطبغة بلون مصرى بهى مشرق ·

ومن رجال القرن التاسع عشر الشيخ ابراهيم المغربى · وهو من علماء الأزهر · وقد علم الشيخ على محمود والشيخ درويش الحريرى علم النغمات ومعرفة المقامات وأصول الفن ·

كما كان الشيخ محمد عبد الرحيم المسلوب ، والشيخ عثمان الموصلى أستاذين فى الموشحات ·

وكان الأستاذ محمد السبع « القرن ١٩ ، والقرن ٢٠ » صاحب صوت رخيم • وكان تخته مؤلف من أعظم العازفين وهم الأساتذة عبد الحميد القضابى القانونجى ، وكريم الكمانى ، وعبده قصر العواد ، وجرجس سعد الناياتى • وفى القرن ١٩ غنى عبده الحامولى دور (كنت فين والحب فين) وهذا المطلع تستهل به تقريبا الأغنية الحديثة (انت فين والحب فين) •

وقد حفـل هذا القرن بحشد من الأصـوات الممتازة وأصـحابها • وشاعت فيه الأذكار وتعدد منشدوها •

ومن رجال القرن التاسع عشر المعلم شعبان ، والقبانى ، ومحمـد المقدم • وكان محمد المقدم وموسى اليهودى يحييان الحفلات وليالى الأفراح •

وكان محمد سالم العجوز منشدا جاوز حد الابداع • ويقول أهـل الفن من معاصريه ان صوته العظيم كان مكونا من ثلاثة دواوين كاملة • لذلك لم يستطع أحد من معاصريه مجاراته وكان منهم الشـيخ المقدم والشلمونى وخليل محرم والسيدة (ساكنة) الى أن ظهر عبده الحامولى والشيخ يوسف والشيخ محمد الشنتورى والمظ •

- أخذ الحانه عن الشيخ محمد المسلوب •
- زاد على عبده فى تلحين القصائد •
- تزعم أغانى التخت زمنا طويلا •

ومن طرائفه أنه كان يغنى وهو شيخ فوق المائة طقطوقة (البحـر بيضحك لى وأنا نازله أدلع املا القلل) • وقد توفى عن ١١٨ سنة •

وهـو من فريق الفنانين المشتغلين بالتجارة فكان يقـوم بمقاولات البناء ، وجمع من بناء البيوت ثم بيعها ثروة بددها •

ومن (شخصيات) القرن التاسع عشر (ساكنة) التى كانت تعمل عاملة مع البنائين لتعين أباها على معيشته • وهى أقدم المغنيات اللائى ظهرن فى مصر فى عهد عباس الأول • وظلت حتى ظهرت سكينة (المظ) فخافتها حتى انها ضمتها الى فرقتها لتحد من ظهورها وتالقها • ولكن المظ وجدتها فرصة سانحة للتدرب على فن الغناء • وكان أن اتقنته فحاربتها ساكنة حربا سافرة جعل « ألمظ » تترك لها الفرقة وتؤلف لها فرقة خاصة • وحميت المنافسة وخرجت منها ألمظ ظافرة بعد أن قضت على ساكنة •

وقد سميت سكينة « ألمظ » تشبيها لها بالماس وروائعه من بريق وقيمة • خفيفة الروح سريعة البديهة • وقد قرر عبده الحامولى الاستئثار بها فتزوجها •

وهناك ظاهرة فى القرن التاسع عشر جديرة بتنويه وهى ظاهرة أداء المطربين للآذان • ومن ثم وضعوا للآذان تقاليد موسيقية •

كان الآذان فى القرن التاسع عشر لونا طريفا من الموسيقى هى الموسيقى الدينية الاسلامية • لقد كان الآذان مجالا للفن الموسيقى حتى انه كان فى مسجد الحسين يتلى قبيل الفجر كل يوم بنغمة خاصة •

(وكان الآذان وما يتبعه من التسابيح والاستغاثات يتلى قبيل الفجر فى الحرم الحسينى على نهج خاص • فنغمة يوم السبت عشاق ، ويوم الأحد حجاز • أما يوم الاثنين فنغمته سيكا اذا كان أول اثنين فى الشهر ، وبياتى اذا كان ثانى اثنين ، وحجاز اذا كان ثالث اثنين فى الشهر وشورى على الجهاركا ، اذا كان رابع أو خامس أيام الاثنين • وكانت نغمة يوم الثلاثاء سيكا والأربعاء جهاركاه والخميس راست والجمعة بياتى •

وهذا يتطلب دقة ومهارة فائقتين لمن يأنس فى نفسه استعدادا لهما •

عبده الحامولى أدى الأذان أداء وصفه باق فيما كتبه عنه الأديب الشاعر خليل المطران فى كتاب (الموسيقى الشرقية والغناء العربى) •

وهكذا استعانت الأديان بالموسيقى • فالموسيقى الكنسية فى المسيحية ، والأذان وتجويد القرآن فى الاسلام •

ونلاحظ أن ابرع المطربين أداء أولئك الذين حفظوا القرآن قبل الغناء ومن هؤلاء (أم كلثوم) • وكان المرحوم سامى الشوا ــ وهو مسيحى ــ يقول كلما جاء ذكر الموسيقى الغربية بموجاتها الوافدة على الموسيقى العربية ، لا تخشوا على الموسيقى العربية شيئا ، فانها باقية مادام القرآن باقيا ومادام (الفقى) باقيا على وجه الأرض •

* * *

الغناء :

ـ أهم ما يلفت النظر فى أغانينا القديمة كثرة استعمال الفاظ : جانم ويالى وأمان وأخواتها بين كل مقطع وآخر من كلام الأغنية • والسبب استرضاء شراذم المماليك والأتراك والأرناؤوط الذين كانوا جاثمين على صدر البلاد قبل عصر محمد على •

وفى وقت الحملة الفرنسية أدخلت الكمان بين الآلات وقد كانت الربابة هى المستعملة فكانوا يستعملون الكمان كما كانوا يستعملون الربابة بأن يمسكوها من أعلى الى أسفل ثم تغير الحال بعد ذلك •

وفى عهد محمد على كانت الأغانى تنشد انشادا •

ـ وكان شعر ابن الفارض هو الذى يغنى وكذلك بعض مقطوعات فى مدح النبى عليه الصلاة والسلام •

ـ وكان المغنون المعروفون قبل عهد عبده الحامولى هم الشيخ رضوان والمحروقى الكبير والشيخ سالم المصرى وخليل محرم ومحمد المسلوب وحسين الساعاتى •

وقد وضع الشيخ عليش أول الأغانى التى تعتبر جدة أغانينا الحديثة ومنها أغنية :

شوفتوش على يا ناس لابس قميص ولباس
وبيلعب البرجاس على قنطرة عباس

وقطعة : « هوى هوى يا حبيبى هوى » •

وقد ألف الشيخ عليش قصيدة كانت تغنى كثيرا وفى مطلعها يقول :

(الزم باب ربك واترك كل دون) •

واشتهر من المؤلفين فى هذا العصر الشيخ حسن الآلاتى وابراهيم باشا المويلحى وبعض ضباط الجيش المصرى العظام كالهلالى •

وفى أوائل عهد الخديوى اسماعيل ظهر من مؤلفى الأغانى الشيخ محمد الدرويش وابراهيم بك الفريق ثم ظهر بعد ذلك الشيخ عبد الرحمن قراعة (المفتى الأسبق) واسماعيل أفندى صبرى (باشا) •

فألفت الأغانى التى تناسب العصر فى عهد الحامولى . فألف الشيخ محمد المسلوب (العفو يا سيد الملاح) و (البدر لاح فى سماه) و (فى رياض الجلنار) و (أنعم وزار زاهى الجبين) و (جمال خدك بيتعاجب بخاله ويسحر العين) .

فكان يغنى هذه الأدوار عبده الحامولى والشنتورى والشيخ يوسف المنيلاوى .

ثم ظهر محمد عثمان ولكنه أصيب بمرض نشأ عنه فقده لصوته ، ولم يكن علاج هذا المرض سهلا فى ذلك الوقت . وبعد أن شفى منه رأى أن يضع نظاما خاصا للغناء يستعيض به عن الصوت فكان هو أول واضع لأسس موسيقى التخت كما نعرفها وكما أشرنا عند الحديث عن الموسيقى .

وكان الشيخ محمد الدرويش من مؤلفى الأغانى ، وقد حدث أن قبل ذيل فستان زهرة هانم وهى تتخطر به فى الحديقة فقال على الفور : (بستان جمالك من حسنه أزهى وأجمل م البستان) ولكنها غنيت بعد ذلك بستان جمالك .

ومن مؤلفى الأغانى الشيخ ابراهيم الدباغ الذى غنى له الشيخ سلامة وعبده الحامولى ومحمد عثمان وغيرهم .

وممن غنى لهم الشيخ سلامة ، الدكتور ابراهيم شدودى طبيب العيون بطنطا وكان يميل الى النقد الاجتماعى ، ومن أزجاله المشهورة فى ذلك الوقت :

علم بناتك يا أبو البنات   ده الجهل يتلف أصحابه
والعلم احسن م الجنيهات   عمره ما يغدر أصحابه
والعلم طول عمره ما خان

والف اسماعيل صبرى أدوار (لسان الدمع وعهد الأخوة وجددى يا نفس حظك) .

كما وضع اسماعيل صبرى دور (عشنا وشفنا سنين ..) الذى كان يقوم بمهمة النشيد الوطنى فى تلك الحقبة . وفى حفل افتتاح قناة السويس وضع البارودى (يا مصر أنسك عال) وغناه عبده الحامولى فى الحفلة .

وكان الشيخ على الليثى متخصصا فى القصائد .

وظهر مؤلفان آخران هما مصطفى بك الفريق وشقيقه ابراهيم بك الفريق وقد وضع الأول دور (على روحى أنا الجانى) ٠

وكان الشيخ احمد عاشور أول من عمل الطقاطيق التى يسير عليها خلفاؤه الآن ٠ وكانت أولى هذه الطقاطيق :

« مالك يا حـــــلو مـــالك لمـــا شافوك فى الزمـــالك »
و « يا ســـيدى يالى معاك الـورد ادينى من فضـــلـك وردة »
و « يا خوخ يا ناعم يا مورد الخـــدين يا تمر حنا يا روايح الجنة »
و « شراب التوت نسانى القوة يا حلاوة » ٠

وغنى هذه الطقاطيق جميع المطربين والمطربات ٠

وفى أعقاب الحرب العظمى ظهرت طقاطيق الهىء المىء ٠٠ واشبكها واحبكها ٠ وما اليها ، حتى الشيخ سيد درويش وزكريا أحمد اشتركا فى تلحينها ٠

كان الغناء أداة من أدوات مجلس الشراب وكان المغنى كالساقى كلاهما يروى ٠٠ وقد وضع الغناء هذا الموضع الخلفاء الفاطميون والسلاطين الأيوبيون والمماليك نقـــلا عن العباسيين الذين أخذوا بدورهم المظاهر الحضارية عن الفرس ٠

وسار الغناء على هذا المنوال حتى القرن التاسع عشر حتى أنشىء حى الأزبكية للترفيه عن الجيش الانجليزى ٠

وخرج الغناء من البيوت والحفلات الخاصة الى الحياة العامة حيث قامت باسمه محلات ومقاهى مثل الالدراتو القديم الذى كان الناس يستمعون فيه الى مغنيات ذلك العصر : الصرفية ، واســماء الكمسارية ، وسيده اللاوندية ٠

والألدراتو الجديد كانت تغنى فيه منيرة المهدية وكانت تغنى قبلا فى مقهى (بير حمص) كما كانت تغنى فى (نزهة النفوس) ٠

أما ملهى ألف ليلة فكانت تغنى فيه لبيبة فخر القادمة من الشام والتى أخذت اسم (توحيدة) ٠

كانت المغنيـــات غالبا بدينـــات وأثوابهن حاسرة تبرق بالترتر

والقصب • وكن الى جانب الغناء يقمن بمهمة أخرى لعلها أهم فى نظر أصحاب الصالات وزوارها وهى الجلوس الى (الزبائن) على شريطة (الفتح) أى تقديم الخمر لهن بأثمان فاحشة •

وسمعت القاهرة لأول مرة المنولوج من المغنيتين اليهوديتين ليلى وقمر • وهو المنولوج السائر المعروف •

عصفورى يامه عصفورى   أرقص وأورى له أمورى

كان المغنى يمشى فى حاشية الغنى فعبد الحى حلمى يرى مع محمد باشا موسى الصعيدى فى (كافيه اجبسيان) •

كان المغنى في القرن التاسع عشر على حال وصفها المويلحى فى حديثه هى أقرب الى التهريج والسوقية منها الى الفن وحلاه • ويعلل الرجل هذا بأن المغنين (نشئوا في أمة يرى السواد الأعظم فيها أن صناعة الغناء من سافل الصناعات وأن فى ممارستها حطة ونقصا ، فصغرت لذلك نفوس المغنين ، وهانت عليهم صناعتهم ، ولم يروا فيها سوى أنها أداة للكسب والارتزاق على مثال بقية الصناعات فهم والحدادون أو هم والبناءون سواء بسواء • وذهلوا كل الذهول عن جمال الصنعة وجلالها ، وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفن وأدبه ، وصاروا يؤدونه كما يتفق لا كما ينبغى ، وكما يجىء لا كما يرضى) •

وكان جمهور السميعة أو (هيئة السامعين) كما يقول المويلحى : « عن يمينك جماعة من الأعيان والتجار تراهم مشتغلين بمراقبة كل داخل وخارج عساهم يحظون باشارة تحية ، أو ايماءة تعطف ، فهم لا ينفكون طول ليلهم فى قيام وسلام ، للتزلف الى الكبراء والحكام ، وحديثهم لا ينقطع عن التفاخر بمعرفتهم ، والتباهى بأقدارهم • وعن شمالك خليط من القضاة والمحامين لا ينتهون أبدا من المناقشة فى صنوف الدعاوى والقضايا ، ولا يستريحون لحظة من تفسير المواد وشرح البنود واستنتاج الأحكام ، ولا يترك المحامون القضاة الا بعد أن يحتالوا على استنفاد ما عندهم من الأفكار والآراء فى الوقائع المختلفة والمسائل المشتبهة ، لينتفعوا بها ، ويستندوا عليها فى مرافعتهم أمامهم ، ويتأكدوا بها من ربح ما لديهم من المشاكل والدعاوى • ومن قدامك طائفة من الأمراء والحكام لا هم لهم الا أن يجتلبوا توقير الحاضرين واحترامهم بالتأنق فى الجلوس ، والتكلف فى الشمائل والانتفاخ فى الثياب ، والفتل فى

الشوارب ، أجسامهم وقلوبهم غائبة ، وأبصارهم شاخصة ، وألبابهم ذاهلة ، على هيئة التماثيل والأصنام ، فاسألوهم ان كانوا ينطقون ، ولئن نطقوا بكلام فانما يدور على أن اليوم كان شديد الحر ، وأن أوان الرحيل عن مصر قد حل . ومن خلفك شـــلة من الأحداث ، لم تهذبهم الأحداث وشبان لم يربهم الزمان ، مرمى الغاية عندهم أن تكون ملابسهم على الزى الجديد ، وأن تفرغ اجسادهم منها فى قالب من حديد ، فهم لا يتحركون حركة الا بالف حساب خشية أن ينفرط نظـــــام الثياب ، فان قعدوا فكالقاعدين للمصور فى حفظ الأشكال والأوضاع . ولئن تجاوز حديثهم حديث الملابس والأزياء ، اشتغلت ألسنتهم بذكر النساء ، ورووا عن زوج فلان أو بنت فلان ، ما تنقبض منه النفوس وتقشعر الأبدان . ولم يبق غير هؤلاء من طبقات الحاضرين من يلتفت الى سماع الغناء ويتفرغ له الا طبقة الغوغاء من الخدم وغيرهم ، فكيف يتيسر للمغنين فى هذا المقام أن يتقنوا فى عملهم ، وأن يتفننوا فى صناعتهم ، أو يحافظوا على أدب المجلس ويراعوا حرمة الفن » .

وبعد صفحات قليلة وصف مجلس غناء مضحك فى ظل الحجـاب المزعوم .

ويختتم مجلس الغناء الختام التقليدى بالضرب وحلقات الملاكمة .

وقد رسم المويلحى للراقصة أيضا صـــورة منفرة وللحان معها ولتصرفها أثناء الرقص وبعده صورة يبرأ منها الفن والذوق . لم يكن الغناء فنا ولم يكن الرقص فنا بل كان عربدة وهامش لذة ومجلس شراب .

غناء القاهرة قبل عبده الحامولى طبل وزمر ومواويل كما ذكرنا فلما جاء عبده الحامولى حاول أن يجعل له أصولا وقواعد وزاد عليه فى هذا وان لم يشائه فى الصوت ، محمد عثمان .

ولكن هذا الصوت الذى لم تشهد القاهرة له ضريبا ، عاد فى حنجرة أنثوية تعرفت اليها العاصمة الجميلة فى أوائل العقد الثالث من القرن العشرين .

وبعد عبده ولد فى ١٧ مارس سنة ١٨٩٢ فى الساعة ٩ صـــــباحا بكوم الدكة طفل . وكان ابوه مهنته النجارة وحتى هذه كان لا يجيدها ولكن هذا الولد كان كسبا رائعا للعمال وأبناء البلد الذين استوحاهم الوليد الفنان .

كان سيد درويش يختلف الى الكنائس وهو مسلم ويتردد عليها بانتظام فى الآحاد لينصت الى الأرغن فى صفو عجيب • ثم يصدر عنها كما خرج الشريف الرضى من بغداد اذ يقول له السائلون : ما تشتهى ؟ فقال أعود •

وفى كل عود الى الكنيسة كان سيد درويش يرشف النغم حتى يرتوى من النبع القديم ، فالموسيقى الكنسية المصرية انما هى موسيقى المعبد الذى خطرت فوقه ايزيس ونفتيس ونفرتيتى ونشرتارى من سمراوات النيل •

وفى يوم سمع الناس فى نشوة لحنا جميلا •
(البحر بيضحك لى وانا نازله أدلع أملى القلل) •
وكانت نقطة تحول فى الموسيقى •

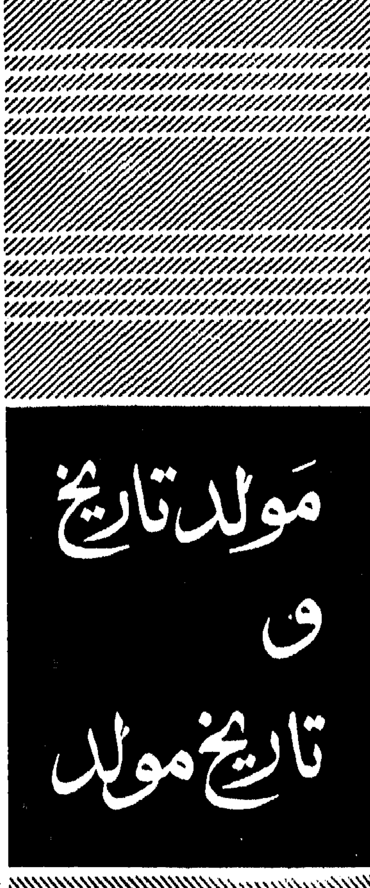
ورددت اللحن القاهرة الطروب وتعرفت الى صاحبه الذى سعى اليها فى تواضع ينشد مجلس كامل الخلعى وداود حسنى • وهنا سعى اليه هذه المرة نجيب الريحانى ليضع له الحان مسرحية (حمار وحلاوة) فتكون فرصة الى الابداع والتصوير الموسيقى •

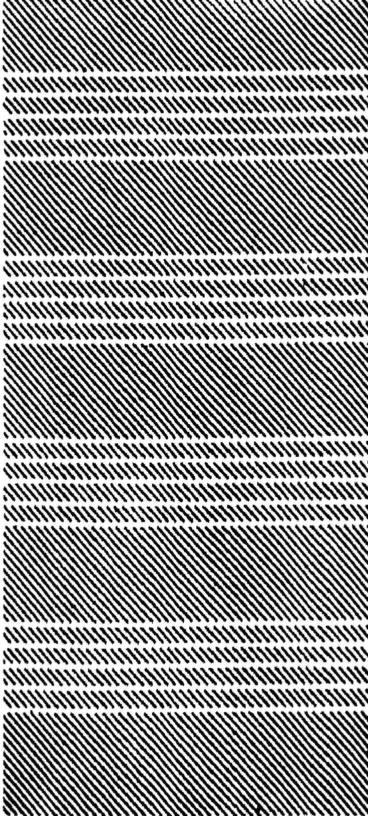
ومرة اخرى رددت القاهرة الألحان •• ثم اذاعتها ••

واذ يلحن مسرحية محمد تيمور (العشرة الطيبة) يتأكد معنى التحول وطريقه اذ تطوى القاهرة صفحة عبده الحامولى ومحمد عثمان لتفتح صفحة سيد درويش • ومازال كتاب الموسيقى مفتوحا على هذه الصفحة التى كثرت عليها الهوامش ، ثم ظل الأصل الفنى بالمعانى والجديد ، فى حاجة الى تفسير •

ويبدو أن عام ١٨٩٢ كان عاما خصبا أو طروبا فقد ولد فيه أيضا موسيقى آخر هو محمد القصبجى •• ويليهما فنان آخر هو بديع خيرى الذى ولد سنة ١٨٩٣ •• ووراء هذه الأسماء مواهب،سنلتقى بها فى القرن العشرين • وكان هذا القرن كان عملية تحضير لصعود المسرح •• مسرح الفن •

على كل حال كانت سنة ١٩١٧ ارهاصا لمواهب مصرية على وشك التالق فسيد درويش يشق طريقه واثق الخطوة ، وأم كلثوم والسنباطى حلم موشى فى ليل القرى ستفسره العاصمة بعد قليل •


مولد تاریخ
و
تاریخ مولد



القـرية :

هى قرية صغيرة متواضعة ، قديمة كسائر القرى ولكن القاموس الجغرافى كانت له عندها وقفة محققة مدققة كأن الأمر يتعلق بالقاهرة بما يدور حول اسمها وعمرها من اختلاف تقليدى وجدل تاريخى ٠

ولا تملك الا أن تبتسم حين يحتشد القاموس الجغرافى لقرية طماى الزهايرة فيقول فى لهجة وثوق (اسمها الأصلى طموية وردت به فى قوانين الدواوين لابن مماتى وفى « تحفة الارشاد » وفى « المشترك » ليـــاقوت من أعمال المرتاحية ٠ وفى (التحفة السنية بأسماء البلاد المصرية) لابن الجيعان ، طموية هى طماية من أعمال الدقهلية والمرتاحية ٠ وفى الانتصار بعقد الأمصار وقوانين الدواوين طماية ويقال لها طمية الزهايرة نسبة الى جماعة من العرب يعرفون ببنى زهير نزلوا بها ٠ ووردت فى تاريخ ١٢٢٨ هـ باسمها الحالى) ٠

أما على باشا مبارك فى الخطط فقد وجه أكثر اهتمامه الى موقع قرية طماى فقال انها (واقعة فى بحرى ناحية قنبرة بنحو سبعمائة متر فى شرقى ناحية نوب طريق بنحو ثلاثة آلاف متر وبها جامع مقام الشعائر ٠٠ وهذه القرية من ضمن الجفالك الخديوية وبها محل لتفتيش زراعته) ٠

كل هذا التحقيق العلمى الخطير على قرية لا يكاد يملك أهلها من أرضها شيئا يعتد به ٠٠ أظهر ما فى هـذه القرية بيت العمدة وكتاب الشيخ عبد العزيز ٠

هذا فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين ٠ ولكن بعد نصف قرن طرأ على هذه القرية تغير جذرى وان ظلت بسيطة متواضعة لا يرتفع على أرضها الا بيوت معدودة طلاها أصـحابها باللون الأبيض كأنهم يؤكدون وجودها ووجودهم بعد أن تحررت أرضها من ملاكهـا الأجانب وأصبحت لهم ٠٠ تغيير جذرى ما فى ذلك شك وان خلت القرية من معالم التطور الاجتماعى كالنادى والمركز الاجتماعى ٠٠ حتى المقهى لا يوجد بها ٠٠

ومن الطريف أن عدد نساء قرية طماى حسب التعداد الأخير يزيد على عدد الرجال ٠٠

وهكذا تتفوق نساء طماى كما وكيفا ٠

المولودة بنت

فى بيت متواضع يتكون من طابق واحد فى شارع داير الناحية من قرية طماى الزهايرة لا يميزه عن سائر بيوت القرية مظهر نعمة او فضل من سعة ولكن يزيد على البيوت المتواضعة المتداخلة فيه أو المحشور هو بينها ، شىء يدخل فى باب الفن ٠ فقد كانت تنبعث منه نغمات ساذجة لم يخلع عليها الفن لونه السحرى أو تسعد بلمساته الخالقة ولكنها على حالها كانت تطرب أهل القرية وتشجيهم ، اليس أبو خالد يمدح الرسـول ويطرى بتواشيحه مناقبه ؟

كان ابراهيم السيد البلتاجي مؤذن مسجد قرية طماى الزهايرة . وكان مع الآذان ينشد التواشيح .. وكانت زوجه السيدة فاطمة المليجى مشغولة عن التواشيح وصاحبها بنفسها فقد كانت حاملا فى شهرها الأخير . ولعل زوجها كان يتقرب الى الرسول بالتواشيح والمدائح ليكون المولود ذكرا يكون لخالد أخ ويكون له سند و (عزوة) كما يقول أهل القرية الذين يرون الخير فى ولادة الذكور . أما البنات فعبء يخففون وقعه على صاحبه بقولهم المشهور والسائر فى مصر عموما ، ان ربنا يقول للبنت ساعة مولدها (أنا معين ويا أبوك) ..

أين هذا من الولد الذى تؤكد عجائز كل قرية أن الملائكة تطلع فى مواكب رافعة الرايات تزف البشرى الى الله !!

على كل حال كانت السيدة فاطمة فى هذه المرحلة من حملها تطوف برأسها كل هذه الخرافات ويرن فى سمعها قولهم : ان الموجة فى البحر تقف عند ولادة البنت ! كأن الطبيعة هى الأخرى متحيزة للولد مثلهم .

كانت المرأة المسكينة تتألم فى صمت . وفى صمت أيضا تتمنى أن (تخاوى) خالدا حتى لا يطلع (وحدانى) ..

وجاءت ساعة المولد وأحاط بفاطمة جاراتها القريبات . وكل واحدة تتمنى لفاطمة أن يتكرم عليها ربنا بولد ولم تفكر واحدة منهن فى صحة الأم .. المهم ولد .

وأخذت السيدة فاطمة فى الوضع يرهقها الألم والخوف . فقد كانت هذه التمنيات العالية الصوت تعنى أن المسكينة اذا ولدت بنتا بعد كل هذا فهى سيئة الحظ على الأقل .

فى هذا الجو المشحون شق فضاء الحجرة الضيقة التى يزيدها ضيقا البلاص الكبير وتزحمها المقاطف التى يصطدم بها السائرون وما أكثرهم فى هذا اليوم .. شق فضاء الحجرة صراخ المولود ..

وانصرف الكل عن الأم ليتطلعوا الى نوع الوليد .. وتقاربت الرءوس الساذجة التى تغطيها طرح سوداء تتهامس بالعيون وبالكلام الصريح بنت ولا ولد ؟ بنت ولا ولد ؟ وقالت القابلة فى صوت كسير خافت وكأنما ألقى عليها ماء بارد : بنت .

وتطوعت الحاضرات بكلمة : معلش ·· رزقها برزقين كان الأمر يحتاج الى عزاء · وما درت كل بلهاء أن القدر فى هذه اللحظة قد فتح صفحة جديدة فى حياة الأسرة المتواضعة · لا بل فى حياة مصر كلها حين حسب الجيران من أهل قرية طماى الزهايرة أن الأمر لم يزد عن ميلاد بنية (مكسورة الجناح) كغيرها من سائر البنات ·

وابتسم القدر ·

وابتسم أيضا شهر ديسمبر فقد ظفر بمسك الختام ·

وابتسم معه شهر يناير من العام التالى فقد كانت له المولودة الموعودة والواعدة براعة استهلال ·

ويقال ان الشيخ ابراهيم فى تلك الليلة التى وافقت ٢٧ من رمضان كان يتهجد فى المسجد خالصا لله فى ليلة القدر · وأخذته سنة من نوم فرأى فى المنام سيدة تجللها الثياب البيض ويشع وجهها نورا · وتقدمت منه السيدة وأعطته لفافة خضراء فلما فتحها متهيبا وجد فى داخلها شيئا له بريق يخطف الأبصار فسأل السيدة عما بيده فقالت :

ـ هذه جوهرة وبشرى السعد حافظ عليها ··

والتفت اليها الرجل ولم يفق من دهشته بعد ، يسألها متوسلا من تكون قالت :

ـ أنا أم كلثوم بنت النبى محمد ·

* * *

دخل الشيخ ابراهيم السيد على زوجه بعد الولادة كما جرت العادة ليطمئن على امرأته ··

ـ نسميها ايه يا أبا خالد ؟

ولم يتخل الرجل عن ايمـــانه الذى يلتمس البركات ويســـتبشر بالرؤى ٠

ـ نسميها على اسم بنت النبى عليه السلام : أم كلثوم ٠

وتداخلت الأصوات المختلفة بعضها فى بعض ٠٠ صوت يقول : خضرة وصوت يقول :بدوية ٠٠ وست الدار ٠٠ واقترح الشيخ عبد النبى عم المولودة أن يسموها (نصرة) نسبة الى والدته التى ينحدر أصلها الى العارف بالله (الشيخ الباز) وهو من أولياء الله ٠

وكثرت اقتراحات الأسماء ولكن الرجل الريفى تمسك برأيه وأصر على اسم « أم كلثوم » ٠٠ ان الرؤيا الكريمة مازالت تخايل عينيه ٠٠٠

على أن اقتراح صاحبة اسم (بدوية) تحققت رغبتها بعد عدة سنين وقد كان الأستاذ محمد تيمور يسمى أم كلثوم فى مبدأ ظهورها : الفتاة البدوية لما كانت تلبسه من كوفية وعقال ٠٠٠

وقد كبرت المولودة وتقلبت بها الأيام ولكن اسمها « أم كلثوم » ظل موضع تعليقات ونوادر ، وموضوع حديث ٠

ومن طرائف التحيات التى سمعناها فى يوم الاحتفـــال بمقدم أم كلثوم ، لا أم كلثوم القروية أو البدوية ، ولكن أم كلثـــوم الفنانة المحبوبة ، زجل بديع خيرى بعد عودتها من أمريكا عقب شفائها :

مين هو كلثـــوم دا يا بختــــه اللى أنت اســـما تبقى أمــــه
واللى انت فعــــلا ولا أخته ولا بنت خـــاله ولا عمـــه

وقد رأى الأستاذ العقاد أن يفرج هذه الحيرة بتفسير الكلثوم ٠٠ والعقاد عنده الجواب لكل سؤال حائر ٠

معانى « الكلثوم » فى العربية متعددة ومنها الحرير الذى يوضع على راس العلم ٠

« أم كلثوم » اذن هى راية متوجة بالحرير ٠

هل كان الشيخ ابراهيم يعنى هذا أو يدركه ؟ أشك فى ذلك ٠٠ المسالة فى نظر الرجل الطيب ، تبرك بأهل البيت ٠

وبعد جيلين يطلق أديب مرموق هو الأستاذ نجيب محفوظ على ابنته الاسم الذى لم يعجب فلاحات طماى الزهايرة من نصف قرن • ان الاسم فى هذه المرة تيمن بأم كلثوم ••

ومن باب التيمن أيضـــا والوفاء أطلق على القرية نفســها اسم « أم كلثوم » • فقد قرر مجلس محافظة الدقهلية فى سبتمبر سنة ١٩٦٤ تسمية (طماى الزهايرة) بقرية أم كلثوم ••

ومن الطريف أن تاتى الموسوعة العربية بعد هذا كله فتخطىء فى اسم أم كلثوم اذ تقول ان اسمها الأصلى فاطمة مع أن اسم (فاطمة) هو اسم والدتها •

* * *

ولم يمض على ولادة « البنت » أربعون يوما حتى أصيبت برمد فى عينيها وفزعت الأم ، وضاعف وجيبها قلة حظ الأسرة من المال الذى تحس أنها فى أشد الحاجة اليه لعلاج طفلتها المريضة •

ولكن حيرة المسكينة فاطمة المليجى لم تطل •• انها تملك ســوارا من الذهب ومهما بلغ بؤس القرويات فان الواحدة منهن تقتطع من فمهـا القرش بعد القرش حتى اذا تجمع لديها ثمن حلية ذهبية سارعت الى اقتنائها حتى لا تتعرض الثروة الغالية للنهب أو الضياع •• انها فى يدها « سوار » أو على صدرها « كردان » زينة ووفر للزمان •• من يدرى ••

عرفت فاطمة المليجى كل هذا وعملت به ولكنها لم تتردد فى نزع سوارها وفى استرخاص ، ثم باعته وأرسلت صغيرتها « أم كلثوم » الى القاهرة لعرضها على الأطباء ولطف الله وشفيت •

وحفظت أم كلثوم لأمها هذه اليد فبرتها كأكرم ما يكون بر الأبناء بالأمهات •

ومضت الأيام ودرجت الطفلة فى صحن الدار وأخذت تخطو خارجها

خطوات رقيقة لينة تشتد أحيانا فتصل صاحبتها الى شجرة الجميزة فقد كانت تعشعش فى هذه الشجرة عصفورة أخرى .. عصفورة الشجرة تزقزق وتغرد وعصفورة ظمأى تصغى فى انتباه وفرحة حتى لا تحس بمنديلها الذى ينسدل على شعرها الفاحم الى الوراء ويسقط خلفها على الأرض التى تجلس عليها القرفصاء . فاذا حان موعد الغروب وهو فى الوقت نفسه موعد رواحها أخذت تبحث كالنحلة عن المنديل وتتهلل عيناها اذ تجده ثم تأخذ في تسويته وبعدها تلملم شعرها وتطوقه بالمنديل وتأخذ طريقها الى البيت بعد أن رويت العصفورة من غناء العصفورة :

ومن الطريف أن أول قصيدة عاطفية غنتها أم كلثوم فى القرية قصيدة :

عصافير يحسبن القلوب من الحب	فمن لى بها عصفورة لقطت قلبى
فياليتنى طيرا أجاور عشها	تغرد فى جنب وتمرح فى جنب

وكانت الطفلة تخرج مع بنات القرية أيام الحصاد أو جنى القطن وتغنى وهن وراءها يرددن :

أبويا زرع لى جنينة كلها برتقال	خالص
أسرح وأروح والاقى البربرى	حارس
والنبى يا بربرى لأبيعك	
واسد دين الوسية	
واطلع من البلد خالص	

وتتسمر قدم مرقص افندى ناظر العزبة مع أن الشمس حامية على الرغم من منديله المفرود فوق رأسه وتحت طربوشه وعلى الرغم من مظلته .. ويتطامن صوت الرجل المخيف وتهدأ حدته التى تعرفها جيدا فتيات الجمع ويقول :

ـ البنت أم كلثوم دى ماتنزلش الغيط .

ـ أمرك .. ما تعتبش هنا .

ـ لا أنا عاوزها تروح عندنا البيت علشان الجماعة يسمعوها (أى زوجته) .

يروى هذه القصة الشيخ أحمد العيسوى الذى جاوز التسعين من عمره ولا يزال يذكر طفولة أم كلثوم وعينيها اللتين (تنط منهما الزكاوة) ..

وفى احدى هذه الغدوات والروحات ، حلا لنساء القرية يوما أن يأخذن أخاها خالدا منفردات به ويدققن على يده ..

وكانت ثورة

ثارت جارتون فاطمة المليجى وغضبت لفعلتهن غضبا شديدا فأخذن حذرهن .. ولولا خشيتها لامتدت أيديهن الى طفلتها أم كلثوم وشوهن وجهها بالدق والعصافير ..

كل هذا وأم كلثوم ، ولا هى هنا ، تغدو فى البيت ، واليه ، عابثة لاهية لا تسمع الا صوت صديقتها عصفورة الجميزة التى تتوثب فى البيت مثلها فى خفة ومرح فيعوض مرحها البيت البائس عما يعانيه من ضنى وحرمان ، وتلون حياته الكابية بمثل لون الورد أو الشفق فيشيع فيه من السرور ما يسهل عبء الحياة عليه .

تروى بسيونة جارة أم كلثوم فى الحارة وصديقتها فى الكتاب أن ليالى الصيف فى طماى الزهايرة كانت تقضيها أم كلثوم على سطح بيتها تغنى بصوتها الرفيع وكان والدها يوقع لها على آنية من أوانى الدار .. أنجر أو صينية كيفما اتفق .. انها تسليهم ..

ولم تكن أسرة أم كلثوم وحدها هى التى تتخذ من سطح الدار مصيفا فان الجيران كذلك يفترشون السطح باحثين عن نسمة هواء .. وسرعان ما تدور أحاديث السمر بين الأسطح بأصوات عالية تسمح للحارة كلها أن تشترك فى المناقشة ! حتى اذا غنت الصغيرة أم كلثوم اشتركت الحارة فى التعليق .

ـ والله البت صوتها حلو .

ـ ياخى حلو ولا وحش أهى تسلينا .

ـ ايش جابها لخالد .. خالد صوته أحلى ربنا يحميه ..

وصاحبة هذا التعليق تخضع الصوت لجنس صاحبه فما دام خالد (الولد) فهو مفضل على أخته أم كلثوم (البنت) وصوته تبعا لهذا أحلى !!

على كل حال كان السارى يسمع عن بعد صوت مصمصة الشفاه الساذجة وهى تقول على الوحدة فى صوت واحد : (اللهم صلى عليه) عقب غناء (البنت) أم كلثوم .

بالعـــربى محمـــد زالـــت الأوهـــام
القـــرشى المجـــد صـــاحب الاكـــرام
كم هـــدى وأرشـــد جـــاد بالانعـــام
وبســـيفه المهنـــد أشـــهر الاســـلام

كانت دنيا الطفلة أم كلثوم عصفورة الجميزة ، وعروسة جدتهـــا نصرة التى خاطتها لها من البفتة وحشتها قطنا ورسمت لها بسذاجة وجها ولكنها اعجبت حفيدتها أم كلثوم التى كادت تطير بها من الفرح ٠

طفولة لا تجد غير الجفاف أو النطاف والخصب حولها منشور والرى شامل ٠

حتى العيد ليس لها من مباهجه العديدة الا الجلابية والجزمة الجديدة ٠

(دايما كانت بيجيبوها مقاس يا يطلع ضيق قوى يا واسع قوى ! ضيقة ناشفة أو واسعة رجل الواحد يتدب فيها ٠٠ أنا وحظى ! ٠٠ طبعا كنت أضعها تحت المخدة وبالبس الشراب الجديد وبانام ليلة العيد وأنيم الجزمة الجديدة معايا ٠٠ ومع الفجر نصحى منتظرين العيدية ٠٠ يدونا أكل !! ولكن كنا عاوزين فلوس علشان المراجيح !!) ٠

ويسالونها تفتكرى أول فستان كان لونه ايه ؟

وتقول وهى تضحك فى سعادة من أعطاه ربه فأرضى ! مش فستان ٠٠٠ ده كان جلابية بكورنيش كده و (سفرة) حلوة ٠٠ قماشه (شيت) ملون اخضر وأحمر ٠٠ ألوان الموضة بتاعة الأيام دى !!

وتصف أم كلثوم رمضان طفولتها فى القرية بقولها :

(كنا نلم بعضنا واحنا عيال نغنى لرمضـــان واحنا ماسكين صفائح ندق عليها ٠ ماكنش فى بلدنا مدفع رمضان ٠٠ ولكن كان فيه مسحراتى ٠ ماكانش فيه فوانيس ملونة نلعب بها ٠٠ المهم فى رمضان أنا كنت عاملة صايمة ، كان عمرى ٤ سنين ، علشان يصحونى فى السحور ٠٠ بياكلوا حاجة حلوة فى السحور ٠ وعلشان أبقى عضو مهم يصحونى زى الكبار مش عيلة !! وأهلى كانوا عارفين انى فاطرة بس هم مش عاوزين يعرفونى ٠ والدتى كانت هى الوحيدة اللى تنصحنى أن أنام وتقول لى : حنخلى لك من اللى فى السحور !! ولكن مفيش استئمان !! ولكن صمت حقيقى ولى من العمر ٧ سنوات ٠٠) ٠

شيء واحد كان يشدها ويعيش في ذاكرتهـــا ذلك هو أبوها في جلسته على الأرض يعلم أخاها قصة مولد النبي والقصائد والتواشيح ليساعده في الليالي ..

ومع هذا كانت تعود سريعا الى عروستها القطن فلا يشدها ثانية الى المدرسة العائلية الأرضية الا بطء شائد في الحفظ عن والدهما فكانت الجنية الصغيرة تقـــلد اباها من وراء ظهره ولما تبـــلغ من العمر خمس سنوات .

وحانت لفتة من والدها الى الخلف فضبطها متلبسة بالتقليد الذى أصبحت تتقنه في هيئة تضحك العبوس . ولكن الشيخ ابراهيم لم يضربها كما توقعت بل قال لها :

ـ تعالى معايا الى حفلة شيخ البلد ..

ومن الغريب أنها لم تفرح بهذه النتيجة التى أنقذتها من ورطة وعلقة بل قالت ولما يزايلها خوفها بعد :

ـ لا .. موش عاوزه أروح !

واحتال عليها الرجل الطيب فأتاها من ناحية الكرملة التى تحبها ولكن الرأس العنيد رفض أيضا ..

وسرح الرجل ثم تذكر وصوب اليها عينا مبتسمة وقال :

ـ اذا ذهبت معى سيقدم لك شيخ البلد طبقا كبيرا من المهلبية .

وتهاوى عنادها ورفضها .. وتلاشت مقاومتها تماما .. تبخرت ..

ويدارى أبوها ضحكا مكتوما ويضرب على هذا الوتر الحلو وان كان في غير حاجة الى الاغراء بعد أن سلمت ..

وأخذ والدها على سبيل الاطمئنان يسالها عن أشياء كان قد حفظها لخالد فأخذت تكر جميع ما سمعته مما أذهل الرجل .. لقد رددت ماسمعته من أبيها لا في ذلك اليوم فحسب ولكن فيما سبقه من أيام ..

وطفق الرجل الذى أخذ أخذا شديدا يتمتم ويمسح على رأســها بيده .. لقد كان يحصنها بآيات القرآن من شر حاسد اذا حسد ...

ذهبت الصغيرة أم كلثوم الى الحفلة وراع عينها الطفلة الزحام الشديد هناك .. لقد كان عدد الحاضرين خمسة عشر شخصا ! متى رأت مثل هذا العدد الضخم ؟

وفى بيت شيخ البلد جلس الشـــيخ ابراهيم على الكنبة باعتباره الشيخ الصييت الذى طالما استمعت اليه القرية فى مولد العوضى يقرأ القرآن وينشد التواشيح والمدائح ٠

وأمسك أبوها بيدها ليجلسها الى جانبه ولكنها رفضت ٠٠ وحسنا فعلت ٠٠ ان العين لا تكاد تراها واقفة فكيف اذا جلست وغنت ؟

وقفت الطفلة أم كلثوم على الكنبة وانفتحت فى الغناء بعفوية وبساطة كما تغنى لعروستها ٠٠ وهذه اللامبالاة نفسها هى التى أعانتهـــا على الاستمرار خمس دقائق صفق لها السامعون فى حماسة ريفية ولكنهـــا لا تعرف التصفيق أو غيره ٠٠ انها تعرف فقط طبق المهلبية فأخذت تلكز أباها فى توال لا يهدأ والحاح لا يفتر ٠٠ فين بقى اللى قلت لى عليه ؟ هه ؟

فرح أبوها فى تلك الليلة كما لم يفرح فى حياته من قبل ٠ وأخذ يقرأ سورة (قل أعوذ برب الفلق) يعوذها بها من أعين الناس ٠ بل كلف أحد مشايخ القرية بعمل حجاب لها يقيها شر الحاسدين ٠

ومن الطريف أن أم كلثوم ظلت تحتفظ بهذا الحجاب وتتفاءل به ٠

* * *

منذ ذلك اليوم ودعت أم كلثوم الطفولة وهى التى لم تبلغ العاشرة بعد ٠٠ لم تعد تلبس الجلابية الملونة الزاهية فقد أخذت تخب فى الجلابية المجرجرة فى الأرض « الحشمة » وعلى راسها طرحة سوداء لا فرق بينها وبين والدتها وجدتها وسائر نساء القرية ٠

بدأت الصغيرة تكبر ٠٠ وكالكبار أخذت تتطلع حواليها ٠ وأصابت رؤيتها الأولى فى أيدى التلاميذ الأطفال لوح الاردواز والكتب والكراسات فى حقائب قماش ٠

وسرحت البنت ٠٠ انها تريد أن تمسك الكتاب وتقرأ تماما كعريف

القرية • تريد أن تمسك القلم البسط كما يمسكه شيخ الكتاب •• نفسها تكتب على الورق بالحبر •

وأيدت رغبة الطفلة أم كلثوم رغبة أخرى خفية كانت تدفع أمها فاطمة المليجى دفعا الى ارسالها الى الكتاب في وقت كان التعليم فى مصر ليس بذى خطر حتى فى المدن ، وبالنسبة الى البنين ، فما بالك بالقرى وخاصة للبنات •• ومن أجل هذا عارض الشيخ ابراهيم متحللا فى الوقت نفسه من نفقة الكتاب لحاجة البيت اليها •• لقد كان الكتاب بقرش فى الأسبوع أى أربعة قروش فى الشهر وهو مبلغ رآه أبوها عبئا يثقل كاهله ! فجملة دخل الرجل فى الشهر عشرون قرشا !!

ولكن أمها أصرت •• ترى هل شامت تلك الأم الخير فى ملامح ابنتها الصغيرة ؟ هل أحست بوحى من أمومتها ولو احساسا غامضا بما ينتظرها ؟

لقد قال شيخ من أولياء الله للشيخ ابراهيم يوما : (ان هذه البنت لديها شىء من أسرار السماء وأنها سوف تكون شيئا عظيما) ••

لعل هذه النبوءة وافقت هوى السيدة فاطمة المليجى ككل أم فعملت حساب المستقبل وأصرت على تعليم ابنتها أم كلثوم •

لم أر تلك السيدة التى أنجبت لمصر أم كلثوم ، لا أعرف الدافع لها على تعليم ابنتها فى وقت لا أحسب كثيرا من الأمهات نزعن هـــذا المنزع أو خطر لهن هذا الاتجاه ، ولكنى لا أملك الا أن أحييها تحية حارة وأنا فى مقام التاريخ لأم كلثوم ••

الكتاب :

صحب خالد أخته الى الكتاب ، وكان طريقها اليه يشيع فيه النغم ، فالعصافير فوق غصون الشجر تشقشق فتملأ الجو بزياطها وأصـــواتها ، وأمواه النيل تنساب فى الغدران التى تمر بها انسيابا نغميا فيه عذوبة وفيه جمال •• وحفيف الشجر من معابثة النسيم ، ورفيف النبت فى

المزارع الخضر ، وزفيف الريح فى الفضاء الفسيح ، وأنين السـاقية فى المروج القريبة ، وثغاء الأغنام يختلط بغناء الراعي من بعيد ، وزامر القرية يجوب طرقاتها فى صحبة الناى يبكيه بأنامله فيشجى ويبعث الحنين •

وتسمع الطفلة التى هيأتها الطبيعة للفن هذا كله فى مراحها ومغداها فتطرب وتبغم بغام الظباء من فرط ما تحس به فى أعماقها من نشوة •• حتى اذا بلغت بيت العمدة ، سمعت فيه صوتا أوضح فى رنينه من سائر الأصوات التى مرت بها فى طريقها •• كان فى بيت العمدة فونوغراف قديم تدور عليه اسطوانات مكسورة فتقف الطفلة مليا لترشف النغم ••

ومن فونوغراف العمدة هزها صوت الشيخ « أبو العلا » وهو يغنى : (أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا) ، (وحقك أنت المنى والطلب) ، (غيرى على السلوان قادر) •

لم تكن تفهم المعنى ولم تكن تعرف وان كان يؤثر فيها تأثيرا لا تعرف أيضا كنهه ولا كيف تصفه بل لقد حسبته ميتا أى من أهل زمان (اللى فيهم الخير والبركة) • فمن غير المعقول أن يكون بين الناس من أهل هذه الدنيا صوت كهذا ••

ولكن طريق الكتاب كانت فيه أشياء أخرى ملأتها رعبا •• وفى الكتاب نفسه أشياء ملأتها خوفا ••

ومن حكايات الطريق عودتها فى ليلة عاصفة غزيرة المطر مع خالد وصابر ابن زوج أختها •• وواجه الأطفال الثلاثة الكرب وحدهم وقد ابتلت ثيابهم وغاصت أقدامهم الصغيرة فى الوحل الذى تعلق بها حتى صعب عليهم اقتلاعها منه •• وحاول الولدان التجلد ولكن الطفلة أم كلثوم لم تستطع أن تحبس دموعها وان جرت فى صمت •

وبينما هم على هذه الحال اذ مرت بهم عربة فتشبث بها خالد وصابر من الخلف وتركا الصغيرة الباكية وحدها تتخبط فى الطريق الموحل الموحش وهى التى أرهقها التعب والخوف وهما معها •• وصرخت أم كلثوم فزعة وكلما ابتعدت العربة علا صراخها ••

وأسرع السيل فى زحفه أو هكذا خيل اليها ومع الليل تهاويل الظلام فى مخيلة الريفيين •• وبينما هى تنتحب ساق اليها الله أحد أهل القرية راكبا دابته فعرفها من صوتها قبل أن يصل اليها — والريفى لا يخفى عليه شىء من قريته بله ناسها — •• ثم تحقق منها بعد أن اقترب من المكان فهدأ روعها وحملها معه على دابته •

وصل خالد وصابر ظمأى وحدهما بالطبع فسألهما الشيخ ابراهيم عن أم كلثوم ٠٠ فقالا ببساطة الريفيين انهما تركاها فى الطريق ٠٠ ولم يدر الرجل بعد هذا شيئا فقد جن جنونه وانهال عليهما ضربا ثم هرول بعد أن شفى غيظه منهما ٠٠ ليحضرها واذا به يجد صاحبه قد سبقه الى احضارها فتلقفها شاكرا داعيا ٠ ودخلت البيت وفى نيتها أن تخمش خالدا وصابرا وتعمل فيهما أظافرها وأسنانها ولكنها ما كادت تراهما حتى أدركت أنهما لم يفلتا من العقاب فاكتفت بالنظر الشزر الشامت فى وقت واحد ٠

ويبدو أنها بعد هذه الحادثة اســـــتمرأت طعم الركوب ٠ تغرى (صابر) و (عمرو) بلعبة كرسى السلطان على أن يتناوبوا الجلوس على الكرسى السلطانى ٠٠ وان كان الذى يحدث أنها بفهلوتها كانت تتمتع وحدها بالجلوس على كرسى السلطان معظم الطريق ٠٠

ولأم كلثوم فى الكتاب قصص يشـــوق وان كان فى وقته مصـــدر نغص لها كاد يصرفها عن الكتاب والعلم كله ٠٠ ولنتركها تروى بعضه حتى لا يفوتنا ما فى روايتها من فكاهة ونبض ٠

تقول أم كلثوم : (لقد كان الذهاب الى « الكتاب » فى الصباح مثلا حادثة فاجعة تتكرر فى حياتى كل يوم ، كثيرا ما كان يحدث أن نذهب الى الكتاب فى الصباح فاذا (سيدنا) يأمرنا وبعض زميلاتى أن نذهب لنساعد حرمه المصون ! فى تنقية الحب من الطين والطفيليات ٠٠ وأذكر أننى كنت أطلب الى زميلاتى أن يحتفظن بما يجمعن من طين وطفيليات حتى اذا جاء الظهر ورأت حرم سيدنا أننا عملنا ما فيه الكفاية نغافلها ونعيد الى الحب النقى ما جمعته أنا وزميلاتى من الطين والطفيليات ٠٠

وكانت حرم سيدنا تكتشف جريمتنا بعد أن نذهب ٠٠ وفى الصباح التالى يترك سيدنا « المقرعة » تعبر عن آراء حرمه فينا !

وهناك ذكرى من ذكريات الكتاب ظلت تطاردنى كاللعنة مدة طويلة ، فقد ذهبت الى الكتاب ذات صباح مبكرة عن العادة ، ولم يكن السبب راجعا الى نوبة نشاط بقدر ما كان راجعا الى نوبة من نوبات الشقاوة والرغبة فى الأذى ٠ فقد ذهبت قبل كل تلاميذ الكتاب لأكسر ما تقع عليه يداى من أصابع الاردواز والألواح وأنقل كراسة كل تلميذ من درجه الى درج آخر ، ثم أستمتع بعدها بجو الذعر حين يحضر سيدنا ويحضر التلاميذ

ويبدأ الدرس ، فاذا هم يفاجأون · واذا الذعر يسيطر عليهم فلا يجرؤ أحدهم أن يفتح فمه بكلمة · وأنا أغالب الضحك لأكتمه فى صدرى ·

وفى ذلك اليوم ذهبت مبكرة وفجأة سمعت وقع حوافر حمار يركض ثم يقف أمام الكتاب وسمعت صوتا يقول :

افتح الباب لحمارة المفتش ·· وفهمت أن مفتش وزارة المعـــارف وكان الشيخ قنصوه ـ قد وصل · وقبل أن أستطيع التفكير فى موقفى فتح الباب ودخل المفتش فجلست فى مقعدى ونظرت اليه فى صمت !

وكان المفتش رجلا عصبيا ·· وقد فوجىء بكتاب ليس فيه الا فتاة واحدة فصاح بأعلى صوته :

من هنا ؟

وقلت وأنا أرفع أصبعى : أنا ! وأمسك عمامته واقترب منى وهو يقول : ماشاء الله ·· كتاب بأكمله ليس فيه الا بنت واحدة ثم أخذ يهدر مهددا سيدنا وأنا لا أستطيع أن أغالب الفرحة ··

وبعد قليل دخل سيدنا ، وكان خبر وصول المفتش قد أبلغ اليه وانهال عليه المفتش لوما وتأنيبا ·· ولم ينس أن يستغل وجودى ليشيد بنشاطى واقبالى على الكتاب منددا بكسل سيدنا وانصرافه عن الكتـــاب وشئونه ! ··

وانتهت زيارة المفتش ولكن سيدنا جعلنى أدفع الثمن ·· كان يلقى علينا أعقد الأسئلة ، فيرفع التلاميذ أيديهم ليجيبوا فيهز رأسه فى حنق ، ويقول مشيرا الى :

ـ لا ·· لابد أن تجيب عليه (الشاطرة الفالحة) التى تجىء مبكرة كل يوم ·· وكانت (الشاطرة الفالحة) التى تجىء مبكرة تتعثر دائما فى اجاباتها ويجد سيدنا الفرصة لينتقم منها ! ··

أى طفلة مغراة بالدعابة تلك التى تفكر فى مسرحية هزلية يكون الكتاب فيها بتلاميذه وسيدهم الممثلين ، وتكون هى وحدها النظارة التى تتسلى بمناظرهم وتضحك من حركاتهم !

وفى الكتاب تذكر فيما تذكر عادة كانت تنغص حياتها وحيــــاة (عمرو) خاصة ·· ومع ذلك فان « سيدنا » لم ينسها مرة طول شهور الصيف الحارة ··

كان يحب أن يجلس وأمامه (سلطانية) مليئة بحب الرمان والماء والسكر .. وتظل الملعقة حائرة بين (السلطانية) وفم سيدنا الى أن يأتى على ما فيها ونحن أمامه نراقبه ونحس حرقة الظمأ فى شهور يونية ويوليو واغسطس التى تشتعل نارا من حرارة الصيف !

وحدث يوما أن رأى سيدنا ألا تشغله سلطانية الرمان عن تصريف شئون الكتاب ، فلما جاءته السلطانية المعهودة وضعها أمامه ودعا اليه أحد التلاميذ ..

كان اسمه (عمرو) ليسمعه ما حفظه من سور القرآن .. وقال سيدنا بعد أن ازدرد ملء فمه من حب الرمان والسكر المذاب :

اسمعنى « قل أعوذ برب الفلق » !

وكان (عمرو) فى عالم آخر .. كان هائما فى عالم (الرمان) يرقب الملعقة وهى تقطع الطريق ذهابا وايابا بين السلطانية وفم سيدنا وهو فاغر فمه حسرة ولهفة ..

وصاح سيدنا :

ــ قل يا واد « قل أعوذ برب الفلق » !

وانهارت مقاومة عمرو فاذا هو فجأة يقول فى صـــوت متقطع محموم :

ــ ماتدينى حبة رمان يا سيدنا !

وكان الشيخ خالد بحكم أنه (مطرب العائلة) وفتاها المدلل يستطيع أن يزوغ من الكتاب وعصا العريف وقتما يشاء ملتمسا لنفسه شـــتى الأعذار والحجج كحفظ قصيدة لسهرة المساء أو الطواف مع والده فى المولد .. أما أم كلثوم فكانت تلجأ الى وسائل أخرى مختلفة كان تضع الملح فى عينيها لتحمر فتكون عذرا ملموسا للتخلف عن الكتاب اللعين .

وأحيانا يسعفها خير ربنا فيتواجد فى البيت نصف فطيرة مشلتتة أو عود قصب أو برتقالة من نفحات المولد فتحرم نفسها وتعطى نصيبها سيدنا لتأخذ عينها هدنة من الملح اما عينه هو فتنطرف .

ويرى خالد ما تخفيه فى يدها أو تحت ابطها فتتسمر قدمه فى الأرض كالفرس الشموس لا يريد أن يذهب الى الكتاب • وتفهم هى من عينه المثبتة مراده فتتشبث بما فى يديها •• ألم يأكل خاله نصيبه ؟ فلماذا يتطلع الى نصيبها هى ؟ •

ولكن الطفولة وخاصة حين تشتهى لا تعرف منطقا •• خالد حرن وقضى الأمر ••

وتحل المشكلة بأن تعطيه أخته أم كلثوم نصف ما معها نزولا على رغبة أبيها حتى يتحرك ويذهب الى الكتاب •

* * *

مع الأيام

لن تكون عبئا على أحد •• سوف تذهب الى الكتاب ولكن من عرقها هى •• ألم تغن عند شيخ البلد وصفق يومئذ الناس ؟ انها تستطيع أن تغنى بقرش أو قرشين أو مبلغ يغطى مصاريف الكتاب أسبوعين •

بهذا كانت الصغيرة أم كلثوم تحدث نفسها وان حسبها من رآها تلعب بالقطة ••

وعرضت الطفلة على أبيها أن يصحبها الى الحفلات وهى التى كانت ترفض قبلا •• وكانت أول حفلة فى « السنبلاوين » وسيذهب أفراد التخت سيرا على الأقدام ••

وسارت أم كلثوم ولكن قعد بها التعب فخرت جالسة فى عرض الطريق •• واتفق أفراد التخت على أن يحملها كل منهم مسافة • وظلوا يتناوبون حملها حتى وصلوا بيت الحفلة وكانت بدورها تحتل قطعتها الأثيرة •

ودخلوا البيت ودخلت القطة تحت الكنبة فزحفت وراءها صديقتها أم كلثوم وظلت معها ..

وأخذ الشيخ ابراهيم تفتش عينه المكان ليرى أم كلثوم ولكن عينه لم تقع عليها . فأخذ يبحث عنها دون جدوى واشـــترك فى البحث الباقون .. وذهب الرجل فلم يفقده الا شىء لا يخطر له على بال .. القطة ! خرجت القطة من تحت الكنبة فخرجت أم كلثوم وراءها فتلقفها ابوها وزرعها الى جانبه معتقا ..

ويوما أن مرى بعد طلب اليها أن تغنى .. ولكنها ، هى ، لم يكن سرى عنها بعد ، فوقفت ...

طيب ابوها خاطرها وانتشر باشفاقه على غيابها فقصرت الرفض على الجلوس واصرت على الوقوف اذا أراد الغناء فوافق بالطبع .. انه يعرفها جيدا ويعرف صلابة رأيها ..

غنت سايحة كمن يحلم بأمل موعود .. لقد كانت بالفعل تحلم فى تلك الساعة ولكن بطبق المهلبية وبقرشين أو ثلاثة للكتاب ..

وانبجلت الطفلة التى لم تتجاوز عامها السادس تغنى :

أقول لذات حســـن ودعتنى بنار الوجـــد طول الدهر آه

ولكنها بعد الحذق والتجويد والذى منه لم تتقاضى مليما واحدا فقد كان صاحب الحفلة مأذون القرية وكان شرفا لها ولأسرتها الفنية أن يغنوا عند المأذون وأن يسمعهم أهل القرية عنده ! وقد قالوا يومئذ ان صوتها جميل ..

ولكنها لم تياس فقد دعيت فى اليوم التالى فى فرح خفير نظامى فى عزبة الجوال وهى على مقربة من طماى .. وغنت فى فرح الخفير حتى الصباح ..

وفى تلك الليلة تقاضت أول أجر فى حياتها وكان ... روبيـــة ـ وهى عملة هندية من الفضة كانت منتشرة فى مصر أيام الحرب وهى تساوى ستة قروش ونصف بالعملة المصرية ـ ..

لم تكن الروبية الخطيرة فى الحقيقية أجرها وحدها وانما أجر الفرقة كلها .. اى أبيها واخيها وهى ..

ولا تنسى أم كلثوم حتى بعد أن قبضت يدها عشرات الألوف ، هذه الستة قروش ..

لقد أطبقت يدها على الروبية وقد حملها احدهم على كتفه مسافة طويلة حتى وصل بها البيت في طماى الزهايرة . وكانت لشدة شعورها بقيمة الروبية ولفرحتها بها تضغط اصابعها على راحتها من حين لآخر اثناء الطريق حتى لا يفلت الصيد الثمين من يدها !

ويبدو لها احيانا أن تنظر الى الروبية الغالية لتفرح بها وتتأكد من وجودها فتدنى يدها من وجهها وترفع أصابعها قليلا حتى اذا ما لمحتها أسرعت من خوفها عليها فتطبق يدها من جديد .. وظلت على هذه الحال مسافة الطريق حتى اذا ما وصلت البيت وصافحت عيناها وجه امهـــا حبيبتها ، أعطتها .. الروبية .

وبعد ذلك بخمسة أيام أقام الحاج يوسف تاجر الغلال بالسنبلاوين حفلة دعا فيها ابنة الشيخ ابراهيم التى يقولون عنها ، لاحيائها .

وغنت الصغيرة أم كلثوم فى تلك الليلة .

حسبى الله من جميع الأعادى وعليـــــه توكلى واعتمـــادى

وانطلقت تغنى الليل كله فسر الحاج كثيرا ووضع يده فى جيبه وطلع ٢٥ قرشا ونفح بها الفرقة .

وفى تلك الليلة دارت فى رأس أحد الحاضرين (فكرة) .

فكر حسن أفندى حلمى صاحب كشك سجاير بمحطة (أبو الشقوق) أن يقيم (ليلة) تغلب ليلة الحاج يوسف .. ليلة يكون الدخول فيهـــا بأجر ..

وركبت الفرقة القطار من محطة السنبلاوين الى محطة (أبو الشقوق) ، وكانت هذه أول مرة تركب فيها الطفلة أم كلثوم القطار .. فما كادت تضع قدمها فيه حتى أخذت تطل من الشباك وأبوها يمســـك بذيل (جلابيتها) أحسن لا قدر الله رأسها أثقل من جسمها كما يقول الشيخ ابراهيم ..

وتعتبر ام كلثوم أول مذيعة مصرية . فقد اخذت من شدة فرحها فى ذلك اليوم « تسرسع » معلقة على الأشجار وأعمدة التلغراف التى تراها من نافذة القطار تجرى أمامها فلا تلاحقها بالعد .. وتبدأ تعد من جديد .. من اول وجديد ..

كانت المذيعة الصغيرة تعلق بالكلام وبالأيدى فقد كانت اذا اشتد اعجابها بمنظر من المناظر تضحك وتصفق بيديها وقدميها أيضا وتنادى من حولها ليشاهدوا الأعجوبة التى رأتها !! ٠

وصل القطار (أبو الشقوق) فوقف الشيخ ابراهيم واستعد للنزول ولكن أم كلثوم تشبثت بالنافذة وتصلبت يدها عليها لا تريد مغادرة القطار ٠٠ وعبثا حاول أبوها سحبها ٠٠

ـ الوابور حلو سيبونى وروحوا انتم موش عايزة أغنى ٠

ـ تعالى ونبقى نركبك تانى ٠

ـ لما تعملوا ايه مش نازلة ٠

وصفر القطار علامة بدء القيام فحملوها (هيلا بيلا) وأنزلوها من (الوابور الحلو) بالقوة وهى ترفض وتضرب وتبكى وتتملص من أيديهم ولكن الكثرة تغلب الشجاعة كما سمعت أهل قريتها يرددون ٠٠

وبعد أن أنزلوها أخذت تبكى وتزن فأقسم لها أبوها أنه سيجعلها تركب القطار ثانية ٠٠ وأخيرا سكتت ٠

ومرت الأيام وتعلمت أن تركب القطار ٠٠ وتعلمت أيضا أن تنزل فى محطة الوصول فى هدوء بمجرد وقوف القطار دون أن تبكى أو تحمل بالقوة ٠

وذهبت الفرقة الى الحفلة التى كان الدخول فيها قاصرا على القادرين فقد كان ثمن التذكرة خمسة قروش فى الدرجة الأولى وثلاثة قروش فى الدرجة الثانية ٠٠

أما غير القادرين من فئة الدرجة الثالثة فقد كانوا يستطيعون أن يسمعوا أيضا ومجانا ولكن على ألا يدخلوا ٠٠ وكيف ؟

يقف المتفرج منهم وراء (الخيمة) !

وحضر أهالى البلاد المجاورة ومنهم أناس من المنصورة فرحوا بهـا وهنأوها بعد نجاحها فى الحفلة ٠٠

ورأى حسن افندى الذى أذهله أن يجمع شباك التذاكر ثمانين جنيها ، أن يكون سخيا مع البنت (فهى السبب) فأعطى أباها جنيهـا ونصفا ! أليس هذا المبلغ أضعاف ما دفعه الحاج يوسف ؟

وما كان اشد دهشة أم كلثوم دون سائر أفراد الفرقة لا من تفاهة الأجر ٠٠ على العكس ٠٠ دهشت من فخامته ٠٠ لقد ظلت تحملق فى الجنيه فى اعجاب بالغ فقد كانت أول مرة فى حياتها ترى جنيها !!

وتوالت الدعوات ـ السخية ـ فدعاها عبد المطلب أفندى الموظف بدائرة المرحوم الشناوى باشا بعد اسبوع لاحياء فرح أخيه فى كفر برماص بندر المنصورة بأجر قدره جنيه ونصف أيضا على أن يدخل فيه مصاريف الانتقال ٠٠ هذا هو كل الفرق ٠٠ بسيطة ٠

ثم ارتقت فدعيت الى الغناء فى مركز أجا ويومها أحست أنهـــا انتقلت من مطربة محلية الى مطربة عالمية ٠

وتنقلت من مديرية الى مديرية ٠٠ فى الأول من مديرية الدقهلية الى مديرية الشرقية فغنت فى كفر صقر !

وعندما ارتفع الأجر الى ١٥٠ قرشا ظنوا أنفسهم أثرياء ٠٠ ورأى الشيخ ابراهيم أن يتحدث بنعمة الله ويقلد الأثرياء ٠٠ ماذا يفعلون ؟ انهم يلتقطون لأولادهم صورا فوتوغرافية ٠٠ فلماذا لا يرسل ولديه الى المصوراتى فى البندر ليأخذ لهما صورة ؟ ٠٠ والبندر هنا يعنى مدينــــة الزقازيق ٠

ولم يكذب الرجل الخبر فقد أرسل (أم كلثوم) و (خالد) الى البندر للتصوير ٠٠

ووصلت أم كلثوم وخالد الى الزقازيق بسلامة الله ومنهــــا الى (المصوراتى) ٠

وما كادت أم كلثوم ترى طريقة التصوير الذى كان يتم من تحت ملاءة سوداء حتى وجدت العفرتة الكامنة فيها غذاء لها فاغرقت أم كلثوم فى الضحك واغرت خالدا بمشاركتها فى (التريقة) ٠

وزغر لها أبوها فلم تفلح الزغرة فى أن تكفها عن الضحك والتهريج ٠ فهز كتفها فى حزم لتتوقف عما هى فيه فاصول التصوير وقتئذ واصول الأدب ايضا أن تقف ثابتة فى جد رصين ٠٠ ثابتة لا تفتح فما ولا تطرف ٠٠

ورات أم كلثوم من جدية والدها وصرامته ما ينبىء أن الحكاية جد فاستخارت الله واستحالت الى تمثال نزولا على رغبة والدها ليلتقط المصور الصورة ٠٠ أول صورة ٠

* * *

بدأ الأجر وبدأت أم كلثوم تعود الى الكتاب .. سوف لا تسمع حوارا يؤلمها مرة ثانية .. هذا هو القصد لأنها ستضيق بالكتاب بعد هذا ..

ومع العودة الى الكتاب عادت الى أعمالها الاضافية فيه كتنقية الغلة وتحمية حرم سيدنا (ودعك ظهرها) .

على أن الكتاب لا يخلو على الرغم منمقرعة الشيخ حسن شـــلاطة العريف وتأليب أم الخير ، حرم سيدنا ، زوجها ، على أم كلثوم .. لا يخلو الكتاب على الرغم من هذا من متع فهى تذهب اليه مجعوصة على كرسى السلطان .. وهى تلعب فيه مع البنات والأولاد وتشكهم المقالب التى يقعون فيها وتتفرج هى ضاحكة .

كانت لا تخاف من مخلوق فى حياتها قدر خوفهـا من سيدنا حتى انه عندما لاحت ساعة الخلاص بالنسبة اليها ومات سيدنا لم تصـــدق الخبر .. وكيف لها أن تصدق أن سيدنا الرهيب يمكن أن يموت مثل بقية الناس ؟ وتسمع منها القصة بعد عشرات السنين كأنها تجرى لساعتها من خطر وقعها فى نفسها فى حينها ..

(كان أول ما خطر فى بالى أن أطمئن على أنه مات بالفعل فجريت الى بيته فوجدت زوجتـــه تبكى وتصرخ بشدة فلم أصدق وعدت أجـرى وأدور على باقى منازل أقاربه ومعارفه فوجدتهم يبكون . فرجعت مرة ثانيـة الى بيت الرجـــل وقد قررت أن أدخـل حجرته لأراه على فـراش المـوت .. وبالفعل انسللت بين أرجـل المعزين ودخلت الحجرة ورأيت سيدنا ممددا على السرير .. ولكننى لم أطمئن الا بعـــد أن سرت وراء الجنازة ورأيت المشيعين ينزلون سيدنا الى القبر ويقفلون عليه ويعودون من غيره .. فى هذه اللحظة وحدها شعرت بالاطمئنان .. ومضـيت أجرى وأقفز فى سعادة فقد تصورت أنه بموت سيدنا انتهى عهد التلمذة والذهاب الى الكتاب بالنسبة لى .. كنت أتخيل أن سيدنا هو الذى بدع مسالة التعليم كلها .. وأننى بانتهائه قد تحررت نهائيـــا من المذاكرة وتحصيل العلم .. ولكن اتضح بعد ذلك أن موت سيدنا جاء على « دماغى » فقد أرسلونى الى مدرسة السنبلاوين وأصبح على أن أسير على قدمى كل يوم ذهابا وايابا خمسة كيلومترات ونصف كيلو .. ساعتها فقط ترحمت على سيدنا الشيخ ..)

ومدرسة السنبلاوين هذه التى تشير اليها أو كتاب عزبة الحوال سيده أو سيدنا اسمه الشيخ ابراهيم جمعة وهذا الرجل لم يضطهدها كالشيخ عبد العزيز فأحبت التعليم ربما لأول مرة فى حياتها ..

وكانت في هذا الكتاب تذهب فى فترات الراحة الى بيوت بعض الجيران جيران المدرسة فتغنيهم فيغدقون عليها خمســة مليمات أو عشرة مليمات فتعود فرحة سعيدة تحنس زملاءها وشقيقها وقريبها صابرا بالنقود ثم تنظر اليهم وهم يتميزون من الغيظ ..

لقد بدأت تحس بنفسها وأنها غدت شيئا غير لداتها من بنات القرية وأبنائها .. فلم تعد تلعب على الترعة مثلهم .. انها تتلقى العلم فى المدرسة ، وتتلقى الفن فى البيت ولو بمفهوم القرية للعلم والفن ..

عادت الصغيرة السمراء ذات يوم من الكتاب الى البيت وما كادت تمرق من الباب حتى اجتذب سمعها صوت حلو يغنى موشحا ، كان الشيخ زكريا قد لحنه للشيخ على محمود حين كان يعمل فى جوقته .. هـــذا الموشح هو :

مولاى كتبت رحمة الناس عليك فضلا وكرم

فالمرجــــع والمـــآل والكل اليـــك عرب وعجم

مالى عمل يصلح للعرض عليك بل صار عدم

فارحم ذلى ووقفتى بين يديك ان زل قــــدم

ولعل هذا سر حبها لهذا الموشح وتمسكها بترديده حتى بعد أن وضعت قدمها على أول درجات السلم .

كانت تتبرك به فلم يصدها عنه الا « قفشة » من مستمع يبدو أنه سمعه مرارا فما كادت تقول : مولاى كتبت رحمة الناس عليك .. حتى بادرها قائلا :

كتبت الغلب علينا يا ستى ..

ولم تكن وقتئذ أم كلثوم التى تجيد النكتة فلم ترد عليه ولكنهـــا افرغت شحنتها من الغضب فى البكاء .. وعبثا حاولوا افهامها أن الأمر لا يعدو نكتة طايرة .. ولكنها بعد ذلك لم تعد تحتاج الى من يفهمها النكتة أو كيف تقابلها وترد عليها فقد حدث سنة ١٩٦٤ عندما غنت فى الوصلة الأولى :

اذا مت ظمآنا فلا نزل القطر .

فقفز أحد السامعين وصاح :

ــ الله لا يجعله ينزل !!

وغالبت أم كلثوم الضحكة .. واستمرت فى الغناء .

* * *

بدأ الوالد يأخذها معه فى البطانة كأخيها .. واتفق أنه كان يوما ينشد مع فرقته البيتين :

جــل من طــرز اليـاســمين فــوق خـــديك بالجلنـــار
وارتضى ذا الجمـان الثمين معـــدنا من لمـــاك العقار

وكانت الصغيرة أم كلثوم تردد مع المرددين البيت الأول .. حتى اذا وصلت عند لفظة « الجمان » فى البيت الثانى سكتت ، ولاحظ أبوها انقطاعها عن الترديد عند هذه الكلمة .. فاستوضحها السبب فأجابت بأنها تسكت عند لفظة « الجمان » لأنها لا تعرف معناها وتخشى ترديدها فترتفع بالصوت أو تنخفض به فيكون فى هذه الحالة أو تلك غير مطابق لمدلول الكلمة .. وسمع الوالد هذا الجواب فزاد يقينه بأنه سوف يكون لابنته شأن عظيم .. ولا شك أنها أيضا فطرة موهوبة تلك التى تقــدر الحس اللفظى للكلمات ولم تكن بعد لقنت علما بالمعنى الصحيح أو صقلتها معرفة .

ومضت الأيام وكانت فى سيرها تمهد الطريق لأم كلثوم .. لمح الوالد تفوق ابنته الساحق على أخيها فاستغنى بها عنه .. وهى لاتزال طفلة حتى أن أباها كان يتفق على أجرها ويساوم فيه على طريقة الريفيين ثم يقبض وهى فى شغل عن كل هذا .. فقد الهاها طبق المهلبية الذى يشترط أبوها تقديمه لها لاغرائها باصطحابه فى الموالد والأفراح ..

وقبل أن نمضى معها فى الطريق الوعر نذكر أن الشيخ ابراهيم حين قرر اصطحابها معه فى بطانته اصطدم بالتقاليد .. أيأخذ فتاة وهو رجل ريفى .. كيف يتخطى هذه العقبة ؟ وأخيرا وجد الحل فى أن تتنكر الفتاة فى زى غلام .. أما شعرها فيغطيه بكوفية وعقال !

وهكذا بدت أم كلثوم كالبدوية .. ولم يذهب اقتراح صاحبتنا الجارة التى شهدت مولدها ، عبثا . فقد صارت البنت بدوية فعلا لا اسما فحسب .

جـل من طـرز الياسـمين فـوق خـديك بالجلنار

كان أطفال القرية يرددون (البحر بيضحك لى وأنا نازله أدلع أملا القلل) وكانت الطفلة أم كلثوم تحفظ القصائد والتواشيح لتسرح بهـا فى القرى لقاء قروش .

ولعل هنا سر حبها ، بعد أن كبرت وكبرت شهرتها ، للأطفال لأنها لم تعرف لها طفولة .

وفى هذه الفترة عرفت الفتاة شظف العيش ومرارة الكفاح .. كانت تنتقل مسافات على ظهر حمار ، وكانت تحس وقدة الظمـأ فى الطريق ..

مهما وصف الكاتبون وأطنبوا فى تصوير بؤس البائس لا يبلغ انشاؤهم بعد الجهد ، تصوير الشقى نفسه لبلواه . وهيهات بين من يكتب عن غيره من وحى الخيال وبين من يكتب عن نفسه عن مكابدة واحساس . لهذا سأتركها تصور بنفسها تلك الأيام بعد أن مسحت الأقدار بيـد النعمة ما سكبته فيها من دموع .

(هناك من حوادث طفولتى ما أذكره اليوم فأبتسم مع أن هذه الحوادث كانت تبكينى !

اذكر أحـد الأفراح التى حضرتها فى مستهل حيـاتى الفنية .. فقد اتفق أحدهم على أن نحيى له فرحا فى قرية بالقرب من « نبروه » .

ولا أزال أذكر صبيحة يوم الفرح حين أخذنا القطار من السنبلاوين الى المنصورة ثم عبرنا النيل الى « طلخا » وركبنا السـكة الضيقة الى « نبروه » ووصلنا اليها أخيرا لنجد مفاجأة تنتظرنا ! فان أصحاب الفرح قد نسوا أن يسعوا الينا بالركائب لتحملنا الى قريتهم البعيـدة عن الطريق ..

واحترنا بعض الوقت .. ثم ردد والدى أخـيرا احدى حكمه التى يلقيها فى المناسبات قائلا : المشغول لا يشغل !

وأخذ هو يدبر أمر الركائب فاستأجرنا عددا منها واتجهنا الى القرية وكانت هناك مفاجأة أخرى !

كانت القرية خالية من معالم الفرح •• وسألنا عن بيت أصحابه الذين تعاقدوا معنا • واستطعنا بمجهود شاق أن نصل الى بيتهم وندق بابه المغلق • وخرج صاحب البيت • فأطل من بابه وهو نصف مغلق ونظر الينا في فضول وقال :

ــ خير •

وقال والدى :

ــ خير ان شاء الله •• أما اتفقت معنا على أن نحيى عندك الليــــلة فرحا ••

وقال الرجل وهو لا يزال واقفا فى فتحة الباب :

ــ ما أجلناه !

ودهش والدى فقال :

ــ أجلتوه ! لكنكم لم تقولوا لنا ••

ورد الرجل فى برود :

ــ أقول ايه •• ماهى البلد كلها عارفة ••

ثم صاح بجاره وكان واقفا على باب منزله المجاور :

ــ الا بحق يا محمد •• موش احنا أجلنا الفرح ••

ورد (محمد) فى بلادة مثيرة : آه !

وكانت أعجب (آه) سمعتها فى حياة مليئة بالآهات !

ورجعت أم كلثوم والفرقة يجرون لتعاستهم أقدامهم جرا الى محطة نبروه ليركبوا قطار الدلتا الى طلخا •• الخ الاسطوانة •

وتقول أم كلثوم :

ودعينا مرة أخرى الى حفلة فى قرية مجاورة للقرشية بالقرب من مدينة طنطا •• ووصلنا الى القرية ونزلنا بمنزل صاحب الحفلة ننتظر مجىء الليل لتبدأ الأفراح ••

وجاءنا صاحب الحفل قرب العصر وقال : ألا تريدون أن تشاهدوا مكان الاحتفال ؟ وقلنا : هيا بنا ••

فنزلنا حيث كان الاستعداد على قدم وساق لاحتفال تلك الليلة •

ولما وصلنا الى حيث كان يجب أن أقف وأغنى • ربت الرجل على كتفى فى طيبة وقال :

ـ اسمعى يا بنتى حين ترين هذا الفانوس قد كسر فانزلى واختبئى تحت المنصة • وسأله والدى فى دهشة : ليه ؟

وقال الرجل فى صراحة مازلت أحسده عليها :

ـ أصل بقى بالحق •• ثم أخذ يروى لنا كيف أنهم أحضرونا لاقامة هذه الحفلة لكى يدعوا اليها أهل قرية مجاورة لينصبوا لهم كمينا أثنـاء الحفلة ليضربوهم ••

وبدأت ركبى تهتز •• وأسنانى تصطك •• وجاء موعد الحفل ، وبدأت الجموع تفد الى السرادق ، ودخلت فاعتليت المنصة وأنا أنظر الى حيث يجب أن أهرب عندما يكسر الفانوس • ثم نظرت الى الفانوس وهو يهتز وقلبى يهتز معه وأنا أغنى (سبحان من أرسله رحمة) ولم أحس فى حياتى أننى أغنى بوجدانى ومشاعرى كما كنت أغنى للفانوس • وأنا أخاطبه ناظرة اليه من خلال الدموع (سبحان من أرسله رحمة) •• وفجأة تحطم الفانوس • وكنت أسرع من البرق فى الاختفـــاء تحت المنصة •• ويبدو أننى لم أكن أكثر الناس خوفاً ، بل ان صاحب الفرح نفسه هو الذى كان يرتعد رعبا فقد اكتشف بعد فوات الأوان أن أهل القرية الأخرى جاءوا وهم أيضا يضمرون العدوان وجاءوا وفى نيتهم أن يقلبوا الفرح مأتما •• وكانت مفاجأة لصاحب الفرح أن يكتشف أن ضـيوفه كانوا أكثر اسـتعدادا وقوة من الكمين الذى نصب لهم ودارت الدائرة عليه !

وما صدقنا أن خرجنا من القرية فى اليوم التالى وأنا أردد من قلبى بايمان منقطع النظير : سبحان من أرسله رحمة !

ومن القصص الذى ينام فى أعماق ذاكرتها تلك القصة يوم ركبت قطار الدلتا المترنح ونزلت منه لتركب الحمار أربع ساعات فى جو قارس البرد حتى تجمد الدم فى قدميها ، أو هكذا أحست ـ وتقلصت ركبتاها فلم تستطع الوقوف عندما نزلت من على ظهر الحمار فحملتها الفرقة حملا الى بيت الفرح •• وهناك وضعوها على الأرض ولكنها بقيت طويلا وهى لا تستطيع تحريك قدميها أو ساقيها من البرد •• ومن التعب •• ومن الجوع •• من يدرى ••

وآن موعد الغناء وهي على هذه الحال فصعدت الطفلة المتعبة الى المنصة المرتفعة التي أعدت لهذا الغرض فاذا هي التي ترتجف من البرد تجد نفسها على المنصة في ملقف هواء ·· في ملتقى تيارات عاصفة فكانت البنت تهتز اهتزازا وتصطك أسنانها ثم أخذ وجهها يزرق من شـدة البرد ·

وارتجف أبوها لا من البرد فحسب ولكنه ارتجف أكثر من الخوف· البنت ستضيع بهذه الطريقة · ولم يطل تفكيره فقد خلع ملهوفا عباءته ووضعها على كتفيها ليدفئها ولكنه لهوله رآها ما زالت ترتجف وبشدة ·

وتلفت الرجل حائرا زائغ البصر فاذا بأصـحاب الفرح يتحلقون جماعات حول دفايات ليسمعوا مبسوطين ! ولم يدر بخلدهم أن يدفئوا تلك الشقية التي ستمنحهم الدفء الحقيقي ··· التي ستغنى لهم ···

وهنا لم يتمالك الشيخ ابراهيم نفسه فوقف يصـيح بملء غيظه وحنانه معا :

ـ يا تبعتوا لنا دفاية احنا كمان يا موش حنغنى ·

وهنا أحس الجامدون وتزحزحوا يحضرون دفاية ووضـعوها على المنصة ··· ومضوا ··· فأخذ الشيخ ابراهيم الدفاية ووضعها بالذات عند قدمي أم كلثوم ··· وعندئذ وقفت وغنت ···

كل هذا ··· القطار والحمار والبرد مقابل ١٥٠ قرشا !!

وأحيـانا ينضم المرض الى هؤلاء فقد مرضت في هـذه الفترة بالدوسنطاريا فلم ترقد بل ركبت حمارا وهي في أشـد حالات المرض أكثر من عشر ساعات !

وفي سنة ١٩١٥ كانت أم كلثوم تذهب الى القرى راكبة حمارا ويسير أبوها وأخوها على أقدامهما ···

ولما بدأت القرى تتسامع بها كان أصحاب الحفلة يرسلون الحمير لاحضارهم · ولكنهم بعـد الحفلة يتركونهم في عرض الطريق يعودون سيرا على الأقدام بعد أن تختفى الحمير اختفاء تاما ·

ولما أحس أبوها بقيمتها الفنية بدأ يشترط في حزم عند الاتفاق على الأجر ، تحمل أصحاب الحفلة نفقات ركوب الحمير ذهابا وايابا حتى لا ينقص أجر الفرقة قرشين أجرة ركايب ·

ولما تجمع لدى الشيخ ابراهيم شيء من مال بعد أن قامت أم كلثوم بعملية مسح القرى المصرية ، اشترى حمارا وكان هذا علامة ثراء ... فعلق الرجل الطيب ، للحمار خرزة زرقاء خوفا من الحسد .

ثم اشترى الرجل خرزتين أخريين ...

ولعل أم كلثوم كانت أشد أفراد الفرقة فرحا بالحمير الثلاثة اذ لم يكن ينغصها شيء كالسير فى الطرق الوعرة مسافات طويلة ...

وكلما زادت شهرتها ازدادت معها شروط الرجـــل الطيب مقتفيا شروط المشاهير فى ذلك الوقت ...

فمثـــلا كان الشيخ حسن جابر المقرىء والمطرب المشـــهور فى الأرياف مغرما بشرب (الكازوزة) وكان يكثر منها ظنا منه أن لها تأثيرا فى حلاوة الصوت وصفائه . فكان بحكم شهرته ينص فى أول العقد على أن يتكفل أصحاب الفرح أو الحفلة بتقديم (ما يشـــاء) من زجاجات الكازوزة التى يطلبها ... ويكرر عبارة (على حسابهم) بصـور شتى كان يقول النص (دون أن يدفع ثمنها) ، (دون أن يخصم ذلك من الأجر المتفق عليه) .

البند الثانى : أن تكون الكازوزة « سباتس » .

وتأمل الشيخ ابراهيم يوما هذه الشروط ... ويبدو أنها راقته فعول على الاقتباس ، ودون اشارة أيضا الى المصدر ... فبدأ فى عقود أم كلثوم ينص على أن تقدم لها الكازوزة مجانا ، (على حساب) أصحاب الحفلة ، و (دون أن يخصم ذلك من الأجر المتفق عليه) ... وما حدش أحسن من حد فى رأى الشيخ ابراهيم على الأقل !!

وكانت أول حفلة نص فيها الشيخ ابراهيم على هذا النص حفلة فى بلدة (شبراويش) مركز أجا ...

عقد والدها سنة ١٣٣٨ هـ

ومنذ ذلك اليوم غدت أم كلثوم بحكم القانون أى بنص عقد الشيخ ابراهيم ، فى مركز الشيخ حسن فما دامت المقدمات واحـــدة فالنتائج واحدة .

ولم يكن أبوها وحده هو الذى بدأ يغالى بها فقد أخذ خالد أيضا ، الشيخ الصغير ، يراها شيئا ··· يراها حاجة كبيرة حتى انه كان اذا سمع الناس يقولون « البنت دى لها مستقبل » يتململ من ضيق ويقول :

ـ معنى كده ان الناس موش مبسوطين دلوقتى ·

تقول أم كلثوم :

« أما أنا فلم أكن أتضايق من شيء ··· كنت ما زلت طفلة فى التاسعة أو العاشرة لا أكاد أعى أو أفهم أى شيء مما يدور حـــــولى فى الدنيا » ···

حتى عندما فهمت ما يدور حولها ، فان رأيها فى صوتها فى ذلك الحين أنه مجرد : طرفة ···

ـ ماذا كان رأى الناس فى صوتك وانت طفلة ؟

طبعا لم يكونوا ينظرون الى غنائى باعتباره غناء حقيقيا وانما كانوا يستمعون الى باعتبارى شيئا جديدا وطريفا ··· طفلة صغيرة فى السابعة تغنى بصوتها الرفيع ما يؤديه الرجال ذوو الأصوات الخشنة من تواشيح دينية ومديح فى الرسول ، كما يستمع الناس الآن الى طفل صغير يلقى خطابا باللغة العربية الفصحى فهم لن يستمعوا الى الخطاب باعتباره شيئا جديدا وانما باعتبار أنه شيء طريف لأن الذى يلقيه ولد صغير :

* * *

حتى ذلك الوقت كان عالمها كله : طبـــق مهلبية تأكله ، وزجاجة كازوزة تشربها ، وحمار تركبه ··· هذا هو غاية المراد من رب العباد !

وكانت حفلات ذلك الوقت تستغرق أربع ساعات منها ثلاث ساعات ونصف شجار روتينى بين المتفرجين ونصف الساعة الباقية ··· غناء ·

وواصلت الفرقة نفسها على هذا وعملت فى دائرته حتى كان يوم ذهبت فيه الى بلدة (ميت رومى) على البحر الصغير بشمال الدلتا · وفى جعبتهم من التواشيح ما يغطى نصف الساعة المعهود · فاذا بالحفلة لا يلوح فيها بوادر شجار أو عراك واذا بها تمر هادئة على غير العادة ···

وأخذت أم كلثوم وفرقتها فى الغناء فأتوا على ما عندهم فى نصف ساعة والمفروض أن تمتد السهرة الى الفجر ...

وحار الشيخ ابراهيم وأخيرا رأى المخرج من ورطته فى الاعادة فأشار عليهم بها . فأخذوا يكرون كالببغاوات ما قالوه ثم يعيدون . واستمروا على هذا المنوال وقتا طويلا كانوا فيه قد أعادوا ما قالوه ست مرات !!

وأخذ الشيخ ابراهيم درسا قاسيا .

ومنذ ذلك الحين بدأ يدرب الفرقة وفى مقدمتها أم كلثوم على أغان جديدة .

* * *

كانت أم كلثوم الطفلة فى ذلك العهد تقف على أرصـــفة المحطات ١٣ ساعة فقد كانت المواعيد ٦ صباحا ، ٦ مساء فكان الذى يحدث أن يصل ركب الشيخ ابراهيم بعد دقائق ليجد القطار قد تحرك أو قام . ويبدو أن قطارات زمان كانت تسير فى مواعيد مضبوطة .

وهنا تفترش الفرقة رصيف المحطة فى انتظار قطـــار السادسة مساء !! هكذا ببساطة !

ويستغل بائع السميط فرصة وجود طفلة بين الشلة ليتفنن فى النداء على البيض والسميط . وتلتفت أم كلثوم التى لا تكف عن الحركة وتفتح عينيها فى دهشة بالغة ... البيض تعرفه نعم ولكن الشىء الآخر ما هذا ؟ وماذا يكون طعمه يا ترى ؟ سميط يعنى ايه ؟

وانتظارها هنا لا يطـــول فسرعان ما تعمل يدها فىجسم والدها تهمز وتلكز وتغمز فى سرعة وتوال ...

ـ مالك يا بت .

ـ عايزة من ده .

ـ ده ايه ؟

ـ اللى الراجل بيقول عليه ... السميط .

ويشترى والدها سميطة ويقسمها نصفين يعطيها نصـــفها ويعطى (خالد) النصف الآخر ...

غرامة ولكنها شيء يلهيها حتى يصل القطار ..

وما أكثر ما كان الانتظار يطول تحت وابل من الأمطار الغزيرة فى برد الشتاء !

وفى يوم اكتشف الشيخ ابراهيم شيئا خطيرا .. لقد عرف سر مفتاح باب استراحة الركاب ... لم يكن مفتاحا عاديا ... بل كان مفتاحا من الذهب يقوم فى حنجرة أم كلثوم ... لقد غنت يوما لناظر المحطة فسر حتى غلبته النخوة من فرط سروره ففتح لهم استراحة الركاب وأجلسهم فيها .

ومنذ ذلك اليوم لم يعد الشيخ ابراهيم يحمل هم الانتظار ... فمعه مفتاح الاستراحة .

وما أكثر نظار المحطة الذين غنت لهم أم كلثوم .

ومع هذا فالمفعول السحرى (للمفتاح) موقوت بالنهار ... أما الليل فعلى الشيخ ابراهيم أن يرى له (صرفة) ...

وفى احدى المرات سحب الرجل وراءه قريبه وولديه ليبحثوا عن مبيت . وكانت قرية غريبة عليهم فلم يوفقوا الى مكان . واضطروا الى قضاء الليل فى (حاصل) اى حظيرة ...

وكان يشاركهم فى هذه الحظيرة جمل ...

ولم تنم الطفلة أم كلثوم ولم تغمض لها عين ... ويراها أبوها مفتوحة العينين زائغة النظر فلا يفعل الا أن يقول لها : ما تنامى ...

ـ طيب .

ـ يا بت نامى .

ـ حاضر .

حاضر وطيب والرعب يفكك أوصالها ويهز كيانها ...

وتغطى وجهها بالعباءة كأنها تختبىء من الجمل على طريقة النعامة ... ولكنها ما تلبث أن تخرج راسها وتنظر فترى الجمل يسدد نحوها نظراته ... هى بالذات . أو هكذا خيل اليها فتزداد رعشتها التى يحسبها أبوها بسبب البرد فيدفدف عليها ويحكم الغطاء ...

ــ أنا خايفة يابا ٠

ــ من ايه ؟

ــ خايفة من الجمل ٠٠٠ دا متقصدنى ٠٠٠ بيبص لى ٠

ــ ما تخافيش كلنا نايمين ٠٠٠ اشمعنى أنت ٠٠٠

وتضطر أم كلثوم الى الخضوع لهذا القياس العجيب فتسكت هى ولكن خوفها لا يكف ٠٠ كان الخوف يصرخ فى داخلها ٠٠

وتذكر الشيخ ابراهيم المصحف الصغير الذى يحمله فاعطاه لها لتنال بركته وتنام ٠٠٠ وكانت أم كلثوم فى اشد الحاجة الى النوم فنامت ٠٠

وتغيرت الحال وانتقلت أم كلثوم من طور الى طور فغدت تنام فى فراش وثير ولكنها لا تستطيع أن تنام الا والمصحف الى جانب راسها ٠٠٠

* * *

وبينما أم كلثوم تتجول من قرية الى قرية اذ بعبقرية اخرى تصدح فى المنصورة وتقوم بالتجول هى الأخرى ٠٠٠

كان هناك صبى صغير قد رحل فى ذلك الوقت من بلدته فارسكور الى المنصورة ٠ وكان يهرب من المدرسة كما كانت هى تهرب من الكتاب ليذهب الى دكان لجار من هواة العزف على العود ٠٠٠ وعلى يد الأسطى حسن تلقى طفل فارسكور وان كانت سنباط قد ذهبت بشهرته ، دروسه الأولى فى الفن ٠٠ مع أن والد الطفل كان موسيقيا محترفا برع فى العزف على العود ٠ ويعتبر من رجاله فى دنيا الموسيقى الشرقية القديمة ٠٠٠

أم كلثوم تتجول مع والدها ٠٠ والطفل يتجول مع والده ٠٠٠ وكما قبل الشيخ ابراهيم بعد تهيب أن تغنى أم كلثوم فى حفلات الريف قبل والد الطفل أن يغنى ابنه فى حفلات الدقهلية ٠٠٠

ورأت المنصورة فرقة موسيقية اخرى يتوسطها طفل هذه المرة يغنى (ناح الحمام والقمرى على الغصون) ثم يعقبها بأغنية داود حسنى (أنا اعشق فى زمانى) ٠

وكما كان الشيخ ابراهيم يعلم فتاته أم كلثوم الموشحات مبتدئا بالموشح (جل من طرز الياسمين ٠٠) كان والد الطفل يعلمه الموشحات مبتدئا معه بموشح :

قد حركت أيدى النسيم تلك الغصون المُنثَنِي
فانهض وبادر يا نديم الى رياض السندسى

لم يكن الطفل الفنان غير **رياض السنباطى** ٠٠٠ أو هكذا نسبوه ربما لحلاوة صوته الى سنباط بلد الحب والجمال والغناء ٠٠٠ فسنباط أو كفر سنباط كفر عجيب ليس كغيره من الكفور المتناثرة على أطراف القرى فى ريف مصر ٠٠٠ انه فى الحقيقة كفران ٠٠٠ كفر الغرباء وكفر الغجر ٠٠٠ ومن كفر الغجر يخرج (الغوازى) الى كل مكان ٠ وعندما يتردد السؤال : من أين ؟ يقلن :

ـ من سنباط ٠

ويتبرم أهل سنباط بهذا الجواب ٠٠٠ ولكن هذا التبرم يناقضه شيوع هذه الأسماء بين رجالهم : محب ٠٠٠ متيم وما يدور فى فلكها ٠٠ سنباط حيث يشيع مولد (أبو جرج) سحرا لا يبلغه عيد فى مصر ٠ و (أبو جرج) وهو صاحب الكنيسة الوحيدة فى (ميت دمسيس) قرب سنباط ٠ وهى الكنيسة التى تقول الحكايات أن ذراع ريتشارد قلب الأسد مدفونة فيها ٠٠٠

وفى ١٥ سبتمبر من كل عام يمتلىء النهر بآلاف القوارب ذات الأشرعة البيضاء الرفرافة تحت كل شراع ثلاثة أو أربعة من المحتفلين بالعيد ومصباح موقد يعلق على الصارى عندما يجيء الليل ٠٠٠

الى سنباط حيث يمتزج سحر الأصوات مع سحر الأساطير مع سحر الأعياد وما فيها من بهجة ورقص ودفوف وألوان الفرح ٠٠٠ الى سنباط هذه نسب رياض ٠٠٠ السنباطى ٠

وفى قرية « قرين » دقهلية ٠٠٠ وفى يوم مطير قارس البرد لمح الوالدان أحدهما الآخر : الشيخ ابراهيم ، والسنباطى الكبير فتصافحا ٠ وأخذا يتحدثان عن هموم العيش ومساعى الرزق ثم عن الرائج من الأغانى الشعبية التى يعيشان عليها ٠٠٠ وفى هذه الأثناء تصافح الطفلان بدوريهما : أم كلثوم ورياض وأخذا يثرثران حتى وصل القطار ٠٠

كانت فتاة صغيرة تلبس عقالا وثوبا من وبر الجمل . ولكنها كانت ترتعد من البرد على الرغم من ثوبها الصوف ...

ولعل هذه البداية الممطرة حددت علاقتهما بعد هذا الى حد كبير .. فطالما رأينا فى أفقيهما رعـــدا وبردا ومطرا تتفتح على اثره الأزهار ، ويضحك النوار ، وتسعد الملايين بكل طروب معجب من الألحان ..

وذهب الطفلان كل مع والده فى الطريق فلم يلتقيا الا بعد سنين فى القاهرة .

* * *

وحين كان هذان الطفلان يشقان الطريق الصـــحيح ، كان هناك طفل آخر فنان ولكنه تائه فى الدروب ... وكان والده فنانا أيضـــا كوالديهما ... كان الوحيد فى عصره الذى يتقن النوتة الافرنجية غير انه كان يحرم على ابنه أن يقرب عوده ، لأنه يعرفه (جنا) أفسده التدليل باعتباره ديك البنات . فكان يغافله ويتحين غيابه عن المنزل ليعزف على العود ، بالسليقة ، ما كان يسمعه منه ...

ألحق الفنان الصغير بالأزهر بعد علقة ساخنة لتحطيمه ساعة الحائط بالمنزل (كان مغرما بمعرفة أسرار وخفايا الساعات) ...

ثم اشتغل بالتدريس فى المدارس الأولية وكان يعزف على العود سرا وعلانية .. وهوى التلحين فأخذ كالهواة يتبرع بالألحان لأصدقائه من أهل الطرب ...

ولما سار على الدرب التقى بصغيرتنا أم كلثوم فى القاهرة عندما أخذ نجمها فى الظهور عام ١٩٢٤ ... وكان ذلك فى (بيت الدرى) بشارع قولة فى حى عابدين ... حيث كانت تسكن ...

انه محمد القصبجى ...

يقول القصبجى من ذكرياته :

(أول مرة سمعت فيها أم كلثوم ... ولم أكن أعرفها من قبل ... كانت فى أواخر عام ١٩٢٣ ، كانت تغنى قصائد و « طقطوقة » لابراهيم فوزى مطلعها :

« فى غرامك ياما شفت عجايب » .

وتعرفت بأم كلثوم ، بعد ذلك بسنة ، أى فى عام ١٩٢٤ ومنذ ذلك التاريخ لم أفترق عنها . وقد عرفنى بها أبى فقد كان من أصدقائه متعهد حفلات الغناء الشيخ « محمد أبو زيد » فصحبنى لأسمعها وأعجبت بصوتها ... وصعدت الى خشبة المسرح لأرى عن قرب صاحبة هـــذا الصوت الجميل ... وحييتها فردت التحية دون أن تعرف من أنا ...

وفى منتصف عام ١٩٢٤ وكنت فى هذا الوقت ألحن لجميع شركات الاسطوانات ، ومن بينها شركة (أوديون) . وكانت أم كلثوم تسجل فيهـــا بعض أدوارها ومعظمهـــا من تلحين الدكتور « أحمد صبرى النجريدى » ، وكان موسيقارا هاويا . وكان من بين الأدوار التى سجلتها له « أنا على كيفك » و « الفـــل والياسمين والورد » و « مالى فتنت » وغيرها ... فى هذا الوقت سجلت أم كلثوم أغنية من تلحينى ، دون أن تعرف أنها من تلحين موســـيقار يدعى القصبجي وهي : « آل ايه حلف ما يكلمنيش » وقد لحنتها للسيدة نعيمة المصرية ، فشعر السيد « البير ليفى » مدير شركة « أوديون » بأن الأمور سوف تتعقد فصحبنى الى منزل الآنسة أم كلثوم فى شارع قولة بعابدين وقام بتعريفى عليها قائلا :

الشيخ محمد صاحب لحن « آل ايه حلف » .

وأسمعتها اللحن على « أصـــوله » وأعيد تسجيله وبدأت علاقتى بها ... وتعرفت بأحمد رامى ... وألف لها : « ان حالى فى هواها عجب أى عجب » و « ان كنت أسامح » وقمت بتلحين أدوارها .

* * *

وقد بلغ عدد ألحان القصبجى لأم كلثوم ألحانا غير قليـــلة أشـــهرها ان كنت أسامح وأنسى الأسية » .

- رق الحبيب
- ياللى ودادى صفالك
- الشك يحيى الغرام

ـ سكت والدمع اتكلم

ـ ليه تلاوعيني

ـ انت فاكراني ولا ناسياني

ـ ياما ناديت

ـ يا مجد

كان أول شيء فكر فيه الشيخ ابراهيم عندما تحسنت الحال : هو طعام أم كلثوم أو الدجاجة التي تبيض كل يوم بيضة (دهب) •

وسمع الرجل الطيب أن البيض يحسن الصوت فبالغ بسذاجة أهل الريف في المسألة وجعلها تأكل كل يوم خمس بيضات !

خمس بيضات يوميا بلا انقطاع غافلا عن أثر هذا في (المرارة) ومن أين له أن يدري •

من أعقاب هذا ما صارت تعانيه أم كلثوم من مرض المرارة حتى أصبح الأطباء يمنعونها من أكل البيض !

وتجلس أحيانا وفي نفسها رغبة ملحة تشتهي ••• « بيضة » ! حتى لتشعر في تلك اللحظات أن من أعظم اماني حياتها أن تأكل بيضة واحدة !! واحدة فقط !

* * *

ترى هل ضاعت هذه السنوات التسع من الكفاح المرير في القرى والنجوع ؟ أبدا •• ان أم كلثوم بعد أن وصلت الى القمة تقول عن هذه الفترة ما أرويه هنا حرفيا :

ـ لقد دعكتني هذه السنوات وصقلت موهبتي وجعلتني أكثر جلدا واحتمالا وعلمتني أن الطريق أمام من يريد الوصول •• طويل طويل •••

ان كلمة (دعكتني) هذه تهز قلبي ••• ان فيها اعماقا لا يستطيع تصويرها اي لفظ آخر مهما تأنق فيه صاحبه ••• (دعكتني) فيها ألم وفيها صراع وفيها سهر وفيها انتصار في النهاية •••

حقا لقد دعكتها تلك الفترة وجعلتها أكثر جلدا واحتمالا ، وعودتها الصبر ، وراضتها على الجد الصارم ، وحفرت في نفسها آثارها عميقة سنشهدها فى الصفحات التالية ...

ثم هي ــ أي تلك الفترة ــ لم تذهب هباء فقد مكنت لها فى الأرض كالشجرة المباركة ...

ــ نفعتنى عندما بدأت أشتهر وأسجل أسطوانات . فكل أعيان الريف الذين غنيت في بيوتهم وأفراحهم اشتروا اسطواناتي ليقول كل واحد منهم لأصدقائه (تعالوا نسمع البت اللى غنت عندنا فى الفرح) .

فأنا كونت لنفسى زباين و « سميعة » ظهروا مرة أخرى بعد أن نجحت .

وبمناسبة كلمة « نجحت » انهــا تسمي مجدها كله « نجاحا » لا « مجدا » أو هكذا تقول من ذكاء ولباقة وعلم بفنون الكلام والجواب .. وان كانت تصرفاتهـا الأخرى تشي بشدة اعتدادها بنفسـها وقوة شكيمتها ...

ــ ما هو شعورك عندما وصلت الى المجد ؟

ــ من قال انني وصلت الى المجد ؟ أنا شخصيا لا أقول ذلك . ففى رأيى ان اليوم الذى يعتقد فيه الفنان أنه قد وصل الى المجد أى الى الكمال الفنى هو اليوم الذى يجب أن يعرف فيه أنه بدأ ينحدر وينهار .

ــ اذن ماذا ؟

ــ أنا أسميه نجاحا وان شئت قلت انه نجاح كبير !!

* * *

لقد بشرت أم كلثوم بالمجد صبية ... بشرها به مواطن السنانية

ـ بلدة مجاورة لقريتها ـ السيد توفيق زاهر الذى توسم فى صــوتها الخير كله ورأى فيها أكبر من منشدة موالد فى الأرياف ٠٠٠ رآها أهلا للعاصمة ٠٠٠ لابد للعاصمة أن تسمع هذا الصوت ٠٠٠

ولما كانت العواصم لا تنتقل أبدا الى الأقاليم اذ جرت العادة أن تسعى الأقاليم الى العاصمة ، فقد فكر توفيق زاهر فى حمل أم كلثوم على السفر الى القاهرة ٠

ـ ان نجاحك هنا لا يقاس بما ينتظرك فى القاهرة ٠٠٠ فى مصر لو سمعت كلامى ٠٠٠ هناك الشهرة ٠٠٠ المجد ٠٠٠

ـ مجد ؟ ده من بلدنا وساكن فين ؟

ويضحك توفيق زاهر ٠

ـ المجد يا عبيطة هو كل الحاجات الحلوة اللى مستنياك يا حلوة فى مصر ٠

وترى أم كلثوم فى الفضاء أو الخيال طبقا غويطا مملوءا مهلبية ثم ترتد الى توفيق زاهر تسأل بشقاوة :

ـ حلوه زى ايه ؟ تتاكل مثلا ولا تتشرب ؟

ـ تتاكل ايه يا حلوه ٠٠ انت بتحلمى بالأكل ؟

ـ موش كل الأكل ٠٠٠ حاجة واحدة بس ٠

ـ هى ايه يا ستى ؟

ـ المهلبية ٠٠٠

المحلة الكبرى

لم يأت دور القــاهرة بعد ٠٠٠ ففى أثناء مفاوضات (زاهر ـ أم كلثوم) كانت تدور فى الخلف مفاوضات (الشيخ ابراهيم ـ لعمان)

وحتى ذلك الحين لم تكن شبت عن الطوق ٠٠ لهذا كان النجاح مقدرا للشيخ ابراهيم صاحب الأمر ٠٠٠

وذهبت أم كلثوم لاحياء حفل زفاف نجل نعمان باشا الأعصر عمدة المحلة الكبرى ٠٠٠

ما أسعد الشيخ ابراهيم ٠٠٠ بعد مأذون القرية وخفيرها النظامى تدخل ابنته بيوت العمد والباشوات ٠٠٠

حقا انه فارق بعيد ٠٠٠ مأذون يظن أن الغناء فى داره العامرة تشريف يغنى عن الأجر ٠٠ يغنيه هو على الأقل أو يعفيه ٠٠ وعمدة وباشا أيضا ٠٠ ومع هذا يتقدم من الشيخ ابراهيم ويعطيه عشرين جنيها ٠٠ دفعة واحدة !! ولا يكتفى بهذا بل يعطى الرجل الكريم أم كلثوم «كوفية حرير » ٠

ابن ناس صحيح ٠٠٠

دمياط

كانت دمياط فى ذلك الحين بلدا ليس به من ألوان التسلية والملاهى شىء يذكر ٠٠ وكان محافظ دمياط (وسمى بك) فى ذلك الوقت كلما سئم جو العزلة والفراغ بعث فى طلب المغنية الجديدة أم كلثوم ٠٠

ويجتمع هو وموظفوه ويدفع كل منهمقدرا معلوما ويقيمون «بوفيه» وتحضر أم كلثوم فتغنى لهم وهم يأكلون ويطربون ثم تاخذ (اللى فيه القسمة) وتنصرف وأصداء صوتها الرنان تملأ جو البوفيه الذى لم تكن أم كلثوم تتبلغ منه بشىء فقد كانت لاتشارك أصحابه طعامهم٠٠ وتتبرع احدى الصحف اللاذعة بتعليل حياتها الريفى فتقول انها تفعل هذا لأنها (لاتعرف بعد كيف تأكل بالشوكة والسكين ٠٠٠) ٠

السنبلاوين

وصل ركب الشيخ ابراهيم وأم كلثوم ، الى محطة السنبلاوين ليستقلوا القطار فى جولة من جولاتهم الاقليمية لاحياء الأفراح والليالى الملاح فاذا بالمحطة رجل تعرف اليه الشيخ ابراهيم عن بعد فهتف :الشيخ أبو العلا ·· الشيخ أبو العلا ··

ــ ماذا ؟ الشيخ أبو العلا ؟ هل أنا فى حلم ؟ الشيخ أبو العلا يعيش مثلى فى الدنيا ؟ حسبته ميتا ··

حدثت ام كلثوم نفسها بهذا وفى لحظات اندفعت بعدها الى مكان الرجل الذى اشار اليه والدها ·· لقد وصلت اليه قبله · وسرعان ماتشبثت به لاتريد أن تتحول عنه ·· يخاطبه الواقفون فتجذبه اليها·· حتى الكلام تريد ان تستأثر به ·· لاتريده يكلم احدا غيرها · وهل كل الناس (يعرفوا يغنوا زيها واهم من هذا يعرفوا يسمعوه كما سمعته من فونوغراف العمدة ؟) ·

واحس الشيخ ابو العلا تعلقها به فتعلقها بدوره حتى انه قبل ، فنانا ، أن يذهب معها الى بلدتها ، مغيرا بذلك وجهته ·· الم تغير وجهتها هى الاخرى من اجله ؟ وهل يكون اقل اريحية من الطفلة ؟

قبل أن يذهب معها ·· كل مااعترض به ان قال لها حامسا : أريد ان اشرب شيئا ·

وفهمت الجنية الصغيرة فقالت : تعال وندور لك ·· بس تعال ··

وذهب معها ·· وهى تجرى امامه فى ازقة السنبلاوين تسأل كل صاحب دكان لاسيما اذا صح أن يطلق عليه (اجزاخانة) ·

ــ عندك كينا لاروش ؟

أليس ابو العلا يريد أن (يشرب) ؟ وما الفرق عند هذه الطفلة الريفية بين البيرة واخواتها وبين الكينا ؟ أليس كله « شراب » ؟

وعندما عادوا الى البيت فى صحبتهم أبو العلا هتفت بأمها :

ــ ادبحى كل الفراخ اللى عندك واللى عند الجيران كمان ·· عندنا النهارده أحسن واحد فى الدنيا ··

ارهاصات فن ٠

وأسمعها الشيخ أبو العلا من ألحانه وهى عاكفة عليه تترشف النغم

ـ أنا غنيت لك كتير ٠٠ غنى لى أنت بأه ٠٠

وعبط عليها وهى الجريئة الفهلوية حياء مفاجىء لم يلبث أن تلاشى أمام حنان (أبو العلا) وتشجيعه لها وحفاوته بها ٠

وغنت الطفلة ٠٠ ماوعته عنه ٠٠ غنت الذكية ألحانه ٠٠

أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

وترقرقت فى عينى الرجل الفنـان دمعة ٠٠ لقـد كانت هى التى ملكت فؤاده الأبوى ٠٠ بكى فنانا من الفرح اذ شهد فى تلك اللحظةمولد صوت واعد ٠٠

وانضم أبو العلا الى الأصوات التى تنادى بحتمية سفرها الىالقاهرة ليأخذ هذا الصوت مجاله الطبيعى ٠٠

ولكن الشيخ ابراهيم لم يكن مقتنعا ٠٠

ـ طماىٔ على قدنا ٠٠ عارفانا وعارفينها ٠

فيرد الشيخ ابو العلا ٠

ـ حرام يا شيخ ابراهيم أن تظل البنت هنا ٠٠ دى موهبة ٠٠ دى كنز ٠٠

وتدخلت الصـغيرة أم كلثـوم فى المناقشة وحشرت نفسها حشرا منتصرة لرأى أعظم مغن سمعته فى حياتها ٠٠ حتى بعد أن كبرت وصارت (أم كلثوم) ظلت على رأيها هذا ٠٠ كانت تعلن دائما أنه أحسن من غنى وأحسن من لحن المعانى قبل الألفاظ ٠٠

ولما رأى والدها ميلها الى الرأى المعارض غير موضوع الحديث ولكن بلا جدوى ٠٠ أخذت (تزن) حتى لاحت الفرصـة وكأن الأقدار كانت تملى لها ٠٠

كانت الفتـاة الصغيرة تمر بامتحـان عصيب لم تجتزه الا بالسهر والضنى والصبر والحرمان والدموع ٠٠ ولكن الألم بوتقة النفوس ومن ثم صقلت هذه الفترة أم كلثوم وكشفت عن معدنها ليصاغ فيما بعد فى القاهرة ٠٠ ولكن كيف السبيل الى العاصمة ؟ حقا لقد لهجت البنادر بعد القرى بأم كلثوم ، ولكن حاضرة البلاد لم يتهد الى سمعها الصوت الرخيم ٠ ٠٠ هنا تدخل القدر فزين لعز الدين بك يكن وكانت له ضـيعة بجوار طماى الزهايرة أن يحيى ليلة المعراج فى سرايه بحلوان بدلا من اقامة الحفلة بالريف ، فاستدعى ابنة القرية المجاورة التى حدثوه أن لها صوتا ٠

وهنا أترك لها الحديث لتروى لنا قصة أول حفلة غنت فيهـا فى القاهرة ٠

« وصلت الى القاهرة ، ولا أذكر منها أو عنها غير (الكرملة) التى اشتراها لى أحدهم من بوفيه بجوار محطة باب اللوق » ٠

وكانت هذه الكرملة هى كل ماحببنى فى القاهرة ، فجعلت التهمها واحدة واحدة ، حتى وصلنا الى حلوان ٠٠ دخلنا المنزل ولما شاهدنى البك وجها لوجه غمغم بكلمات تبينتها بنباهتى ٠ قال :

— « ايه لعب العيال ده ؟ » وسأل : « هى البنت دى اللى هتغنى؟»

قلت : « أيوه » ٠

فانزلونى مع والدى وأخى الى بدروم المنزل وأرسل البك يستدعى « الصييت القديم » الشيخ اسماعيل سكر لانقاذ مايمكن انقاذه من سمعة السهرة ٠ ولم أشعر بأية اهانة لهذه المعاملة نظرا لصغر سنى ٠

وحضر الشيخ اسماعيل سكر ، فجلس فى الصالة الكبرى للدار واخذ فى الانشاد ٠

وعنـد منتصف الليل عرض عز الدين بك على أصـدقائه ومدعويه فكرة استدعائى ولو للتجربة ، لعل وعسى ٠٠ فقبلوا الفكرة ٠٠

وصعدت الى الدار مسرعة من فرط السرور وظهرنا أخيرا (على وش الدنيا) ٠ وما ان وصلت حتى وقفت على (الكنبة) استعدادا للغناء ٠٠

فاهتزت ·· بالاختصار كانت (الكرملة) و (الكنبة) كل ماأعرفه عن القاهرة ·

غنيت بكل جرأة وانطلق صوتى (كالصاروخ) مندفعا فى ردهات الدار ولا أحب وصف ماتملك الناس من طرب فى تلك الليلة ويكفى أن الشيخ اسماعيل سكر الذى جاء لانقاذ الليلة كان الواسطة لدى فى اجابة طلبات (أعد وكمان)

كانت هذه أول ليلة غنيتها فى القاهرة أو منطقة القاهرة ولم أكن أشعر بخوف أو وجل أو أحس بالمسئولية التى أحس بها الآن !!

وفى تلك الليلة جاء خادم يقول ان الست تطلب أن ترى (البنت) فى الحرملك · فاتجهت ارادة (البك) الى أم كلثوم أن تذهب الى الحرملك تلبية لرغبة الهانم ··

وهنا هرول خالد بطبعه الريفى وراءها فقد كان فى حكم المقرر أن يلازمها أبوها أو أخوها فى كل خطوة حماية لها ·

وأدخل الخادم الطفلة وأخاها حجرة واسعة بهرها أثاثها الثمين ·· وما ان وضعت قدمها على السجادة حتى سمعت صوتا يقول :

ــ اتفضلوا

فتلفتت خائفة واذا بالصوت مرة ثانية يقول :

ــ اتفضلوا

وزاد تلفتها لترى مصدر الصوت فلم تقع عينها على انسان بل على طائر فى قفص وكانت أول مرة ترى فيها ببغاء ·· وببغاء يتكلم أيضا·· فصرخت مرتاعة : غراب بيتكلم ·· غراب بيتكلم ··

وجرت مذعورة فاذا بها تصطدم فى سيدة الدار التى كانت شرفت الصالون لترى (البنت) ··

وضحكت السيدة كثيرا وسرت عنها وأفهمتها أن الطائر اسمه ببغاء لاغراب · ولكن أم كلثوم أصرت فيما يبدو على أنه غراب وراحت تقص لأهل بلدتها بعد عودتها قصة الغراب الذى يتكلم فى مسلسلة العجائب التى ظلت أياما ترويها عن القاهرة ·

من هذه القصة يبدو ان ام كلثوم حتى هذه الليلة لم تتجاوز طور الطفولة بعد • فهى تفرح بالكرملة ويحلو لها العبث واللهو على عادة الاطفال ، ويراها صاحب الحفلة فيهون عليه أمرها ولا يسمح لها بالغناء الا فى أخريات الليل بعد أن يقترح على مدعويه اقتراحا تقديمها لهم غير مطمئن الى قدرتها ••

***

وعادت الصغيرة ام كلثوم بعد هذه الليلة أدراجها الى طماى الزهايرة لتقص على أمها وهى تطفر من الفرح خبر غنائها وما سمعته من كلمات الاستحسان • وتقص عليها قبل هذا كيف وقفت على الكنبة فاهتزت فى البيت الكبير الذى لم تر مثله فى طماى أو فى غيرها من القرى التى ذهبت اليها •• ان دار العمدة ليست شيئا بجانب هذا البيت الكبير •• ان القاهرة حلوة كالكرملة ••

واستقرت هذه الصورة الخاطفة عن القاهرة فى ذاكرتها ثم استمرت بعدها فى محيطها الأول • وتسامع بها الناس وأخذ اسمها ينتشر بين القرى ••

لقد كان توفيق بك زاهر على حق حين لمح فى صوتها وهجا جديدا لاعهد للناس به •• وكان الرجل صادق الفراسة حين توسم فيها نبوغا يلوح عليها وترف بشائره •• وكان موفقا حين فكر فى ارسالها الى القاهرة • ولكن كيف ؟

ان الفتاة غضة السن ، وهى ريفية ساذجة ، قد الفت ما نشأت عليه وقد لاترضى به بديلا •• وقد أخفق مرة •• ولكنه لم يفقد الأمل •• ان بريق عينيها يشع ذكاء وينم عن فطنة فليحدثها مرة أخرى عن القاهرة ومجالاتها •• لعلها • وارهفت الفتاة سمعها هذه المرة وكلما وشى الحديث عن القاهرة اتسعت حدقتاها وتحمس طموحها • وكلما ضمها مجلس

تحدثت بما سمعت عن القاهرة فتسمع من جديد مايثبت عزمها على الرحيل. وفي هذه الأثناء أقيم فرح في حي كوم الشيخ سلامة . واتفق أصحابه قبل الموعد مع والدها على أن تحييه ابنته . وناداها أبوها وأفهمها أن تستعد لتسافر معه الى القاهرة . وانتحت الفتاة مع أخيها خالد ركنا من البيت وأخذا يتجاذبان أطراف الحديث عن القاهرة ثم خرجا الى الفلاحين والفلاحات ممن رأوا القاهرة ، فجعل هؤلاء يصفون لهما المدينة العجيبة ذات المباني السامقة التي تعلو كثيرا عن بيت العمدة والتي بلغت من سحرها حدا صنعت معه حجرة تصعد الى السماء في غمضة عين !

وآوت الفتاة الى فراشها ولبثت فيه يقظانة نائمة ينسق خيالها الصور التي سمعت وصفها حينا ويوشيها لها آنا . وبين آونة وأخرى تميط الغطاء عنها ، وتتطلع من نافذة الحجرة هل سرى الليل وهل تنفس الصبح لتسافر الى القاهرة . لقد تسلل أول خيط من خيوط الفجر وتوالت بعده طلائع موكب الحياة والنور .. ان العصافير في هذا الصباح أشد ابتهاجا وأحلى صوتا ، وان الصبح أجمل طلعة وأنصع اشراقا .وان الحياة كلها في هذا اليوم أحفل بمعاني الفرح والسعادة . وهبت من فراشها لتستعد للسفر ، وأخذت تجري هنا وهناك في أنحاء البيت ، تارة لتلبس ، وتارة لتتناول طعام الافطار ، وتارة للاشيء . ان هي الا حركات تأتيها من فرط سعادتها بما هي مقدمة عليه . انها بعد حين ستكون في القاهرة أم الدنيا .

وخرجت من البيت وقد أمسك أبوها بيدها وخرجت القريةعلى عادة أهل الريف لتودعها . بعد أن ودعت هي أمها . لتركب القطار الذي يقلها الى القاهرة . القطار الذي كان يخيل اليها أنه يتلكأ في سيره من فرط شوقها الى القاهرة وجنونها بها . ولاحت لها فجأة الصورة التي استقرت في ذاكرتها صورة الكرملة وحلوان والكنبة التي اهتزت عندما علت فوقها ولكن الصورة كانت حائلة اللون ضعيفة الخطوط لم تستطع أن تتبين منها شيئا من القاهرة .. لهذا كانت تعد سفرتها هذه أول زيارة للقاهرة .

ووصل القطار في المساء .. متى كان هذا ؟ لتتول هي الجواب :

« كان ذلك منذ عدة أعوام ، لا أقول عشرة أعوام ولا عشرين عاما .. وكنا نعيش في قريتنا طماي الزهايرة ، مركز السنبلاوين ، وهي قرية

متواضعة أعلى بيت فيها لا يزيد على طابقين ، وأكبر مظهر للثراء فيها عربة حنطور يركبها العمدة ويجرها حصان واحد ! ولا أذكر أنه مرت بها سيارة فلم يكن فى القرية كلها الا طريق واحد يتسع لمرور عربة العمدة ٠٠ وبضع طرق أخرى ضيقة تتسع لمرور حمير الخفراء وشيخهم وكنت اغنى فى القرى المجاورة ، وكانت كلها قرى صغيرة ، وكنت أحسب أن مركز السنبلاوين هو أكبر مدينة فى الدنيا ٠ وكنت أسمع الحديث عن المركز كما تسمع انت الآن الحديث عن لندن وباريس ونيويورك !

وذات يوم اقبل والدى يقول لنا اننا سنسافر الى القاهرة ! ٠٠ القاهرة أم الدنيا ٠ وجلست انا وأخى خالد نتساءل عن أم الدنيا هذه ! وراح الفلاحون والفلاحات يحدثوننا عن عظمة القاهرة !

اتعرفون بيت العمدة ؟ ان فى القاهرة الوف البيوت اكبر واضخم واعظم من بيت العمدة ! وهناك عربات حنطور يجرها حصانان لا حصان واحد ! وأحيانا نجد شيئا اسمه « الترام » يجرى فى الشوارع فتدفع نصف قرش وتغمض عينيك ثم تفتحها فتجد نفسك فى مركز السنبلاوين او المنصورة او فى اجا ٠٠ وهناك بيوت عالية جدا من ثلاثة أدوار أو اربعة ادوار ٠٠ ثم هناك بساط سليمان لا بل حجرة تقف فيها وتضغط على زر فترتفع بك الحجرة الى السماء السابعة فى دقيقة واحدة ٠٠ يقصدون الأسانسير ٠٠

وكنت اسمع هذه الأوصاف العجيبة فتتسع حدقتا عينى دهشة واعجابا ٠٠ كنت لا أنام الليل فى انتظار ذلك اليوم السعيد٠٠ يوم نسافر الى القاهرة أم الدنيا !! وكنت احسب القاهرة قطعة من الجنة ٠٠ اليس فيها الحجرة التى يضغط الانسان على زر فيها فترتفع الى السماء !

وكنت اقتصدت خمسة عشر جنيها اقتصدتها بجمع القرش فوق القرش ، والمليم فوق المليم ٠ وكان والدى هو الذى يقبض اجر غنائى ، فلم اعرف كم اتقاضى فى الليلة الواحدة ٠ وكان يعطينى فى الأعياد (عيديات) فكنت اجمعها وأجمدها حتى اقتصدت ذلك المبلغ ٠ وكنت فخورة به اقفل على نفسى باب غرفتى كل صباح ، وكل ظهر وكل مساء اروح أعده وأحصيه واضع كل جنيه بجانب اخيه ، كل ريال بجانب زميله ، وكل قرش مسدود الى جانب القرش المسدود ٠

وكنت أشعر اننى بهذا المبلغ اغنى فتاة فى العالم ، كان هذا المبلغ

بالنسبة الى ثروة قارون ٠٠ ولا أظن أن عبود باشا يعتز بملايينه اليوم كما كنت أعتز بهذا المبلغ الذى اقتصدته على مر السنين !

وقررت أن أصحب المبلغ الضخم معى الى القاهرة لأشترى بجزء منه ما أشاء ٠ ألم أسمع أن فيها محالا تجارية أكبر من بيت العمدة عشر مرات وأن فيها محلا اسمه « ألف صنف » تشترى منه ألف صنف دفعة واحدة ٠

ووصلنا الى القاهرة فى المساء ولم أر شـيئا الا أنوارا ساطعة ٠ وركبنا عربة حانطور وكانت العربة مقفلة ٠ وكلما أردت أن اخرج رأسى من العربة لأتبين فى الظلام البيوت التى هى أكبر من بيت العمدة طلب منى والدى أن أعيد رأسى الى داخل العربة ! وهكذا لم أر شـيئا من القاهرة أم الدنيا الا أشباحا غامضة والا مصابيح متناثرة فى الشوارع ، ولم أسمع الا صوت حوافر الخيل وهى تمضى بنا من شارع الى شـارع حيث وقفت أمام لوكاندة جوردن هاوس ٠

وسألت أول ما سألت عن الاسانسير ، أين هى الغرفة التى يدوس الانسان بها على زر فيصعد الى السماء ؟ فلم أجده فى هذا الفندق وصعدنا على أقدامنا ثلاثة أدوار وتعبت ، وقلت لنفسى اننى أفضل بيتنا المؤلف من طابق واحد حيث لا توجد سلالم تقطع الأنفاس ٠

وادخلونا غرفة بدت لى كبيرة واسعة ، ووضعت رأسى على الوسادة فوجدتها ناعمة ، فشعرت بسعادة ٠ ثم صحبونا الى فرح فى كوم الشيخ سلامة وغنيت هناك ، ولم يلفت نظرى فى الفرح شىء ، انه أشبه بأفراح الأرياف مع فارق واحد وهو أن المدعوين أشد جرأة وأكثر كلاما وضجة من سكان الريف ٠٠ وأن أحدا لا يقوم احتراما واجلالا كلما مر العمدة أو شيخ الخفراء أو عسكرى على كتفه ثلاثة شرائط ٠

وعدت الى فندق جوردون هاوس من جديد ٠٠ ونمت واستيقظت فى الصـباح مبكرة ، فقد قررنا أن نخرج لنشترى كل شىء من القاهرة ! أليس معى ١٥ جنيهـا ؟ ساشترى فساتين وأقراطا ٠٠ واحـذية ٠٠ وشباشب ٠٠ وعرائس وكـل شىء يخطر على بال الفتاة السـاذجة الصغيرة !

وبحثت عن الخمسة عشر جنيها ٠٠ أو على الأصح عن المنديل الذى فى داخله المبلغ ، فلم أجد شــيئا ٠ فتحت الحقائب ، قلبت المراتب ، بحثت فى الحذاء وانحنيت تحت الكرسى والدولاب أفتش وأنقب عبثا !

وحـــل موعد خروجى وأبى يتعجلنى ويسالنى عم تبحثين فأجبت لا شىء ! وذلك لأننى لم أجرؤ على أن أخبره بان المبلغ ضاع أو سرق حتى لا يضربنى ٠ ومع ذلك كنت أذهب وأجىء وأدخل وأخرج بحثا عن المبلغ المسروق ٠٠٠ وهكذا شعرت أنى أشقى فتاة فى العالم ٠ شعرت بان كل سكان القاهرة نشالون ٠٠٠ شعرت بان المصابيح المضاءة فى الشوارع أيد تمتد الى جيوب الناس ! وان كل البيوت العالية مقر لعصابات قطاع الطرق ٠٠٠ واسودت الدنيا فى عينى ٠ هذه المصابيح المنيرة أظلمت ، هذه الأشجار الباسقة جفت وذبلت ، هذه الشوارع أقفرت ٠٠٠ كل ما فى القاهرة أصبح فى عينى اســـود مكروها ٠ جوها معتم ، هواؤها خانق ، سكانها لصوص ٠٠٠ لا شىء فيها يستحق الزيارة أو النظرة ٠٠٠ حتى انهم عندما صحبونى الى اهرام الجيزة لم أشعر بضخامتها ، وانما رأيت الخمسة عشر جنيها تغطى جـــدران الأهرام كلها ولم ار شــــيئا سواها ! ٠

رجعت الى بلدى وقد صممت على الا أعود الى القاهرة بعد اليوم ٠ وكان أبى كلما قال لى سنذهب الى القـــاهرة أبكى ، لأنى لا أريد أن أذهب الى البلد الذى ضاع منى فيه مبلغ الخمسة عشر جنيها ٠

وها قد مضى على فى القاهرة أعوام طويلة ، جمعت خـــلالها ثروة أحمد ربى عليها ، ولكن كل هذه الأعوام وكل هذه الثروة لم تســـتطع أن تنسينى ضياع الخمسة عشر جنيها ٠٠٠ أعز مبلغ ملكته فى حياتى ! »

* * *

أقبلت الفتاة على القاهرة وفى راسها حشد من الأحلام والالوان والصور والآمال ، ورجعت عنها وفى قلبها حشد آخر من الأحلام والألوان والصور ٠٠٠ ولكنها أحلام مفزعة والوان قاتمة وصور عابسة ٠

ألم يضع منها فيها خمسة عشر جنيها جمعتها قرشا قرشا وشقيت في الجمع والعد والتنظيم والربط ...

* * *

العام ١٩٢٠ ... وفي السنبلاوين دعا التاجر « على أبو العينين » الشيخ زكريا أحمد الى احياء ليالى رمضان بتلاوة آى الذكر الحكيم مشترطا أن يغنى أيضا بعد تلاوة القرآن وله الأجر من الله ثم من التاجر الفنان ...

وافق الشيخ زكريا على الشرط وذهب الى السنبلاوين . وبدأت سهرات رمضان . وما هي الا بضعة أيام حتى أسروا اليه أن في جعبتهم له مفاجأة عظيمة ... ولم يطل تساؤله فقد أخبروه أنهم اكتشفوا في البلدة المجاورة لهم أجمل صوت سمعوه ...

ولم يطل انتظاره أيضا فقد حضرت الفتاة أو أحضروها على الأصح ... ودخلت الصغيرة ذات العقال تتعثر في خطواتها من تهيب وحياء يلفه الخوف ومعها شيخ صغير يلبس الطقم كاملا ... الجبة والقفطان والعمامة ... ولعل هذا (التكامل) في الزى الوقور أكسب الفتى ثقة في نفسه جعلته يتقدم أخته في اعتداد كمن يرسم لها خطواتها.

ولكن عين زكريا الفنان وقعت على الفتاة دون أخيها . فأجلسها الى جواره وأخذ ينفض عنها خوفها بالحديث الحانى . فاذا بالريفية المتعلثمة الخطوات طليقة اللسان والعقل والصوت . واذا بحديثها منور من الذكاء ولطافة الروح . وما لبثت أن غنت فتم لها الاستيلاء على الشيخ زكريا الذى يقول :

(ومنذ ليلتها وأنا أصم لا أسمع الا صوتها ، ابكم لا أتحدث الا باسمها ... فقد أصبحت مفتونا بها وأقول مفتونا ، لأننى أحببتها حب الفنان للحن الخالد تمنى العثور عليه دهرا طويلا) .

ودعاها زكريا الى زيارته طيلة شهر رمضان فلبت جريا وراء القصائد والأغانى التى يغنيها وتطرب لها ، والتى كثيرا ما كان يحاول تحفيظها لها .. كما دعته الى زيارتها بقريتها طماى الزهايرة ، يقول الشيخ زكريا :

(لبيت الدعوة وتناولت الطعام على طبلية جلسنا حولها على كليم لا ازال اذكر لونه أحمر على اسود ·· ونهشنا اوزة كاملة ثم لعبنا عشرة كوتشينة · ومنذ يومئذ أخـــذت ام كلثوم ووالدها وشقيقها يحضرون لسماعى كل يوم فى سراى أبى العينين ·· ومما اذكره أن المرحوم الشيخ خالد لم يبد اعجابه بصـــوتى ، ولكن الذى أعجبه منى أننى (الفقى) الوحيد فى مصر ··· اللى عنده عشرة أزواج من الأحذية) ·

ومن الطريف أن الشيخ زكريا ظل يردد بعد أن اشتهرا معـــا ثم تقاضيا :

(أم كلثوم لها عندى وزة ولى عندها ٤٠٫٠٠٠ جنيه !) ·

* * *

كانت أم كلثوم سنة ١٩٢٠ صبية لم تتجاوز بعد طور الحداثة حتى ليترضاها زكريا بمص القصب معها ، ويلاعبها الورق على الطبلية فقـد كانت لا يستهويها شيء كالموسيقى والمرح ···

وانتهت ليالى رمضان وعاد زكريا الى القاهرة مخلفا أم كلثوم بطماى الزهايرة · ولكنها كانت أحرص منه على صداقة الفن ، او لعلها ، بلقانة الفطرة أكثر وعيا ولماذا حتى لا تترك الفرصة السانحة فقد اخـــذت تراسله · ويصف خطاباتها الأولى فى ذلك الحين بأنها كانت (تحمل عبارات ساذجة مكتوبة بحبر أخضر يذكرنى بالخضرة والصوت الحسن ، وكانت خطاباتها تدفعنى دائما الى القيام بالدعاية لهـا هنـا من حيث لا أدرى ولا تدرى) ·

وكاد العام ينقضى ــ عام ١٩٢٠ ــ ولما تصلها منه رسالة بعد · ولكن ذلك لم يكن يعنى شيئا عندها فالمسالة بالنسبة اليها لا تدخل فى نطاق خطاب ورد · وانما هى تسجيل ما يعن لها من وحى الساعة فحسب ···

ولكن عام ١٩٢٠ لم يكد ينتهي حتى بلغها منه أول رسالة ٠٠٠ رسالة لم تكن في مثل عفوية رسائلها بل كانت لها مضمون محدد الغرض. فقد طلب اليه صديق تاجر احياء فرح له فكتب لها فلبت دعوته كالعادة في قبول يشبه الامتثال ٠ لم تكن تحس ذاتيتها بعد ، لم تغد شخصية ذات خطر ٠٠٠ ومن الطريف أن الأجر المتفق عليه كان ثمانية جنيهات ـ وهو الرقم الذى صعد اليه أجرها سنة ١٩١٩ عندما ارتفعت أسعار القطن ـ رفعها الشيخ زكريا بعد الحفلة الى عشرة ٠٠٠ وقد دعا الى تلك السهرة المرحومين الشيخ على محمود والشيخ أحمد ندا فأمنا على ذوقه ورأيه ٠٠٠

* * *

عشق زكريا الفنان صوت الصغيرة أم كلثوم فكان يهديها ألحانه لأنها كانت ناشئة ضئيلة الدخل ٠٠٠ واندفع بملء حماسته يدعو لها ويشيد بها ويقيم لها الحفلات الغنائية في الحسين مرباه ٠ وجعل الدخول بتذاكر ٠ وأغراه نجاحها باعادة الكرة في نادى الشبيبة وغيره حتى سار ذكرها ٠٠٠

ولم يكن الوحيد الذى (جند) نفسه لنجاحها فقد هيأ لها القدر ، الكثير ، من عوامل النجاح وصانعيه ٠٠٠

* * *

عرفت أم كلثوم الفن ٠٠٠ ووجدت طريقها فلما تقدم اليها فى ذلك الوقت (الخطاب) ومن بينهم العمدة الثرى والتاجر الملىء وكثيرون ، لم يفلح معها الثراء والاغراء بكل الوانه ٠٠٠ لقد اختارت ٠٠٠

اختارت الفن ٠٠٠

* * *


القرن
العشرون

القاهرة (١٩١٠ ـ ١٩٣٠)

لقد استقر المقام بأم كلثوم الآن فى القاهرة ٠

كيف كانت القاهرة فى ذلك الوقت ؟

والى أى حد بلغ مستوى الفن فيها ؟

ان الصغيرة القادمة من الريف تفتح عينيها الآن على دنيا عريضة وحياة تموج بالحركة ٠

كان فى القاهرة سنة ١٩٢٠ يقظة عامة على أثر ثورة سنة ١٩١٩ التى ربطت بين المصريين جميعا ٠ فقد اشتركت فيها جميع الطوائف حتى الخاطئين هبت ضمائرهم فلم يعودوا يذكرون الا مصر ٠ لقد أعلن اللصوص اضرابهم ثلاثة أيام عن (العمل) ابتهاجا بعودة زعماء مصر من المنفى ! ولا ينسى ضباط البوليس انهم لم يصلهم خلال الأيام الثلاثة حادث سرقة واحد ٠ حتى السرقات الطفيفة التى حدثت فى الأقاليم أبى ضحاياها ان يبلغوا عنها حتى لا تخدش شكواهم جلال الاجماع !

ومنعت السلطة العسكرية المسارح من السهر بعد الثامنة تعويقا لها فلم يأبه الممثلون والممثلات وقاموا بمظاهرات تتحدى الرصاص والنار ، والشعب من ورائها يهتف بحياة (التشخيص الوطنى) ٠

كان الأزهر موقعا كبيرا تخرج منه وتصب فيه المظاهرات ٠ والف طلابه من أنفسهم محكمة عسكرية لكل من يتخلف عن مسيرة الشعب فينال جزاءه بالسلاح الأحمر !

وقد ظلت القاهرة فى ذلك الوقت تتندر طويلا بهذه القصة من قصص ثورة ١٩١٩ :

مر شحاذ أمام قهوة والاضراب شامل ٠ وجعل الشحاذ يسأل الناس الحافا بصوت غليظ ٠ وكان البابلى حاضرا فقال له :

ــ ايوه اضرب لك يوم ، انت ما عندكش وطنية !

* * *

أسكت الانجليز ثورة ١٩١٩ بتصريح فبراير ١٩٢٢ استرضونا ستقلال وهمي صرفنا عنهم كثيرا لأنه ألهانا بمظاهر الاستقلال دون وهره وشغلنا بالأحزاب ومفارقاتها ٠

نجحت ثورة ١٩١٩ سياسيا وان لم تحقق أهدافها كلها ، لقد أثبتت الوجود الثورى المصرى ٠ حتى ليسميها توفيق الحكيم (عودة الروح) ٠ ولكن الفن من الناحية الأخرى حقق كثيرا كأنه عملية تعويض ٠

ولعل سر نهضة الفنون بعد الثورة أنها أفلتت من سيطرة المحتل لأنه انشغل عنها بمحاولة اضعاف الجيش ، وقتل التعليم ، ووأد الصناعة، وبث الفرقة السياسية باعتبار هذه فى نظره الأسلحة الفتاكة التى لا يريد للشعب أن يملكها ٠٠٠

ولكن الفنون التى كان من حسن حظها أن غفلت عنها عين العدو ـ الى حد ما ـ لم تكن من الرقى فى درجة سواء ٠٠٠ كان فن الموسيقى والغناء أبرزها شخصية وأعمقها أصالة ٠ فالأدب كان ما زال يحبو متحررا من الأدب العربى القديم ، وهو فى حبوه لم يتخلص من التأثير الخارجى ، فكان يقلد الغرب مرقاة الى الابتكار بعد التقليد ٠٠٠ وكان من موضوعاته المثيرة ، النزاع حول « البرنيطة » والطربوش ٠ ومن الطريف أنه بينما كان يعمد الرجل الى نزع الطربوش واستبداله ، كانت المرأة فى ذلك العهد تتعشق الطربوش !! وفى صحف ذلك العهد (المسرح ١٩٢٦) صور لممثلات ومغنيات تضع الواحدة منهن على رأسها طربوشا وتمسك عصا ـ هذه الصبيانات لم تمارسها أم كلثوم ـ ٠

كانت لفظة أديب وعلى الأخص لفظة شاعر تحمل معنى النديم بما تعكسه الأخيرة من معانى المؤانسة والسمر ولطف الحديث وبراعة النكتة وحضور البديهة ٠٠٠ وكم ضحكت القاهرة من نوادر الشعراء أمام العبد وحافظ ابراهيم ٠٠٠ ومن طرائف البشرى والبابلى وغيرهم ٠

أما الشعر فقد كان مدحا واجتماعيات . وكان شوقى فى شبابه مزهوا بلقب (شاعر الأمير) . وقامت مدرسة الديوان تعلى من كرامة الأدب والأديب وتندد بأدب الطبول والنواح فى وقت واحد . وهاجم العقاد (شوقى) وهاجم المازنى (حافظ) و (المنفلوطى) ... وكان النقد على قسوته رحمة فأفاق شوقى وعايش الأحداث وجدد وتطور ... كما خفت موجة الرومانسيه التى مكن لها المنفلوطى ومدرسة ابولو ، ومدرسة المهجر التى تأثرت بأبولو وبمدرسة الديوان فى وقت واحد ... تأثرت الأولى فى الرومانسية بما انطوت عليه نفوس أصحابها من حزن المغترب وحنينه الوصول الى وطنه واطلاع هذه المدرسة على الادب الغربى وكانت الرومانسية فيه لم تفقد قوتها وسحرها وسيطرتها بعد . وفى هذه الفترة ترجم الزيات روفائيل وآلام فرتر . وترجم أحمد زكى غادة الكاميليا . وقد أثرت هذه الرومانسية فى الشاعر الشاب أحمد رامى الذى سافر فى العشرينات فى بعثة دراسية الى فرنسا عاد منهـا عام ١٩٢٤ ليسمع أم كلثوم بكل رومانسيته ورومانسية العصر ، ويعشقها (للصوت الحنون وللشجى) كما يقول .

وعلى النقيض . من الرومانسية الشائعة كان بعض الأدب فى ذلك العهد من سلالة النقائض ! ويبـدو أن بعض أصحابه من شجرة جرير والفرزدق شخصيا ... ومن هؤلاء أحمد فؤاد الصاعقة .

ولعل أهم الأحداث الادبية فى تلك الفترة هو مولد القصة المصرية اذ ألف الدكتور هيكل قصته (زينب) ... ثم تلاه بعد بضعة سنوات توفيق الحكيم بقصته (عودة الروح) وهى المولد الحقيقى للقصة المصرية الطويلة ...

وكانت الفنون الأخرى على غـرار الادب تتطلع الى نظائرها فى الغرب ... أما الموسيقى والغناء فقد تأصلت فيهما « المصرية » وتجلت فيهما الروح الشعبية بأوضح معانيها .

لم تكن الموسيقى فنا للخاصة دون العامة بل عاشت حياة الشعب كله فكانت صورة منه وله . واستجاب الشعب لرواد الموسيقى الأول كالشيخ سلامة حجازى وعبـــده الحامولى من الرعيل الأول ، والشـــيخ سيد درويش وداود حسنى وكامل الخلعى من الرعيل الثانى .

لقد توفى الشيخ سلامة حجازى عام ١٩١٧ فكانت جنازته جنـازة شعبية سار فيها الكبير والصغير وأبنته الصحف فى أعمدة كاملة على قلة عناية الصحف فى تلك الأيام برجال المسرح أو التمثيل .

وألف شوقى نشيده الوطنى « بنى مصر مكنكمو تهيا » سنة ١٩٢٠ فأثار ضجة كبيرة حـــول قابليته للتلحين . وانعقدت المناظرات الفنية واشترك فيها كل ذى رأى . وفتحت الصحف صدرها لمختلف الآراء حتى الاجبشيان ميل والبورص اجبسيان اشتركتا فى المعمعة بترجمة النشيد مع ترجمة لنشيد الشاعر الهراوى ليشترك قراؤهما بدورهم فى الحكم على النشيدين .

ومن الطريف أن « غاوى موسيقى » عارض النقاد الموسيقيين عمليا فلحن النشيد وهو يقول ليس فى الامكان أبدع مما كان ، أو كما قال « كلام الملوك ملك الكلام » فى التماسه الذى تقدم به الى « لجنة ترقية الأغانى القومية » اشارة الى أن شوقى أمير الشعراء .

وامتدت هذه المناظرات فلم تهدأ الا لتقوم مناظرات أخرى حـــول مارش سعد باشا سنة ١٩٢٣ أو نشيد سعد الذى اعتبرته الأقلام نشيدا وطنيا تأكيدا لشخصية هذا الشعب ودليلا عليها لا لأن سعدا زعيم أو غير زعيم بل لأنه أحد أبناء هذه الأمة العريقة ... وهو دليل شخصيتها لأنها آثرت أحد أبنائها على الملك الجالس على العرش الذى وان كان يحمل اسمها فهو لا يبلغ فى مصريته أبناءها الخلص .

وبلغ من اهتمام الرأى العام بهذه المناظرات أن جمعت فى كتاب سنة ١٩٢٣ سمى : (مناظرات الأناشيد الوطنية وألحانها الموسيقية) .

ولمعت فى تلك الحقبة أسماء كامل الخلعى وهو أستاذ فى الفن واسع الاطلاع والقصبجى وهو من تلاميذ كامل الخلعى .

ومحمود رحمي وكان أستاذا في فن التوشيح ··· وهو من أوائل الممثلين والمطربين في عهد المرحوم الشيخ سلامة حجازي · وقد درب القباني أم كلثوم على عزف العود حتى أجادته ، كما قام رحمي بتحفيظها قدرا كبيرا من التواشيح · ومع اجادة أم كلثوم العزف على العود الا أنها تحب آلة أخرى لا تعزف عليها ·· آلة طربت لها أمواج النيل والنخيل على شاطئه منذ القدم تلك هي آلة « الناى » ·

وداود حسنى (١٨٧١ ـ ١٩٣٧) صاحب (لحن المراكبية) و (ليلة فى العمر) و (أوبريت شمشون) والروايات الكثيرة مثل (صباح) و (الدموع) وهو ممن يمثلون الروح الشعبية المصرية ·

والدكتور صبرى وكان غزير الانتاج خلاقا ، وقف وراء أم كلثوم فى أول نشاتها وحدا خطاها على الطريق ·

ومن العوادين المجيدين (على احمد صادق) الذى كان مدرسا بمدرسة خليل آغا · وكان مشهورا بكثرة محفوظه من البشارف والموشحات والسماعيات التى اخذها سماعا من كامل الخلعى ودرويش الحريرى دون أن يستعين أثناء العزف بالنوتة · وقد سمعته أم كلثوم كما سمعه عبد الوهاب وصالح عبد الحى وأعجبوا به · وكانت الاذاعة تكلفه من حين الى آخر بمزاولة العزف الخماسى المكون من ابراهيم العريان (قانون) وجرجس سعد (ناى) وأحمد العريان (كمان) ومصطفى العقاد (رق) ·

ومن عازفى العود محمد عبد الله بك رشيد · أما مصطفى ممتاز فمن هواة العازفين على الكمان ···

ومن عازفى القانون الهواة محمود رافت ·

ومن المطربين والملحنين الشيخ سيد مرسى ومحمود صبح الذى كانت نوادره أشهر من اعماله الفنية ·

ومن المطربين عبد الحى حلمى الذى كان زكريا يستمع الى اسطواناته حتى يضبطه ابوه متلبسا بالطرب فيلهب ظهره بالسياط لينصرف الى حفظ القرآن ·

ومما يذكر لهذا العهد ، أى أوائل القرن العشرين ، ما يرويه زكريا من أن عبده الحامولى ومحمد عثمان ، فى وقت ظهوره ، كان اذا

ظهر فى الأفق صوت جديد يقوم كل منهما بامتحانه امتحانا عسيرا فيطلب اليه أحدهما أن يغنى موالا من عدة نغمات ثم يؤديه على (الواحدة) ثم توشيحا من ضرب معين ، فاذا ما اجتاز هذا الامتحان لبس « حزام » الطرب وأصبح مطربا •

وفى ذلك العهد وجد فى مصر من يكتب النوتة الموسيقية أمثال : محمد صالح ، ومحمد الشجاعى ، وبترو •

ويتحدث الأستاذ الدكتور حسين فوزى فى كتابه « سندباد فى رحلة الحياة » حديثا خصبا ممتعا عن الموسيقى فى تلك الفترة ... عن كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية والكراسى حوله يؤجرها هواة الاستماع ليستمتعوا بأدوار (يا طالع السعد) و (العفو يا سيد الملاح) و (محمد لابس سيفه) وما تعزفه فرقة ويلز (الولش باند) عصر كل أحد من افتتاحيات وفانتازيات من أشهر الأوبرات الى أدوار من الموسيقى الخفيفة ، مثل مارشات سوزا و (على ضفاف نهر سوانى) وأوبريتات جلبرت وسوليفان ، ثم عن الحفلات السيمفونية بعد هذا بقاعتى الكورسال وسينما كليبر يقود الأولى ادجار دو بونوس الايطالى ، والثانية ميشيل بولياكين الروسى وحفلات الرباعيات وكبار العازفين ، وكيف كانت القاهرة فى أوائل العشرينات تملك اثنين من الأوركسترات الكبيرة • ويمر بها العازفون العالميون زرافات ووحدانا حتى لا يوجد بالقاهرة أو الاسكندرية فندق كبير أو كازينو أو مشرب شاى دون أن يستخدم عددا من خيرة العازفين ، الواردين من كونسرفتوارات ... ايطاليا غالبا ، يلتفون حول البيانو ليؤدوا نماذج طيبة من الموسيقى الغربية • يقول الدكتور حسين فوزى (من « تحت ظلال الزيزفون » وحول كشك الموسيقى بحديقة الأزبكية ، وفى ظلام السينما الصامت يسنده أوركسترا قد يبلغ عشرة أفراد أو يزيد ، تنبهت فينا حاسة جديدة تختلف اختلافا كبيرا عن احساسنا بأغانينا وألحاننا وكأننا خلقنا خلقا جديدا) ويقول :

(عادت — بعد ثورة ١٩ — الفرق الأجنبية تحيى مواسمها بدار الأوبرا ، والكورسال فكان أول ما سمعت من أوبرات : « حلاق أشبيلية » لروسينى ، و « كافاليريا روستيكانا » لماسكانى بالكورسال ، ثم « لوريلاى » لكاتالانى ، و « شمشون ودليلة » لسان صانس ، و « مفيستوفيليس » لبويتو ، و « تانهويزر » لفاجنر ، و « توسكا » و « مدام بترفلاى » لبوتشينى •

وغدت القـــاهرة مركزا ثقافيا هاما ، يمر به كبـــار العازفين ، ومجموعات الموسيقى العالمية (دا كاميرا) من أوربا الوسطى ، ومن ايطاليا وفرنسا ، فتعرفت على الرباعيات الوترية ، وما يقدم فى حفلات العزف المنفرد •

وليس معنى هذا اننا أهملنا موسيقانا القومية بل انها لعلامة من علامات طريق النهضة وشـــهادة مخلصة لنوابغ الموسيقى المصرية فى أوائل العشرينات ، ان هواة الموسيقى الأوربية الرفيعة هم الذين أحبوا وآزروا وأخلصوا لذكرى الرواد الأول فى تطوير الفن الموسيقى : كامل الخلعى وداود حسنى وسيد درويش شبت طفولتنا على ألحان الشيخ سلامة حجازى ، وادوار عبده الحمولى ومحمد عثمان) •

وألف كامل الخـــلعى (١٨٨١ ـ ١٩٣٨) صـــاحب لحن رواية « اللؤلؤة » و « لص بغداد » كتابيه : (الموسيقى الشرقية) ، و « نيل الأمانى فى ضروب الأغانى » • وقد عمرا بفنون من الحانه ، كما لحن الكثير من المسرحيات الغنائية والطقاطيق والأدوار والموشحات وعنه أخذ الشيخ درويش الحريرى • وقد رسم كاتبنا الفنان توفيق الحكيم لكامل الخلعى صورة طريفة مع أهل الموسيقى فى كتابه (فن الأدب) ، وكيف سمعه عام ١٩٢٣ (وقد وضع على رأسه « كلبوشا » من صوف ، وارتدى معطفا قصيرا مرقعا فوق سروال من « عبك » ينتهى بقبقاب فى قدميه من خشب ••• وفى صدره العود يضرب عليه بأنغـــام رائعة لا يفسدها الا صوته الأجش الذى يقطعه سعال التبغ الرخيص يخرج من حنجرته كأنه خارج من ماسورة خربة فى « ماكنة » طحين ، ولكن العجيب أنى كنت أطرب لذلك الصـــوت وكأنه يخرج من بلبل ذهبى الفـــم فضى الحنجرة) •

وفى سنة ١٩٢٤ سمع الشعب بداية ألحان الشيخ زكريا أحمد ثم عاش جمهور المسرح سنوات ٢٦ و ٢٧ و ٢٨ فى فيض هذه الألحان •

يقول الشاعر صالح جودت فى مقال له عن زكريا أحمد :

(كان فى جميع ألحانه صاحب لون خاص ، لا يقلد فيه أحـــدا ولا يستطيع أن يقلده أحـــد ، هو اللون المصرى ، المغرق فى المصرية ، القاهرى ، المغرق فى القاهرية • ولهذا لمع الشيخ كما لم يلمع أحـــد غيره فى عصر (الطقطوقة) وهو العصر الذى جاء فى أعقاب الحرب العالمية

الأولى ٠٠٠ ذلك لأن القصيدة نشأت عند العرب القدامى ، والدور وهو اصلا ، مصرى ولكنه تأثر بالغناء التركى ، والموال ولد فى بغداد ، والموشح ابتكر فى الأندلس ، والمونولوج بنوعيه ، اقتبس من الغناء الحديث فى الخارج ، والأوبرا والأوبريت نشأ فى أوربا ٠

أما الطقطوقة فهى لون من الغناء المصرى لحما ودما ، نشأ وترعرع فى مصر ، ولم يزدهر الا فى مصر) ٠

* * *

وفى عام ١٩٢٤ وضع القصبجى لأم كلثوم لحن (ان حال فى هواها عجب) ثم لحن لها (ان كنت أسامح وأنسى الأسية) فكان هذا اللحن علامة طريق فى التلحين ٠٠٠ وبالنسبة الى أم كلثوم كان نقطة تحول ٠٠٠

أما سيد درويش (١٨٩٢ ـ ١٩٢٣) فهو الأسطورة المصرية فى الموسيقى حتى بلغ من تمجيد الناس له عام ١٩٢٣ أن نسبوا اليه تأليف أدواره وهو ما لم يقله ، وما لم يطلب منه ، على أن أدواره لا يدل تأليفها على موهبة أدبية ولم ترتفع بها الكلمة ولم تخلق ٠ يكفى سـيد درويش أن يؤلف أوبريت (شهر زاد) و (البروكة) و (العشرة الطيبة) وأن يلون بالموسيقى ، المعنى والكلمة ٠

لقد بلغ من مقدرته الفنية أنه لحن فى شهر واحد لثلاثة مسارح : كشكش والكسار ومنيرة المهدية فى اجادة تعطى الكم هنا دلالته وقيمته ٠

وكان الشيخ درويش الحريرى الذى كان أسـتاذ زكريا أحمد يسعى الى فنان الشعب سيد درويش مع فارق السن ويدارسه ٠ بل ان سيد درويش فـكر فى تدوين أغانيه بالنوتة ! وهـو تفكير لم يخطر للكثيرين ٠

ولم يطل عهد القاهرة بل مصر بهـذه العبقرية الموسـيقية ففى ١٩٢٣/٩/١٥ فاضت روح سيد درويش وهو يزمع السـفر الى ايطاليا للدراسة ، بعد أن أعطت مصر من فيوضها نفحات من الخلد ٠

وظلت مصر تتغنى بادوار :

ـ يالى قوامك يعجبنى ٠

ـ فى شرع مين ٠

ـ أنا عشقت ٠

ـ وأوبريتات شهرزاد والعشـــرة الطيبة ، والناصـــر ٠ وراحت عليك ٠

وقد اقامت مصر قاعة ســيد درويش تخليدا لذكره وفضله ، ومن حين الى آخر تقوم دعوة الى احياء اغانى سيد درويش الفردية والجماعية والمسرحية ٠

لقد كان سيد درويش موهوبا تعرف الى الكثير من ألوان الموسيقى، وتمثلها ثم انطلق يبتكر وانطلقت الموسيقى الشرقية معه ٠

كانت الموسيقى التى تصاحب الغناء قديما مجرد (لازمة) تؤنس المطرب يلتقط من ورائها انفاســـه أو تفتح له باب النغم أو تعينه على الوصول الى الجواب أو العودة الى القرار ٠ وكانت الآلات قليلة والجمل الموسيقية أقل منها حتى التخت الحديث بعد أن كثرت الآلات الموسيقيه به ظل يبدىء ويعيد فى نغمة مفردة ٠ وقد يدور على هذه النغمة حديث مثير بين الآلات يطيب للسمع ولكنه يبقى بعد هذا دردشة موسيقية ، لو صح هذا التعبير ، لا تقوم على أساس علمى ٠

وكان الناس قبل سيد درويش أى فى أواخر القرن التاسع عشر يعتقدون أن (عثمان) خير ملحن ظهر لما استحدثه فى الأدوار وما أدخله فيها من الحركات التى سماها الهنك ٠ وهـــو الذى شرع الردود فى الدور ، وكان الدور قبله مثل الطقطوقة اى مذهب يردده المذهبجية لينفرد المغنى بأداء الدور على مثال دور (جددى يا نفس حظك) ٠

فلما جاء سيد درويش قدم النغمة المصرية الخالصة يمده بديع خيرى

بالكلمات فيجسمها ألحانا منبثقة من وجـــدان الشعب المصرى • ومن تلاميذه فى الأغنية الجماعية أحمد صدقى ، وسيد مكاوى الذى يؤلف مع صلاح جاهين ثنائيا آخر •

* * *

وفي ١٩١٨ اشتغل بالفن غلام صغير ولد سنة ١٩٠٧ ذلك هــو محمد عبد الوهاب •

لقد أراد عبد القادر حجازى أن يواصل عمل أبيه من تمثيل الروايات الأدبية وتغلب على عقبة الغناء بدوبلاج يقوم به الفتى عبد الوهاب الذى رفض أبوه أن يعلن اشتغاله بالتمثيل والغناء ، فتسمى المطرب الصغير عند انضمامه الى فرقة عبد القادر حجازى عام ١٩١٨ (محمد البغدادى) • وتحت هذا الاسم ظهر على المسرح أول مرة وكان يلقى القصائد الغنائية بين الفصول (بعد أن شبع من المتجة) • فان أول ما غناه عبد الوهاب وهو صغير :

أنا عنـدى منجـه   صـــوتى كمنجـــة
أبيــــع وأغنـــى   وآكـــل منجـــة

ومن الطريف أن الجمهور ــ وكان واعيا بصيرا نافذا لا يجوز عليه التمويه ــ عندما سمع صوت محمد عبد الوهاب يشى بصغر سنه ثم رأى عبد القادر هاج وماج وهجم بالكراسى على الممثلين يطالب بثمن التذاكر •• ونجا عبد الوهاب من الزحام بأعجوبة •

ويبدو أن هذه الحادثة تركت أثرها فى نفس عبد الوهاب فكان يغالط فى سنه ولكن الى أكبر على غير العادة فكان حتى سنة ١٩٣٥ يدعى أنه من مواليد سنة ١٨٩٧ !!

كما هو ثابت فى جواز سفره فى ذلك الوقت تمســحا بالكهولة وانتحالا لوقار سن الأربعين ••• مع أن بديعة مصابنى تقول فى مذكراتها أنها رأت عبد الوهاب سنة ١٩٢٢ فى فرقة الريحانى فتى نحيلا يرتدى

البنطلون القصير ، ولا يتجاوز عمره الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة على الأكثر •

ويبدو أن فكرة غناء الناشيء عبد الوهاب بين الفصول راقت أصحاب الفرق فقد ضمه بعد هذا عبد الرحمن رشدى الى فرقته ليغنى للجمهور بين فصول الرواية الى جانب السيدة فاطمة قدرى ومطرب آخر اسمه سيد بهنسى •

ولكن عبد الوهاب وجد نفسه سريعا فلم يات عام ١٩٢٥ حتى كان يغنى لحسابه هو لا لحساب اصحاب الفرق • ومن الطريف ما ذكره الأستاذ محمد التابعى فى مذكراته من أن عبد الوهاب كان ينفق دخله المحدود فى حفلاته فى السنوات الأولى • وكان يسدد لمتعهدى الحفلات خسارتهم من ماله مقابل شيء واحد وهو أن يغطوا جدران المدينة بالاعلانات الملونة الكبيرة الحجم مهما بلغت تكاليف هذه الاعلانات ، والا يتركوا مقعدا خاليا فى المسرح حتى ولو بيعت التذاكر بربع السعر أو أعطيت مجانا •

لقد ظهرت عليه أعراض ذكاء التاجر صغيرا •• آمن عبد الوهاب بالدعاية مبكرا •

ونجحت الخطة واشتهر عبد الوهاب • وكان عبد الوهاب فى بداية حياته الفنية مولعا بتقليد الشيخ سلامة حجازى ثم الشيخ سيد درويش حتى اتهم باقتباس الحانه بدون تصرف •

يقول الأستاذ التابعى ــ آخر ساعة العدد ٦٨٥ ــ ١٠/١٢/١٩٤٧ ــ أن عبد الوهاب غنى فى مستهل حياته الفنية دور (القلب ياما انتظر) وفى هذا الدور ظهرت قدرته كملحن •

ويقول الأستاذ التابعى وهذا هو المهم ــ انه سمع عبد الوهاب سنة ١٩٢٥ فى دار روز اليوسف وكان اول اغنية سمعها منه هى :

(غاير من اللى هواكى قبلى ولو كنت جاهله) •

وكان عبد الوهاب قد لحنها للآنسة ام كلثوم ولكنها لم تعجبها فغناها هو !

والاغنية التى لم تعجب « الآنسة أم كلثوم » سنة ١٩٢٥ وقتئذ يقول عنها الأستاذ التابعى بعد ربع قرن انها خير الف مرة من طول عمرى عايش لوحدى ٠٠ أو حبيبى انت ماليش غيرك ٠

ويقول عبد الوهاب فى حديث له بمجلة آخر ساعة ـ ١٩٦٥/٣/٣ ـ أنه فى سنة ١٩٢٥ ، أى السنة التى رفضت أم كلثوم أن تغنى لحنه (غاير من اللى هواكى قبل) سمعها فى صالة (سانتى) بحديقة الأزبكية ٠ ويقول ان (صوتها ظاهرة جديدة لها خطورتها ٠٠٠ شىء عجيب فعلا) ٠

وأنه فى السنة نفسها أخذه أحمد رامى الى شقتها بالزمالك ـ المقصود شقة عمارة بهلر ـ (وكان بيتهـا فى ذلك الوقت قبلة الموسيقيين) وان كنت ألمح فى قول عبد الوهاب هـذا عن تلك الفترة مبالغة المجاملة السائدة بينهما فى المرحلة الأخيرة ٠

وقبل أن يزورها محمد عبد الوهاب فى بيتها كان قد رآهـا فى بيت آخر هو منزل والد الدكتور « أبو بكر خيرت » ٠ وكان كعبة لأهل الطرب والفنانين ٠ وهناك غنيا معا فى احدى الليالى دويتو (على أد الليل ما يطول) من ألحان الشيخ سيد درويش ٠

* * *

وفى القاهرة كان هناك ثرى آخر يعقد فى بيته ندوات للفنانين ـ كما كانت بيوت أخرى ندوات للأدباء وصالونات أدبية ـ وكانت ندوة صالح باشا ثابت تضم عبد الحى حلمى والشيخ يوسف المنيلاوى والمطرب أحمد صابر ومحمد سالم العجوز والشيخ المسلوب والشيخ (أبو العلا محمد) ٠ وفى هذه الندوات ترعرع زكريا أحمد ٠

والف الأستاذ مصطفى رضا ناديا للهواة بشارع محمد على سنة ١٩١٣ ولما ضاق بهم انتقلوا الى شارع البوستة القديمة ٠

* * *

كانت الموسيقى والغناء أكثر الفنون ذيوعا بين الناس وأوسعها انتشارا • ومد لها فى الذيوع رواج الاسطوانات وتعدد شركاتها كبوليفون ، وكايروفون واوديون وكالدرون وكولومبيا وباتيه ولكن اشهرها الجرامفون وتليها شركة أوديون • وكانت المنافسة بينهما شديدة •

وعملت كل شركة على أن تضع يدها على مطرب مشهور أو مطربة مشهورة لتجعل منه نواة أو منها نواة رأس مالها فى الشرق وعملت • كل شركة كل ما فى وسعها للاعلان عن صاحبها وعن جمال صوته ترويجا لاسطواناتها •

استأثرت شركة بيضافون بالسيدة منيرة المهدية واستقلت شركة كولومبيا بالسيدة فتحية احمد ووضعت شركة الجرامفون عينها على الآنسة أم كلثوم •

ومن حسن حظ أم كلثوم أن قيض الله لها فى ذلك الوقت شركة جرامفون • لأنها شركة لها مركز أدبى له اعتباره لمن يحرص على النجاح وبلوغ الهالة • فقد كانت شركة جرامفون تقوم بتسجيل أصوات الموسيقيين والمطربين فى العالم بل وكبار الشخصيات السياسية •

اما من الناحية الفنية فقد كانت فى ذلك الوقت الشركة الوحيدة التى سلمت اسطواناتها من الصفير الذى يشوه صوت المطرب أو المطربة • ذلك الصفير الذى اشتكت منه أم كلثوم نفسها قبل أن تتعامل مع جرامفون •

* * *

ودوت في ذلك الوقت أغنية (ان كنت أســـامح) لأم كلثوم حتى سارت الأقوال أنه بيع منها مليون ونصف مليون اسطوانة ·

لقد كانت هذه الأغنية علامة طريق ·

وفي حمى المنافسة كانت شركات الأســطوانات تطلب من المؤلفين الأغاني بالجملة · فكانت شركة بوليفون ـ على سبيل المثال ـ تطلب من يونس القاضي أن ينظم لها مائتي قطعة ·

يقول الشيخ يونس القاضي (··· فقلت لا أستطيع أن أقدم أكثر من أربعين · وعنــد العرض قدمت للشركة اثنتين وأربعين قطعة تلحين الأستاذ القصبجي · وأثناء (المل) يطلبون منى وأقدم لهم ! ولم أعرف مجموع ما أخذوه بالضبط) ·

ومن الطريف أن التاليف كان (وظيفة) فالشيخ يونس القاضي في حديثه عن شركة الجرامفون يقول ان الشيخ أحمد عاشور (يشـــغل وظيفة مؤلفها) !!

كما كثرت الفرق الموسيقية وأدخلت جميع الفرق التمثيلية الغناء بأنواعه في رواياتها ·· ولحنت الأوبرا والأوبريت الكاملة ·· فلحن الشيخ سلامة حجازى ومن بعده الشيخ سيد درويش وكامل الخلعي روايات كاملة قدر لها النجاح والذيوع ··

وكثرت معاهد الموسيقى فكان بمصر سنة ١٩٢٠ ثلاثة معاهد ··· وكثرت المؤلفات عن الموسيقى والأغاني كثرة تلفت النظر في ذلك العصر، فجمع لنا ابراهيم زيدان كتـــابه « الأغاني الشرقية » وألف لنا كامل الخلعي كتابيه : « الموسيقى الشرقية » و « الأغاني العصرية » · وقــدم حبيب زيدان (مجموعة الأغاني الشرقية القديمة والحديثة) ·

وفي سنة ١٩٣٢ عقد في مصر مؤتمر الموسيقى العربية ·

وقد أوصى هذا المؤتمر بصنع بيانو يتضمن ثلاثة أرباع الصوت · فخرجت التوصية لتقبع في شـــارع رمسيس بالقاهرة أى في معهد الموسيقى العربية وهو كما يقول الأستاذ كمال النجمى (الأول والأخير من نوعه في البلاد العربية ، بل في الدنيا كلها ، لأنه يتضمن ثلاثة أرباع الصوت ، أو « ربع الصوت » كما اعتدنا أن نقول ··· وهذا ما يفتقر

اليه كل بيانو أوربى ، وليس فى العـــالم الآن الا البيـــانو الأوربى المتخصص فى عزف الموسيقى الأوربية) •

ويقول الأســـتاذ احمد شفيق أبو عوف فى كتابه « أضواء على الموسيقى العربية « أن المؤتمر كان هدفه من هذا البيانو (الاسهام عن طريق الأداء والقياسات الحسابية والتجارب السمعية فى تثبيت المقامات، ثم عمل الطرائق بالتدريب للآلات العربية الأخرى ، والبحث فى امكان تطبيق الهارمونية الغربية على موسيقانا العربية) •

اذن كانت هذه التوصية محاولة من المؤتمر فى ســبيل تطوير موسيقانا على أسس علمية • ولكن نفذ شطرها الأول أى صنع البيانو الخاص ، وتجمد شطرها الثانى أى دراســـة العزف عليه والانتفاع به بدعوى قلة المال ! أو قلة الاهتمام فاننا عادة نشتعل حماسا فى المؤتمرات ونصدر التوصيات ثم نصاب بفقدان الذاكرة فلا نذكر شيئا بعد هذا •• حتى حين دق « هنرى فارمر » ناقوس الخطر ، لم يبلغ أســماعنا فى حينه ! فقد كان الرجل وهو الانجليزى الجنسية يقول مخلصا بوجوب (الحرص على سلوك طريق يحفظ للموسيقى العربية روحها الوطنيـــة ، لأن فقدانها ذلك الميراث المجيد يعد كارثة عظيمة ، وعلينا ان نمنع وقوع هذا ، ويجب أن تعنى مصر بالمحافظة على ذلك المجد) !

أما المسرح فقد أقبلت فنونه فى اقتحام مغامر يشــفع لأخطائها • ففى سنوات قليلة هى ما بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ وضع زكريا أحمد وحده بضع مئات من الألحان المسرحية •••وفى هذه الفترة وعلى التحديد فى ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢٢ عمل زكريا ليلة فى الحسين لشهرة أم كلثوم كما جاء فى مذكراته •

وكان فى القاهرة عدد من التياترات والمســارح فتياترو حديقة الازبكية وكان يعمل به زكى عكاشة ، ودار التمثيل العربى وكانت تعمل به منيرة المهدية ، وكان على الكسار فى مسرح الماجستيك ، ويوسف وهبى فى مسرح رمسيس ••• وكان هناك مسرح عبد العزيز وكازينو البسفور وكانت تغنى فيه ـ ملك ••• أما دار الأوبرا فكانت تشغلها فرقة فرنسية ترأسها مدام سيمون الفرنسية •

وكان فى مصر عدة فرق تمثيلية تضم عددا لا بأس به من الممثلات

فكان مسرح رمسيس ، ومسرح الريحانى ، وفرقة السيدة فاطمة رشدى، وفرقة السيدة منيرة المهدية ·

وكان يحدث كثيرا أن تنضم المطربات الى الفرق كانضمام فاطمة سرى سنة ١٩٢٦ الى فرقة رمسيس ، وملك الى فرقة أمين صدقى ·

ومن الفرق فرقة أمين عطا الله وفرقة جورج أبيض التى لحن لها سيد درويش رواية « فيروز شاه » · كما لحن رياض السنباطى لفرقة منيرة المهدية أوبرا « آدم وحواء » من تأليف يونس القاضى ، وفرقة فوزى الجزايرلى التى كانت تعمل بتياترو دار الســـلام بحى الحسين ، وفرقة عبد الرحمن رشدى التى انضم اليها صفوة من الشباب المثقف ·

وكان عزيز عيد يؤلف الفرق التمثيلية كالأرز حتى قالت آخـــر ساعة سنة ١٩٣٤ أن عدد الفرق التى ألفها حتى ذلك التاريخ ١٠٨ فرقة تمثيلية عاشت أطولها عمرا أربعة شهور ! واقصرها ثلاث ساعات ·

وكان الريحانى فى سنوات ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ يكسب الألوف حتى كان صافى ايراده الشهرى بعد كافة المصـــاريف لا يقل عن نحو ألف جنيه !

وبيعت رواية غادة الكاميليا لمسرح رمسيس بعشرة جنيهات تناول منها المترجم الأستاذ محمود عزى تسعة جنيهات ودفع الجنيه الباقى الى مصحح الترجمة الأستاذ ادمون تويما ·

هذا حين دفع لشوقى فى قمبيز ٤٠٠ جنيه ·

ومن أوائل الصحف التى عنيت بشـــئون المسرح فى مصر : مجلة الصباح ومجلة (المسرح) لصاحبها المرحوم محمد عبد المجيد حلمى ، وأكبر عدد طبع منها كان ثمانية آلاف نسخة ·

وفى هذه الفترة ارتفعت الدعوة الى انشاء نقابة للممثلين وهيئة اتحاد تجمع النقاد ·

وكانت أخبـــار زواج وطـــلاق وصداقات الممثلات بابا ثابتا فى الصحف الى جانب أخبار الفنانين فى الغرب ·

كانت المجلات الفنية تترصد كل حركة للنجوم وما لا يعجبها من

هذه الحركات تشهر به فى تندر أو سخرية أو نقد مر . ومن طرائفها فى هذا الباب ما نشرته مجلة المسرح من صور ممثلات فى أوضاع متشابهة وكل منهن تعبث بعقـــدها ... ومع الصـــور مقال بعنـــوان (العبث بالعقود) .

وبعد أن سخرت من كل واحدة على انفراد ، علقت بعد هذا العزف المنفرد ، تعليقا جامعـــا بقولها (أما صور هذا الأســبوع فهى صـــور العقود !!)

وما هى الا أسابيع حتى تظهر تقليعة جديدة لا تقل عن سابقتهـــا اثارة اذ تطلع مجلة المسرح على قرائها بصفحتين متقابلتين نشرت عليهما صور الفنانات يبتسمن فى وضع واحد تقريبا والعنوان فى هـــذه المرة : « سحر الابتسامة » كيف تتكون الابتسامات ولماذا يبتسمن ؟

صور مسرحية ..

فاذا تعبت احداهن من التمثيل على مسرح التياترو ومسرح الحيـــاة فى وقت واحد ، جلست على الكرسى ولكن امام المصور فسرعان ما تجلس الأخريات على الكراسى مقلدات فى مهارة تغبطهن عليها « شيتة » وأخواتها فى حدائق الجيزة .

ثم يحدث أن تطل واحدة من الشباك فتنتشر الأخريات فى النوافذ فى سرعة الصور المتحركة ... ومن تشابه الوضـــع تبدو المسكينات كالمصلوبات ! أو يستلقين فى أوضاع « اصطناعية » على حد تعبير مجلة المسرح ، أو تمسك فنانة ذيل فستانها كأنها تمشى فى طريق موحـــل وترفع يدها الأخرى على شكل حرف

ولعل هذا (الوضع) هو الذى حـــدا بالشيخ ابراهيم أن يرفض عرض فرقة التمثيل العـــربى على كريمته « أم كلثوم » . وكانت فرقة (ترقية التمثيل العربى) هى الفرقة الزاهرة البارزة فى مصر فى ذلك الوقت ، وكانت رواياتها من النوع الأوبريت الغنائى ، وكان الأستاذ حامد الصعيدى الأديب والكاتب المسرحى ممن يمدون الفرقة برواياتهم. وحدث أنه فى سنة ١٩٢١ قدم للفرقة روايته المعروفة (صـــــباح) . فكلفته الفرقة بالبحث عن مطربة تقوم بالدور الأول فى الرواية غنـــاء

وتمثيلا . واتجه الأستاذ حامد بتفكيره الى أم كلثوم وكان قد سمعها لأول مرة فى فرح بقرية تدعى (السنانية) على مقربة من دميـــاط فاعجب بها ثم تكرر سماعه لها واعجابه بها وخاصة نطقها فوطد العزم على اجتذابها الى الفرقة وتمثيل الرواية .

وفوضـه طلعت بك حـــرب ، وكان هو المشرف على فرقة « ترقية التمثيل العربى » فى الاتصال بها .

فاوض الرجل ، الشيخ ابراهيم فرفض المبدأ من أساسه ومن أجل هذا رفض المناقشة فى التفاصيل . لماذا ؟ لأن هذا ينافى التقاليد والعادات التى يقدسها الشيخ ابراهيم تقديسا ويعتبر التمثيل (قلة قيمة) .

لم ييأس الأستاذ حامد الصعيدى ـ شأن الصعايدة اذا أرادوا ـ فعاود العرض مرة ثانية سنة ١٩٢٣ . وكان قد قدم الى الفرقة رواية اخرى هى رواية (طيف الخيال) . فعاد الى ام كلثـوم فكان الأجـر المطلوب ٣٠٠ جنيه فى الشهر مع الاشتراط عليه أن تختار أم كلثـوم المطرب الذى يغنى أمامهـا والملحن الذى يلحن لهـا اغانيها فى الرواية ـ احساس بالذات وبداية فرض الشخصية ـ .

وكانت الفرقة مستعدة لقبول الشروط لولا ظروف خاصة متعلقة بتكوينها فى ذلك الوقت فتعذر الاتفاق .

* * *

وكم للشيخ ابراهيم من طرائف فى بداية عهده بالقاهرة .. حدث أن تعاقد الرجل الطيب على أن تحيى ابنته أم كلثوم حفلة فى كازينـو البوسفور .. وخطر لمتعهد الحفلة المسـيو (فيتاسيون) أن يضـع صورتها فى الاعلانات . ولم تكن نشرت لها صـور بعـد فى الصحف أو الاعلانات . فبكت أم كلثوم وغضب والدها وأعلن الاضراب . وعبثـا يتوسل اليه المتعهد حتى شـفع له عنـده الشيخ عبـد الرحيم بدوى صـاحب مطبعة الرغائب بعد أن مزق الاعلانات وطبع اعلانات جديدة وقدم الاعتذار والترضية الكافيين .

كان الشيخ ابراهيم مثلا ، يحرم عليها أن تغنى (يا ليل) لأنه كان يرى أن (يا ليل) هذه لا تغنيها الا المغنية (الأبيحة) ! وهم قوم ريفيون محافظون حريصون على الحشمة والكمال .

هذا عن المسرح .. اما السينما فكان الطبع يتم فى الخارج وكذلك كثير من العمليات حيث الآلات والوسائل فى مصر قاصرة .

لقد ظهر أول فيلم سينمائى فى فرنسا سنة ١٨٥٩ .. وفى ١٨٩٦ شاهدت الاسكندرية ثم القاهرة عرضا سينمائيا .

وفى ١٩١٧ شاهدت مصر فيلم « الأزهار الميتة » وفيلم « شرف البدو » والفيلمان لا يعدوان محاولة بدائية .

وفى سنة ١٩١٨ عرض فيلم فكاهى (مدام لوريتا) مثله فوزى الجزايرلى ثم فيلمان فكاهيان آخران سنة ١٩٢١، ثم فيلم (الباشكاتب) الذى انتجه محمد بيومى صاحب (جريدة امون) أول جريدة سينمائية مصرية وان لم تستجب له دور العرض لأنها كانت أجنبية كما اصدر محمد توفيق مجلة (الصور المتحركة) سنة ١٩٢٣ . وفى سنة ١٩٢٥ صدرت مجلة المسرح كما قامت (شركة مصر للتياترو والسينما) .

وفى سنة ١٩٢٦ صدرت مجلتان اخريان ثم صارت السينما بابا ثابتا فى الصحف المصرية منذ ذلك التاريخ .

وفى سنة ١٩٢٧ انشغل الناس عن كل شىء بموت سعد زغلول . فلما كانت سنة ١٩٢٨ بدا الفنان محمد كريم فى اخراج فيلم (زينب) قصة الدكتور محمد حسين هيكل وصوره على الطبيعة سابقا فى هذا المدرسة الايطالية الواقعية بربع قرن ! تلك الواقعية التى غدت طابعا للسينما المصرية فى الخمسينات .

تقول الفنانة بهيجة حافظ فى مذكراتها (.. كانت الوسائل والمعدات الفنية تنقصنا بشدة . وكان المخرج محمد كريم يبذل جهده ليتحايل على هذا النقص .. فقد كانت آلات التصوير باليد .. وكانت وسائل التحميض بدائية .. كما لم يكن هناك ستديو سينمائى او معمل للتحميض .. ومن ناحية الاضاءة فلم تكن هناك اجهزة وانما كان التصوير يتم فى ضوء الشمس وفى اماكن غير مسقوفة او فى سرادقات تغطى جدرانها بالأوراق المفضضة لكى تعكس الضوء) .

ولم يكن النقص فى الوسائل والمعدات فحسب بل كان فى العنصر البشرى ايضا . فقد كان محمد كريم يقف وحده وراء الاخراج والانتاج معا .

وقد عرض فيلم زينب صامتا سنة ١٩٣٠ ونجح نجاحا أغرى مؤلفه أن يكشف عن اسمه القناع . وكان حتى ذلك التاريخ يكتب على الغلاف : قصة مصرية مؤلفها (فلاح مصرى) !

وعرض مرة أخرى (ناطقا) سنة ١٩٥٢ .

وفى سنة ١٩٣٢ التى رحل فيها حافظ ابراهيم شاعر النيل ، وأحمد شوقى أمير الشعراء ، عرض أول فيلم ناطق مصرى (أولاد الذوات) وأول فيلم غنائى مصرى (انشودة الفؤاد) .

وتتابعت الأفلام وقامت الشركات السينمائية ودور العرض فى المدن والأقاليم . حتى رجال المسرح جذبتهم السينما بعد خروج الفيلم المصرى من دائرة الصمت ودخول الأغنية فى نسيج الفيلم المصرى ومعها جمهورها من هواة الطرب . بل نافست السينما ، المسرح ، حتى فى جوائز وزارة المعارف . واعترفت دور العرض الأجنبية بالفيلم المصرى. وأقبل عليه العالم العربى فذاعت به الأغنية المصرية واللهجة المصرية .

ولكن هذا النجاح أغرى السينما المصرية وغرها فتكثرت ، وساقها التكثر الى الفبركة ، ومن أسهل وسائلها الاقتباس . فاعتمدت القصة فى الفيلم المصرى على القصة الأجنبية ..

ولكن نقطة التحول الحقيقية فى السينما المصرية كان فيلم **(العزيمة)** الذى أخرجه كمال سليم سنة ١٩٣٩ وقد ظل فيلم **(العزيمة)** محتفظا بقيمته الفنية حتى عصرنا الحاضر .

ومن الممثلات فى تلك الفترة عزيزة أمير وبهية أمير وبهيجة حافظ وفاطمة رشدى وفردوس حسن ودولت أبيض وأمينة رزق ونادية وسعاد ومحاسن .

ونزل أولاد الذوات الميدان ممثلين .. وموسيقيين .. ومغنيين . وتبع الفن نقد الفن .. فاحتفلت الصحف والمجلات بالنقد الفنى .. وتعددت فى مصر المجلات الفنية الخالصة مثل « صوت البلابل » للموسيقى ، و « المسرح » و « التياترو » و «خيال الظل» و «الكواكب» التى صدرت سنة ١٩٣٣ كما ظهرت فى عام ١٩٣٣ مجلة (فن السينما) .

وعنيت مجلات أخرى بشئون الفن مثل «أبى الهول» و «الصباح» و « روز اليوسف» التى صدرت باسم (الربيع) و (مصر الحرة) و

(الوطنية) و (الشرق الأدنى) و (الكشكول) فى أوقات مصادراتها .. تماما كما كان روفائيل صنوع يتحدى المصادرة ساخرا بتغيير الاسم.. مجرد تغيير الاسم من «أبو نضارة» الى (أبو صفارة) الى (أبو زمارة) . كما كان (اللواء) صحيفة الحزب الوطنى تتحدى السلطات فيصدر بعد المصادرة باسم (العلم) يوما ، ويوما باسم (الجهاد) ويوما باسم (الشعب) ..

* * *

وكانت المجلات الفنية ، الى جانب عنايتها بالنقد المحلى تقوم بنقد الروايات المسرحية الأجنبية كنقد (بيت الدمية) الذى قدمته مجلة المسرح سنة ١٩٢٦ .

وفى سنة ١٩٢٦ اجتمع نقاد الفن فى شبه مؤتمر لهم فكان من أسمائهم المغفور لهما محمد عبد المجيد حلمى وجمال الدين حافظ عوض ومن الأحياء الآن الأساتذة التابعى وسعيد عبده ومحمود كامل ومحمد على حماد وغيرهم .

هذه النهضة الشاملة فى الفن تمثيلا وغناء وموسيقى كان يغذيها الشعب بالاقبال والتشجيع .

ولم يجد كبار الأدباء والشعراء غضاضة فى تاليف الأغانى لغنى الشعب لاسماعيل باشا صبرى وشوقى والجارم ومحمد تيمور .

كان الشعب اذا اراد أن ينقد تصرفا للحكومة صاغ النقد طقطوقة أو دورا يغنيه فيصل صوته بهذه الوسيلة الى حكومته . فعل هذا حين سنت الحكومة تشريعا يقضى بعدم زواج البنت قبل بلوغها السادسة عشرة فغنى :

أبوها راضى وأنا راضى ومالك انت ومالنا يا قاضى

وترتفع الأسعار فيسطر الشعب شكواه غناء ويقول :

استعجبوا يا افندية اللتر الجاز بروبية

وتحرم الحكومة المخدرات فيسخر متعاطوها ويغنون :

يا محافظة انتى الشطرى على الخمامير

دى سمومها كتير سبرتو فى بناليز

اقفلوها

كما تغنت الأغنية المصرية فى مطلع القرن العشرين باحياء القاهرة كشبرا وامبابة والقبة .

اشتركت فى الغناء مصر من أقصاها الى أقصاها . يقول الأستاذ العقاد :

(ان أقاليم مصر الوسطى والعليا لا تتميز بمراثى النائحات وحدها بل تتميز بالتعبير الاجتماعى حيث كان فى الغناء والتنظيم الموزون . فما اشتغلت خواطر الامة المصرية قط بأمر عظيم الا ظهر التعبير الشعبى عنه فى أغنية من أغانى الصعيد الأعلى لا تلبث أن تطوف انحاء القطر من أقصاه الى اقصاه ، وقد تكرر ذلك بين الحرب الماضية والحرب الحاضرة فى مناسبات متوالية أقدمها « يا عزيز عينى والسلطة خدت ولدى » وأحدثها « سلم على » وما فيها من الاشارة الى الخزانات ومشروعات الرى .

وجملة القول أن تلك الأقاليم الوسطى والعليا أقاليم « معبرة » لا تسكت عما يختلج فى ضمائرها . وهى منذ آلاف السنين تترجم عن روح الشعب المصرى فى أفراحه وأحزانه فتحسن التعبير بالكلمات والأوزان . وتقول الكلام الذى يسبق الى الخاطر توا أنه خليق أن يصدر من قدماء المصريين ، لو أنهم كانوا يعيشون معنا فى هذه العصور .

تلك نفحات « طيبة » الخالدة واصداء العرابة المدفونة التى لم تدفن تحت التراب . وهى هى الأقاليم التى تمثلت فيها خصائص الروح المصرى الأصيل أحقابا وأجيالا قبل المسيحية والاسلام ، ثم اصطبغ العصر الحديث كله على يديها بصبغة ذلك الروح القديم .)

ومن الطريف انه كان اذا وقع على أحد أفراد الشعب مظلمة ، لاذ بالغناء فيضع له أحد مؤلفى الأغانى طقطوقة أو موالا يضمنه شكواه واستعطافه ويعرض الشاكى باسمه كاستشهاد بالواقعة فينظر فى أمره . ومن هذه الأدوار التى وضعت لتكون ملتمسا ، الدور المشهور (قدك أمير الأغصان) للمرحوم اسماعيل باشا صبرى .

ومن القصص التى تروى فى هذا المجال قصة احدى مديريات الوجه القبلى وكان مديرها نوحى بك . وقد حدث بينه وبين أحد

الاهالى جفوة فاحتال بالغناء على استرضائه ، فسعى الى من ألف له موالا للغناء هو استعطاف رقيق للمدير الغاضب :

طال الجفا من حبيبك يا عيون نوحى
انتى وسول الغرام فى كل يوم نوحى
ياروح جسمى الى نوح الحبيب روحى
واستسمحيه الوصال ان كان عفا عنك
والا اتركيه فى سبيل الله يا روحى

كما صورت الأغانى من ناحية اخرى النزعة الدينية للشعب ممثلة فى المدائح النبوية والتواشيح والقصائد يلحنها الشيخ درويش الحريرى والشيخ ابو العلا محمد والشيخ اسماعيل سكر والشيخ على محمود . فكان الفقهاء يتغنون بالموشحات بعد تصفيتها من الألفاظ التركية التى كان الملحنون يحشدونها فى موشحات الغناء مثل جانم وامان .. ولكن الشعب لم ترقه الموشحات فلم يتغن بها على الرغم من تمسك بعض المطربين بها زمنا لأنهم اعتادوا أن تمتص الموشحات لهم فترة الحرج ساعة ظهور المغنى منهم على المسرح او يشترك مع الجوقة فى الموشحة حتى اذا اطمأن صوته و (انضبط) انفرد بالغناء .

ولم تكن الأدوار أسعد حظا من الموشحات ، فان الجمهور لم يتحمس لها ولم يرددها فقلما تغنى بالدور غير ملحنه ومغنيه .

ويعلل الشيخ يونس القاضى هذه الظاهرة بان (الدور لابد له من هنك ، وقد يردد الجمهور حركة من مجموع الهنك وينسى الباقيات . ويصعب على المغنى ان يأخذ الدور الا فى جلسات متعددة متتابعة . وهذا يرجع الى غباوة أو سرعة خاطر المغنى وطريقة تعليم اللحن) .

أما المواليا فتكاد تكون معدومة اذا استثنينا ما كان يغنيه العربى والحاجة زينب ومصطفى افندى امين على الأرغول او الكمان فى الاسطوانات .

وكانت الكلمات اقرب الى النثر منها الى الشعر . ولا يعرف مؤلفها وهى اقرب ما تكون الى الموال وان لم تقع موقعه فقد كان الشعب يميل الى الموال ، وقد اشترك عامته فى وضعه .. وقد خطت مجلة المسرح جدولا طريفا يضم أسماء المؤلفين وحرفهم .. فهم بين نحاسات

وسفرجى ونجار ومغربل والأخير (على عشماوى ابن عشماوى الجلاد) الى آخر هذه الحرف والصناعات .

وهم فى الوجه القبلى ينظمون الواو (المربع) والموال الأحمر واشهرهم عبد الرحمن أبو عوف الجزار بالنخيلة .. وكان فى سوهاج وجزيرة شندويل نوابغ من مؤلفى هذا اللون من المواويل ..

ومن طريف ما يروى عن مؤلفى المواويل أنهم اصطلحوا على تعريفات تقابل ما وضعه العروضيون من مصطلحات . وهذه هى بعض المصطلحات الفنية وما يقابلها من مصطلحاتهم التى لا تخلو من طرافة .

الاصطلاح الفنى	الاصطلاح المواويلى
التأليف	قطع الفن
المواليا	الفن
المطلع	نشر الموال
الشطرة	العتبة
شطرات الوسط	الشجر
مختلف القافية	موذرن ويسمى شقتين
التقفية	طاقية
الشطرة التى تلى المردف	فرشة
أول الشطر الأخير مثل آخر ما قبلها	سندة الطاقية
الجناس التام	محبك الطرفين
ما اختلفت فيه القافية من الابتداء	دكر ونتاية
الموال البليغ المضبوط	فرشة واكل من الطاقية

* * *

ثم جاءت الطقطوقة فتفوقت على ألوان الغناء الأخرى . و (الطقطوقة) اغنية ذات مذهب وأربعة أو خمسة أدوار أو اغصان ، وهذه المسافة تختلف باختلاف حجم الاسطوانات وأسلوب المغنى فى الالقاء يسرع أو يبطىء أو يعيد شطرا ويردد فيه حركة ..

الا أن النظم ، كان على هيئة نشيد أو زجل نعماني ــ أى له مطلع من شطرين . والأدوار مربعات ذات ثلاث قواف اتحدن رويا وقافيــة واماله والرابعة قافيتها مثل المطلع . وقد اصطلح الجميع على ان هذا الوضع اسمه طقطوقة . وقد اشتهر بتلحين الطقاطيق داود حسنى .

وقد جذبت الطقطــوقة بعــاميتها ويسرها المغنين ووجــد فيهــا المرحوم الشيخ سيد درويش مجالا رحبا لفنه المصرى الأصيل ، فطلع على الشعب بطقاطيق استهوته لأن ألفاظها وألحانها صدى ما فى نفسه من نغمة شعور .

وقد تبع ذيوع الطقطوقة تغيير بل انقــلاب فى مجلس الغنــاء ، فاســتغنى المغنى عن البطانة أو الســنيدة الا فى الأغانى الدينية وهى التواشيح والقصائد واعتمد على التخت . وتنوع لهــذا التلحين ودبت فيه روح جديدة . والقسم محبو الموسيقى فريقين : فريق يدافع عن القديم لقدمه ، والآخر يحبذ الجديد لجدته .

وكان لاختراع الفونوغراف أثر كبير فى انتشار الطقطوقة ، اذ أن الاســطوانات تتطلب الأغانى الخفيفة القصــيرة التى لا تزيد عن خمس دقائق ، فوجدت شركات الاسطوانات طلبتها فى الطقطوقة والموال .

وكانت شركات الاســطوانات كما أشرنا تشــترى الأغانى بالجملة لتوزعها على الملحنين والمغنيين فكان من أثر هــذا أن اصطبغت الأغانى بالصبغة التجارية . ولم يكن ذلك العصر يعرف احتكار الأغنية لمغنيها، بل كانت الأغنية الواحدة يغنيها عدد من المغنين والمغنيات وتعبئها أكثر من شركة اسطونات .

وقد ظلت هــذه الظاهرة حتى سنة ١٩٣٥ بل انه حدث سنة ١٩٤٠ أن غنى رياض السنباطى فى الراديو أغنية عنوانها (صحيح يا دنيا) . وقد رأى المذيع أن يقدم الملحن تقديما مبتكرا كما تقــول آخر ســاعة فقال :

(والآن تسمعون طقطوقة صحيح يا دنيا وقد سبق أن غناها من قبــل بعض المطربين ولــكن الفرق عظيم بينهم وبين الموســيقار رياض السنباطى) .

ولما كان عبد الغنى السيد هو الوحيد بين المطربين الذى سبق له

ان اذاعها كما سبق ان سجلها على اسطوانة ، فقد ارسل (السـيد) خطابا الى الاذاعة يشكو فيه المذيع الناقد .

أما المعانى التى كانت تتناول الأغانى على اختلاف الوانها فى ذلك العصر فقد كانت فى جملتها مبتذلة . ولعل هـذا الابتـذال يرجع الى الحجـاب الكثيف الذى كان مضروبا على النسـاء . فتنفست الغرائز المكبوتة التى لم يصقلها الاختلاط المهـذب بين الجنسـين ، فى المعـانى الرخيصة . وكان من أثر الحجاب أيضا ان الرجال لم يجدوا حرجا فى سماعها ، لأن سامر الغناء ليس فيه سيدة أو آنسة يغارون على سمعها مما يؤذيه ، وان كانت هذه الأغانى تصل بفضل الاسطوانات الى الحريم فتسمعها النساء المحجبات وتطرق الأسماع المصونة ، الالفاظ العارية .

ولعل من دواعى ذيوع تلك الأغانى المبتذلة انها يسيرة المآخذ على الصبية الذين يذرعون الشوارع والحارات يرددون ما يسمعونه منهـا ترديد ببغاوات . وهؤلاء لا صبر لهم على رصين اللفظ يحفظونه ويتغنون به .. وكان المؤلف فى سـبيل رواج اغنيتـه بوسـاطتهم يتملق هواهم فيضع لهم ما يخف على السنتهم ويرضى أذواقهم .

ذاعت الطقاطيق الماجنة مثل :

(أرخى السـتارة اللى فى ريحنـا احسن جيرانك تجرحنـا) و (ما تخافش عليه دانا واحده سجوريا فى الحب واخده البكالوريا) .

فغضب رئيس الوزراء وقتئذ محمد باشـا محمـود ابن الصعيد وعميده أشد الغضب من هذا الغناء وانشأ قلم المطبوعات لمراقبة هذا الانحراف فى التأليف . واسنده الى صديقه الأستاذ يونس القاضى ، وجعله مديرا لقلم المطبوعات ليمنع هذا الكلام الرخيص .

والطـريف فى الموضـوع أن الشـيخ يونس القـاضى كان مؤلف الطقطوقتين بل مؤلف الغالبية العظمى من هـذه الأغانى !! كما أن ملحنهما شيخ أيضا هو زكريا أحمد .

ومن طرائف الطقاطيق فى ذلك العصر أن تراسل بها العشاق بديلا عن الخطابات التى قد تقع فى يد العزول وهو والد الفتـاة فتكون الطامة الكبرى ..

وقد نشرت روزا سنة ١٩٣٢ أن عبد الوهاب تلقى خطاب شكر من مجهول لأن اسطوانته (احب أشوفك كل يوم) فعلت باهدائها الى الحبيبة فعل السحر ، فقد نفذت ما جاء بها حرفيا .. وظل العاشق يجنى ثمارها حتى حدث يوما سوء تفاهم فاختار بدل هذا الدور ، مونولوج يطابق الحال ... وكان هذا المونولوج يقول (فى الجو غيم) .. ولكن الحبيبة هذه المرة لم تبال . فارسل العاشق رسالة ثالثة أى اسطوانة او طقطوقه تقول . « اهون عليك » .

والطريف تعليق روزا على الموضوع اذ قالت :

(المطلوب الآن من حضرات الزجالين وناظمى الطقاطيق أن يمونوا سوق الاسطوانات بادوار تنفع فى الرد على العشاق غير المرغوب فيهم ، فيكون هناك مثلا طقطوقة او اسطوانة عنوانها) :

(أنا مش من دول ابعد عنى) أو (دمك تقيل داهية تسمك) .

* * *

وموضوعات هذه الأغانى تستحق وقفة . كانت منيرة المهدية (سلطانة الطرب) تغنى للبوكر ، وللدندرمة تنادى عليها البائع الشامى :

يا بنت يا لابسة الشاش   والعطر منك وشواش
اليوم بمعسارى بكره بلاش   انسا لابيعك دندورما

وبهذه المناسبة نقول ان طقطوقة ذلك العهد نزلت السوق تنادى على « الزبدة » .. زبدة من المال وبنص ريال .

ولم تكتف الطقطوقة بتحديد السعر بل اعطت عنوان البائع واوصافه واسم زوجته وابنه ايضا .

أسفت الأغنية بعامة حين كانت أغانى أم كلثوم — أو معظمها — فى تلك الفترة حتى قبل أن يرتفع بها رامى ، محتشمة أو غير مسفة على الاقل .

لقد غنت منيرة المهدية قصائد بليغة مثل القصيدة ـ من رواية صلاح الدين ـ التى مطلعها :

ان كنت فى الجيش أدعى صاحب العلم فاننى فى هواكم صاحب الألم

والقصيدة (من رواية حمدان) التى مطلعها :

بالله مرحمة وصبرا للغد واشفق على فليس قلبى فى يدى

ولكن الذى اقترن به اسمها واشتهر ، الطقاطيق المعهودة .. خاطب ليل .

كما غنت سكينة حسن قصائد مثل القصيدة التى مطلعها :

تقضى زمان لعبت به بروح الحسان ذوات الحور
تمالت على وهمت بهن غراما يذيب فؤاد الحجر
فأنت الهناء وأنت الغنى وانت النعيم وانت سقر
وأنت المنون وفيك المنى ومنك الأمان وفيك الخطر

مما يذكرنا قول الشاعر أحمد رامى فى اغنية «جددت حبك ليه »

انت النعيم والهنا انت العذاب والضنا
والعمر ايه غير دول

وغنت نعيمة المصرية إيضا القصيدة :

جن الظلام وهاج الوجد بالسقم والشوق حرك ما عندى من الألم

ولكن هذه القصائد غنيت باعتبار انها « صنف » موجود فى ذلك الوقت . وكما يحب التاجر أن يوفر فى متجره أكثر ما يستطيع من الأصناف الموجودة فى السوق ، كان مغنى ذلك الوقت أو مغنيته تحب أن تغنى كل « صنف » تكلفا لا طبعا . فمطرب القصائد الاصيل لابد كما يقول رامى أن يكون (فقى ابن فقى) . ومن هنا تفوقت أم كلثوم فقد حفظت القرآن طفلة ثم انشدت المدائح والموشحات وقصائد (أبو العلا) . كل هذا قوم لسانها تقويما لم يتيسر لغيرها لأن أهم ركن فى القصائد سلامة النطق ، ومخارج الحروف ، واخراج المعانى . وقد برعت أم كلثوم فى هذا كله براعة فائقة حين يقول الذين سمعوا منيرة

المهدية انها صوت جميل فائق ولكنها هى كانت عامية النطق والشارة ، امية المفاهيم . كانت منيرة تقول (صلحوا) اسمر ملك روحى ، ولكن ام كلثوم التى عرفت بالوعى الصحيح قيمة التعلم تقول : اضبطوا عجم . انها تلميذة « أبو العـلا » . هذا فضلا عن أن منيرة ليس عندها (القفلة) والمطرب ألزم الأشياء له ، القفلة ، فصوتها الجميل الذهبى (سايح) كالنيل فى منطقة الجبل لا كالنيل عند الزمالك ..

وقد عقدت هذه المقارنة السريعة لأن المعاصرة والمنافسة والتأريخ تستلزم المقارنة ، وتدفع اليها دفعا . فالناس اقترن فى ذهنهم أم كلثوم بمنيرة المهدية وشوقى بحافظ ولا شان لهم بالتفاصيل .

على أن القصيدة بعـد « سلوا قلبى » لم تعد صنفا فى معترك الغناء بل غدت لونا ممتازا متفوقا لا يقـدر عليه غير الواثق وغير القادر الذى يملك وسائله من بلاغة النطق ، وبلاغة الصوت ، وبلاغة الأداء ، وهو مرام بعيد .

* * *

وكانت اغنية ذلك العهد ترص ألفاظا كيفما اتفق ولو شاه المعنى مثل :

حلـوة وخلقتهـا نظيفـة وبعمرها ما مسـكت ليفـة

اى واحدة هذه التى لا تتعامل مع (الليفة) ولو كان المقصود أن نظافة الخلقة لا تحتاج الى غسيل .

وتستجدى الأغنيه وتقف بالباب تلح فى الطرق وتصيح (افتحيلى الباب يا أم ابراهيم) كان سـوق العـذارى جبر فلم تبق الا الزوجات والأمهات ايضا ..

وقد نصبت الأغنية للغرام مستشارا تتقدم اليه بشـكواها حين اكتفت الأغنية المالية بقاض ، فالأمر فيما يبدو لا يعدو (جنحة) .

وفى أغنية ذلك العهد ليالى حمراء .

كانت الأغنية تعيث فسادا وتزرع الشر . أغنية لا تصلح للحرائر .

ومن الأغانى الماجنة طقطـــوقة (يا حالى عالبدوية) وطقطـوقة (الأفندى يا نينة) .

حتى الأغنية الشعبية اللطيفة (البحر بيضحك لى) داخلتها حمى الاباحية .

ويبدو أن الدين فى بعض النفـوس تنتهى مهمته بانتهـاء صـلاة العشاء . فبعد العشاء تحدث فى الأغنية أمور تدخل تحت طائلة العقاب .

حتى أغنية الحنة ترق فى مطلعها كخفة بنت البلد ثم ما تلبث أن تقترح اقتراحات سـخيفة لتتستر على الحبيب . وهـذه الأغنية اذا استثنينا المطلع ، اما بلهاء ، أو رعناء ، واما أن يكون المقصود حبيب ترانستور حتى تستطيع الولهانة أن (تحطه فى حاجبها وتتخطط عليه) أو فى (بقها وتطبق عليه) ، أو .. الخ وكأنهـا أو كأن مؤلفها من سلالة المتنبى الذى يدعى أنه لو ، وضع فى سن القلم ما غير من خط الكاتب .

أما طقطوقة الزيت بحسـيتها المنفرة فان صـابون كفـر الزيات لا يستطيع أن يمحو البقع المنتشرة عليها مما تزاور عنه العين وتعـافه النظافة والطهارة والعفة .

وقد هذبنا اليوم الأغانى القديمة المنخوبة التى يرق مطلعها الجميل وهى عفنة من الداخل كالتفاحة الفاسدة . ومن هذا النوع .

(يا نخلتين فى العلالى يا بلحهم دوا) وقد غدت الآن اغنية رقيقة .

حتى التواشيح كانت حسية وكانت دائما سكرى ..

على أن بعضها كان فيه مع الغزل نغمة دينية فهناك توشيح يبدأ (سبح الله العزيز الحكيم) ، (عذل العـذال يشرح لى صـدرى) . والتواشـيح كثيرة الحلف بالله .. وبدائعـه المجلوة فى خدود الحبيب وقوامه .

وعلى شدة محافظة المجتمع وسـيادة التقاليد وتحكيم الحجاب ، كانت الأغانى تضرب المواعيد، وتحدد أمكنة اللقاء ، وتقضى الوطر بمنتهى البساطة . حتى الحبيبة المتمنعة نوعا فانما هو حرج وخوف من أبيها . ولكن خوفهـا على كل حال مصطنع فما تلبث أن تكشـف عن رأيهـا الحقيقى (أنا لما استلطف ..) .

واحيانا تاتى الأغنية بالتاكسى على الباب وتتلهف البنت الملعونة على النزول . ويدور حوار بينها وبين أمها تقرؤه فى الاغنية المعاصرة (ياما القمر ع الباب) .

واحيانا تقوم البنت بالمطاردة من حى الى حى وتفزع امها مما دهاها فتقول : (النبى يامه تعدرينى واتانى على ..) وان كنا لا ندرى ان كانت المهلة المطلوبة لغزل طاقية أو لأسباب اخرى .

واحيانا يقوم الخدم فى الأغنية القديمة بدور الوسطاء .

وكانت الأغانى الشملة تستعمل (الاصطلاحات الخاصة) فكان الحبيب (يشرب فى صحة المحبوب) فللشيخ المسلوب دور يبدأ المذهب فيه هكذا :

جميل زمانك لك صفا   اشرب بقى فى صحته

وتتطرف الأغنية بالتفرنج وكلمات انجليزية :

زيارة من طيفك   فرى جود فرى نيس
مدولى فرى باد   ييجى يوم ينكاد

كما يقول شكوكو اليوم :

حبيبى شغل كايرو   مافيش فى القلب غيره

وتمثل الأغنية القديمة الصراحة المتناهية بين البنت وامها فهما تناقشان معا صفات واوصاف العريس المنتظر وترشح الأم كالعادة ابن اخيها .

وتقف الاغنية الى جانب المراة التى يكون لها ضرة فتحكى المها وعذاباتها .

وتسخر الأغنية ــ ولو انها غير جادة ــ من تعدد الزوجات والانفجار السكانى البركانى فى طقطوقة (جوزى اتجوز على اربعة) .

ومن الطريف ان الأغنية تلجأ الى حيلة بارعة مستمدة من واقعنا النفسى ، فتخيف الزواج من خلف البنات ، فتجعل الاربعة يلدن فى نفس واحد اربع بنات :

زكية وفتحية وسنية ومنوفية .

ولو تفرغت الأغنية للمتابعة لجعلت (الأربعة) فى الدفعة القادمة يستوفين أسماء باقى المحافظات أو المديريات سابقا .

وأحيانا تتعجل الأغنيـــة الرسائل وعودة الغائب ، وأحيانا تضيق الأغنية بالحال فتطلب من الله أن (يتوب عليها) .

والحبيب فى الأغنية قليل التمنع بل أحيـانا يكون صيدا سـهلا (مهاود فى كل الأمور) كمـا تقـول أغنيـــة عبـد الحى حلمى وصـالح عبد الحى .

والعاشق كالإبله يزور نهارا .

واحيانا تحكى الأغنية الشجار اليومى التقليدى بين الحماة وزوجة الابن وتدخل معهما المطبخ فلا تخرج الا والطاسة على الأرض بعد المعركة .

والدموع غزيرة فى اغنيـــة ذلك العهـد ومن الطريف أن الجار فى الأغنيـــة (يبكى من بره) على بكاء العاشق .. أى أن الشقق الأخرى تقوم بدور الكورس فى حفل الدموع .

وهى مملوءة بالشكوى والأنين والبكاء بل لعلها تتعمد هذا اذ يحلو لها هذا المنظر .

ما أحلى وقوف اتنين عشــاق دا يشتكى والثانى يبكى .
لماذا ؟ لست ادرى .

وكما نادت الأغنية على الدندرما ، غنت للفواكه : البلح الزغلول والرملى كما غنت للعنب ولو من باب رص الألفاظ .

اما العنب اشـــكال والوان من كل فاكهـــة زوجان
جنة النعيم متعة الفهيم .
اليست طريفة لفظة (الفهيم) هذه ؟
كما غنت الأغنية كثيرا للسمك .

واشترك ابن البلد اشتراكا فعليا فى وضع قاموس الغزل فى ذلك العهد . فمن نداءاته المسجلة :

يا مـدلع ــ يا متمنع ــ يا مشــخلع ــ يا مقطقط ــ يا مزقلط ــ يا ملعلط ــ يا مصحصح ــ يا مدردح ــ يا مبحبح .

وضربت الأغنية القديمة ، كالحديثة ، الودع وفتحت الفنجان .

وأحيانا كانت الأغنية تلبس مسوح الرهبان بتضميناتها من القرآن الكريم مثل الدور :

ملكتم فؤادى بسحر العيـــون   اسرتم فؤادى ما ترحمـــون
متى آل ودى توفوا بوعـــدى   اخلفتم بعهـــدى أما تتقـــون

وأحيانا كانت الأغنية تأتى فى وســـط العاميـــة بلفظـــة متفاصحة مفخمة تثير الضحك :

لحظك جـــرح قلبى وخـــلاه   مشـــغول بهجـــرك وبعـــدك
واتـــرك العـــازل ويلاه   وافـــرح وأتهنى بقـــربك

وغنت الأغنية القديمة كعادة الأغانى المصرية للسمر : « أســـمر حليوة أسرنى بحسن قده » . ولعل اشـــهر اغنية للسمر فى ذلك العهد ، اغنية منيرة : « اسمر ملك روحى » .

وتستعين الأغنية بالخاطبة للبحث عن عروس . (مجتمع الحجاب) .

ومن طرائف اغانى ذلك العهد شكواها من ارتفاع اسعار (الكيف) ، ومطالبتها بادراجه فى التسعيرة : !

ومن طرائفها ــ وكم لها من طرائف ــ دلال الشيخ وان كان هـــذا النوع من الدلال يقابل بسلاطة لسان حائقة :

ليه بتتقل ليه يا شـــايب   وانت لك فى الحب نايب
امـــا والله عجـــايب

ولا يخلو ذلك العهد من اغان رقيقة ناعمة مثـــل اغنية عبـــده الحامولى :

فـــؤادى اســـالك قل لى   تعلمت الهـــوى ده منين
ولـــاه فكرى معـــاه قال لى   انـــا حـــاضر وانت فين

دور

غـــرايب والنبى ســـيرك   وحتى اللحظ والخـــدين
انـــا قلبى ما فيـــه غـــيرك   وليـــه قلبك يســـاع اتنين

كانت تلمع بين أكوام التراب احيانا قطعة زجاجية كالطقطوقة التى كان يغنيها محمد انور (مسجلة على اسطوانات بيضافون) .

اسمعى منى يا بنية وابقى اعملى بالوصية
بيت أبوك تسليه وبيت جوزك تربيه
جوزك هاوديه فى كلامه وابقى اعملى له مرامه
قدام الناس اوعى مقامه يا ست يا رقة يا مصرية
حماتك ابقى حبيهنا والله عيب تكرهيها
اعزنها نينتك عامليها يحبك رب البرية

وهذه الطقطوقة هى الجدة العليا لأغانى اليوم العائلية الاجتماعية : يا بيت أبويا ، يا غالى عليا يا يحبيبى يا خويا ، أغنية الزوج .. الخ .. واحيانا تشتغل الطقطوقة بالسياسة مثل :

شال الحمام حط الحمام من مصر السعيدة للسودان

نوع الحمام هنا بالطبع (زغاول) .

وطقطوقة (عطشان يا صبايا) ..

وتتذكر الأغنية فجاة مجد مصر القديم فتتغنى : (احنا أبونا توت عنخ آمون) .

وترتفع الأغنية أحيانا الى مستوى الوطنية الرشيدة مثل طقطوقة :

(مصر أولادها رجال يفهموها وهى طايرة)

والتفتت الأغنية الى البرلمان وسارت اليه هاتفة (مارش) .

وغنيت فى هذا العصر أيضا قصائد بليغة :

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها
فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر
فيا حبها زدنى جوى كل ليلة
ويا سلوة الأحباب موعدك الحشر
ويا هجر ليلى قد بلغت بى المدى
وزدت على ما ليس يبلغه الهجر
هجرتك حتى قيل لا يعرف الهوى
وزرتك حتى قيل ليس له صبر

وانى لتعــرونى لــذكراك هــزة
كمــا انتفض العصفور بلله القطر

وقصيدة :

فتكات لحظك ام سيوف ابيك   وكئوس خمر أم مراشف فيك

والقصيدة التى سجلها عبدالحى على اسطوانات شركة الجرامفون:

وقف الهــوى حيث أنت فليس لى
متــاخر عنــــه ولا متقــــدم

اجــد الملامة فى هــواك لذيذة
حبــا لــذكرك فليلمنى اللــوم

وغنت أم كلثوم فى العشرينات قصيدة الجارم :

مالى فتنت بلحظك الفتــاك   وســلوت كل مليحة الاك

وعلى الرغم من جـزالة الجـارم او جـزالة القصــيدة فقد نجحت الأغنية حتى رددها الناس فى القرى بله المدن .

وغنت أم كلثوم فى هده الفترة ايضا لرامى :

قصيدة (الصب تفضحه عيــونه) التى لحنها الشيخ ابو العــلا ومنولوج (خايف يكون حبك ليــــه شفقة على) الذى لحنـــه الدكتــور صبرى ، وطقطوقة (قال ايه حلف ما يكلمنيش) التى لحنها القصبجى .

كما غنت له فى العشرينات ايضا مونولوج (حيرانه ليه يا دموعى) الذى لحنه القصـــبجى ، وطقطوقة (ولحد امتى حاتدارى حبــك) ، وطقطوقة (يا روحى بلا كتر أسية) ، و (أيهــــا الفلك) ومونولوج (أنظرى) .

ولتشير اصابع الأغنيــة القديمة الى بعض عبــارات فى الأغنيــة الحديثة

فدور :

يا مليك ما الطف كمالك   وخضوعى بين يديــك
يا مليك ما الطف كمالك   والوصال امره عجيب

ومن دور للشيخ محمد المسلوب :

طول ليلى سهران من وجدى بس الحبيب عامل على عندى
لو يجينى البيت عندى لاعطيله ما تملك يدى

قد يوحى المطلع اغنية (سهران لوحدى) لرامى ثم تختلف الأغنيتان بعد ذلك اختلاف القرن العشرين عن القرن التاسع عشر . فهذه أغنية أمية ، واغنية (سهران لوحدى) أغنية فنية فيها الصورة والقصة والذكريات والاحساس الحار واللفظ الشاعر .

ومذهب :

أسباب الغرام العيون والقلب ما له مايل
زاد اشتياقى والشجون والحب عنى عادل

يبدو أن هذا الجواب التقريرى اوحى بالسؤال :

القلب ولا العين مين السبب فى الحب

وأحيانا يأخذ المؤلف الحاضر (الفكرة) . فاغنية بيرم (منام) التى يقول فيها :

هوا يقول لى وانا أقول له وخلصنا الكلام كله

موجودة فكرتها فى مجموعة (الأغانى الشرقية) ص ٢٩ وان كان بيرم أخف لفظا وأشف روحا وتصرفا وأكثر قربا الى الروح المصرية .

وأغنية لا لا (طول عمرى أحبك وأشكى لك ولا تسمعنى ولا) تلمح الموال :

البدر مملوك جمالك والدجا لا لا
ونور جبينك بأستار الجمال لا لا
كم من متيم مثالى فى هواك لا لا
شرفت صبك وملك الحسن لك وحدك

وطقطوقة :

بلاش مناهدة طاوعينى ايه تاخدى لما تلاوعينى

مرت ببال رامى وهو يقول :

ليه تلاوعينى وانت نور عينى

وطقطوقة :

حبك يا سيدى غطا عالكل ارحم فؤادى يكفانى ذل

المأخوذة على اسطوانات بيضافون من السيدة منيرة المهدية من عائلة أغنية :

يا سيدى أمرك امرك يا سيدى

ودور :

يا طول بكايا وتعذيبى

يشبه قول رامى :

يا طول عذابى واشتياقى ما بين بعادك والتلاقى

وفى الأغنية القديمة (أروح لمين) .

(والورد فتح والياسمين)

وفى الأغانى القديمة أغنية للتليفون غير أن الحبيبة لم تقفل السكة

وفى الأغانى القديمة موال :

فيك ناس يا ليل يشكو لك مواجعهم

بالله يا ليل ما تبقاش تواجعهم

اجريت يا ليل على الخدين مدامعهم

باتوا سهارى بطول الليل نواحين

من خوف يا ليل ليطول

المدى معهم

ولكن أهل الهوى أصحاب بيرم (لم يقلبوها غم) بل كانوا أصحاب مزاج يغنون على الأرغول وعلى الوحدة مع بدرهم الطالع فى ليلة القدر : يا ليل يا ليل .

ولو أن يا ليل هذه تعقد منها الشيخ ابراهيم الدباغ حتى بات يقول (أرجو أن يدقق أدباؤنا وشعراؤنا وأصحاب اغانينا الى العدول عن يا ليل ، ولو الى يا نهار) .

وقد ثار قوم قديما على المعانى الرخيصة . وتألفت بالقاهرة سنة

١٩٢٠ لجنة لترقية الأغانى القومية . وحاولوا أن يصرفوا الشعب عنها متسامين بذوقه الى معان أرقى ، متخذين من ظمئه الصادى الى الاستقلال ولهفته على الحرية عونا لهم ، فمضوا ينظمون له نوعا جديدا من الطقاطيق ، فلحن سيد درويش وغنى :

مصر أولادها رجال يفهموها وهى طايرة
احنا من نسل الفراعنة نشترى ود اللى باعنا
اهرامات والنيل يتاعنا دول نجوم فى وسط دايرة

كما لحن وغنى

عطشان يا صبايا دلونى ع السبيل

على أن العامة قد تؤلف بوحى من فطرتها وظروفها ما يفوق وضع الواضعين فى صدقه وقربه من الفن لعدم تكلفه . فقد كان الشيخ سيد درويش يبكى من فرط التأثر بالمعنى واللحن فى القطعة التى كان يتغنى بها العمال فى السلطة :

أنا كل ماجول التوبة يابوى ترمينى المجادير
ليلى عينى ترمينى المجادير

وكانت القاهرة تردد اغانى شعبية جميلة منها :

« يا نوأعم يا تفاح » .

« يا سلمى يا سلامة رحنا وجينا بالسلامة » .

« البحر بيضحك لى وأنا نازلة أدلع املا القلل » .

ومن الأغانى الذائعة وقتئذ (ليه عزيز دمعى تذله) التى لحنها الشيخ زكريا أحمد . وكان يتقاضى سنة ١٩٢٠ جنيها واحدا على تلحين القطعة .

* * *

وكان فنانو الشام يسعون الى القــاهرة يأخذون عنهــا اغانيهــا والحانها ليعيشــوا عليها بعــد عودتهم الى بلادهم ، حتى اذا بليت من الاستعمال سعوا من جديد الى .. الى القاهرة .

كان الاشــتغال بالفن يتأتى لأصــحابه صـــدفة . حتى الموهوبين الصــدفة وحدها هى التى كشفت عن مواهبهم . وكان من الجــائز أن تظل مخبوءة لا يدرى بها أحـــد ولا الأيام . والأمثلة كثيرة ولعل أروعها المثل الذى تضربه قصة أم كلثوم نفســها .. ان الصـــدفة وحدها هى التى قادتها الى الشيخ « ابو العلا » فى الطريق فعرف بخبرته أعماق المنجم الذى فى حنجرتها ، وألح على ذهابها الى لقاهرة تأييدا للآخرين . ولولا هذا لكان من الممكن ان تظل أم كلثوم فى الريف كالكثيرات غيرها .. من يدرى لعل فى ريفنا فى الدلتا أو الصعيد ام كلثوم صغيرة ولا يحس بها أحد .

ومن طرائف الصدف ان اسندت الى الشيخ زكريا الطيب السمح دورا تمثيليا بعيدا كل البعد عن الطيبة . وهى قصة كان زكريا يتندر بروايتها فى مجالسه الحافلة بالذكريات .

يقول الشيخ زكريا : (اتفقت مع مدير انتــاج ــ فيلم أنشــودة الفؤاد ــ على أربعمائة جنيه مقــابل الألحان وبعــد أن فرغت منهــا ، وذهبتُ أطالب بالمبلغ ، وكان هذا قبل بدء التصوير ، فوجئت بالمنتج يقدم لى أربعمائة قرش صاغ ، فثرت وهجمت عليــه اريد أن (أطبق فى زمارة رقبته) وكدت أفتك به .. وتصــادف ان كان مخرج الفيلم موجودا ولاحظ علامات الشر فى وجهى فأصر على أن أقوم انا بدور البطل الثانى فى الفيلم) .

ومما يذكر ان فيلم انشودة الفؤاد هــذا قصــة وضــع حوارها وأغانيها الأستاذ عباس محمود العقاد .

هذا وكان على الكسار طاهيــا أميا ثم ممثلا .. يمثــل بنجــاح رواياتموليير ويســتقدم الفنــانين الايطاليين فى الديكور ، للعمــل فى مسرحياته ..

وهناك ظاهرة غريبة وهى أن المشتغلين بالفن فى القاهرة فى ذلك العهد ، من الرجال ، مطربين وملحنين كانوا شيوخا اى خرجوا من الأزهر .. الشيخ يوسف المنيلاوى .. الشيخ أبو العلا .. الشيخ زكريا .. الشيخ القصبجى .. الخ .

ولكن هذه الغرابة ما تلبث أن تنتفى اذا أخضعنا هذه الظاهرة للتحليل .. **ان القرآن الكريم لا يمثل فقط ، بلاغة اللغة العربية ولكنه يحوى موسيقاها ايضا وتطريبها وكل ما فى جرسها من رنين** .. هذا اذا قرىء قراءة ، أما اذا رتل ترتيلا فهو يضم الى موسيقى اللغة ، موسيقى الكثير من الأنغام الشرقية ..

وقد كان زكريا يريد أن يضع له ترتيلا جديدا ليضم الى مجموعة انغامه باقى الأنغام الموسيقية الشرقية .


المغنّون
فى القرن
العشرين

كان الغناء فى مطالع القرن العشرين امتدادا للغناء فى أخريات القرن التاسع عشر ٠

كان اعتماد المطربة او المطرب على صوته — حتى ليروى عن ام كلثوم انها غضبت سنة ١٩٣٢ حين وضعوا امامها فى مسرح الازبكية ميكروفونا وقذفت به بعيدا عن خشبة المسرح ٠ (كان وجوده اهانة لها او لصوتها القادر — دون ان يستعين فى ذلك بالموسيقى والآلات الكثيرة التى دخلت على نظام التخت الشرقى ٠

ولم يكن هناك راديو او ميكروفون ٠٠ ومن اجل ذلك كان الغناء عزيزا نادرا لا يكون الا فى الافراح ٠ فكان الناس يتلهفون على « فرح » أيا كان صاحبه لكى يسمعوا ويطربوا ٠٠ وكان دخول الافراح مباحا للناس بلا استثناء ٠

كان « الفرح » متنفس الجميع سميعة ومطربين ايضا ٠ فقد كان الشيخ يوسف المنيلاوى ، على مكانته ، يضطر احيانا ،
كما يقول القصبجى أن ينشد متبرعا كل ليلة ثلاثاء من كل اسبوع فى (حضرة) الست فاطمة النبوية بدرب سعادة بباب الخلق خوفا على صوته من ان يصاب بالصدا ٠

وكانت الجماهير تهرع الى هناك لتسمعه ينشــد على الذكر دور (بافتكارك ايه يفيدك) ودور (الله يصون دولة حسنك) ..

وكان السميعة كالعــادة يســتعيدونه ويســتزيدونه حتى مطلع الفجر .. فاذا أدوا الصلاة انصرفوا راضين دنيا ودينا .

والمصريون أهل فن وطرب . فما أن يظهر صوت نابغ الا ويلتفون به ويباركونه . لقد تجاوز الشيخ سالم العجــوز المــائة ومع هذا ظل له سميعة ينتقلون وراءه أينما ذهب ، بل كان أهل القاهرة يسافرون معه الى أقصى بلاد القطر ليسمعوه .

ويروى القصبجي من ذكريات تلك الفترة أن الموسيقيين فى سنة ١٩٢٠ فكروا فى تكوين نقابة لهم كما قرروا اقامة حفلات نقابية . وأقاموا شادرا فى ميدان سليمان باشا . وكان الدخول (بالمشروب) لأنهم ليس فى اســتطاعتهم أن (يلموا) صــوت المطرب حتى لا يتسرب الى خارج (الشادر) فلا أقل من أن يلموا ثمن (المشاريب) .. ومع هذا كان الناس يسمعون (ببلاش) لا مشروبات ولا يحزنون . فقد كانوا يقفون فى الميدان والشــوارع المؤدية اليــه يســمعون حتى الصباح .. فمن يتعب من الوقوف فان عربات الحنطور كانت تؤجر مقــاعدها لمن يريد دخــول السرادق الذى يغنى فيه كل يوم (سالم العجوز) و (عبد اللطيف البنا) و (صالح عبد الحى) وغيرهم .

اما مطربات ذلك العهد فقد كن مطربات صالات حتى سنة ١٩٢٩ .

ذكرت مجــلة « الشرق الأدنى » أن المطربة توحيــــدة وهى من المشهورات فى ذلك الوقت ـ وضعت شرطا فى عقــد اتفاقها مع مانولى صــاحب قهــوة الف ليلة وليلة ـ ينص على أنه ليس للطرف الاول ـ الذى هو مانولى ـ الحق فى ارغام الطرف الثانى « لطيفة فخر » المشهورة باسم توحيدة ـ على الجلوس مع الزبائن ولا أن تشرب فى الليلة الواحدة أكثر من خمسة أقداح من الكونياك ! بس ! !

وتعلق المجلة على الشرط :

وهذا الشرط وضــعته السيدة المطربة حماية لنفسها ولصحتها ! كانت العادة تقضى على مطربة الصالة بأن تتنقل من مائدة الى مائدة وان تشرب مع كل من يطلب منها من الزبائن .

وكانت توحيدة هذه ذات صـــوت جميل حين يمزج بصـــوت عود (عطية) . وهو عواد لا تحسن الغناء الا اذا صاحبها على عوده .

وكانت توحيـــدة تغنى من تلحين القصبجى الذى كان مغرما بها فى ذلك الوقت دور (الحب له فى الناس أحكام) ودور (الصبر ياما نصف مظلوم) .

الحقيقة أن المطربات فى ذلك العهد كن بالجملة . فهناك غير توحيدة وسيلة المطربة الخاصة للسلطان حسين وكانت تجيد العزف على العود وتؤدى أغانى عبده الحامولى من أدوار وموشـــحات ، وكريمـــة العدلية وخيرية وسهام ونجاة وسوسن وزينب خالد واناسى زاخاريان (نادرة فيما بعد) ممن تنشق الأرض عن مئات منهن كل يوم .

وكان من الأشياء المألوفة أن ترى فى الصحف مطربة تعلن أصحاب الحفلات أنها نقلت من مسكنها الى مسكن جديد وتذكر العنوان .

* * *

ومن الظاهرات الفنيـــة فى ذلك العهـــد ألقاب المطربين والفنـــانين فلقب :

كروانة مصر ، أميرة الانشاد والغناء ــ أم كلثوم .

سلطانة الطرب ــ منيرة المهدية .

مطربة القطرين ــ فتحية أحمد .

مطرب الملوك والأمراء ــ محمد عبد الوهاب .

وقل القول نفسه فى ميدان التمثيل فالسيدة زينب صـــدقى فى تلك الفترة «صديقة العظماء» والسيدة دولت أبيض «صديقة العمال» .

ولعل أشد هؤلاء هياما بالألقاب السيدة فتحية أحمد فقد سمت أولادها : الكونت وجمال والبرنس والباشا .

وحب الألقاب عادة متاصلة فينا منذ أيام الفراعنة الذين مزجوا الفكاهة المصرية بالجد على معابدهم . فكتبوا الى جانب الألقاب الصحيحة غير المدعاة كلمة (حقيقى) .

* * *

ولكن ألقاب الفنانين لم تقنع المجتمع بحق أصحابها فى الاحترام حتى لقد نشرت مجلة المسرح فى ٣١ مايو سنة ١٩٢٦ تدعو هذا المجتمع الى أحترام الممثلات بمناسبة رفض السيدة هدى شعراوى اعطاء صورتها لروز اليوسف حتى لا توضع صورتها بين الممثلات .

وكان بالقاهرة فى ذلك الوقت من الصالات صالة رتيبة وانصاف رشدى وصالة بديعة .

وكان يحدث أن تجمع المطربة بين الغناء والرقص ويحدث هذا الآن كثيرا . كما تجمع ممثلات الستينات بين التمثيل والرقص ، والراقصات بين الرقص والتمثيل على سبيل الرد ، فكان (البوسفور) يستجلب كل عام واردات جديدة من الراقصات والمغنيات للترويج . وكانت اغلب راقصاته من السوريات مثل (ملكة جمال) . وكانت مغنية لها صوت رخيم يكثر المعجبون به لنعومته . وهى راقصة فى الوقت نفسه تجيد الرقص البلدى والسورى .

وكانت قهوة الفن تمثل مجتمعا غريبا وعجيبا من الفنانين على اختلاف مشاربهم ، ومن أدعياء الفن أيضا .. من النقاد وأدعياء النقد . وكان شارع عماد الدين لا يزال شارع الفنون الجميلة والتمثيل والكواكب والنجوم .. والاشاعات .

زار القاهرة سنة ١٩٤٦ الأديب الفرنسى جورج ديهامل اثناء رحلة قام بها فى الشرق فراعه أن عروس الشرق تنام من العشاء . وقال مقارنا :

(ولكن القاهرة منذ عشرين عاما كانت تسهر الى ساعة متأخرة من الليل .. أو شارع عماد الدين على الأقل فقد امتاز بكثرة ملاهيه ومسارحه ومقاهيه ، ونال شهرة عالمية واسعة لا تقل عن شهرة اى حى

من احيــاء الملاهى والمســارح الـكبرى فى العـالم كبرودواى فى امريكا وبيكاداللى فى لندن) وبيجال فى باريس .

كان فيه أكثر من ثلاثين مسرحا ومرقصــــا ومقهى ودارا للسينما الصامتة) .

* * *

ومن ظاهرات شارع عماد الدين فى ذلك العهد المشاجرات الفنية فتنشر مجــلة المسرح فى ١٩ يوليــو سنة ١٩٢٦ احدى هــذه المشاجرات تحت عنوان (معركة فى عماد الدين خمس ممثلات يتضاربن) .

ولم تقصر المطربات فى هذا المجال فكانت أخبار معاركهن ومايتفرع عنها تزحم صحف المجلات الفنية ــ لم يرد اسم أم كلثوم فى هــــذه الغزوات .

كما اصطنعت هذه الصحف ضجة حول المفاضــلة بين المغنيات مرة وحول اعمارهن مرة اخرى .

والى جانب هذا الصراع اليومى كان هناك صراع فنى هو الذى يعنينا الوقوف عليه .

هذا الصراع كان صاخبا من ١٩٢٠ ــ ١٩٣٠ . ولم تكن أم كلثوم طرفا بارزا فى هذا الصراع ــ على الاقل فى أوله ــ فقد كانت صــــغيرة تتقحمها العين . حدث سنة ١٩١٨ أن اخذ جلساء فاطمة قدرى التى كانت يومئذ مطربة ذائعة الصيت ، يتحدثون عن فتــاة مسكينة اسمها أم كلثوم ! فتاة يقولون عنها انها تغنى وان لها صوتا لابأس به ولكنها لاتغنى كما يغنى الناس ، بل « تولد النبى » عليه الصلاة والســــلام وتنشد الاناشيد فى موالد الريف وتلبس العقال ..

واخذ الحاضرون من الفلاحة الصغيرة مادة للتندر والضـحك والتسلية : مرة يولدون النكت من اسمها ، ومــرة يتســاءلون عن سر العقال : ومرة يتساءلون بمناسبة الجبــة التى تلبسها وتزعم انها (بالطو) هل هى بنت أم ولد ؟ وترتفع القهقهات مهما كانت النكتة سخيفة .

وبينما هم يضجون بالضحك طلعت عليهم مطربتهم فاطمة قدرى فهبوا وقوفا وأدوا التحية · وبعد أن اطمأن بهم المجلس استأنفوا الحديث · فتساءلت الست فاطمة من طرف أنفها من هى أم كلثوم هذه ؟ فقصوا عليها قصتها من جديد · فارتسم على وجهها تعبير من تذكر شيئا سمع به قبلا ·

ــ آه ... لقد سمعت بالبنت أم كلثوم و (لامانع عندى) من ان اراها · وسرعان ماتطوع المطيبون باحضارها لكى تحظى بمقابلة المطربة المشهورة فاطمه قدرى ·

وحين جاءت (البنت أم كلثوم) دخلت تتعثر فى مشيها ... فى خطواتها انكسار المساكين من أهل الريف وحياؤهم على الرغم من أنها كانت قد قطعت شوطا فى القرى والمحافظات ، ولكن القاهرة واهلها فى عين الريفيين شىء آخر ·

ــ قربى ·

(قربت) أم كلثوم .. تقدمت من ست الحسن والجمال حائرة مرتبكة ليس لديها مالقوله للست فاطمه قدرى التى يعرف الصعيد وبحرى قدرها ·

ثم انصرفت أم كلثوم بعد أن أعطت للمجلس مادة أغزر للسخرية والتفكه والضحك ... أما هى فلعلها كانت تحلم باليوم الذى تصبح فيه مثل فاطمه قدرى ·

وضحك القدر هذه المرة فقد كان على موعد معها بعد بضعة أعوام حين أخذت تخطو خطوات واسعة فى طريق الفن والشهرة .. خطوات واثقة ثابتة غير مرتبكة ولا حائرة ولا ضعيفة حتى ولا متواضعة ... وسار الناس فى ركابها تارة يدعونها أميرة الطرب وتارة يتوجونها ملكة له .. والناس ــ ولعل من بينهم أولئك الذين كانوا يضحكون منها فى مجلس فاطمه قدرى ــ الناس هؤلاء سموها ساحرة وسموها كروانة وسموها بلبلة ·· وبعد أن استنفدوا صفات المديح سموها « كوكب

الشرق» .. ولما جاء دور جيلنا اراد ان ياخذ نصيبه فى عملية التسمية فسماها من وحى عصره (قاعدة الصواريخ عابرة القارات) وسماها (جامعة الفنون والآداب) وسماها السحاب وسماها .. الخ ولما تعب هو الآخر سماها «ست الكل» .

سماها الناس اشهى الاسماء واحب الاسماء .. وكان لها منهم حاشية وحجاب لا يسمحون لفاطمة قدرى وامثالها أن يقفوا بالباب .

* * *

وحتى بعد قصة فاطمه قدرى ، كانت (نعيمة المصرية) من رأيها أن منيرة المهدية لا يعلى عليها ، وان فتحية أحمد لا باس بها على ألا تغنى من انفها . أما أم كلثوم فكانت تقول عنها انها لا تتوقع لها مستقبلا .. !!

ولحسن الحظ لم تصدق هذه النبوءة .

ويبدو أنه ليست فاطمة قدرى وحدها هى التى كانت ترى أم كلثوم « صغيرة » . فقد روت مجلة مصر الحرة سنة ١٩٢٩ عن أم كلثوم أنه حدث ذات مساء ان صعدت سيدة الى المسرح قبل ان تغنى أم كلثوم تطلب مقابلتها ..

وتصادف ان كانت أم كلثوم نفسها أول من قابلت السيدة المذكورة ودار الحديث الآتى :

قالت السيدة :

ـ عاوزه اقابل ام كلثوم

ـ علشان ايه ؟

ـ نفسى اشوفها وابوسها .

ـ عمرك ماشفتيها ؟

ـ لا بس معجبة بها من صوتها فى الفونوغراف ونفسى اشوفها .

ـ طيب اديني أنا أم كلثوم ! بوسيني بأه واخلصى !

ولكن السيدة نظرت الى أم كلثوم من (تحت لفوق) باحتقار وقالت :

ـ حضرتك بتضحكي على ؟ ليه هو أنا مجنونة علشان أصدق أن أم كلثوم مفعوصة كده !

ورأت أم كلثوم من عينى السيدة انها حقيقة غير مصدقة أن الواقفة قبالتها أم كلثوم فقالت لها :

ـ صحيح أنا كنت بس باضحك ! انا ياستى خدامة أم كلثوم .

ـ طيب وهي فين ؟

ـ فى أودتها دلوقت بتلبس علشان حتطلع تغنى بعد خمس دقائق. واظن احسن ان حضرتك ترجعى تقابليها بعد ماتغنى الوصلة الأولى علشان يكون عندها وقت تقعد معاك شوية .

وانصرفت السيدة على ذلك .

ثم رفع الستار وظهرت أم كلثوم مع تختها وغنت الوصلة ! وطبعا راتها السيدة وعرفت انها أم كلثوم وليست خادمتها ، ولكن السيدة لم ترجع .

لقد خجلت أن تقابل أم كلثوم واكتفت برؤيتها على البعد .

* * *

لم تنفق أم كلثوم زمنا طويلا لتفهم التيارات حولها وتتلمس طرف الخيط . فقد شرعت تتفق مع شركات الفونوغرافات على ملء اسطوانات بصوتها . وبدات بشركة أوديون فملأت لها عشر اسطوانات لاقت رواجا عظيما . وتقاضت عن كل اسطوانة خمسين جنيها . واخذت الشركة تبيع اسطواناتها بسعر ٢٨ قرشا للاسطوانة الواحدة . وكان ذلك وقتئذ أعلى سعر فى السوق .

ونشرت مجلة المسرح (العدد ٢٥ فى ١٩٢٦/٨/١٠) أن شركة الجرامفون وقد اخذها نجاح المطربة الجديدة ، (عقدت اتفاقا مع الآنسة أم كلثوم على أن تكون محتكرة لصوتها وأن تدفع لها فى السنة ألفين من الجنيهات المصرية) .

وهنا تقدمت مجلة المسرح برجاء الى الاستاذ منصور عوض مدير شركة الجرامفون الا يسمح لأسيادنا المشايخ اياهم أن يحشروا أصواتهم حتى فى الفونوغراف كما فعلوا فى شركة أوديون .

ولم تنس المجلة فى العدد نفسه أن تعقد مقارنة بين أم كلثوم وبين السيدة فتحية أحمد رجحت فيها كفة فتحية .

ويروى الأستاذ التابعى (مجلة الجيل الجديد فى ١٩٥٢/١/١٤) فيحكى أن الاستاذ منصور عوض عرض على أم كلثوم أن تتفق مع شركة جرامفون على جعل معين قدره خمسة قروش تتناولها عن كل اسطوانة تباع بدلا من الأجر الاجمالى المتفق عليه ، وكان يومئذ ثمانين جنيها للاسطوانة . ولكن أم كلثوم التى لم تكن عرفت بعد ، ما يجب أن تعرفه ، رفضت ! وقالت :

ـ لا ياسيدى دى دوشة دماغ هوه انا فاضيه أجرى افتش على دفاتر الشركة ؟

وأجاب الأستاذ منصور عوض ان الشركة شركة محترمة وراس مالها يقدر بملايين الجنيهات ، وأنها تعامل كبار مطربى ومطربات العالم فى أوربا وأمريكا .. الخ .

ولكن مطربتنا (الواعية) رفضت وفضلت أن تقبض الثمانين جنيها عدا ونقدا بدلا من خمسة قروش عن كل اسطوانة تباع .

وفى العشرينات هذه كان صوت ام كلثوم يؤدى جواب الجواب فى نغمة السيكا . ومعنى ذلك أن صوت أم كلثوم كما يقول الأستاذ كمال النجمى كان سبعة عشر مقاما سليمة لأن جواب الجواب فى السيكا لابد له من اجتماع هذه المقامات السبعة عشرة لأدائه الأداء الصحيح الممتع .

وحدث ان لحن لها القصبجى فى تلك الفترة (ان كنت اسامح وانسى الأسية) . وكانت هذه الأغنية نقطة تحول فى حياة القصبجى

الفنية ، وفى حياة أم كلثوم أيضا ، حتى ذهبت منيرة المهدية الى القصبجى تطلب اليه أن يلحن لها مثلها ٠٠ واستجاب لهـــا القصبجى ولكن لم تستجب الأقدار ٠ فلم يرتفع لحن القصبجى بمنيرة ، كما ارتفع لحنه (ان كنت أسامح بأم كلثوم ٠٠ فقد كان القدر يرسم نهاية وبداية ٠

وتشاء المصادفة أن تبيع الشركة من هذه الاسطوانة ربع مليون ! لو أن أم كلثوم قبلت عرض الأستاذ منصور عوض لكان ايرادها منهــا اثنى عشر ألفا وخمسمائة جنيه بدلا من ثمانين جنيها التى أصرت عليها اصرارا ٠

وكانت هذه الاسطوانة درسا تعلمته أم كلثوم ٠ فعندما عرضت عليها احدى شركات الاسطوانات سنة ١٩٥٠ ألف جنيــــه فى الاسطوانة ، رفضت هذا العرض رفض مجرب ٠ وأصرت على أن يكون الأجــر نسبة مئوية معينة من ايراد البيع ٠

وتم الاتفاق على أن تتناول أم كلثوم ٢٧٪ من ثمن كل اسطوانة تباع ، على ألا يقل ايرادها من بيع أسطوانات معينة عن مبلغ معــين ٠ فمثلا (نهج البردة) اشترطت الا تقل حصتها فيها عن ٤٠٠٠ جنيه ٠

وتختلف الروايات فى صحافتنا عن هذه الفترة من عمر أم كلثوم الفنى ، ولكنها كلها تلتقى عند نقطة واحدة : هى أنها أثيرة عند شركات الاسطوانات التى لمحت بعين التاجر مستقبلها القريب والبعيد ٠

وفى سنة ١٩٢٦ غنت أم كلثوم قصــيدتين من تلحين الشــيخ «أبو العلا» مثل :

الغزال نظرة ولفته ٠

وحقك أنت المنى والطلب ٠٠

حتى ذلك الوقت لم يكن الراديو قد عرف بعد ، فكانت الاسطوانات هى وسيلة الطرب الوحيدة لهذا انتشر الجرامفون فى البيوت والمقاهى ٠٠

* * *

واذ احست أم كلثوم نجاح اسطواناتها ، بدأت تشترط على شركات الاسطوانات تحديد العدد الذى يطبع من هذه الاسطوانات ، بل تحديد موعد بيعها ! لخلق حالة طلب ورغبة .. امارة وعى وتكتيك .

ولكن أم كلثوم توقفت عن تسجيل الاسطوانات عند ظهور الراديو . ... وفى سنة ١٩٣٥ ظهر فيلم (وداد) فعرضت عليها احدى الشركات تسجيل اغانيه على اسطوانات مقابل خمسة آلاف جنيه . فقبلت أم كلثوم العرض الذى يبدو فى ظاهره مغريا . ووقعت فى الخطأ نفسه وكأنها نسيت ميزة النسبة المئوية ، فان اغنية واحدة .. واحدة فقط من فيلم وداد هى اغنية (على بلد المحبوب وديني) بلغ ايراد بيعها ١٨ الف جنيه .

سجلت أم كلثوم بعد هذا اغنياتها الطويلة لشركة كايروفون . وتقاضت الف جنيه عن كل من (رق الحبيب) و (هلت ليالى القمر) و (غلبت اصالح فى روحى) و (غنى الربيع) و (سهران لوحدى) ..

بعد هذا سجلت (سلوا قلبى) مقابل أربعة آلاف جنيه ، وقصيدة (نهج البردة) مقابل خمسة آلاف جنيه ، ومثلها الهمزية (ولد الهدى) . ولم تنس أم كلثوم أن تدفع لورثة أمير الشعراء أحمد شوقى الف جنيه عن كل قصيدة سجلتها من شعره .

ومن الطريف أن اسطوانات أم كلثوم الأولى كانت مشحونة بعبارات الاعجاب مثل الله الله .. ياأم كلثوم .. ياروحى .. الله ياقمر .. الخ .

اما السيدة منيرة المهدية فان لها اسطوانات قديمة لعلها كانت أول ماسجلت ، تبدأ بهذه العبارة .

(الله .. الله يا أوسطى منيرة يا مهدية) . ولفظ (أوسطى) مشتق من اللفظ الفارسى الأصل (أستاذ) .

وعندما استقر فى الذهن لقب (الآنسة أم كلثوم) ، طبعت كروت باسمها كتب عليها .

(الآنسة أم كلثوم المغنية الشهيرة) .. وفى ركن البطاقة العلم المصرى !

وأقول استقر فى الذهن فان أم كلثوم فى بداية عهدها بالقاهرة كان يطلق عليها (السيد أم كلثوم) ! ويبدو انها ، أو والدها على الأقل ، كان مرتاحا لهذا اللقب الذى يحمل طابع الوقار .. وذات يوم همس أحدهم فى أذنها بالفرق بين السيدة والآنسة فغيرت وأصبحت الآنسة أم كلثوم .. ووراءها أولئك اللائى كن يقلدنها ويطلقن على انفسهن (السيدة) .. أصبحن كلهن آنسات حتى المتزوجات منهن أكثر من مرة : !!

شاعر فى الأفق

وفى سنة ١٩٢٤ عاد الشاعر أحمد رامى من بعثته فى فرنسا واراد صديق أن يحتفل بعودته فدعاه الى قضاء السهرة معه فى حفلة تغنى فيها المطربة الجديدة أم كلثوم ..

ولم يتحمس رامى بل .. لم يرن الاسم فى اذنه ولم يتوقع أن يسمع غناء يعجبه .. وألح عليه صاحبه فذهب مسايرة .. لاسيما بعد ان عرف أنها تغنى قصيدته (الصب تفضحه عيونه) .

وبدأت أم كلثوم تغنى فاذا برامى يستهويه غناؤها ويسرى فى وجدانه ، واذا به يسعى الى مقابلتها بعد أن فرغت من وصلتها الأولى ويطلب اليها ان تغنى قصيدته .

واستجابت أم كلثوم البسيطة فى ذلك الوقت الى طلب الشاعر الافندى العائد من بلاد بره .

واستمع رامى الى أم كلثوم تغنى القصيدة وهو يتمايل طربا .. شاعر وشاب رومانسى فى عصر الرومانسية ..

وتعلق رامى بأم كلثوم وسعى مرة ثانية الى مقابلتها ... ودار كلام عرف منه أنها تزمع السفر فى اليوم التالى الى رأس البر أى أن (سلام التلاقى كان سلام الوداع) كما يقول . وأشعل الفراق خيـاله وشعوره معا . وكانت القصة التى سنلتقى بها بعد قليل :

ولكن ، هل أحب رامى (أم كلثوم) فى ذلك اليوم كما يقول ويردد فى أحاديثه ؟ هل أحبها كما يحب الرجل المرأة ؟ الأقرب الى العقل والمنطق أن أقول لا ... فهو فى ذلك الوقت شـــاعر ومتعلم فى مصر والخارج ومملوء بالأحلام والآمال والمطامع ... وهى فتاة ريفية بسيطة لم تخلع العقال والقفطان بعد ... حتى الفن لم تثبت قدمها فيه . انها فى أول الطريق . المسالة فيما احسب ، انه شاعر رومانتيكى . وهو بطبيعته مرهف الشعور . والعصر عصر مذهبه السائد فى الأدب « الرومانسية » ، ومذهبه السائد فى السلوك (فروسية) العصور الوسطى ... فرامى كان يحب أم كلثوم للحب فى البدايه ربما . ولكنه ما لبث أن احبها لذاتها حبا كبيرا وثابتا واصيلا .

كان الزمن بين ١٩٢٦ ، ١٩٣٠ يقـــوم بعملية تصفية للمطربات الكثيرات اللائى ظهرن فى العقد الثالث من القرن العشرين ... تصفية كانت نتيجتها أن انحصرت المقارنة واعجاب المعجبين بين ثلاثة :

منيرة المهدية ... فتحية احمد ... أم كلثوم .

وكانت مقالات الصحف واستفتاءات الجمهور ترجح كفة فتحية التى كثر القول سنة ١٩٢٦ عن جمعها بين (حلاوة الصوت) و (احـــكام القفلة) ، مضافا اليها (قدرة التلحين) ... هكذا ! ولو أن الصحف كانت لا تثبت على حال ، فان تهليل الصحف لفتحية لم يمنع الكاميرا وفى سنة ١٩٢٦ أيضا ، أن تلهث وراء أم كلثوم . فهى صورة الغـــلاف فى روزا التى نقلت (١٩٢٦/١٢/١) عن جريدة السائح التى تصـــدر فى مدينة نيويورك ، تحت عنـــوان (أم كلثوم فى صحف أمريكا) ... (أم كلثوم المغنية الطـــائرة الصيت ما زالت تتقدم فى عالم الغناء منذ هبطت مصر فتاة ساذجة حتى أصبحت اليوم ســـيدة المغنيات واميرة المطربات بلا منازع) .

ولكن وزارة الأشغال فى ذلك الوقت كان لها راى آخر . فقد منحت جائزة الغناء للسيدة منيرة المهدية ســـنة (١٩٢٦) . لقد كانت وزارة

الأشغال مسئولة عن صيانة الأوبرا فيبدوا أن هذه الصيانة انسحبت على الفن فاضطلعت مشكورة بتشجيعه ومكافأة أصحابه ...

لقد ألف رامى لأم كلثوم بعد هذا أغنيتها : (خايف يكون حبك لى شفقة على) مما ينم على أن التودد والتحبب كان من جانبها ، أو كانت المسألة مشاركة متساوية على الأقل . انما جاء خوف رامى لاحساسه بما ينتظرها بحكم عملها وصوتها من معجبين ومتوددين . وقد كان صادقا فى احساسه فانه لم يلبث بعد بضعة أعوام أن تساءل فى حزن شفاف :

كيف مرت على هواك القلوب فتحيرت من يكون الحبيب

وفى حكمة المكتوى بالنار وفى هدوء الصابر أجاب هو نفسه :

وهوى الغانيات مثل هوى الدنيا تلقاه تارة وتخيب
منظر تطمح النفوس اليه ومتاع يقل فيه النصيب

ويقول رامى عن هذه الفترة أن أم كلثوم أقنعته وقتئذ بالانتقال من الشعر الى الزجل ... ولا أحسب أم كلثوم فى ذلك الوقت كانت قادرة بحكم سنها وريفيتها وغربتها العلمية والفنية فى المدينة الكبيرة ، على اقناع شاعر بتحول فنى . ولكن المسألة فى تقديرى أن (رامى) وجد فيها صوتا واعدا وتذكر أن (شوقى) أمير الشعراء ألف الأغانى بالعامية وقبله اسماعيل صبرى ... والأغنية جناح يطير بشهرة أصحابها فاندفع بوحى من تفكيره وعاطفته الوليدة معا فى طريق الزجل ... ولعل نفسه حدثته أن عبد الوهاب مغنى شوقى فلتكن هذه الفتاة ذات الصوت الجميل مغنيته أى مغنية كلماته ... وكل شاعر شاب يحلم بخلافة شوقى فى الامارة ولو بصورة من الصور .

وكتبت مجلة المسرح فى ٨ فبراير سنة ١٩٢٦ عنها أنها (بدأت من حيث انتهى الكثيرون وتدرجت فى التقدم حتى وصلت الى مركز يشرف به الغناء «١٩٢٦» وانما كتب لها هذا التفوق الباهر لخصال كثيرة أحبها الى النفس رخامة الصوت وصفاء ووضوح اللفظ ، وحسن القاء ثم احساس عميق بما تغنى . وامتازت فوق ذلك بحسن اختيارها للشعر القديم والحديث الذى تفرد بجمال الأسلوب وسمو الخيال . وللآنسة أم كلثوم شخصية ظاهرة) .

ان قيمة هذا الكلام تكمن فى صدوره سـنة ١٩٢٦ عندما كانت أم كلثوم فتاة صغيرة لم يمض على قدومها الى القاهرة غير بضع سنوات .

اذن منذ ١٩٢٦ تميزت معالم الشخصية الفنية لأم كلثوم وأهمهـا **الجدية ، وحسن الالقاء ، والاحساس العميق بما تغنى ، والشخصية .**

وهذا الكلام يقال اليوم فنسلم به على أنه (نشيد الوصول) .

وفى سنة ١٩٢٦ دعاها الشعب (سومة) تحببا .

ولم يكن الشعب يدرى بالطبع أن اسم التدليل الذى اختاره لها « سومة » ، هـو عند الهنـود اسم محبوب ومعبود . ففى الأساطير الهندية أن الآلهة « سـومة » عنـدها قدرات عجيبة ... فلديهـا رحيق مقدس من الورد المذاب والشهد المصفى وعصير التفاح وياقوت الرمان يداف فيه ضوء القمر ... وصوت البلابل ... تصح عليه العلة ، ويعود به الشباب ، ويؤوب به الغائب ولو كان ميتا ، وتثوب به السعادة .

وسومة الهندية تستطيع أن تطلع قمرا ، وأن تشرق شمسا ، وأن نزفزق عصفورا ، وأن ترفرف سعادة ، وتهفهف نسمة صبا ، وأن تكون الشباب بحلاه ، وأن تكون الأمل برؤاه ، وأن تكون البلسم فى الجراح ، وأن تكون الهنا فى الأفراح ، وان تكون السما فى الصفاء ، وأن تكون الطفولة فى النقاء ... وأن تكون ... وأن تكون ...

ما أكثر ما تستطيعه سومة الهندية فى الأساطير .

وما أكثر ما تستطيعه سومة المصرية فى دنيا الواقع .

وما أكثر توفيقات ابن البلد .

بداية تحول :

فى هذه الفترة اى العشرينات حاولت أم كلثوم التجديد فى الغناء بنفسها وذلك بالالتفات الى دور الكلمة الجيدة فى الأغنية واختيارها ثم بالأداء كما حاولت التجديد فى الغناء بما وجـده الملحنون فيهـا من

استعداد ، والمجددون منهم خاصـــة ، أغراهم بالتجديد وأعانهم عليه • يقول الأستاذ النجمي (بدون صوتها كانت حركة التجديد • والتطوير ستبقى حلما يلوح للنائمين ولا سبيل الى تحقيقه فى اليقظة) •

حاولت أم كلثوم حجز تياترو الأزبكية كما تقول « المسرح » بمناسبة التخت الجديد فلم توفق لتمسك عكاشة وتعلله بالاصلاحات الجارية فيه وقتئذ •• أرسلت أم كلثوم مندوبا الى طلعت بك حـرب فطلب مقابلتها لمناقشة الموضوع • فذهبت اليه متصورة أن طلب المقابلة بداية الموافقة • فلما صارحها بموقف عكاشة ، خرجت غاضبة لتعريضها لموقف أرادت تفاديه عندما أرسلت مندوبا عنها فى بادئ الأمر •

لقد مضت الواقعة ولكن يبقى منها دلالتها على شخصيتها الصاحية ذات التكتيك • فكل شيء عنـدها مرسوم بحساب ••• ترسـل مندوبا من اعتدادها بنفســها حتى اذا قدر للمسـعى الفشل ، كانت بعيدة عن الحرج •••

هذا سنة ١٩٢٦ حتى اذا كانت سنة ١٩٢٨ بدت أكثر تميزا حتى أن منيرة فى هذه الفترة كانت تغنى أغانيها اللامعة (ان كنت أسامح) ، (ان حالى فى هواها عجب) فى التياترات • ويرسل اليها منصور عوض من شركة جرامافون انذارا يرجو حضرتها بعد الصيغة القانونية أن تكف عن انشادها مطلقا (والا الزامك بدفع غرامة مالية لنـــا مبلغ خمسون جنيها مصريا عن كل لحن تنشدينه فى كل ليلة أى عن كل ليلة خلاف العطل والأضرار والمصاريف الرسمية وغير الرسمية) •

وحين كانت الصـــحف فى تلك الفترة تنشر عن أم كلثوم أنهـــا لا تدخن ولا تسرف فى شيء وأنها (المطربة الوحيدة التى درســـت علم النوتة والأوزان والأنغام) • روزا العدد ١٩٢٨/١٣٣ ، كانت تنشر عن منيرة أنها (عندما تستيقظ فى الصباح تدخل خادمتان واحدة فى يدها مبخرة ترقيها من عين الحسود وتعوذها من شر العدو اللدود ، والأخرى فى يدها حجر حمام حتى اذا انتهت زميلتها من عملية الرقى والتعاويذ والبخور والفاسوخ مارست هى الجزء الباقى وهو التدليك والتكبيس •• تخصص !) •

حتى اذا جاء المساء انضمت البنتان الى جمهور السميعة لسيدتهن •• ذلك الجمهور الذى بدأت الصحف تشير الى انكماشه بقولها :

(والمتفرجون لا يدفعون أجرة دخول لأنهم أصدقاؤها وأصدقاء زوجها ورجال تختها والخادمة المكلفة بتكبيس سلطانة الطرب وتبخيرها فى كل صباح) ٠

كما بدأ القراء يشمون ريح فشل منيرة الفنى حتى لتقول المسرح فى وقت مبكر (١٩٢٦) : (لم يتوقع أحد للسيدة منيرة المهدية يوم كونت فرقتها فى العام الماضى أن تفشل هذا الفشل الذى لا تعرف كيف الخلاص منه) ٠

ترى هل هو افول وشروق ؟

حتى فى خارج مصر بدأت سهام النقد تفوق الى منيرة ٠ فقد نشرت روزا (العدد ١٩٢٨/١٤٢) ان الغازى مصطفى كمال خطب فى الحفلة التى غنت فيها السيدة منيرة بتركيا فامتدح جمال صوتها ولكنه قال ان هذه الموسيقى ساذجة وانها لم تعد تشبع الروح التركية الوثابة ٠

هذا حين نشرت الصحيفة نفسها بمناسبة ازماع أم كلثوم السفر الى الآستانة ، بأن اسطوانات أم كلثوم منتشرة فى تركيا انتشارا واسعا ٠٠٠

والمسألة هنا ليست صحة الكلام أو عدم صحته وانما قيمته الوحيدة دلالته على الجو الجديد ٠

كما كتبت صحيفة (النفير) بفلسطين أن السيدة منيرة غنت فى فلسطين ادوارا قديمة متبذلة حتى انفض من حولها الجمهور صاخبا ساخطا يقول بلسان صحيفته (الصوت المتهدج الجميل والنبرات القلبية القوية والجمال والحلى والحلل صدر ! والألحان العصرية الخلابة والقطع الفنية الموضوعة والغناء الفنى الرائع عجز ! ولابد لبيت الشهرة والفوز من صدر وعجز) ٠

والتورية مفهومة ، على الأقل للأدباء والمتخصصين ٠

انا لم أر السيدة منيرة المهدية ولم اشهد هذه الفترة التى تصور افولها ولكنى أستنتج من واقع صحف العهد أن السيدة منيرة تحجرت فى الثلاثينات ولم يبق منها الا الملابس ذات السلوك الفضية والذهبية ٠٠ ومما يحكى عنها فى ذلك الوقت أنها قدمت اليها اغنية تقول كلماتها (يا هاجرنى) فرفضت غناءها ، لا لسبب فنى ، فى التاليف او التلحين تراه ولكن لأنها كما جاء فى حيثيات منيرة :

(مفيش حد يقدر يهجرنى دول كلهم بيجروا ورايا) •

ومن باب المقــابلات ، غنت أم كلثوم فى ذروة مجــدها أغنية (يا ظالمنى ••• يا هاجرنى) •

والفرق فرق عقليتين ونشأتين ••• نشأت أم كلثوم نشـأة دينية ريفية تقيدها تقاليد كثيرة ويسهر عليها أبوها وأخوها فكانت تقف لتغنى وأمامها لوحة غير منظورة ولكنها مقروءة (ممنوع اللمس) •

وبسرعة تنبهت الى ضرورة التعليم حتى اللغات الأجنبية تطلعت اليها فأخذت تتعلم الفرنسية وهى تخب فى الطويل من ثياب الريف فى العشرينات •• كان أبو العلا يعلمها النغم وأصوله ، ورامى يعلمها الأدب وفنونه ، والدكتور صبرى النجريدى يدرب صوتها تدريبا فنيا ليدخله فى الفورمة ، والعـائلات الغنية تحتضنها وتعطى ، فى دور الصـقل والتهذيب ، فرصة لفطرتها الذكية اللقاطة كى تلاحظ وتقتبس وتنفض عنها خشونة الريف وبدائيته • واجتمع لها رواد الفكر والشعر العقاد وطه حسين وهيكل والمازنى وشوقى وحافظ والبشرى • وعلموها بالقراءة والسماع والمجلس والصداقة مالا يتأتى مثله لغيرها على نفس المستوى والقدر والمقدار • وكان كل شىء كان يعمل لخدمتها فقيض لها القدر (أبو العـلا) ورامى والقصبجى والسـنباطى وزكريا أحمـد • **واعطاها مع هؤلاء : الذكاء واللمح والطموح وخفـة الروح مما ضاعف تأثيرهم •**

حتى فى باب الشخصية قيض لها البابلى وحسين الترزى يدربانها دون أن يقصدا على الفكاهة والخفة ••• حتى العلم كان فى خدمتها فلم يضع عليها جهد اذ سجل لها العلم الحديث كل صوت وكل نغمة •

كل هذه العوامل التى يعز اجتماعها فى **وقت واحد** ، **لانسان واحد** ، صنعت أم كلثوم فتقــدمت حين تخلفت الأخريات ، لاكتمال الأداة ، واستكمال الوسيلة وذكاء الشخصية ، ومواتاة الظروف •

وفى ١٩٢٧ توفى زعيم مصر سعد زغلول فقدمت أم كلثوم قصيدة :
ان يغب عن مصر سعد •
من تاليف رامى وتلحين القصبجى •

ذكرت روز اليوسف أن منصور عوض له فضل على أم كلثوم فنفى منصور نفسه هذا الفضل ونسب الفضل كله اليها مشيرا الى التزامها

بعقد شركة جرامافون معهـــا على الرغم من تنافس شركات الأسطوانات عليها •

والذى يهمنى هنا ليس هو الموقع الجغرافى (للفضل) وانما الجو الفنى لأم كلثوم وشركات الأسطوانات فى هذه الفترة أو على التحديد سنة ١٩٢٨ •

وبمناسبة شركات الأسطوانات يجدر بنا أن نذكر أنه سنة ١٩٢٨ طغت موجة من الاعلانات الطريفة مثل :

(تحييكم وتستقبلكم بعد احتجابهـــا الطويل فحيوها وتطربكم بصـــوتها الحنون بكل جديد مدهش لأول مرة بمسرح رمسيس شـــارع عماد الدين) •

الآنسة ام كلثوم :

على تخت مؤلف من محمد العقاد ومحمد القصبجى وكريم حلمى •

اغانى شعرية من نظم شاعر الشباب

الأستاذ احمد رامى

توجد ألواح حريمى غاية فى الحفظ والصون

فتذكروا ولا تنسوا يومى ٦ ، ٨ سبتمبر سنة ١٩٢٨

توجد مراوح كهربائية كبيرة لجلب الهواء فى داخل التياترو

وبجانب هـــذا الاعلان الطريف اعلان آخـــر لطيف ولكنه عن عبد الوهاب هذه المرة :

البطل عاد

يمطركم طربا للمرة الثانية فى الهواء الطلق

بكازينو زيزينيا

برمل الاسكندرية

يطربكم الموسيقى القدير بعد ان اجتاز الميدان فى الحفلة

الأولى ونال فخار الانتصار الأستاذ

محمد عبد الوهاب

يشبعكم بلذيذ ألحانه الجديدة على تخته المشهور كما

سركم فى الحفلة الأولى ٠

* * *

فى مهب الريح

وفى موجة الاعلانات أطلق على أم كلثوم سنة ١٩٢٨ لقب (مطربة الشرق) فى اعلان طريف لشركة جرامافون بعد مقدمة سابغة عن أثر الشعر فى النفوس :

(٠٠٠ هذه المنظومات التى نظمها الأستاذ أحمد رامى ولحنهـــا الأستاذ القصبجى نقلتها بصوتها الحنون الساحر على أسطوانات شركة الجرامافون ليمتد ، فخر الموسيقى ومطربة الشرق ومدهشة الغرب الآنسة أم كلثوم) ٠

مغنية الأفاعى

ليس هذا اعلانا ولكنه عنوان من عناوين روزا المعهودة ٠ فقد روت فى عددها ١١٩ (١٩٢٨/٣/٢) أن أم كلثوم غنت فى أسيوط على مسرح يطل على حديقة مهجورة تسكنها الأفاعى ٠

وما كادت أم كلثوم تشرع فى الغنــاء وتجلجل فيه حتى طربت الأفاعى وتسللت ٠٠٠ وتسلل فحيحها بدوره الى أم كلثوم التى نظرت حواليها فارتاعت وفرت هاربة وأغمى على العقاد واتكفأ القصبجى ٠

٭ ٭ ٭

وفى سنة ١٩٢٨ بدأت المظاهر التقليدية فالصحف تنشر أنها غنت فى مسرح رمسيس غناء أسال الدموع من عيون الكثيرين وفى اثنــــاء الاستراحة صعد الى المسرح عدد من الحاضرين لتقديم التهنئة ٠

كما بدأت الصحافة تتحدث عن حبها لراس البر وعن أن شلة تؤمن على كل كلمة تقولها وتترضى هواها ٠

واذا كان وضع كتاب عنها موضــة السبعينات ، فان هذه الموضــة قديمة اذ نشرت روز اليوسف عام ١٩٢٨ أن أحد المعجبين بملكة الانشاد والطرب ــ (لقبها فى ذلك الحين) ــ ينوى وضع تاريخ مفصل للظروف والأسباب التى هيأت لها الظهور ٠٠٠

ويبدو أن هذا المعجب استغرقه الطرب فلم يضع الكتاب وان كان وضع الفكرة ٠

وفى ١٩٢٨ غنت عدة قصائد ٠٠٠ ومونولوجات وطقاطيق وهى :

قصيدة : أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا ــ الامام عبد الله الشبراوى ــ أبو العلا محمد ٠

قصيدة : أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة ــ أبو العلا محمد ٠

قصيدة : ان حالى فى هواها عجب ــ رامى ــ القصبجى ٠

قصيدة : كم بعثنا مع النسيم سلاما لحنها أحمد صــبرى وغناها أبو العلا محمد بلحن آخر وضعه لنفسه ٠

قصيدة ــ لى لذة فى ذلتى وخضوعى ــ أحمد صبرى ٠

قصيدة : يا آسى الحي هل فتشت عن كبدى ـ اسماعيل باشا صبرى ـ أبو العلا محمد ٠

مونولوج : أخذت صوتك من روحى ـ رامى ـ القصبجى ٠

مونولوج : ان كنت أسامح وأنسى الأسية ـ رامى ـ القصبجى ٠

مونولوج : أيقظت فى عواطفى وخيالى ـ رامى ـ القصبجى ٠

مونولوج : خيالك فى المنام حلمى ـ رامى ـ القصبجى ٠

مونولوج : يا ريتنى كنت النسيم اللى يداعب شعورك ـ رامى ـ القصبجى ٠

طقطوقة : أنا على كيفك ما أقدرش أبدا ـ رامى ـ أحمد صبرى ٠

طقطوقة : صدق وحبك مين يقول ـ رامى ـ القصبجى ٠

طقطوقة : صحيح خصامك ولا هزار ـ رامى ـ القصبجى ٠

طقطوقة : متنا فى حبك يا نور العين ـ رامى ـ القصبجى ٠

طقطوقة : يا ستى ليه المكايدة ـ رامى ـ أحمد صبرى ٠

طقطوقة : يا كروان والنبى سلم ـ رامى ـ أحمد صبرى ٠

وفى سنة ١٩٢٨ بدأت أيضا أخبار السفر الى الخارج وكيف أنها عدلت عن البوسفور الى لندن لأن الشركة (بعثت منذ عامين تطلب منها أن تزور لندن لكى تملأ بضع اسطوانات بوساطة الماكينة الخاصة الموجودة فى مركز الشركة والتى أخذت بواسطتها أصوات ملك وملكة انكلترا والدكتور ولسن ومستر لويد جورج) ٠

وبمناسبة الملوك والملكات بدأت الصحف المصرية ١٩٢٩ تتحدث عن (بلاط أم كلثوم) ٠ وأخذت تجرى فى ركابها تسجل كل اشارة ٠ (فالوطنية) تنشر أن (ساحرة المطربات الآنسة أم كلثوم) ستقضى الصيف فى رأس البر ٠ و (الشرق الأدنى) تنشر قصة المنافسة فى المزاد بين أم كلثوم وبين عباس بك الرمالى على قطعة الأرض المقامة عليها فيلتها الحالية ٠

وفى ١٩٢٩ نشرت الشرق الأدنى أن صداقة متينة نشأت بين أم كلثوم وفتحية أحمد (منافستها فى ذلك الوقت) ٠ ولم يفت الصحافة

أن تضمن هذه الصداقة وتؤلف الأزجال الساخرة حولها • وأطرف من هذه الصداقة فى نظرى ، التقارب الذى حدث فى العام نفسه بين أم كلثوم ومنيرة المهدية ، حتى أن السـيدة منيرة المهدية احتفلت وقتئـذ بعيد ميلادها [illegible] أم كلثوم الحفل وغنت فيه !

وفى [illegible] ظهر لها مقلدات • فقد ظهرت مطربة جديدة اسـمها ([illegible] فى تياترو حديقة الأزبكية (ان كنت اسـامح وانسى الأسية) •

ثم كتبت الصحف فى ذلك العهد ، أن المطربة الجديدة مولعة بسماع أم كلثوم حتى إنها تقتر على نفسها وتقتصـد من (مصروف جيبها) الضئيل حتى اذا تجمع لها عشرة قروش ذهبت فاشترت تذكرة فى حفلة أم كلثوم •

وفى ١٩٢٩ غنت لرامى مونولوج : (سـكت والدمع اتـكلم) ومونولوج (قلبك غدر بى ورمانى) وقد لحن المونولوجين القصبجى • كما غنت قصيدة :

(قل للبخيلة بالسلام تورعا) ولحنها لها الشيخ أبو العلا محمد •

وفى ١٩٢٩ نشرت الصحف أنه عندما انتهت أم كلثوم من الغناء قام المستشار القضائى الانجليزى يريد التوجه اليه فأمسك به زميله المصرى قائلا :

ــ الى أين ؟

ــ أريد أن أهز يدها شاكرا مهنئا ومعجبا •••

ــ كلا لا تفعل انك لست فى انجلترا وسوف ينتقدون عملك هذا ويعيبونك عليه ، ولكن المستشار قال :

ــ اذن فلن تكون اول مرة ولا آخر مرة يعيب فيها المصريون على شيئا ما !

وذهب فصافح أم كلثوم بحرارة •

وبعد عشرات السـنين توفد الحكومة الأمريكية أدميرالا يرحب بزيارتها أمريكا للعـلاج • وهناك يستقبلها السـفير المصرى ويودعها لتستقبلها مصر فى المطار • ويرفع اليهـا السفير الأمريكى فى القاهرة رسالة تحيى عودتها •

وفى ١٩٢٩ بدأت الأخبار الأسطورية كاستحمامها باللبن الحليب تتناقلها صحف سوريا (الصحافى التائه) والأرجنتين (جريدة الاخاء) .

وتعقب الجريدة على الخبر بقولها (لا عجب اذا طلبت أم كلثوم مائة وخمسين جنيها فى ليلتها أجرا للمرة التى كانت قد عزمت على تمضيتها فى بيروت) .

ولا يملك الانسان الا أن يبتسم . ففى أيامنا ليلة أم كلثوم فى بيروت (بعلبك) بـ ٢٥ ألف جنيه لا ١٥٠ جنيها التى تهول صاحبنا .

واتخذت آخر ساعة من قصة اللبن الحليب موضوعا للفكاهة والتندر من الشاعر أحمد رامى .

تقول آخر ساعة على أثر نقل الصحف المصرية الحكاية من الصحيفة السورية (اجتمع مجلس البلاط يتدارس الموضوع بينما راح المعلم دبشة الجزار يؤكد صحة الخبر . وبينما البلاط فى هرج ومرج واذا بالباب يدق ويدخل البائع الذى يورد لأم كلثوم حاجتها من اللبن الحليب واللبن الزبادى أيضا !

والتف أصدقاء سومة حول بائع اللبن يسألونه عن عدد الأرطال التى يقدمها كل صباح لست الحسن والجمال : أم كلثوم .

وقال البائع انه يقدم لبيت سومة ، كل يوم رطلا واحدا من اللبن ، وأحيانا يقدم رطلين ...

وهنا اضطر صديقنا الأستاذ أحمد رامى أن يمزق القصيدة التى أعدها على هيئة عريضة يطالب فيها أم كلثوم باللبن المتبقى بعد الاستحمام ليشربه على الريق .. والعياذ بالله !) .

وفى ١٩٢٩ أيضا نشرت الصحف أن أم كلثوم ترفض أن تسافر الى أوروبا قبل أن تتعلم لغة أجنبية تتفاهم بها هناك . وأنها اختارت الفرنسية وأكبت على دراستها حتى أصبحت تستطيع أن تقرأها وأن تفهم ما يقال أمامها بالفرنسية .

ودلالة هذا الخبر نشاط عملية الصقل التى أخذت نفسها بها .

وبمناسبة السفر الى أوربا فى ذلك الحين نشرت الصحف أن أول فرصة ذهبية لاحت لأم كلثوم كانت السفر الى لندن . ولكن والدها منعها

خوفا عليها من أخطار السفن · وتزعم الصحيفة صاحبة الخبر أن الفنان محمد العقاد هز رأسه موافقا وهو يقول :

معك حق يا شيخ ابراهيم فهناك حديث شريف يقول بعدم ركوب البحر الا لمن يعرف العوم !

وقد تعلمت أم كلثوم العوم على يد (مناع بك) كما تقول الصحيفة متفكهة · فان مناع بك هذا كان بدينا لا يقل وزنه عن مائة وأربعين كيلو جراما كما يقولون ·

ومناع بك كان من الشلة التى أحاطت بهـا فى العشرينات فكانت ترافقها فى كل حفلة ··· وكانت هى من جهتها قبل أن توافق على أى عقد ، تشترط أن يدعى هؤلاء الى الحفلات الخاصة ، فقد كانت تستشعر الأمان فى وجودهم فضلا عن أن تشجيعهم الزائد كان يعدى الجمهور الذى يأخذه الحماس فيندفع بدوره الى التصفيق والهتاف · وكان أفراد هذه الشلة يحتلون دائما المقاعد الأمامية ·· ومن أساطينها المعلم دبشة الجزار وكان خفيف الدم حاضر البديهة ، رائع النكتة · وكان شيخ الجزارين يسمى عطيل سميعة أم كلثـوم ··· وكان بقامته الطويلة ولسـانه الذى لا يسكت اعلانا متنقلا لأم كلثـوم بما يحدث به عنها · وله فى اظهـار طربه وسائل مختلفة تتوقر الى حد انسجام الدموع فى صمت العاشق ، وتتهور الى حد تناول طربوش جاره ليقذف به الى حيث يسـتقر تحت أقدام أم كلثوم ·

وكان دبشة اذا فرغت أم كلثوم من الغناء ينهض هو ويبدأ بالقـاء النكات وسرد الطرائف المضحكة ···

كانت الشلة تشيع المرح فى جو حفلات أم كلثوم حتى ان أصحاب الحفلات ــ خاصة أو عامة ــ أصبحوا من تلقاء أنفسـهم يطالبون بهم ويلحون فى سماعهم فى حفلات المطربة الجديدة ·

وليس معنى هذا أن الجو صفا لها بغير شائبة ··· لقد قاست فى الفترة من ١٩٢٠ ــ ١٩٣٠ من النقد المر الذى كان طابع المجلات والصحف فى ذلك العهد التى كانت لاذعة لاسعة متجنية أحيـــانا فى غير ترفع ومغرضة حسب الاتاوات · فقد جرت العادة بأن يزور الناقد الفنى أو المسرحى فى كل أسبوع مطربتين أو ثلاثا وأن يدعى لتناول الغذاء أو العشاء على مائدة مطربة أو ممثلة مرة واحدة على الأقل فى كل أسبوع ·

ومن تدعو أكثر كما تقول صحيفة الشرق الأدنى فهى طبقا لقواعد الفن (كوكب) ساطع ونجم منير ·

وصاحبتنا واعية معتدة بنفسها مما يثير(النقاد الفنيين) الذين كانوا يطلقون ألسنتهم بلا حساب تعيث فى بيوت الفنانات ، حتى بعـــد أن يتمتعوا بموائدهن وما عليها ! فما بالك بأم كلثوم التى لا تعطى من وقتها كثيرا أو قليلا للموائد وهوايتها ·

زار بعضهم يوما (الآنسة أم كلثوم) · ونتركه يصف لنا فى وصفه من الغيظ المضحك لأنها لم تتملق معدته :

(ضغطت على زر الجرس الموضـــوع على الباب الخارجى ، فاقبلت الخادمة · وخادمة أم كلثوم عمرها ما تعرف ما اذا كانت ست أم كلثـوم موجودة أم لا ! ولكنها مع ذلك تدعو الزائر أن يتفضل بالدخول والجلوس فى الصالون ·

وحملت الخادمة بطاقتى وبعد ربع ساعة تقريبا أقبلت الآنسة أم كلثوم·

والذى يرى أميرة الطرب على التخت تمزح وترد (النكتة) بأحسن منها ، يدهش ولا شك لحيائها وخجلها فى دارها ! !

دخلت الآنسة بعد أن سلمت علينا ، جلست فى مقعد مطرقة رأسها

حياء وخفرا ، وفى يدها منديل تطويه وتنشره ، وتمسح به فمها من وقت لآخر ٠

واقبلت الخادمة تحمل القهوة ٠

والآنسة أم كلثوم ، مطرقة راسها لا تنطق بكلمة وانما تختلس النظر الينا من لحظة لأخرى ٠

ـ ازى صحتك يا مدموازيل ؟

ـ نحمده

ـ سلامات

ـ الله يسلمك

ـ احنا أنسناك

ـ الله يآنسك

ثم ضحكت ضحكة طفلة صغيرة غادرت المدرسة منذ يوم فقط ٠

ومرت دقائق ، ثم قمت مستأذنا فى الانصراف ، هنا فقط تكلمت الآنسة أم كلثوم :

ـ ما هو بدرى ! خليك قاعد شوية ٠٠٠ والنبى بدرى !

* * *

لعلها بذكائها الفطرى وأنا أعنى ذكاء الاحســاس كانت تعرف أن حاضرها الواعد يغنيها عــن تملق هؤلاء ٠ ولعلهــا كانت تعلم اولا باول ما تفسر به موائد منيرة المهدية وســواها والقفشــات والسخريات التى يطلقها (الضيوف) بعد أن يتخموا ٠٠٠ فقد كانوا مثلا يشيعون عــن مطربة طيبة القلب ـ أنها اذا اعتذر أحدهم عن القهوة التى كان يستدلون بها على نقص قانون العقوبات من مادة تنص على عقاب القتل بالسم . تلح المطربة الطيبة أن يتناول شيئا آخر ٠

ـ عندنا موز كويس ـ طيب أجيب لك حتة لادن ـ احنا عملنــا امبارح ملوخية كويسة أجيب لك شوية فى طبق تبل بهم ريقك ؟

ونشرت روز اليوسف سنة ١٩٢٨ تحت عنوان : (على موائد الممثلات والمطربات) ـ لم يرد به ذكر أم كلثوم ـ تصف مائدة منيرة المهدية •

(تناولت ـ المحرر ـ طعام الغداء مرتين على مائدة السيدة منيرة المهدية • وقدمت لنا السيدة فى المرة الأولى «ديك رومى » ونحو نصف قنطار من اللحم والفراخ والحمام ! وأما الفاكهة فكانت من أصناف التفاح التى نراها معروضة فى فترينات جروبى وصولت بسعر عشرة قروش التفاحة الواحدة !

وفى المرة الثانية (بطة) واحدة وشيئا من اللحم والحلوى وأما التفاح اياه فلم يكن له أثر على المائدة • وفهمنا من هذا أن خدمات النقاد لم تصبح لها قيمة كبيرة عند السيدة منيرة !

أم كلثوم والنقاد :

كانت أقلام (النقاد الفنيين) لا ترحم حتى صاحبات الموائد •
وبعض هذا النقد الذى عانت منه أم كلثوم ولو بينها وبين نفسها، اشاعة تمزيقها للمنديل أثناء الغناء حتى استقرت فى الأذهان الى وقت ليس ببعيد •

ولم يبددها الا كثرة الاقبال عليها ولمس الألوف للعلاقة الحقيقية بينها وبين المنديل وهى علاقة رقيقة مترفة لا عصبية فيها • وانعكست الآية فغدا منديلها جزءا من الاكسسوار الذى يتفنن فى وصفه ، بعد فستانها ، المعلقون الاذاعيون والصحفيون •

نعود الى قصة المنديل سنة ١٩٣٠ • وسأنقل القصة من روزا العدد ١٥٩ من مقال مطرباتنا وحركاتهن أثناء الغناء ، لنرى الى اى حد كان الصحفيون يطلقون لأنفسهم العنان فى الكلام مهما كانت الشخصية الضحية ، فى مجال الفن أو السياسة أيضا • فبالطريقة نفسها كانوا ينتقدون الوزراء والحكام أنفسهم •

والقصة :

(الأنسة أم كلثوم أو معبودة الجماهير كما تريد حاشيتها أن تسميها ـ ما تكاد تتوسط التخت وتنظر ذات اليمين وذات اليسا لتتحقق من انتظام رباط رقبة شقيقها مولانا الشيخ خالد أفندى ولتتأكد من وجود أستاذنا رحمى أفندى ومن أنه صاح متيقظ ، وأن عينيه لم تستسلم لسلطان النعاس بعد ·· نقول أن الآنسة ما تكاد تفعل ذلك حتى تمتد يدها الى شنطتها وتخرج المنديل رقم ١ ثم تتلاعب بأصابعها فى ثنايا أطرافه وتستمر فى شده ومده المرة تلو المرة ·· وكلما ازداد تحمسها فى الغناء كلما لجت أصابعها فى تمزيق خرقة المنديل المسكين ، الى أن تنتهى القطعة الغنائية فينتهى معها تمزيق المنديل رقم ٩ ·

كلما أتت على منديل ألقت به صريعا فى سلة المهملات (وهى على ما أظن جيب الأستاذ محمد العقاد) ثم تناولت المنديل الثانى وهلم ···

وقبل كل حفلة للآنسة ، يجلس الأب ابراهيم والأخ خالد وحدهما ليعملا حساب المناديل التى كتب عليها أن تقطع وتمزق ···

ولقد دلت الاحصائيات أن المعدل هو ٣ مناديل للطقطوقة و ٦ للمنولوج و ١٠ للقصيدة · ومن هنا تفهم السر فى حب مولانا الشيخ ابراهيم للطقاطيق وكراهيته للقصائد · ولكم يتمنى لو تطاوعه ابنته وتقتصر على الطقاطيق وتترك القصائد) ·

وكما نسجت روزا قصة المنديل عن أم كلثوم ، نسجت قصة المراوح عن منيرة المهدية ، والسلاسل عن فتحية أحمد ، والزراير عن فاطمة سرى التى تصرع أظافرها الناشبة فى معطفها أزراره ساعة الغناء ·

حتى الدكتور سعيد عبده وهو من عشاق أم كلثوم ــ من يومه ـ لم ينس وهو يمجدها أن يغمزابن عمها !

البلبل اللى انتحر معذور وكان له حق

بوظ ياثومه عليه صوتك وحالا طق

ده صوت مدندش سماوى ما اقولش لأ

الله يخلى الحناجر اللى تجيب فدادين

بس ابن عمك ياحسرة دمه زى البق

وبمناسبة الدكتور سعيد عبده نذكر الأزجال الساخرة التى نشرتها الصباح (العدد ١٩٦ فى ١٧ / ٦ / ١٩٣٠) تحت عنوان « أناشيد دكاترة أم كلثوم » :

وحقيقة الرجل أنه ابن زوج أختها ولكنك لا تعرف كيف ومن الذى أوحى الى الجمهور أنه ابن عمها أيضا بل وأيضا خطيبها ! وككل جمهور عقله فى أذنيه اضطهد الرجل وتعمد ايذاءه بالكلمة الجارحة أو النكتة المتبجحة أو الأغنية المقصودة ... حتى الجمهور ـ جمهور العشرينات ـ قاست منه أم كلثوم ...

روت آخر ساعة (١٩٦٥/١٢/١) عن مجلة الكشكول أن أم كلثوم غنت فى أول حفلة لها على مسرح برنتانيا أغنية (اللى باحبه ده دلعه يجنن) .

طلب اليها بعضهم أن تغنى طقطوقة (حرمت يا ناس ما باحبش) فلبت الطلب بسرعة وصادف ذلك رضا بروتس أى جمهور الحاضرين . وبعد أن أخذت الآنسة الصغيرة اللطيفة ، كما يقول ناقد الكشكول الفنى، فى غنائها ، انحدر من أعلى التياترو صوت أجش يأمر باقتضاب هذه الأغنية والشروع حالا فى طقطوقة (أهى ليلة فى العمر) فاشمأز الجمهور من هذه المقاطعة وتقدم الى السيدة أن تمضى فى غنائها .

وارتفع الصوت ثانية وكان صوت فتى فى نحو الخامسة والعشرين من عمره حاد الوجه أشعث الشعر أفرغ على جلده « جلابية حمراء شد عليها جاكتة زرقاء » وهو يقول : لابد أن تغنى حالا « أهى ليلة فى العمر » .

فتقدمت الآنسة الطيبة بكل أدب ولطف ورجت الطالب أن ينتظرها ريثما تتم أغنيتها فارتفعت أصوات صائحة « أسكتى فهذه ارادة الشعب ... نحن الشعب ... لابد من النزول على ارادة الشعب » .

ثم جعلوا يصيحون ويصفرون ويصفقون حتى اضطرب المكان واختل المجلس وبدأ الهتاف « العالى » ـ ليحيا الشعب ولتسقط أم كلثوم .

ـ لتحيا (أهى ليلة فى العمر) ولتسقط (حرمت ياناس)
وأنزل الستار .

وخرج الى الصاخبين ــ وهم لا يتجاوزون ثمانية أشخاص ــ عم الشيخ سيد ٠

والشيخ سيد هذا من أنصار أم كلثوم وهو الذى يتشفع به الجمهور اليها ٠٠٠

أراد عم الشيخ سيد أن يتفاهم مع (الشعب) فما أصغى اليه ٠٠٠ توسل بكلتا يديه الى (الشعب) أن ينتظره حتى يتكلم فتلقاه حضرة (الشعب) بالنكت الآتية :

ــ أبوك كركب فى النحاس قالوا ٠

ــ امسك حرامى ٠

ــ لما يفلوك ٠

ــ اشمعنى ٠

ــ يبقى الدم للركب ٠

الخ هذه النكت اللطيفة الخفيفة المهذبة نحو نصف ساعة !

ونزلت المغنية على ارادة (الشعب) وغنت (أهى ليلة فى العمر)٠

ومن الطريف تعليق الجريدة على الجمهور : (ما أفظع قسوة الجمهور وقلة أدبه يقف بجوار الآنسة أم كلثوم وهى تنشد قصائدها وتغنيهم أدوارها على المسرح ، ابن عمها وخطيبها فى آن واحد ٠ وهو عامى فى لباس قريته الخشن وكأن عامة الناس يحسدونه على الآنسة ولا يراعون الذوق فى علاقتها به سواء العائلية أو المدنية يتعمدون مطالبتها بانشاد طقطوقة (مظلومة وياك يا ابن عمى) ! !

وتضطر أن تجيبهم فتترنح أعطافهم ولكن لا من نشوة الطرب بل من الظفر بجرحه وان كانوا يجرحونها معه ٠

تغنى (الطقطوقة) وهى تعلم غرض الذين يطالبون بها ٠٠٠ ولكن أى غناء يحمله للناس ذلك الصوت الذى تغلبه العبرة وتكاد تخنقه من قسوة الجمهور وقلة أدبه ــ التعبير من عند الصحيفة ــ

حقا ان الجمهور يظلم أم كلثوم حتى فى اعتقاده أنها مظلومة (وياه) ٠٠٠

وهكذا قاسمت أم كلثوم وهى على أولى درجات السلم من الصحافة٠٠ من المنافسة ٠٠٠ ومن الجمهور نفسه ٠٠٠

وبالتالى تعرض رامى للهجوم أو تعقبه ضابط مباحث (الصباح) فعرض اقتباساته الشعرية فى العدد ١٩١ (٢٣ / ٥ / ٣٠) ، العدد ١٥٩ (١٩٣٠/٦/٢٠) العدد ٢٣٧ فى (١٩٣١/٤/١٠) ٠٠

وحرب المنافسة التى دخلت فيها أم كلثوم من ١٩٢٠ ـ ١٩٣٠ كانت غريماتها يجمعن الى الصوت الجمال ، وهو سلاح ماض ، مثل منيرة ونادرة وفاطمة سرى أيضا سهام وخيرية ٠٠ ولكنها تفوقت ٠٠استطاع صـوتها وحده أن يغطى الميزات الاضافية للأخريات بعد أن غطى أصواتهن ٠

أم كلثوم وعبد الوهاب يتنافسان

ولم تقتصر المنافسة على الجنس اللطيف فقد دخل الحلبة عبد الوهاب أيضا ٠٠٠ وفى سنة ١٩٣٠ كثر الذين يحلو لهم أن يقارنوا بين أم كلثوم وعبد الوهـــاب ٠

ومما يتصل بحديث هذه المنافسة قصة قصيدة شوقى :

سلوا كئوس الطلا هل لامســت فاها

واستخبروا الراح هل مست ثناياهـا

والقصة كما ترويها أم كلثوم أن أمير الشعراء دعاها مع جمع من الأدباء والشعراء وكان مجلســا للأدب والطرب ما دار فيه ٠٠٠ وطلب شوقى من ضيفته أم كلثوم أن تغنى ٠

وفى ظهر اليوم التالى فوجئت كما تقول (بزيارة الشاعر العظيم لدارى فأسرعت أحتفى به ، واذا هو يقدم الى غلافا مقفلا فدهشت فقلت « وايه ده ؟ فلوس ؟ » قال : « لا ٠٠٠ هذا من وحيك » ٠

وفتحت الغلاف فوجدت بداخله ورقة سجل فيها شوقى وبخط يده، هذه القصيدة : « سلوا كئوس الطلا » فقرأتها وشكرت للشاعر العظيم هذه اللفتة الكريمة ٠٠

وما أزال أحتفظ بهذه الورقة بخط شوقي كأثمن تذكار أعتز به ٠

الى هنا تنتهي رواية أم كلثوم لتبدأ القصة من جديد ٠ يقـــال ان (شوقي) صرح باسم أم كلثوم في القصيدة مرتين أولهما في البيت :

سل أم كلثوم من بالشرق طارحها

والذي نسمعه منها الآن :

حمامة الأيك من بالشـوق طارحها

والمرة الثانية في بيت الختام :

يا أم كلثوم أيام الهوى ذهبت

وهو الذي تغنيه :

يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت
كالحلم آها لأيام الهوى آهـــا

وتقول القصة أن (شوقي) هو الذي أجرى هذا التعديل حتى لا تستغل قصيدته في المنافسة التي كانت قائمة اذ ذاك بين أم كلثوم ومحمد عبد الوهاب ٠

ويبدو أن القصبجي قد أراد أن يحل المشكلة ويضع جوابا للسؤال الحائر في ذلك الوقت أيهما أحسن عبد الوهاب أم (أم كلثوم) ؟ فقال من حديث نشرته له الصباح العدد ٢٦٥ في ٢٣/١٠/١٩٣١ ٠

انه ليس في مقدور أحد أن يقارن بين عبد الوهاب وأم كلثوم ٠ فالمقارنة يجب الا تكون الا بين شيئين أو شخصين من جنس واحد ، غير أنني لا أتورع في القول أن عبد الوهاب هو على رأس المطربين كما أن أم كلثوم هي على رأس المطربات فكل منهما ينعم بالاحساس الموسـيقي الطبيعي ٠ وأقدم لك مثلا على مواهب أم كلثوم أنها كثيرا ما تزيد من عندها على الحاني متفننة في اخراجها ما شاء لها التفنن ، مما يؤيد نظريتي فيها أنها فنانة بالفطرة)٠

وفي سنة ١٩٢٧ غنت لابن النبيه قصيدة :

(أماناً أيها القمر المطل)[1] التي لحنها الشيخ أبو العلا وغنت لرامي

(١) هذه القصيدة غناها أبو العلا سنة ١٩٢٥ بلحن آخر وضعه هو ٠
وعندما غنت أم كلثوم هذه القصيدة غنتها بلحن ابي العلا

طقطوقتين : (تشوف أمورى وتتحقق) ، (حبيت ولا بانش على) وقد لحنها القصبجى ، كما لحن لها القصبجى فى عام ١٩٣٠ أيضا من كلمات رامى مونولوج (خلى الدموع دى لعنيه) ٠

وغنت فى العام نفسه دور : (حسن طبع اللى فتنى) تأليف كامل الخلعى وتلحين داود حسنى ٠

ودور (شرف حبيب القلب بعد الغياب) تأليف رامى وتلحين داود حسنى ٠

* * *

فى ذلك الوقت عادت تلميذة تدعى (أميلى) من المدرسة تبكى لأن زميلاتها عرفن سرها واكتشفن فيها المطربة أسمهان ٠

وقد سبق هذا الاكتشاف عملية تحوير فى الاسم ٠ فاسم أميلى [illegible] أو عرب أو استبدل به اسم أمال ٠ أما أسمهان فهو الاسم المستعار فى عالم الفن خوفا من بطش أسرتها فى جبل الدروز ٠٠٠ والذى اختار لها اسم « أسمهان » هو داود حسنى الذى تولى تلقينها قواعد الغناء فى مستهل حياتها الفنية ٠ وسنقابلها فى أكثر من صفحة من صفحات هذا الكتاب ٠

وفى الثلاثينات أيضا ظهرت مطربة ذات صوت كبير هى نجاة على لم تلبث أن ظهرت مع عبد الوهاب فى فيلم دموع الحب (١٩٣٥) ٠

وفى الثلاثينات ظهر صوت آخر ولكنه بين الرجال هذه المرة ٠ وبدأ الناس يسمعون بالمطرب عبد الغنى السيد ٠ وظهر فريد الأطرش لا مطربا فحسب ، بل ملحنا أيضا ذا طابع خاص ٠

وصول قطار « قرين »

وقبل هذا جاء الى القاهرة الطفل الذى التقت به أم كلثوم فى محطة قرين دقهلية ٠٠٠ جاء ليتقدم الى امتحان معهد الموسيقى العربية حيث كانت تنتظره مفاجأة كبرى ٠

لقد قبلت اللجنة التلميذ (الفنان) بالمعهد . هنا بدأ الفتى يتحسس طريقه فى القاهرة المزدحمة المكتظة بالعازفين والمغنين والفنانين .

وحدث أن سمعه مدير شركة أوديون حينئذ . سمعه فى أول لحن له وكان قصيدة مطلعها :

يامشرق البسمات أضىء ظلام حياتى

وهى من تأليف الشاعر على محمود طه ... فعهد مدير شركة أوديون الى الملحن الناشىء بتلحين بعض الأغانى الخفيفة لشركته .

وكانت بداية ... لحن بعدها وقتئذ لأحمد عبد القادر طقطوقة (أنا أحبك وأنت تحبينى) ولعبد الغنى السيد أغنية (يا نارى من جفاك) .

كما لحن عددا كبيرا آخر من الأغانى الشعبية رددها الشعب ، ومن أشهرها (الدنيا فى ايدى والكل عبيدى) التى كتبها الدكتور سعيد عبده وغنتها أحلام .

ولكن هذه الأغانى ، على ترديدها ، لم تستطع أن تخرج ملحنها من منطقة الظل . فقد كانت الأغانى فى ذلك العهد تضفى الشهرة والجاه على المغنى وحده حين كان الملحن يقبع وراء الكواليس بعيدا عن الأضواء ، راضيا بحظه المقسوم . وليس أدل على هذا من السنباطى . فقد كان كل أمله فى سنة ١٩٢٨ أن يرتفع أجره عن اللحن الواحد الى عشرة جنيهات ... فقط .فلم تتحقق هذه الأمنية الا سنة ١٩٤٣ .

وكان هذا الملحن الناشىء مطربا ناشئا أيضا . فقد كان يغنى فى حفلات المعهد الشهرية ، بل بدأ فى حفلات المعهد يغنى من ألحانه نفسه . وفى هذه الفترة لحن أول قصيدة فى حياته الفنية ... كان قد تعرف بشوقى فأشار عليه بتلحين قصيدته .

مقادير من جفنيك حولن حاليا فذقت الهوى من بعد ماكنت خاليا

فكانت أول تجربة فى تلحين الشعر . وسمع شوقى اللحن وشجعه ...

وسمع به فى الوقت نفسه مدير أوديون فارسل فى طلبه وقال له :

ـ لحن لنا الحانا خفيفة
ـ ولم لا نبدأ بالألحان الدينية
ـ مثل ؟
ـ أغاني الحجاج
ـ فكرة

وبدأ الفنان الناشيء يلحن (يا حبيب الله امتى نعود لك يانبى) ٠

وبدأت الاذاعة المصرية ٠

وكان (فجرا) ٠

وغنى الفنان الموهوب :

(كل شيء راقص البهجة حولى ها هنا) ٠

من شعر الشاعر أحمد فتحى ٠

وغنى للأستاذ العقاد قصيدة :

(يا نديم الصبوات) ٠

ام كلثوم والسنباطي

وجاءه يوما صديق يقول :

ـ أم كلثوم سمعتك فى الاذاعة وهى تود رؤيتك ٠ لم يكد الملحن الناشيء أو الذى كانت تعامله الاذاعة كذلك ، يسمع هـذا الخبر حتى غمره شعور بالزهو ٠ لقد كانت أم كلثوم فى ذلك الوقت تدعى كوكب الشرق٠ولم يصدق الشاب الطموح أنه مرة واحدة سيقوم بالتلحين للكوكب المرموق ٠٠ أم كلثوم التى غدت شيئا آخر غير فتاة محطة قرين ٠

ولحن رياض السنباطى لأم كلثوم •

(لما انت ناوية تهاجرينى)

وسمعت أم كلثوم اللحن وحفظته وسجلته على اسطوانة •

ثم أعطته قصيدة (سلوا كئوس الطلا)

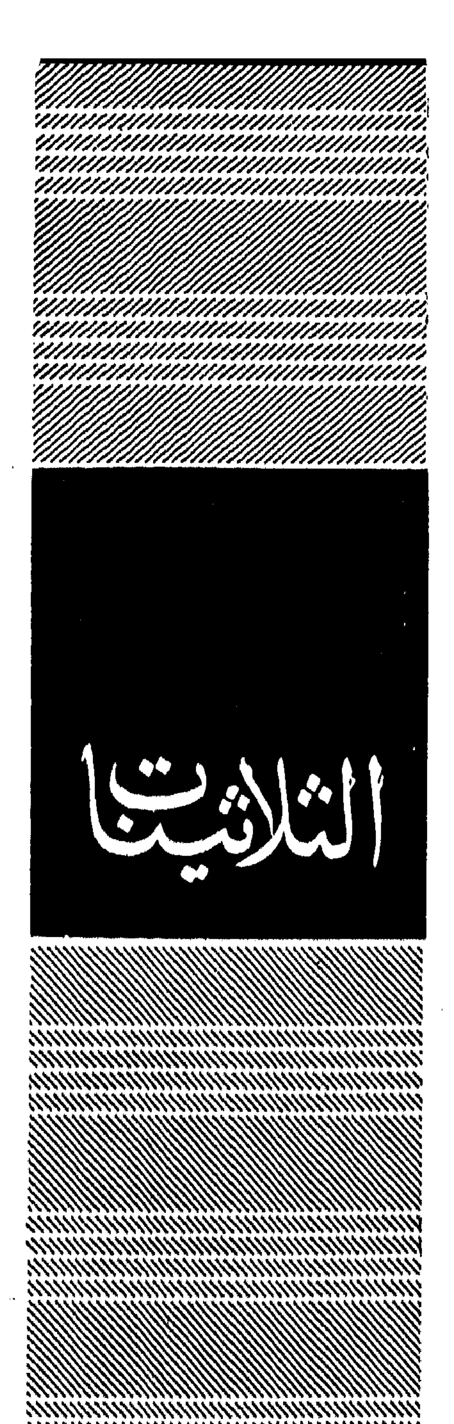
ثم « النوم » التي لاقت نجاحا كبيرا •

كان الملحن الشاب ممتلئا بالحماسة والأمل • وكان فى رأسه أنغام وموسيقى • ولم يكن يتصور أنه بعد مجيئه الى القاهرة بفترة صغيرة سيقوم بالتلحين لأم كلثوم التى غدت كوكبا •

كان لحن (النوم يداعب عيون حبيبى) فى الحقيقة نقطة تحول فى حياة أم كلثوم والسنباطى معا ••• اتصلت بعده علاقتهما الفنية ••• تمسكت أم كلثوم بالملحن الجديد طلبا للتجديد كعادتها ، وحرصا ـ كعادتها أيضا ـ على ألا ينفرد ملحن واحد بالميدان حتى لا يتحكم فيها أحد حين تستطيع هى فى هذه الحالة أن تسيطر ، أو على الأقل تتوسع فى الطلب والتوجيه •

وسارت أم كلثوم ••• وسار السنباطى •• واتصل التعاون بينهما منذ ذلك الحين الا فى فترات الخلاف الذى يعرض من حين الى حين ، ثم تشدهما المصلحة المشتركة من جديد •

والسنباطى فنان ذو كبرياء ••• وهو أكثر ملحنيها تمردا عليها ، من أنفة فيه تجعله يثور لمجرد ظن المساس به فى فنه الذى يعتز به • فهو لا يقبل أثناء التمرين مخالفة اللحن الموضوع الا اذا جاء التغيير رجاء رقيقا أو اقتراحا رفيقا فيلبى فى أريحية • وحتى فى هذه الحالة المتسمحة، كثيرا ما يقنعها بالصورة الأولى للحن فتعود اليها ! ويحدد السنباطى الأجر الذى يرضيه فيجاب اليه •


الثلاثيات

ازمة سنة ١٩٣٠

بدت سنة ١٩٢٩ بوادر الأزمة الاقتصادية التى استحكمت سنة ١٩٣٠ وعلت فى الصحف نغمة كساد حفلات المطربات والمطربين ولم تسلم حفلات أم كلثوم من هذه الأزمة ٠

وكانت أجور المطربين والمطربات تتذبذب وان كانت الى الهبوط أقرب اذا استثنينا منيرة المهدية التى ثبت أجرها عند خمسين جنيها لليلة الواحدة ٠

وكانت أم كلثوم فى تلك الفترة تغنى فى الحفلات العامة التى يتعهدها « صديق أحمد » ، كما كانت تغنى فى الحفلات الخاصة ، أى الأفراح ، وتتقاضى فيها أقل ٠ ولهذا كانت أكثر نشاطا ورواجا أيضا ٠

وفى عام ١٩٢٩ بدات تسرى اشاعة بأن هناك (خصاما) بين (شاعر الشباب احمد أفندى رامى والمطربة المشهورة الآنسة (أم كلثوم) ٠ وتقول الاشاعة ان (رامى) بدأ يرفع راية العصيان على أم كلثوم ٠ واستدلت الصحافة بقصيدته الجديدة ٠

عشقتك للصوت الحنون وللشجى
وما كنت أدرى ما يجر هواك

تماديت فى هجرى وشردت مهجتى
ومـــا غردت يوما بغير ســـــماك

وفى آخر ابريل سنة ١٩٢٩ نشرت الصحف نبأ خطوبة (الآنسة أم كلثوم) على صديق أفندى متعهد الحفلات ·

وكم زواجا عقدته لها المجلات والاشاعات التى لم تلبث أن زوجتها بعد صديق أحمد ، من الطيار صدقى ·

وقد بدأت أم كلثوم تحس بشخصيتها المعنوية مبكرة وأنها أكثر من مطربة · انها مصرية وطنية تعيش الأحداث القومية · فقد نشرت الصحف فى يناير سنة ١٩٣٠ أنها على أثر وفاة سعد ألغت جميع حفلاتها لمدة أسبوعين واعتكفت فى دارها حدادا عليه ·

ولم تنس الصحف أن تزيد حتى فى هذه المناسبة للاطراف ، أو قد تكون صادقة ، وعلى الحالين فان الخبر طريف وهو قول رامى :

ـ ما كانش ناقص الا الغيرة كمان من الأموات ! مش كفاية الأحياء ، علشان يموت سعد باشا وتقعد طول النهار والليل بكا ·

ومن اعتدادها بنفسها فى تلك الفترة ما حدث حين اختلف معهد الموسيقى الشرقى مع عبد الوهاب وأراد الاستعاضة عنه بالمطربين والمطربات واتفق معهم على أن يغنوا فى حفلاته بأجر معلوم ، فاشترطت أم كلثوم الانفراد بالغناء والا ألغت الاتفاق ·

تقول صحافة ذلك العهد تعليقا على الموضوع : (اهتز المعهد ونزل على حكم أم كلثوم وألغى اتفاقاته مع جميع المطربين والمطربات) !

بوادر سيطرة ··

وفى هذا العام ظهرت حركة تغيير فى (بلاط أم كلثوم) كما كان يحلو لصحافة ذلك العهد أن تسمى المعجبين بها · فبعد أن كانت بطانة أم كلثوم تتكون من أبناء البلد الطيبين أصحاب النكتة الرائعة ، تدرجت هذه البطانة فى مدارج التقدم ، مثلها فأصبحت تتكون من (الأفندية) المتأدبين والمتظرفين والمتأستذين فكل منهم أستاذ فى علم الأصوات وأستاذ فى السماع · وهذه الطبقة تشكل الصفوف الأمامية ، كما تشكل جوقة تعزف الآهات والتأوهات الحادة حتى اذا أسدل الستار ، تسابقوا الى

الكواليس يؤدون فريضة التهنئة ، ويحلفون اليمين أنهـــا لم تغن فى حياتها كما غنت الليلة • ثم يمارسون أستاذيتهم فى مخـارج الحروف واخـد بالك من الميم • واخـد بالك من السين •• الخ • ثم ينقلبون عشاقا • ولكن أم كلثوم الذكية لا يخيل عليها • أجرت معها روزا حديثا (العدد ٢٣٤ لسنة ١٩٣٢) فنقلت عنها رأيها فى أمثال هؤلاء :

ـ أرى مئات من مختلف الأشكال والألوان كل يظهر حبه ويعلن أنه يضع قلبه تحت أقدامى • ولذلك ترانى لا أشعر بلذة الحب ولا أحب أن أذوق طعمه !

وتتغير البطانة من طبقة الى أخرى ويظل رامى ثابتا كحبه • وتغمزه الصحف بأن أم كلثوم تعترف بفضله ولكنها لا تحبه • ولكنه فى كـل الحالات صاحب « يوم الاثنين » يقضيه خاصة فى ضـيافتها ، ويسميه (يوم أم كلثوم) وتسميه هى (يوم رامى) •

كان يوم الاثنين يوم اجازة دار الكتب التى كان رامى موظفا بهـا ـ وكان لهذا السبب يسميها « كتبخانة النعيم » تفكها ، لأن أجازة الحلاقين يوم الاثنين ـ وكان بحـكم وظيفته ينتقى من دواوين الشعر أعذبهـا وأسلسها ، ويحملها معه الى أم كلثوم فيقرأها لها ، ويبصرها بمواطن الجمال الفنى فيهـا ، حتى اذا فرغ من ديوان أو كتاب رده الى دار الكتب وأتى لها بجديد • وهكذا يمضى يوم الاثنين فى عملية صقل غير مباشرة عادت على أم كلثوم بالكثير ••• وفى الحقيقة أن (يوم الاثنين) أضاف الى شخصية أم كلثوم كما أضاف الى أغانيها ••• فقد صاغ رامى الذى كان يحتشد ليوم الاثنين ، لقاءاته و (ذكرياته) أغانى حب • ظمآن وفى البحر فمه •••

وظل (يوم الاثنين) فى عمر رامى خالصـا لأم كلثوم حتى بعد زواجه • لم تستطع زوجته استخلاص « يوم الاثنين » !

وفى سنة ١٩٣٠ أسست الحكومة معهدا للتمثيل للنهوض بالمسرح • وكانت هيئة التدريس تتكون من الدكتور طه حسين والدكتور ضيف للغة العربية ، وزكى طليمات للاخراج المسرحى والتمثيل • وجـورج أبيض لتدريس الالقاء • وكان زكى طليمات قد عاد من بعثته الى فرنسا • وكان يقول بعد عودته من دراسته (لا زهور ولا أرج جديدا فى القصر الذى أوشكنا أن ننتهى من بنائه ما لم يكن له بستان ومشتل) • وكان يرى فى هذا المعهد (البستان والمشتل) • وكان ينادى بتدريس العلوم والفنون المسرحية فيه كما دعا المرأة الى دخوله •

ولم يكد ينصرم عام على افتتاح المعهد حتى الغــاه فى حزم وعزم (وزير التقاليد) حلمى عيسى باشا الذى كان وزيرا للمعارف فى الوقت نفســه • ولا أدرى كيف فاتهم حينذاك أن ينشئوا كما يقــول الدكتور حسين فوزى وزارة للتقاليد •

وعام آخر وأعادت الوزارة فتحه ولكن بعد أن تحول المعهد الى قاعة للمحاضرات ، كان مركزها مدرسة الابراهيمية •

وبدأ المسرح يزدهر حين بدأت السينما تحبو • وفى ذلك الوقت فكرت شركة نحاس فيلم فى اخراج أول فيلم غنائى عربى ناطق فعهدت بأدواره الأولى الى المطربة نادرة ، واختارت الشركة قصة الأستاذ العقاد (أنشودة الفؤاد) ومن هنا نبعت الاشاعة القائلة بحب الأستاذ العقاد لصوت نادرة مرة ولشخصها مرة أخرى •

وفى الثلاثينات أوفدت مصر أول بعثة موسيقية الى أوربا • وكانت مكونة من الأساتذة عبد الحميد عبد الرحمــن ، ومحمود عبد الرحمــن وعبد الحليم على •

ولكن المسرح الغنائى أو الغناء المسرحى فى هذا العهد بدأ يأفل تمشيا مع أفول منيرة المهدية وظهور أم كلثوم على فتحية • (اشتغلت فتحية بالغناء المسرحى بنجاح فترة طويلة) ثم موت ســـيد درويش • يضاف الى هذا ظهور السينما ثم ازدهارها •

تدهور المسرح الغنائى ثم اختفى والتف الناس حول أم كلثوم ثم بالتالى حول التخت والغناء الفردى ••• ودع عنك بعد هـــذا حديث أم كلثوم عن المسرح وتمنيهــا الاشــتغال به ، فان هــذا كله من باب الديبلوماسية وذلك لعدة أسباب ساشير اليها عند الحديث عن فيلم (عايدة) باعتباره أوبرا أصلا •••

المسرح فن جماعى وأم كلثوم تحب التفرد • وهذا الميل فيهـــا يشبعه التخت الذى تربعت على عرشه •

وفى ١٩٣٠ بدأت شركة كولومبيا تعلن عن أسمهان وأنها (لا يزيد عمرها عن ١٤ سنة) •

وفى سنة ١٩٣١ طلعت أم كلثوم على جمهور المستمعين بمجموعة كبيرة من الأغانى الجديدة بل ان عام ١٩٣١ يعتبر أزخر سنيها بالجديد ••

ـ قصيدة : أراك عصى الدمع شيمتك الصبر .

وقد كانت هذه القصيدة شائعة فى الغناء وبين المغنين غناها يوسف المنيلاوى ، ومحمد عثمان ، كما غناها بطريقته عبده الحامولى وغناها زكريا . وغنتها أم كلثوم بطريقة عبده الحامولى ثم أخيرا بلحن رياض السنباطى .

قصيدة : أكذب نفسى عنك فى كل ما أرى ـ عبده الحامولى (١) .

قصيدة : بين ذل الهوى وعزة نفسى ـ ضاع قلبى فما عرفت التأسى

طقطوقة : البعد طال والله على ـ رامى ـ القصبجى .

طقطوطة : التقل ليه يا مالك قلبى ـ رامى ـ أحمد صبرى

طقطوقة : اللى حبك يا هناه ـ رامى ـ زكريا

طقطوقة : تبيعينى ليه كان ذنبى ايه ـ رامى ـ القصبجى

طقطوقة : تراعى غيرى وتتبسم ـ رامى ـ القصبجى

طقطوقة : جمالك ربنا يزيده ـ حسن صبحى ـ زكريا

طقطوقة : الليل يطول ويكيدنى ـ حسين حلمى المانسترلى ـ زكريا

طقطوقة : قالوا لى امتى قلبك يطيب ـ رامى ـ زكريا

طقطوقة : ليه عزيز دمعى تذله ـ حسن صبحى ـ زكريا

طقطوقة : ما تروق دمك مين حايهمك ـ رامى ـ القصبجى

طقطوقة : محتار يا ناس فى دى الغرام ـ رامى ـ القصبجى

طقطوقة : يا فايتنى وأنا روحى معاك ـ رامى ـ القصبجى

طقطوقة : يا لى شغلت البال يا ريت أكون على بالك ـ رامى ـ القصبجى

وفى الثلاثينات كان النادى الأهلى هو مقياس أم كلثوم كما أشرت ، تغنى فيه الأغنية الجديدة (غناء حبيا) ووفقا لوقعها ، تحكم بنفسها على الأغنية .

---

(١) هذه القصيدة غناها سنة ١٩٠٣ يوسف المنيلاوى بلحن عبده الحامولى .

وفى ١٩٣١ مرضت أم كلثوم فلما عوفيت هنأت الصحافة بالشفاء ـ مع رجاء موجه لأم كلثوم ألا تتحايل على صحتها أو تسرف فى اقامة الحفلات يمينا ويسارا · وغردت القوافى ولكن على أوتار المهندسين هذه المرة · فقـد نشر المهندس غالب مدير أعمال مساعد بوزارة الأشغال . يومئذ ، قصـيدة زجلية طويلة يهنىء ويزف الأعياد ·

وفى ١٩٣١،وكان والدها قد توفى فىهذا العام ، (١٩ أبريل سنة ١٩٣١) بدأت تحدث تغييرات فىتختها استجابةلصيحات التجديد ، فرأت أن تضم الى التخت الاستاذ زكريا أحمد · وهنا بدأت تهب الزوبعة كما تقول الصباح :

والخلافات التى بدأت تطل بين أفراد التخت وبين زكريا امتدت الى أم كلثوم نفسها · فقد حدث خلاف واسع بينها وبين العضو الجديد زكريا على الاتعاب · وكان ذلك على وجه التحديد فى ١٩٣١/٧/٣١ ·

ومنذ ١٩٣١ بدأت تظهر فى الصحف ظاهرة اقبال الاجانب على حفلاتها واعجابهم بها · ومن الطريف أن الصحف فى ذلك الوقت بدأت تردد ما رددته صحافتنا منذ عامين عن أمل الشرقيين بباريس فى سـفر أم كلثوم الى العاصمة الفرنسية · وتناقلت الصحف وقتئذ ان (متحف كرافان وهو متحف باريسى متخصص فى صنع تماثيل من (الجبس) لرجال العصر من سياسيين وفنيين وعلماء ، أو لنساء العصر اللواتى يمتزن بموهبة من المواهب ، صنع فى عداد تماثيله تمثالا لأم كلثوم) ·

وفى الحق أن سنة ١٩٣١ اقترنت باختفاء حملات النقد المنتظمة · وآية هذا أن جريدة الصباح التى كانت تهاجمها بدأت تتحمس لأم كلثوم وتفيض فى وصف مظاهر التأييد والاعجاب للنجم الصاعد – معالاعتذار للجيل الصاعد ·

هذا فى الوقت الذى بدأت الصحافة تغمز فيه (ملكة الطرب) ـ أى سلطانة الطرب – فتنشر مثل هذا العنوان : (شكوى الزمان فى صالة ملكة الطرب) ·

وكأن منيرة المهدية تنعى نفسها فى ترديدها مثل هذا البيت :

يا سلام عليـــك يا زمـــان غـــدار ولا لكش أمـــــان

* * *

رحلة الشام :

فى ١٩٣١ بدأت الصحف تنتقل معها فى سوريا ولبنان (بيروت) وفلسطين مسجلة صيغة العقود وأخبار الاستقبالات والحفاوة التى لقيتها فى الأقطار الشقيقة وتهافت المتعهدين على التعاقد معها ·

وفى العدد ٢٥٩ من الصباح الصادر فى ١٩٣١/٩/١١ وصف ملوكى لاستقبالها فى بيروت وعلية القوم يصعدون الباخرة (اكس كمبيون) للتهنئة بسلامة الوصول ·

ولكى لا يظن بى المبالغة فى التعبير بلفظة (ملوكى) سأنقل جانبا فقط من هذا الوصف :

(وركب الكثيرون الزوارق والفلايك المزدانة بالأعلام المصرية تعانق أعلام لبنان وتحوطها بالأزهار والرياحين · وانتشروا فى البحر منتظرين قدوم الباخرة اكس كمبيون لتحيـــة واستقبال الآنسة أم كلثوم وأعضاء تختها ·

وفى الساعة السادسة صباحا دخلت الباخرة الميناء فالتفت حولهـا الزوارق وارتفعت أصوات ركابها **بالهتاف والتحية** ·

وفى الساعة الثامنة بعـد الانتهاء من الاجراءات الرسمية للباخرة وصل زورق بخارى يحمل أفراد فرقة موسيقية **تصدح بالسلام الملكى المصرى** ·

ثم صعدت أم كلثوم الى ظهر الباخرة يحيط بها مستقبلوها · وحيت الجماهير المحتشدة فى الزوارق والفلايك وكانت كلما حيتهم كلما ازداد هتافهم ·

وقد أخذت لها عدة صور بين مستقبليها ثم نزلت من الباخرة وركبت « لنشا » مزدانا بالرياحين ويعلوه العلم المصرى بين الهتاف والتصفيق • ومن حولها زوارق المستقبلين كعروس البحر الى أن وصلت الى رصيف الميناء الذى كان يغص بمئات المستقبلين كالبناء المرصوص • ولم تتمكن أم كلثوم من شق طريقها وسط هذه الصفوف المحتشدة الا بشق الأنفس وبمعاونة رجال البوليس الذين اصطفوا على الجانبين وأفسحوا لها الطريق الى السيارة التى أعدت لركوبها وتوجهت الى نادى الموسيقى•

وصلت أم كلثوم الى النادى وكان الجمهور المحتشد على أرصفة الشوارع يحييها بالهتاف والتصفيق فى مرورها •

وفى النادى استقبلها الأعيان والادباء • وبعد أن استراحت قليلا ووزعت الحلوى والمرطبات على الحاضرين تهافت الادباء على القاء ما جادت به قرائحهم فى تكريم المطربة وتحيتها •

وفى تلك اللحظة ارتفع من الخارج صوت الهتاف والتصفيق من الجمهور المجتمع حول النادى فخرجت الآنسة أم كلثوم الى الشرفة وحيتهم بيديها ومنديلها) •

* * *

حدث هذا سنة ١٩٣١ !!

النص طويل أعرف هذا ولكن أليس طريفا بألفاظه الملوكية التقليدية من احتشاد على طول الطريق وهتاف وأعلام والقاء نظرة على الجماهير ورفع اليد بالتحية ورفع العلم المصرى على الباخرة طول مدة وجودها !!

لقد كانت هذه الاستقبالات مفاجأة لها على حد تعبيرها حين وصفت رحلتها لجريدة الصباح بعد عودتها ، بل مفاجأة كادت دهشتها معها تتحول الى ذهول ـ تعبيرها أيضا ـ وتقول فى فكاهة لا تخفى •

(لقد تأثرت جدا بهذا المنظر المبهج الذى جعلنى أتخيل أنى أقرأ وصفا جميلا لشعب وهو يستقبل قائدا باسلا جاء الى وطنه فاتحا منصورا بعد أن أذل الخصوم ودوخ الأقطار) •

ومن طرائف رحلتها هذهالتى يبدو أنها كانت عامرة بالطرائف وصف أديب لبنانى لها وصفا اقتطف منه هذه العبـارات التى يروق للمصرى أن يلتقطها ·

(انتهى دور الموسيقى وقد بسطت مائدة النشوة ! فى الجمهـــور واســـكرته ، وافقدته كل شعور ! الا الشـــعور بالشوق الى ســماع صناجة المشرق) ـ وهو لقب جديد فاتنى تسجيله فى معرض الحـــديث عن القابها ـ

(وقد وقفت أم كلثوم تترنح برشاقة وأدب) ·

ومن أوصاف أم كلثوم :

(مستودع ! لكل آلات الطرب ولجميع قواعد الموسيقى) ·

(طغمة البلابل ـ أنا غير موافقة على « طغمة » هذه التى لا تقـــال الا فى الذم مع الاعتذار للأخ اللبنانى ـ طغمة البلابل الصداحة حملت ندى الفجر وشذاه ، هاربة من نبلة الصياد فلم تر روضة منيعـــة تستطيع ان تسبح الله بها فى غير صدر أم كلثوم) ·

(السواقى صاخبة وهادئة ، فتشت عن ضفاف تعلمها الهـــدير والخرير ، فلم تهتد الى غير صوت المصرية الحسناء) ·

(النسيم عندما يلامس ثغور الأطفال النيام ـ لغاية هنا كويس ـ والعاصفة عندما تهب من قمم البراكين لايجدان فى غير نبرات أم كلثـوم ونغماتها صورة حية لحاليهما) ·

قمم وبراكين وعاصفة هل تعجبك هذه الألفاظ ؟ أنا لا تعجبنى · كما ان العاصفة والبراكين تذكرنا بغزل الرافعى ·· ومع تقديرى [illegible] نية الكاتب فان اى صوت جميل بله صوت أم كلثوم [illegible] من العواصف ·

ثم كيف بالحق يكون صوت جميل صورة حية للبراكين والعواصف!! ماذا بقى لوصف صوت الرعد ؟

(الأوراق عندما ترسل حفيفها طروبا فى الربيع ، كئيبا فى الخريف لا تسلها من اين تستوحى أنغامها ، بل قل (لصاحبة الجلالة) فى عالم الفن ماذا فى حنجرتك يا أميرة المنشدات والمنشدين ؟) ·

على أن رحلتها فى الشام لم تسلم من الشوائب فقد تظاهر فريق ضدها فى حيفا نظرا للأزمة التى كانت تمر بها ولكن رجال الشرطة فرقوهم كما ارتفعت أصوات بعض الصحف (جريدة الراصد) مشيرة الى الشدائد التى تعانيها « البلاد » ولم تنس فى الوقت نفسه « المصارى » أو الفلوس فناشدت أم كلثوم التبرع بايراد ليلة (لصندوق الأمة) !

* * *

وفى ١٩٣٢ لاقت منيرة المهدية حرجا شديدا من منافسة أم كلثوم بقدر ما استراحت من منافسة توحيدة المغنية التى توفيت فى ذلك الحين ·· مع الفارق اذ لم تكن توحيدة أو لطيفة الياس فخر وهو اسمها الأصلى ، على شدة المنافسة بينها وبين منيرة ، الا راقصة تغنى وغناؤها بعد هذا دور : (على دول ياما على على دول ··) ·

وكانت فتحية أحمد احدى الفارسات الثلاث (منيرة ـ فتحية ـ أم كلثوم) تظهر حينا وتختفى آنا مؤثرة حياة البيت والأولاد ·

وفى مايو ١٩٣٢ غنت أمام الجمهور لأول مرة فى مسرح رمسيس « ليلى مراد » حين كانت أم كلثوم تغنى فى معهد الموسيقى فى مؤتمر الموسيقى العربية ١٩٣٢ أمام الملك فؤاد ·

أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا

ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

وكررت فى تفنن (ملك الفؤاد) حتى صفق الملك طربا ·

وفى سنة ١٩٣٢ غنت عدة طقاطيق جديدة ·

طقطوقة : أكون سعيد لو شفتك يوم ·

وطقطوقة : العزول فايق ورايق ، وهما من كلمات حسن صبحى وتلحين زكريا ·

كما لحن لها زكريا طقطوقة (مالك يا قلبى حزين اليوم) وغنت لرامى طقطوقتين · (ليه تلاوعينى وانت نور عينى) و (أنت فاكرانى ولا نسيانى) وقد لحنهما القصبجى ·

وفي يونية سنة ١٩٣٢ أقام معهد الموسيقى الشرقى حفل تكـــريم للآنسة أم كلثــوم متخطيا منيرة المهــدية التى دافعت عنهــا روز اليوسف واعتبرت هذا غبنا لها بحكم الاقدمية ٠

* * *

الشاعر رامي يهين أم كلثوم :

ومضت روزا تؤجج الموقف من ناحية أخرى بما أثارته حول قصيدة رامى التى قيلت فى تكريم أم كلثوم وأنها أى القصيدة (بايتة) مذكرة الجميع بأن رامى قالها فى عبد الوهاب منذ سنتين أى سنة ١٩٣٠ وكتبت تحت عنوان عريض :

(الشاعر رامى يهين أم كلثوم)

ونشرت القصيدتين فى مكان واحد لتؤكد التكرار

والحقيقة أن القصيدة ليس لها (خاصية) معينة وهى قصـــيدة (تركب) على أى صوت جميل ٠ فسواء قيلت فى عبد الوهاب أو أم كلثوم فالها مما يصعب نسبته ٠

اين عبد الوهاب أو أم كلثوم فى هذه الأبيات :

طرب النفس فى سماع الاغـانى وقعتهــا مثــالث ومثــان
ونجى الأرواح صــوت شجى يتغـنى بأعذب الألحــان
وجمــال الروض فى طيرها الشا دى على ناضـر من الأفنــان
وخـرير الغدير يهمس بين ال عشب سر الهوى ونجوى الأمانى
هذه بهجـة الحياة وسـلوى ال نفس نامت بفادح الأشـجان
والحداء الرخيم فى المهمه القفـ ـر عزاء للعيس فى الوخـدان

وتصول روزا وتجول فى التعليق والتندر بالقلم والريشة ـ العدد ٢٦٦ فى ١٩٣٢/٦/١٣ ـ فقد توسط المقال صورة كاريكاتورية لرامى يقدم لسومة القصيدة ملفوفة قائلا :

الى سومة .. الى آلهة الوحى .. أقدم هذه القصيدة

فيرد عليه عبد الوهاب حائلا بينه وبينها !

حانب ياتى رامى أنت بتعطيها قثيدتى أنا .

* * *

المهم أن الحملة أصابت الهدف فما ان لقيت أم كلثوم الشـــاعر المسكين حتى جبهته قائلة :

.. أنا متاسفة اللى عرفتك !

وأصاب السهم القلب الشـــاعر المحب فأدماه . وقفل الرجـل عائدا الى بيته . وآلى على نفسه ألا يسعى اليها بعد يومه هذا ولا يجدد لها عهدا بل حرم على نفسه سماع الراديو (المذياع بالفصحى) حين يذيع لها لحنا .

من أنت حتى تستبيحى عزتى فأهين فيك كرامتى ودموعى
وأبيت حران الجوانح صاديا أصلى بنار الوجـد بين ضلوعى
أعمى عن الحسن الذى هامت به نفسى وطال الى سناه نزوعى

ترى أى حسن ؟

وأصم عن نغم عشقت سماعه أيام كان القلب غير سـميع

ثورة عاتية قد أجهزت بكلمتين (من أنت ؟)

لقد طارت على أجنحة شعره ، وسمت الى سماء الادب ، ببدائع الكلمة ، وروائع المعنى ، ومنضد القصيد .. مما أغرى الملحن بالارتفاع وأغراه بالابداع ليتساوق اللحن مع اللفظ التياه ، ويتواءم النغم مع توشيع الشعر وفن الشاعر .

ثم وقفت على المسرح تختال فى غلائل وردية من بدع الشعر ،

وصنع الموسيقى فوصلها العارفون بالشاعر والملحن ، وحسب الطيبون ان الغناء من المغنى وحده وفاتهم الجهود المضنية التى آزرت صوته ، وحملته على جناحى الكلمة المبدعة والنغمة الرائعة ليحلق ٠

لقد كشف الغضب لرامي هذا كله وما كان جاهله وان تغافل عنه ، فلما جد الجد صرخ منتصرا لقدره ونصيبه المطبوع من المجد المصنوع :

انى كسوتك من خيالى حــلة   وشعت صفحتهـــا بزهر ربيعى
ونشرت من روحى عليك غلالة   كالليل آذن فجـــره بطلوع
نديت جوانبـــه ورق نسيمه   وأرن فيـــه الطير بالترجيع
وأجلت فيك طبائعى فشربتها   ووردت منهـــل شعرى المطبوع
وسمعت همس خواطرى فحكيته   لحنا يشوق النفس بالتوقيـــع
ووصلت من عيشى بعيشك حقبة   شاركتنى فى ذكرهـــا المرفوع

هى التى شاركته ٠

يا زهـــرة أنضرتها ورعيتهـــا   وسقيت تربتها زكى نجيعى

ليست هذه مناجاة ٠٠ انها أنة جديدة ٠٠ ان الشاعر يتحسر ٠

وأمضى الرجل فى عزلته ثمانية شهور يتمزق فى صمت ٠٠ ويسعى اليه الموفقون فيأبى فى شمم مستمهلا اياهم حتى يبرأ القلب الطعين ٠ ويعاودونه فلا ترضى المعاودة كبرياءه بل تنكأ الجرح القـــديم ٠٠ فيرفض من جديد ٠

وذات يوم ٠

حملوا اليه فى غضبته نبأ سفرها الى العراق بالطائرة وتهيبهـــا الطيران اذ لم يسبق لها به عهد راجين منه توديعها ٠٠ مهولين له أمـــر سلامتها فى السفر ، ولكنه لم يلن ٠٠ والتف حولها فى المطار المودعون ٠٠ الصادقون والمتملقون ، ولكنها كانت فى شغل عن الجميع بالتطلع المستخفى والتفرس المستتر فى الوافدين على المطار ٠٠ ولكن الغائب المنتظر عبثـــا يعود ٠٠ ولم تفقد الأمل حتى حان موعد قيام الطائرة فآمنت أن الأمر أكبر مما تصورت ٠

وعادت من رحلتها وهرع الى استقبالها الكثيرون ولكن شاعرنا لم يكن من بينهم !

وطالت الجفوة حتى جاء يوم مرضت فيه وقرر طبيبها أن يستئصل لها الزائدة الدودية •

وسعى من جديد الساعون ليحملوه على زيارتها • وألحوا فى اليوم السابق على العملية — ٢٠ مارس سنة ١٩٣٣ — ، — والعملية فى ذلك الوقت شىء رهيب — باعتبارها فى رأيهم بين الحياة والموت • فاذعن بعد لأى كما يقول الفصحاء •

ذهب اليها رامى فى المستشفى وعادت المياه الى مجاريها • ولكن حدث بعد حين أن سافرت أم كلثوم الى أوربا •• وزار رامى فى هــذه الاثناء احدى قريباته وكانت لها فتاة رسبت فى الامتحان ، ودار الحديث حول الشابة الراسبة وأعربت أمها عن رغبتها فى وقفها عند هذا الحد من الدراسة واستبقائها بالبيت •

وهنا سنح لرامى خاطر ارتسم على وجهه •• واستطاعت أختــه بغريزة المرأة — وهى رادار من نوع فريد — أن تنفذ الى الخاطر السانح • واتجهت الأخت الى أخيها وقالت :

هيه •• ما رأيك ؟ فقال :

— ولكن من أين آتى بالمال؟ قالت :

— أو ليس معك ما يشترى خاتم الزواج ؟

وكان هذا هو ما يملكه رامى فى تلك الساعة فأعطاه لها وقبــل أهل العروس الوضع على علاته •

ودهش المحيطون به •• أحقا خطب رامى المحب ؟ وكان جوابــه فى كل مرة : نعم •

نعم سأتزوج لأن نفسى تاقت الى انسان يحبنى بلا غاية ، يحبنى لنفسى خالصا مخلصا • يحبنى فى كل حالة وفى كل وضع وعلى مدى الأيام ، يحبنى حيا ويحبنى ميتا حبا لا شائبة فيه •• يحبنى حبا كاملا صفوا كله •• يحبنى وأحبه حبا لا يدانيه حب فى الدنيا لأنه يتربع على عرش الابوة والبنوة •• تزوجت لأنى أريد أن أسمع أعذب كلمة فى الدنيا « بابا » •

كان رامى فى دفقته الشعورية هذه كالمحامى الذى يدافع فى قضية مقتنعا بعدالتها ٠٠ وقد ترجم هذا الدفاع شعرا بعد أن أثمر زواجه ابنه محمدا الذى قال فيه :

يا بنى ، ما أحيلى يا بنى أنت ظل مده الله على
نعمة العمر وتذكار الصبا والأمانى التى عزت لدى
لست أنساك جنينا خافيا فى ضمير الغيب أدعوك الى
أتمناك لعينى قرة حين ألقاك وليدا فى يدى
أرقب اليوم الذى تبسم لى وترى آى الرضا فى مقلتى
فأناجيك بألحان الهوى سابقات خاطرى فى شفتى
كلمات هى لا معنى لها غير أن تسمع منى أى شى
فتراعينى ولا تقوى على غض أجفانك عنى يا بنى

* * *

عروس الشعر وعروس الشاعر :

وعادت أم كلثوم من أوربا وأنهوا اليها النبأ همسا « رامى تزوج»٠ وكان آخر خبر تتوقعه لا فى ذلك الوقت فحسب ، ولكن ما امتدت بهما الحياة ٠٠ ولكن أم كلثوم الحصيفة سكتت أمام القول كأن الأمر لا يعنيها حتى اذا التقت برامى بادرته قائلة : أحقا تزوجت يا رامى ؟ فقال لها وكأنه يعتذر أو يتهرب من السؤال العاتب : أصلها
قريبة لى ٠٠ حاجة على قدنا ٠٠ والاشارة مفهومة ٠

وطوى الحديث وفى النفس حاجات ٠٠

وظل رامى وأم كلثوم يستوحيها وتوحى اليه ولكن على أنها عروس أشعاره ولعل فى هذا ، الجواب على السؤال الذى ارتفع على اثر غناء قصيدته « أنت الحب » والتى يقول فيها :

ولما اشوف حد يحبك يحلالى أجيب سيرتك وياه

والذين اثارت دهشتهم هذه الصورة أو هذا التعبير نسوا انه زوج

وأنها زوجة وأن الغيرة القديمة لا محل لها بعد أن مضى (الاحبـــاب كل فى طريق) ٠

كان رامى يحبها بشاعريته واحساسه وقلبه ونفسه جميعا ٠٠ كان يحبها حبا عذريا متساميا ٠ أما الآن فانه يحبها شاعرا فقط ٠٠ غداً يحبها حبا مترف الاحساس لفنان طروب يبدع الكلمة ويعرف جرس اللفظ ورنين الوتر ٠

حب رامى اليوم لأم كلثوم شعاع هادىء هو كل الذى بقى من تلك الجذوة المشتعلة العارمة التى أضاء وهجها قبل الزواج والتى على نورهـا قال :

يا اللى رضـــاك أوهـــــام والســـــهد فيـــك أحــلام

حتى الجفا محروم منه ٠

انها (ذكرياته) فكيف ينسى ذكرياته وهى بعض حياته ٠ ان الفنان الذى يفنى زهرة عمره فى ابداع « تمثال » ، عزيز عليه – مهما كـــانت الاسباب – أن يتخلى عنه أو يضيعه ٠٠ ويضيع معه ما بذل فيه وله ، من أيامه ٠٠ انه لا يحب التمثال وحده ٠ ولكنه يحب فيه أيضا تلك البضعــة من نفسه التى أودعها فيه حين كان عاكفا عليه يسوى خلقه ٠

ورامى يؤمن أنها حين تقف لتتغنى ، انما تغنى له قبل كل الناس وتتجه اليه ملتمسة وقع أدائها على نفسه ٠

تغنى هى ويسمع هو ٠٠ وفى هذه الأثناء يعيش الاثنان فى جو الأغنية التى صيغت ألفاظها لتصوره ٠

انها ذكرياتي » واذا تخابث سائل واستدرج (رامى) ، فى أى وقت فان هذه الذكريات تنثال ويتدفق الرجل الطيب فى الحديث ٠٠ حديث عذب يحلو له على التكرار ويحلو للسامع أيضا ٠

ينقطع وحى الشعر عن رامى زمنا فتقلق أم كلثوم وتسأله فيجيبها: « يا ست صــديت » ٠ وتفهم عنه مراده فتقول « هاغنيلك » ٠ وهنــا يحدثك رامى أنه أوفر انسان فى الدنيا حظا من صوت أم كلثوم ٠ ثم يقص عليك كيف لم يفته سماعها منــذ عرفها فى فجر حيــاتها الغنائية

حتى لقد غنت مرة فى احدى العائمات المستلقيات على صدر النيل · فاستقل رامى زورقا شراعيا وطاف حولها يستقبل ما يرقى اليه من النغم ·

وغنت ليلة وكان مريضا (طريح الوساد) · ولكنه تحدى المرض وطلب أن يحملوه على كرسى طويل الى مكان الحفل ؟ وسعى اليها على هذه الحال التى لا تترك أدنى مجال للشك فى ولعه بها ·

يقص عليك كيف سمعها منفردا وكيف سمعها فى جماعة · وكيف سمعهافى لألأة الأنوار وضجة السمار ، وكيف سمعها والنور خافت والكون ساكن ، والليل حالم ، وكيف سمعها فى (ليالى القمر) والبدر (شاهد عليه) ·

والشاعر الصادق أحمد رامى ، بعد مرور خمسين عاما على لقائه الأول بأم كلثوم لا يلبس فى أصبعه الا خاتما واحدا ووحيدا مكتوبا عليه O.K أى : أم كلثوم · والخاتم عمره فى يده أربعون عاما !!

رسائل حب واغنيات مرسلة :

وأغانى رامى لأم كلثوم تجارب عاشها ·· يودعها عند السفر الى أوربا فيقول :

أيها الفلك على وشك الرحيل
ان لى فى ركبك السارى خليل
رقرقت عيناى لما قال لى حان الوداع
وبكى قلبى مما ذاع فى الكون وشاع

غابت الشمس وراء الأفق ثم ذابت فى مسيل الشفق
ويح نفسى كاد يخبو رمقى
حين حيانى حبيبى
وتبادلنا الوداع
وانطوى منه نصيبى
عند تصفيق الشراع

أيها الفلك على وشك المغيب
قف تمهل انى لى فيك حبيب
لا أذوق النـــوم حتى نلتقى
والضحى يغمر وجه المشرق
فأحييه بقلب شـــيق
شارحا وجدى
شاكيا سهدى
فى الدجى وحدى
وأناجيه بحبى
بين ضم واعتناق
ناسيا آلام قلبى
طول أيام الفراق .

وطقطوقة (انت فاكرانى ولا نسـيانى) وطقطوقة (ليه تلاوعينى وانت نور عينى) رسائل قلب وهى فى أوربا . وأغنية (رق الحبيب) كانا فى حالة صفاء . وكان فى طريقه اليها وفتح الكوبرى فجأة بالنسبة له وكاد يغرق . وفى هذه اللحظة لم يأس على شىء الا على النعيم الموعود به والذى يتهدده الخطر .

ولما قرب ميعـــاد حبيبى ورحت أقابله
هنيت فـؤادى على نصيبى من قرب وصله
ولقيتنى طايل م الدنيـا كل اللى أهـــواه
بس اللى كان فاضل ليه أســـعد بلقاه
لما خطــر ده على فكرى حـــير أمرى
والقـــرب ســبب تعـــذيبى
ولقيتنى خايف على عمرى لا يروح منى
من غير ما أشـــوف حســـن حبيبى

قصص الأغاني :

واغنية (غلبت أصالح في روحي) كانت بينهما جفوة ثم تصالحا وكانت يدها مريضة لا تستطيع تحريكها حتى كان رامى يطعمها بيده هو . وبكت فرق وغفر ونسى بل تدفق بالشعر .

غلبت أصالح في روحي   عشان ما ترضى عليك
من بعد سهدى ونوحى   ولوعتى بين ايديك
فضلت أقول الزمان   غير على البعد حالك
ولا الرضا بالهوان   كتر على دلالك
وانا اللى أخلصت في ودى   وفضلت طول العمر أمين
يا خد الزمان منى ويدى   وقلبك أنت على ضنين
مجروح وضامم جناحه   على الجراح اللى فيه
في الليل يردد نواحه   طول ما الليف جافيه
لما الزمان اللى غدر به   بعدك وكنت تديم شكواه
رماك وجه السهم في قلبه   عطف عليك والوجد ضناه

وفى ١٩٥٢ سنحت ساعة صفاء خالصة فابدع اغنيته الجميلة :

جددت حبك ليه   بعد الفؤاد ما ارتاح
حرام عليك خليه   غافل عن اللى راح
يا هل ترى قلبك مشتاق   يحس لوعة قلبى عليك
ويشعلل النار والأشواق اللى طفيتها انت بايديك

يصعب على اقول لك كان والحب زى ما كان وأكتر

وافكرك بليالى زمان   وأوصف في جنتها وأصور
أنت النعيم والهنا   أنت العذاب والضنا

والعمر ايه غير دول
ان فات على حبنا سنة وراها سنة
حبك شباب على طول

انا لو نسيت اللى كان   وهان على الهوان
اقدر اجيب العمر منين   وارجع العهد الماضى
أيام ما كنا احنا الاتنين   أنت ظالمنى وانا راضى
انت النعيم والهنا   أنت العذاب والضنى

والعمر ايه غير دول

ان فـــات على حبنـــا ســنة وراهــــا سنة
حبك شـــباب على طـــول

وازاى أقـــول لك كنا زمان والماضى كان فى الغيب يكـــره
واللى احنا فيه دلوقت كمـــان هيفوت علينـــا ولا نـدرى
يا لى هـــواك فى الفـــؤاد عايش فى ظـــل الوداد
أنت الخيـــال والروح وانت ســـمير الأمـــل
ييجى الزمـان ويـــروح وانت حبيب الأجـــل
ولمـــا أكـون ويـــاك هايم فى بحـــر هـــواك
ما اعرفش ايه فات من عمرى ان كان رضا أو كان حرمـان
وافضل وبس أنت فى فكـرى ياللى باحبـــك زى زمـــان
أنت النعيـــم والهنـــا انت العـــذاب والضـــنى

والعمر ايه غير دول

ان فـــات على حبنـــا ســـنة وراهـا ســنة
حبك شـــباب على طـــول

أجمل كلمات أغنية سمعتها ..

وينظم رامى من أجلها الأغانى بلا مقابل ولو أن غيره مكانـــه وتقاضاها الثمن لبلغ الألوف .. وتدرك أم كلثوم هذا حق الادراك .

ولكن :

(عرف الحبيب مكانه فتدللا)

سألت يوما « رامى » :

ـ هل أحببتغيرها .

وتعلقت عيناى بشفتيه فى لهفة ترى ماذا يكون جوابه .. انه مثير بلا شك .

وأتانى الجواب :

ـ حبيت ·· كثيرا ولكن فى كل مرة كنت انما أحب جزءا منها فى الأخرى · قد يكون سمار السمراء ·· قد يكون عيناها ·· قد يكون خفة روحها ·· جزء منها ·· أغدو بعده أحبها هى أكثر ·· انها الأصل انها الكل ·· الكل فى الكل ·· انها سومة ·· أم كلثوم ·

ولكن أم كلثوم أحبت الشاعر لا الرجل هذا ما يكاد يجمع عليه العارفون · انها وهى الفلاحة المصرية التى رأت سيطرة الرجل فى الريف وانطبعت فى ذهنها له صورة قوية مسيطرة لايبهرها الرقيق الذى يذوب بكاء وخضوعا والذى يقول فيما قال :

عـزة جمالك فـين من غـير ذليـل يهـواك

انها تريد الذى يهواها أو الذى تهواه أن يكون شامخا (ظالم الحسن شهى الكبرياء) ·

ثم انها عرفت بالذكاء اللماح أنه شاعر يشعله الحرمان · فلكى تستبقى الشعلة متوهجة أمعنت فى تلويعه · وان كان له مكان خاص عندها

كانت تتلقف منه الأغنية الجديدة فتغنيها فى الموسم مرة ·· اثنين ·· ثلاثة ·· أربعة ·· وكأنها تمنحه فرصة لعمل أخرى · فاذا استنام الى هذا عرفت بخبرة المروض كيف تعيد النشاط اليه ، فتتعمد فى حفلة ألا تغنى له شيئا · وتمضى الوصلة الاولى بلا شىء فيتطلع المسكين الى الوصلة الثانية فيزداد قلقه ويتعلق أمله بالوصلة الثالثة فاذا به يخيب فينكفىء الى داره باكيا يتمزق ·· ثم ينظم دموعه وآهاته ولهفاته أغنية جديدة ·· وهو المطلوب ·

ولا أحسب أن (رامى) يخفى عليه شىء من هذا فدعه أو دعنا نسمعه :

أرادونى عـلى أنى أبـوح ... وهل يتكلم القلب الجريح
وماذا يبتغون وفى فـؤادى ... جوى أفضى به الدمع الفصيح
نعم أهـوى ولا أخفى غرامى ... ومن شرف الهوى أنى صريح
وأما ان سئلت هل اصطفتنى ... سكت فما استرحت وما أريح
ومـن لى أن أقـول تعلقتنى ... وقلب الغانيات مدى فسيح

تلاقيـــنى فتخلص بى نجيا وألمس حبهـــا فيمـــــا يلوح
وتزدحـــم القلوب على هواها فتنكرنى ولى كبـــد قريـــح

هذه هي القصة .

وبعد فأنا لا أنسى يوما كنا فيه مع رامى فى مهرجان الشعر السابع الذى أقيم فى غزة سنة ١٩٦٦ . وذات صباح صعد رامى الى قاعة الطعام عليلا يحمل ساقيه حملا . وتهالك على الكرسى من اعياء لا يشتهى معـــه طعامه .

وبينما نحن على مائدة الافطار اذ بالفندق يذيع تسجيلا لقصـــيدة الأطلال . ولا تسل عما حدث .

انتفض رامى ، فى فرحـــة ، من كرسيه الذى كان يتكوم عليه منــذ لحظات . وأخذ يذرع القاعة فى خفة يكاد يطير .. يتمايل على وقع النغـــم مصفقا حينا فى بهجة ، متأوها حينا فى شجى .. راقصا أنا فى مرح الشباب . وكلنا قد افتر عن ابتسامة عريضة . لقد دبت فيه القوة ؟وتابعته عيوننا وهو يطوح يديه فى جذل أو يشد على جبهته فى انفعال أو يؤدى اللحن بالحركات .. يميل معه حيث يميل ويصعد معه فى طبقاته ثم يعود فى صحبته .. يفعل هذا كله بالحركة وتعبيرات العين والوجه .

وقد غنت أم كلثوم لرامى أكثر من ثلث قرن أو كما يقول هـــو لم يشاركنى فيها شاعر خمسة وثلاثين عاما .. أى من العشرينـــات الى الخمسينات .. طبعا شوقى خارج المباراة كعادته ، فقد غنت له فى المدة الزمنية « الرامية » ، قصائد (سلو كئوس الطلا) و (ســـــلو قلبى) و (نهج البردة) و (الهمزية) و (عرفات) .

بل غنت فى هذه الفترة (مصر تتحدث عن نفسها) لحافظ ابراهيم وغنت للأسمر « زهر الربيع يرى أم سادة نجب » وغنت لبيرم مجموعة كبيرة .

ولكن الحقيقة أن الشاعر (أحمد رامى) لم يجاوز الواقع كثيرا فى عبارته اذا لاحظنا أن معظم ما غنته فى الفترة التى عنـــاها ، حتى أغانى الأفلام ــ اذا استثنينا فيلم « سلامة » ــ كان من عمل رامى .

عودة المنافسة بين أم كلثوم وعبد الوهاب :

وفى سنة ١٩٣٣ كان عبد الوهاب يقوم بتمثيل الوردة البيضاء فانبرت الاشاعات تؤكد عزم أم كلثوم على التمثيل ٠٠ تمثيل فيلم اقترحت له اسم : (الوردة الحمراء) ٠ وزعمت أن (بولس حنا باشا يقدم الأموال للانفاق على شريط سينمى بطلته الآنسة أم كلثوم) ٠

ثم بدا للصحف أن تريح نفسها من الزج فى المنافسة التى يصنعها صنعا المعجبون فى كلا المعسكرين أو كلا البلاطين ويضعون ـ والواو تعود على المعجبين ـ لها تقاليد ومراسم وأصولا (فالعضو فى بلاط أم كلثوم اذا سمع غناء عبد الوهاب كان خائنا لوطنه وبلاطه ، وعضو بلاط عبدالوهاب اذ قال : آه لنغمة أم كلثوم كان خائنا ومن المنشقين ٠

تفاديا لهذا كله اقترحت الصحف أن تجتمع أم كلثوم وعبد الوهاب فى فيلم واحد ٠

والحقيقة أن اقتراح الصحف هذا كان صدى لما حدث سنة ١٩٣٢ فقد جمع التابعى أم كلثوم وعبد الوهاب اذا أولم لهما فى داره بالزمالك ٠ وعلى مائدة الغذاء نبتت فكرة فيلم مشترك ثم حدث أن ماتت الفكرة بموت صاحبها الشيخ محمود سكر وتشريف التابعى قرة ميدان ٠

وهكذا نبتت فكرة التقاء أم كلثوم وعبد الوهاب فى عمل فنى واحد ٠٠ هذه الفكرة التى تحققت بعد بضعة وثلاثين سنة أخرى فى أغنية (أنت عمرى) ٠ لا فى فيلم كما قدرت الصحف أو على حد تعبيرها فى (شريط سينمى) ٠

وفى سنة ١٩٢٧ غنت لرامى طقطوقة :

(على عينى الهجر ده منى) ومونولوج : يا نسيم الفجر ريان الندى ١٩٣٣ ، من ألحانها ولم تلحن غيرهما ومونولوج (والله ما حدش جنى غير قلبى) الذى لحنه الدكتور أحمد صبرى سنة ١٩٢٦ ٠

وفى سنة ١٩٣٣ زعمت روز اليوسف أن أم كلثوم تعتزم أن تتخلى عن تختها (الرجالى) القديم وسوف تستبدل به عشر فتيات يجلسن أعلى التخت حولها يرددن معها الأغانى والأناشيد ٠

على أن أم كلثوم تعرضت سنة ١٩٣٣ لحملات روزا وأوصافها اللاذعة كما تعرض رامي بالتبعية لهذه الحملات والحقيقة أن روزا لم تستثن أحدا .

وفى سنة ١٩٣٤ نشرت آخر ساعة ريبورتاجا عن أم كلثوم .

ـ لماذا لم تتزوجي حتى الآن مع أن هناك مئات يرسلون لك كل يوم قلوبهم خالصة أجرة البريد .

وتقول المجلة (أطرقت أم كلثوم برأسها ثم رفعتها وقالت بصوت متأثر حنون) .

ـ أما سؤال بارد .

ولم يمض أسبوعان حتى أعلنت آخر ساعة عن « خطوبة أم كلثوم » لأحد الكبراء .

نشرت الصحيفة هذا الخبر دون أن تتحقق من صحته . وحجتها أنها « حاولت » (الاتصال بالتليفون مع المطربة المشهورة ولكنها فى كل مرة مش موجودة !) .

وحجتها الثانية (لا فائدة من سؤال أم كلثوم لأنها مثل دولة رئيس الوزراء (١٩٣٤) تجيب على كل سؤال بقول :

لأ .. لأ .. لأ .. ومش صحيح !

ام كلثوم وصاحبة الجلالة :

ويبدو أن أم كلثوم كانت فى ذلك الوقت مشهورة بتهربها من الصحفيين حتى أطلقوا على خادمها اسم (مسيلمة) لاصراره على أن (الست) خرجت .. فاذا كان الوقت غير مناسب للخروج فان (الست) فى هذه الحالة (نائمة) .

والصحفيون دائما فى شبه اجماع أنها عندما تتضايق من هطول أسئلتهم ، تغير موضوع الحديث .

* * *

نعود الى عريس آخر ساعة .. أحد الكبراء الذى تشير اليه ، على زعمها ، « رجل قانونى كبير المقام » وقد سبق للصحيفة أن زعمت ـ فى عددها الثانى ١٩٣٤/٧/٢٢ ـ أنه « غرام أم كلثوم » وأن (أم كلثوم التي خاب في حبها مئات ها هي بدورها قد خابت فى أول غرام !) ثم تزيد من عندياتها :

(أما صديقنا الأستاذ رامى فقد سافر في الاسبوع الماضى الى وادى الشياطين لكى يستلهم الوحى قصيدة ينظمها فى هذا الغرام الجديد ومطلعها :

يفوت العشـــق ذهـــاب واياب   وأنا واقف زنهـــار بالبـــاب

ومن الغريب أن الصحف فى ذلك العهد كانت تلح على (الآنسة) أم كلثوم بسؤالها عن رأيها في الرجل وأى صفاته تفضل فكان جوابها يركز دائما على صفة (الرجولة) ..

وأطرف من هذا أن تسألها الصحف فى تلك الفترة وهى التى لم تتزوج بعد ، كيف تحتفظ المرأة بالرجل ؟! فهل نلوم أم كلثوم حين ردت على صاحب هذا السؤال بقولها :

ـ ان الاحتفاظ بالرجل من أسهل الأمور ، ولكن أشق الأمور حقيقة هو طرد الرجل

إزواج أم كلثوم

ولقد زوجت الاشاعات فى ذلك الوقت ، أم كلثوم خمس مرات ولم تطلقها مرة واحدة كما تقضى تقاليد باب (الاجتماعيات) فى الصحف .

والعرسان الذين أكدت الاشاعات عقد قرانهم بها :

١ ـ النبيل عمرو ابراهيم ·

وقصته أن أم كلثوم اشترت من أطيانه مائة فدان فسألها أحد الصحفيين عن سر اجتماعها به فقالت :

ـ كنا بنكتب العقد يا أخى أمال صحفى ايه ! ···

فنشر الخبر على أنه عقد زواج !

٢ ـ الشيخ عبد الرحيم بدوى صاحب مطبعة الرغائب ·

وقصته هو الآخر أنها حين أرادت السفر الى لبنان لاحياء عدة ليال هناك اعترضت حكومة فلسطين لأنها لا تسمح لأى فنانة بدخول فلسطين الا اذا كانت متزوجة ! فعقد الشيخ عبد الرحيم بدوى عليها ، صوريا ،لتتمكن من السفر ثم طلقها الرجل الطيب بعد عودتها ·

٣ ـ الفنان محمود مختار وكان يتردد عليها لصنع تمثال لها ·

٤ ـ أحد كبار الدولة من المشتغلين بالقانون ·

٥ ـ الشاعر أحمد رامى وكان أهله أنفسهم يعتقدون أنه تزوجها سرا فلم يقلعوا عن هذه الفكرة الا بعد أن تزوج ·

وكأن الاشاعات أرادت أن تطابق ،فى هذه الناحية ، بين أم كلثوم ومنيرة المهدية فقد كانت سلطانة الطرب قد تزوجت حتى ذلك التاريخ خمس مرات بالفعل ·

* * *

ويبدو أن موضوع زواج الفنانين كان موضوع اهتمام الصحف سنة ١٩٣٤ نشرت الصحف فى ذلك الوقت مقالا بعنوان (لن أتزوج) « بقلم » الأستاذ محمد عبد الوهاب ومنه :

(انى أعترف أننى رجل ملول بطبعى لا أطيق القفص ولا القيود · أريد أن أظل حرا أطير من غصن الى غصن ومن زهرة الى زهرة ·

اذن لن أتزوج ولم أفكر يوما ما فى الزواج ·

ومن حسن الحظ أن الأستاذ محمد عبد الوهاب فكر وفكر وتزوج ثلاث مرات !

وفى ١٩٣٤ كانت أم كلثوم قد زارت باريس ونشرت الصحف لهـا رأيا فى مدينة النور ، لم يعجب الأستاذ الصاوى فارسل اليها خطـابا مفتوحا فى آخر ساعة ـ العدد ١٢ الصادر فى ١٩٣٤/٩/٣٠ ـ بعنوان : الى سومة ٠

وردت عليه فى العدد التالى ولكن بعد أن اشترطت على آخر ساعة ألا تنقص أو تزيد فى ردها حرفا واحدا ٠

حسم واعتداد أليس كذلك ؟

والجدير بالذكر هنا أنها تحرت فى خطابها أن يكون سليم العبـارة بليغها ٠ وليس من الضرورى أن يكون الخطاب من أسلوبها ولكن حرصهـا على اخراجه بهذه الصورة حتى ولو كان من انشاء غيرها يحمل معنى الجدية والمسئولية واحترام الذات ٠

ثم يبقى بعد هذا أن رأيها فى موضوع ، يثير الكتابة والكتاب ٠

ولكن أهم أحداث سنة ١٩٣٤ قاطبة ، هو الاتفاق الذى أبرمته معها شركة ماركونى التى كان لها حق امتياز اذاعة الحكومة المصرية فى يـوم الخميس ٣١ مايو سنة ١٩٣٤ واستمر غناؤها فى تلك الليلة أربعين دقيقة ٠٠ ولعلها منذ ذلك اليوم تفاءلت بيوم الخميس فجعلته موعد اذاعتهـا الشهرية بعد أن كانت حفلتها يوم الجمعة من كل أسبوع ٠

انها نقطة تحول ٠


مطربة
الاذاعة
الاولى

ومنذ ذلك اليوم ظلت أم كلثوم مطربة الاذاعة الأولى ، التى ينتظر الملايين فى أنحاء العالم العربى كله حفلاتها وأغنياتها بشوق ولهفة ٠

وفى أرشيف الاذاعة ثلاثة ملفات كادت تبلى فوق كل منها أرقام ورموز عليها اسم (أم كلثوم ابراهيم) مسبوقا بكلمة (المطربة) ٠

تقول الأوراق الصفراء :

١٥ أكتوبر سنة ١٩٣٤ ٠ يقول مراقب الموسيقى الشرقية :

(شكت الليلة أم كلثوم أن أسطواناتها أذيعت بين الوصلتين ٠ ولما كنت حاضرا فقد طلبت منى أن أغيرها ٠٠ وقد فضلت ألا نضايقها كثيرا قبل أن تبدأ وصلتها الثانية ، فاجبتها الى طلبها ، فاذعت أسطوانة أخـــرى مع اسطوانة واحدة لها ٠٠ ومن المرغوب الا نذيع اسطواناتها بين الوصلات، بل وحتى طوال اليوم الذى ستذيع فيه) ٠

تكتيك

وفى ٢١ سبتمبر ١٩٣٥ وقع الأستاذان محمد سعيد لطفى وعلى خليل عقدا آخر معها على اذاعة حفلة فى ٩ أكتوبر سنة ١٩٣٥ من الســـاعة ١٠ر٩ الى الساعة ٤٠ر٩ مساء ومن الساعة ١ر١١ الى الساعة ٣١ر١١ مساء غناء مع التخت لمدة ستين دقيقة بأجر قدره ثلاثون جنيها مصريا ٠٠٠ !

ان عشرات الألوف التى دفعت فيما بعد لأم كلثوم مقابل الحفلة الواحدة تبتسم ابتسامة عريضة من هذا الرقم المتواضع حتى بعد أن ارتفع الى خمسين جنيها ٠

وكان هذا الأجر على تواضعه أكبر أجر أعطى لفنان تعاقد مع الاذاعة وقتذاك ، وقد نص فى صلب العقد المبرم بينهما على أنه (اذا حدث أثناء استمرار هذا الاتفاق أن الشركة « شركة ماركونى » استحدثت مغنيا آخر دائم الاقامة فى القطر المصرى ودفعت له على أى حفلات أجرا أعلى من ذلك الأجر المدفوع للفنانة « أم كلثوم » فان الشركة حينئذ ستزيد مرتب الفنانة حتى لا يكون أقل من ذلك المدفوع الى المغنى المذكور عن عدد مساو من الحفلات) ٠

ومن الطريف ما روته الصحف ــ صادقة أو متفكهة ــ من أنه فى سنة ١٩٣٤ وقبل افتتاح الاذاعة بأيام ٠٠ ذهب مدحت عاصم الى السيدة فتحية أحمد يدعوها للغناء فى اليوم الثانى لافتتاح المحطة ٠

وفى الحفلة أراها مدحت عاصم الميكروفون الذى ستغنى أمامه ٠٠٠ فنظرت السيدة الطيبة الى الميكروفون وقالت :

يا دى النصيبة ح أغنى كده ع الحديدة !

ثم قرأت (الفاتحة) هى وأفراد التخت وتوكلت على الله وغنت اغنية واحدة ٠

قصة الحفلة الشهرية :

لم يلبث الأستاذ محمد فتحى الذى اقترن اسمه بحفلات أم كلثوم الاذاعية لنجاحه فى تقديمها بما أضفاه عليها من هالة ، وقد رأت الخروج بحفلاتها من استديوهات الاذاعة الى المسارح العامة ٠ وتم الاتفاق

معها على اقامة حفلة واحدة شهرية تحييها فى الخميس الأول من كل شهر وتنقلها الاذاعة على أن تقدم فى كل حفلة أغنيات جديدة ·

ومنذ ذلك اليوم أصبحت أم كلثوم (عادة) للمصريين ثم للمنطقة حتى غدا الخميس الأول من كل شهر عيدا فنيا لملايين الناس ·

وفى الحفلة الاولى قدمت أم كلثوم ثلاث أغنيات جديدة ·

وفى الحفلة الثانية قدمت الأغنية الجديدة الاولى واذا بالجمهور يهتف مطالبا باعادة أغنيات الحفلة السابقة ·

ولم ينته الموسم حتى كان التقليد المتبع لهذه الحفلات ، أن تقدم أم كلثوم اغنية أو اغنيتين جديدتين فى الموسم كله وتعيد أغانيها المشهورة ·

وأخذت أم كلثوم تتالق حتى استحدثت الاذاعة نظاما جديدا للتذاكر وهو (نظام الموسم الكامل) أى أن يحجز المتفرج تذاكر جميع حفلات الموسم ويدفع ثمنها مقدما ·

وهناك سميعة لأم كلثوم حرصوا منذ ذلك اليوم على حجز هذه التذاكر للموسم كله واستمروا فى هذا التقليد الى عام ١٩٧٣ ·

وعلى أثر الاذاعة سرى صوت الشيخ محمد رفعت من درب الجماميز الى مصر كلها بل العالم العربى · فقد كان هذا الصوت النفيس قاصرا على المصلين فى مسجد فاضل باشا ·

* * *

كانت أم كلثوم منذ سنة ١٩٢٥ تغنى فى مسرح فؤاد بشارع عماد الدين · وكان هذا المسرح يتسع لثلاثمائة متفرج فى الصالة والألواج ·

والتذاكر من ١٠ ــ ٥٠ قرشا

وكان حلم أم كلثوم الكبير ، مسرح حديقة الأزبكية باستعداده الضخم نسبيا ·

ولاحت الفرصة سنة ١٩٣٤ حين غنت فيه فى حفلة خاصة ببنك مصر · فلما تعاقدت معها الاذاعة على الحفلات العامة تمسكت بمسرح الأزبكية ·

أم كلثوم تمثل ..

أقول ان ١٩٣٤ ، بظهور الاذاعة ، كانت نقطة تحول . ونقطة تحول جاءت في موعدها . ففى أعقاب أزمة ١٩٣٠ قل اقبال الناس على الحفلات الأسبوعية وغير الأسبوعية التى كان يحييها المطربون والمطربات لحسابهم الخاص ويجنون من ورائها أموالا طائلة . فلما كانت الاذاعة وفر الناس على أنفسهم ثمن التذاكر وثمن الاسطوانات معا بالاستماع الى الراديو فى القهوة لقاء مشروب ، وما أرخصه ، أو بشراء راديو بالتقسيط .

ونتيجة لهذا بالطبع ، قلت الحفلات وروادها .. وهنا نشط ذكاء التاجر فى رأس عبد الوهاب فاقبل على تمثيل فيلم « الوردةالبيضاء» الذى سبقت الاشارة اليه . وحفزه كسبه فيه الى تمثيل فيلمه الثانى (دموع الحب) ويبدو أن الاسم راق الصحافة فوجدت فيه فرصة سانحة لممارسة التريقة فنشرت أن فيلمه القادم اسمه (اسعاف الحب).

وتحركت أم كلثوم كعادتها وسايرت الجو . فأقبلت على تمثيل فيلم (وداد) الذى قدرت الصحافة يومئذ دخلها منه ب ٢٥ ألف جنيه.

حتى منيرة المهدية التى كانت تنحدر وقتئذ نحو الغروب مثلت فيلم (الغندورة) .

وفيلم (وداد) أرسل أحمد رامى قصته للمخرج أحمد بدرخان وهو فى باريس فى بعثة دراسية . فلما عاد سنة ١٩٣٥ بدأ فىإخراجه ولكنه اختلف مع أحمد سالم مدير استديو مصر فى ذلك الحين فترك بدرخان الفيلم وأكمله المخرج (كرامب) الالمانى ملتزما سيناريو بدرخان وساعد فى اخراجه جمال مدكور .

واتخذت الصحافة سنة ١٩٣٥ من فيلم « وداد » مادة عذبة . فأخذت تصف كيف فزعت أم كلثوم عندما عرض عليها المخرج تمثيل مشهد غرامى فى الرواية ، وكيف أملت شروطها . والحقيقة أن الشروط التى نشرت حينئذ تدل على سطوتها وتمكنها : والشروط هى :

أولا : تتناول الآنسة مقدما وفورا مبلغ ألف جنيه .

ثانيا : تتناول الآنسة ٤٠٪ أربعين فى المائة من صافى أرباح الفيلم المذكور وبعد تغطية النفقات على شرط ألا تزيد نفقات الفيلم عن سبعة آلاف جنيه .

ثالثا : أم كلثوم هى صاحبة الكلمة الأخيرة فى اختيار الذين يعهد اليهم بتلحين القطع الغنائية . ولها كذلك السلطة المطلقة فى اختيار الذين يشتركون معها فى التمثيل .

رابعا : يجب أن تراعى التقاليد الشرقية فى الرواية .

والشرط الرابع له تذييل . فقد نشرت الصحف أن أم كلثوم صرحت بأنها لا تستطيع التمثيل وعينها ترى هؤلاء المفطرين . وعنها وصدر الأمر من الادارة العليا بأن على جميع موظفى الاستديو أن يكفوا عن شهوة البطن ما دامت أم كلثوم بدورها قد كفت عنها .

لا أريد أن افسر هذا بالتقى والورع .. الخ . هب أنها مفطورة أيضا ولكن حرصها ، أو حتى اصطناعها الحرص على المظاهر الدينية التى ترضى المشاعر الجماهيرية دليل ذكاء ووعى وتكتيك .

الواقع ان أم كلثوم لم تكن فى هذه الرواية مطربة وممثلة فقط بل كانت روحها المحركة . وهى من بدايتها ومن غير استئذان تضع أنفها فى كل شىء فى الفيلم ، فهى التى أملت معظم الاغانى واشتركت فى تحديد معانيها .

كذلك اختارت أم كلثوم من كتاب (الاغانى) قصيدة : (أيها الراحل المجد تحمل) .

* * *

هذا الكلام قالته الصحف سنة ١٩٣٦ ! !

ومن أقوال الصحف فى ذلك الوقت ما نشرته آخر ساعة تحت عنوان : « أم كلثوم بين طبالى وصوانى المعجبين » . وكيف ان أم كلثوم كانت تذهب الى استديو شركة مصر كل يوم من صباح ربنا الى مسائه . وعرف اصدقاء أم كلثوم بالخبر فانعقدت الجمعية العمومية لمجلسها الخاص ، وأخذ كل عضو على نفسه أن يقدم طعام الغداء الى فنانة الشرق وهى فى الاستديو .

وفي ساعة الغداء بالضبط كانت أبواب الاستديو تفتح لتستقبل عشرات (الصواني) و (الطبالى) من كل معجب ومعجب دون أن يذكر واحد منهم اسمه ! (حب لذاته) ·

وخذ عندك من أصناف الطعام التى كانت ترد على الاستديو ما يسيل له لعاب الشبعان ·· ولم يكن أحد يدرى أن أم كلثوم قد حرم عليها أن تذوق أى صنف من أصناف الطعام لأن ضرورات الفيلم تطلبت أن تكون البطلة نحيفة القوام ·

وبهذه المناسبة تروى هذه النادرة عن أم كلثوم · فعندما كانت تمثل فى فيلم « نشيد الأمل » أرسل أحمد الألفى عطية (أوزى) على صينية الى الاستديو غداء فقالت سومة :

— ده أحمد الألفى (أوذى) فى ماله ·

ويبدو أن أم كلثوم منذ ذلك التاريخ أصبحت تشكل عنصـــرا اقتصاديا أيضا فضلا عن الفن ، فهى بما يصاحب أفلامها وحفلاتها على السواء من موائد واستعدادات واستقبالات تشيع الرخاء فى السوق وفى المنازل ·

* * *

ويسألونها كيف ولماذا اختارت قصة وداد ؟ فتقول فى حصافة :

لأن وداد جارية مغنية فبذلك يسهل ايجاد مناسبات الغناء ، فـلا تحشر الاغانى حشرا يشعر بالتكلف ، وهو مالا يرتاح اليه الانســجام القصصى ولا يهضمه الذوق السليم ·

ولم يكن من المعقول أن أختار لنفسى دور ملكة مثلا تنجعص عـلى العرش ثم تفاجىء البلاط وتغنى (ليه يا زمان كان هوايا سبب شــقايا وهوانى ···) أو سيدة بيت تطلع على الجمهور من غير مناسبة بالغناء الذى لا يمكن أن يصدر الا من محترفة لها دراية بأصول الغناء وفنونه ·

وقد اشترك فى تلحين أغانى فيلم (وداد) القصبجى (يا بهجـــة العيد السعيد — ياللى ودادى صفا لك — ليه يا زمان — يا طير يا عايش أسير) وزكريا أحمد (أيها الراحل المجد — يا ليل نجومك شهود — يا بشير الأنس) السنباطى (على بلد المحبوب وديني) ·

وما زالت أغنية (على بلد المحبوب وديني) من أحب الاغاني الى الأسماع · وصوتها فيها وفي (افرح يا قلبي) يتدفق كالشلال في قوة وزهو وفرحة ·

ويقال أن أم كلثوم بكت طربا وفرحة وهي تسمع أغاني فيلم وداد أثناء رؤيتها العرض مع بعض الاصدقاء · ولأم كلثوم عند سماعها اغانيها قصص · فكثيرا ما تخلو في غرفتها باسطواناتها وأشرطتها وتخفي وجهها بيديها وتاخذ في سماع أغانيها المختلفة وكلما أعجبتها (حركة) صاحت كما يفعل أى سميع :

ــ يا شيخة مش كده ! ده جنان ·· ايه ده ··

* * *

وقد اشتركت مصر بفيلم وداد في معرض السينما الدولى الذى اقيم بمدينة البندقية في أغسطس سنة ١٩٣٦ باعتباره باكورة انتاج استديو مصر · وان كان اخراجه وتصويره ليسا غاية المراد من ربالعباد ··· كل ما في الموضوع صوت أم كلثوم ·

وقد تكلم الدكتور محمود أحمد الحفني عن (وداد) ومدرستي الموسيقى المسرحية فقال وهو مختص يجدر بالتاريخ الوقوف عند رأيه باعتباره كلمة العلم ·

(وضح من موقف أم كلثوم ، في الفيلم ، في سوق الجوارى كيف جمعت ، بالفطرة الموهوبة مزايا المدرستين فقضت في موقف الشجن حق العاطفة كأتباع المدرسة الأولى ، وكانت مطربة مجودة في التطريب هادئة النغم لم تنحرف عنه ولم ينحرف عنها كاتباع المدرسة الثانية ·

وان تعجب لشيء فاعجب الا تخطيء في هذه المواقف في طريقة التنفس في أثناء الغناء ، والنفس ركن أساسى في هذا الفن · ويتوقف على تنظيمه تنظيما صحيحا تجويد تلك الصناعة) ·

ويقول رجل الاختصاص ان حلاوة الصوت وحدها ليست سببا للنجاح · (فان أساس التطريب صناعة الغناء وتجويدها · وكم منمغن

توافرت فيه حلاوة الصوت وسلامة الحنجرة ولكنه عاش خاملا ومات غير مذكور) ٠

وهكذا لمس أهل الاختصاص جانب الجهد والجدية فى حياتهـا الفنية ٠ وهاتان الصفتان من دون الصفات لا يمارى فيهما أحد ٠وهما الى جانب الموهبة مكناها من بلوغ القمة ، فى لونها ، ثم ـ وهو الأهم ـ **الاحتفاظ بها** ٠

لقد ظهر بعدها الكثيرات ولم تثبت أمامها واحدة ٠ وكانت كل فى زهو ظهورها يقال عنها انها هى سوف (تضرب أم كلثوم على عينها) وأنا أقصد هذا التعبير لأنه يتصل باحدى نوادر أم كلثوم ٠ فقد مرضت عينها يوما فقيل لها :

ـ سلامتك لا بأس على عينك ٠

فقالت وهى تضحك :

ـ كتر خير عينى ٠٠كل ما تطلع واحدة يقولوا أهى دى اللىهتضرب أم كلثوم على عينها ٠

* * *

وحين نتحدث عن أفلامها السينمائية لا أقصد أن أضيف اليهـا قدرة من القدرات هىقدرةالتمثيل ، فليس هذا عملى فانما أؤرخ فقط بلا زيادة أونقصان٠ ثم ان المفروض فى افلامها أنها افلام غنائية أكثـر منها تمثيلية ٠ ولكنى أقف عند السينما باعتبارها مرحلة من مراحـل تطورها الغنائى اذ استلزمت التجـديد فى طريقة الغناء ، أو الأخـذ بالتوزيع الأوربى وقد قابل هذا رغبتها فى التطور وطموحها ، متفتحة ، الى التجديد ٠٠ وقد نجحت فى هذا حتى ليعد أحد النقاد أغانى أفلامها خلاصة أغانيها وأقواها وأجملها من الناحية الفنية ، بل يعتبرهـا فى الوقت نفسه أجمل وأرق أغانينا السينمائية على الاطلاق ٠

تقول الدكتورة سمحة الخولى فى معرض الحديث عن القصبجى (نجح القصبجى فىاثراء التلحين الغنائى بلمسات من الشاعريةوالصدق كانت جديدة تماما على عصره ٠ وأهم من ذلك أنه حقق هذا الهدف الجمالى القيم بعناصر الموسيقى الشرقية وحدها ودون أن يسـتعير

لألحانه توزيعا هارمونيا أوركستراليا كما يفعل كثير من معاصريه . والحالات القليلة التى مستها عناصر التوزيع مثل أغانى فيلم نشيد الأمل « منيت شبابى » و « يا مجد » الخ – وهى من اغانى الافلام الكلثومية – فالحانها فى ذاتها صادقة معبرة، ثم زادها التوزيع الاوركسترالى الرقيق والالحان المتقابلة « الكنترابنط » جمالا وتعد تلك الاغانى تجربة فريدة فى تلحينها ، وفى مستوى الذوق الموسيقى لعملية التوزيع نفسها) . الأخبار ١٦/٥/١٩٦٦ .

الرجل الوحيد الذى استنكر صوت أم كلثوم :

وفى سنة ١٩٣٦ انتقلت الى فيلتها الحالية بالزمالك التى تزعم آخر ساعة ان رجال البلاط والمقاولون والعمال اشتركوا فى بنائها .ومن (تشنيعات) المجلات الفنية ، هذه القصة .. ارويها لا لأنها حقيقية فقد تكون حدثت أو لا تكون ولكن لأنها خفيفة الظل :

شيدت المطربة الشهيرة الآنسة أم كلثوم دارا لنفسها على شاطىء النيل بالزمالك ، وكانت تذهب فى كل صباح للاشراف على عملية البناء .

وفى احد الأيام قامت بينها وبين المقاول فيما تزعم الصحيفة مناقشة عن أسعار الطوب . والأسمنت وارتفع صوت أم كلثوم الى جواب السيكا ثم هبط الى القرار يعارض المقاول فصاح غاضبا :

– ما توطى صوتك شوية ... انتى فاكرة نفسك فى الراديو ولا ايه !

* * *

وهكذا كان هذا الرجل أول من استنكر صوت أم كلثوم .

* * *

وفي سنة ١٩٣٥ أنشأت مصر الرسمية ، تدعيما للمسرح الذى أخذ يتراجع أمـــام زحف السينما المزدوج ، (الفرقة القـومية) و (معهـد التمثيل) •

وأقول « المزدوج » لأن نشاط انتاج الأفلام المصرية اقترن بظهور ترجمـة عربية للأفلام الأجنبية ودبلجة بعـض هـذه الأفلام • واضـطلع استديو مصر بانتاج (جريدة مصر الناطقة) فى انتظام •

ام كلثوم والشاعر احمد رامى يتزوجان كل على حدة •

وكان شهر فبراير من عام ١٩٣٥ شهرا حافلا •

ففيه تم زواج شاعرها أحمد رامى الذى كان يلقب بشاعر الشباب والذى دعته آخــر ســاعة وقتئذ شاعر شباب القرن التاسـع عشر ، مداعبة •

وشهدت أم كلثوم حفلة الزواج ! بل وغنت فيها • غنت للعروس (اللى حبك يا هناه) !

وفي مارس أيضا تزوجت هى وهميا من عبد الستار محمد الهلالى ! ففى منتصف مارس العتيد وصلها هذا الاعلان على يد محضر :

(أنه فى يوم السبت ١٤ مارس سنة ١٩٣٦ السـاعة التاســعة والدقيقة خمسة وثلاثين أفرنكى صباحا :

بناء على طلب الشيخ عبد الستار محمد الهلالى من ذوى الأمـــلاك بمديرية قنا ومقيم بدشنا •

أنا أحمد اسماعيل محضر محكمة عابدين الأهلية فى تاريخه أعلاه قد انتقلت الى الزمالك محل اقامة السيدة أم كلثوم ابراهيم مخاطبا مع خادمها حسين محمد شحاته •

الموضـــوع

المعلن اليها زوجة الطالب المذكور بصحيح العقد الشرعى وخارجة عن طاعته • وقد هيأ لها مسكنا شرعيا كائنا ببندر دشنا حده البحرى وفيه فتح الباب والقبلى باقى الملك (وذكر بقية الحدود وأوصافها) ومهيئا من الشبابيك والأبواب والأدوات الصحية وبه خادم وخادمة وكائن بين جيران صالحين مسلمين تأمن فيه على نفسها ومالها وهـو أمين عليها وقد وفاها عاجل صداقها ودعاها للدخول فيه فامتنعت بغير حق شرعى •

لذلك يدعى عليها بما ذكر ويطلب الحكم عليها بدخولها فى المنزل المذكور وأمرها بالانقياد له فى أمر الزوجية •

وسـبق أن رفعت هـذه الدعوى من الطالب بالطاعة وشطبت ولهذا يجوز له تجديدها وأن هذا المستجد الآن هو بالبندر وأحســن من السابق وأوفق لها شرعيا •

بنـــاء عليـــه

أنا المحضر أعلنت المعلن اليها بالحضور أمام محكمة دشنا الشرعية فى يوم السبت ١٩٣٦/٤/١١ الساعة الثامنة أفرنكى صباحا للمرافعـة وسماع الحكم بالطاعة والانقياد كما هو موضح بعاليه) •

وكان هذا هـو الاعلان الثالث الذى تتلقاه من الشيخ عبد الستار محمد الهـلالى (من ذوى الأملاك) كما يقول ومن فقراء دشنا ومشـاغبيها كما يقول أهل البلدة •

ويحكى الأستاذ فكرى أباظة الذى كان يترافع عنها فى هذه القضية أن العريس المزعوم كان ضخم الجسم طويلا عريضا • وحين وقف فى المحكمة يؤكد زواجه المزعوم بها كانت تقول له مذعورة : أنا يا عم ؟ فيصيح فيها : بت

والأستاذ فكرى أباظة كان محامى أم كلثوم فى هذه القضية • وحين ترافع عنها أخذ يتهانف على المتهم متسائلا فى سخرية لا تخفى عن سكوته

من سنة ١٩٢٧ الى سنة ١٩٣٥ عن الزوجية التى يدعيها الى أن شيدت المدعيــة فيللا فى الزمالك وكانت بجوارها ســاقية لأحد الأهالى تحــدث ضجيجا . فشكت المدعية الى مصلحة الأملاك . وظهر بعد ذلك أن صاحب هذه الساقية هو عمدة بلدة قنا التى منها المتهم ...

ثم تكلم الأستاذ فكرى أباظة عن الدعوى الشرعية التى رفعها المتهم وأســاء فيها الى سمعة المدعية فادعى فى أول جلســة أنه لم يوكل محاميا وطلب التأجيل لأنه مشغول فحكم القاضى بشطب القضية .. ولم يكتف المتهم بذلك بل ملأ الدنيا أحاديث وتشنيعا على المدعية . ثم جدد القضية لأن رسمها خمسة قروش ولما تحددت الجلسة لم يحضر فكيف تفسرون ذلك الا بأنه تلفيق وتشنيع ... ومع ذلك فلا زالت له دعوى شرعية محدد لها ١٥ أغسطس - هل لم تكن هناك اجازة قضائية - وما دام فى استطاعته أن يحصل بقدر الامكان على « كام شلن » فيستطيع أن يرفع كام قضية شرعية ...) .

ومن طرائف هذه القضية مرافعة محامى المتهم أيضا فقد أخذ يدلل على نسبه وحسبه وكيف أنه من أسرة كبيرة ويملك مئات الأفدنة ثم ، وهنا بيت القصيد كما يقولون ، قال « الواقع أن عبد الستار كان صفقة كويسة للست أم كلثوم » !!

ويبدو أن القاضى كانت له خبرة التاجر الواعى . فلم يرض عن هذه الصــفقة . وأصدر حكمه بتأييد الحــكم المعارض فيه - وكانت محــكمة السيدة زينب قد قضت غيابيا بحبس المتهم ستة أشهر مع الشغل وكفالة بتعويض قدره قرش واحــد للمدعية وتغريمــه خمسين جنيها - وأرسله الى السنجن .

وفى سنة ١٩٣٦ نشر الاهــرام - العدد نفســه الذى نشر وقائع القضية - اعــلانا طريفا يقــول (الآنسة ليــلى مراد تطلب من منزل والدها الأستاذ زكى مراد بشــارع الملك نمــرة ٢٦ تليفــون رقــم ٥٦٣٥٣) .

الصحافة تداعب ام كلثوم :

وكما تروى النوادر والفكاهات والطرف على لســـان أم كلثوم فان الصحافة سنة ١٩٣٥ عادت تجعل منها موضوعا للفكاهة على طريقتها . وظل هذا شأنها حتى الأربعينات ... وكما اقترن اسم رامى بها فى ميدان الغناء فانه كثيرا ما اقترن الاسمان فى باب الصحافة . فاذا سافرت أوربا نشر الخبر على هذه الصورة :

(اكتشفت الآنسة أم كلثوم أن صحتها متعبة وأنها فى حاجة الى الراحة من عناء الغناء فى الراديو ومشاهدة وجه الأستاذ أحمد رامى فقررت السفر الى أوربا) .

واذا أجرت حديثا نحت فيه منحى الجد والوقار علقت الصحيفة :

(والى هنــا وانتهى حـديث الآنســة أم كلثوم الزمخشرى ... غفر الله للآنسة ولألفية ابن مالك وللقاموس الذى تتسلى بقراءته كل صباح ساعتين !) .

وفى ١٩٣٦ بدأت تذيع لها شهرة جديدة هى شهرة الأناقة . كما بدأت الصحف تلمح العصبية التى تشوب علاقة السنباطى على حداثتها بأم كلثوم .

وفى ١٩٣٦ نشر نبأ اعلان خطوبة السنباطى .

وفى ١٩٣٦ ظهرت مطربة ناشئة اسمها حياة محمد .

وكانت ملك تغنى فى كازينو البسفور .

وفى عام ١٩٣٦ انفرد زكريا بتلحين أغانيها فقد لحن دور (ابتسام الزهر) « كلمات عمر عارف » ودور « مين اللى قال ان القمر » كلمات عبد الرحمن فيـــاض ، ومونولوج « شــجانى نوحى بكيت » ودور « يا لى تشكى م الهوى » وهما من كلمات رامى .

وفى ١٩٣٦ بدأت أم كلثوم تصور فيلم (نشيد الأمل) فيلمها الثانى بعد أن اطمأنت الى النجاح الذى نالته فى الفيلم الأول الذى تقول صحف

ذلك العهـــد أن الانجليز أنفسهم ، فى المنصـــورة ، أعجبوا (بالمس أم كلثوم) • وتعلق الصحافة بروحها المصرية :

(والمرجو ألا يسفر هذا الاعجاب عن مطالبة انجلترا بالآنسة الفنانة أو ضمها الى التحفظات الأربعة باعتبار أن كل ما يعجب الانجليز يجب أن يطالبوا به) •

وفى هذه الفترة حميت المنافسة بين الشيخ محمد رفعت والشيخ على محمود حتى أن انصار الشيخ على محمود حاولوا مرة أن « يشوشروا » على الشيخ محمد رفعت وهو يتلو الكتاب ! !

وفى ۱۹۳۷ أنشـأت الحـكومة الايطالية محطة اذاعة لاسـلكية هى محطة (بارى) للدعاية ضد انجلترا فى العـالم العـربى • وعرضت على أم كلثوم احياء حفلات لها •••

وفى هذا معنى الاحساس بمكانتها الجديدة فى العالم العربى •

وفى سنة ۱۹۳۷ زادت أغانيها دور :

(آه يا سلام زاد وجدى آه) من كلمات حسن صبحى وتلحين زكريا أحمـــد •

وفى ۱۹۳۷ بدأت آخر سـاعة تعتدل وتتحـدث عنها كمطربة مصر الأولى ••• بل نشرت مقالا للأستاذ محمد على حماد يقول فيه :

(ما من مطربة أو ممثلة فى مصر تتحدث اليك عن ماضيها الا وتذكر بيت المجد والجاه الذى نشأت فيه ••• الا واحدة ••• واحدة فقط هى التى تفخر اليوم وتقول لك صراحة انها ولدت فقيرة من أسرة طيبة نعم ولكن فقيرة وأنها عرفت الفاقة وعرفت الحرمان ••• ثم تحمد الله على النعمة التى هى فيهـا الآن وتشـكر فضله عليها سبحانه وتعالى ، هى أم كلثوم) •

ومن طرائف الأخريات فى هذا الباب كما تقول مجلة الشرق الأدنى (اذا سئلت مطربة من مطرباتنا الكواكب عن عمرها ، ابتسمت وقالت انها لا تعرف بالضبط فى أى سنة ولدت ، ولكنها تذكر أنها كانت طفلة تحملها

(الـكمريرة) على كتفهـا وتقف بهـا فى (بلـكونة) قصر أبيها ، يوم اعتقل الانجليز المغفـور له سـعد باشـا ونفوه الى مالطة ، لتتفرج على المظاهرات) .

* * *

وفى ١٩٣٨ بدأت الصحافة تشير الى ظاهرة (التكرار) فى غنائها حتى لتتساءل لماذا لا تنشد أربعة أدوار مثلا بدلا من دورين تمطهما حتى يستغرقا السهرة ؟ ونسيت أن هذا التكرار كان استزادة من السامعين لا اعادة منها .

وفى ١٩٣٨ عرض فيلم (يحيا الحب) لعبد الوهاب ... الذى يقول الناقد كمال النجمى أن صوت عبد الوهاب بدأ به مرحلة جديدة (ثم استمر صوته يقطع مرحلة بعد مرحلة الى أن استقر عبد الوهاب فى مكانته الفنية الحالية كاشهر ملحن فى العالم العربى ... ولم يعد له فى مجال الغناء نشاط يمكن مقارنته بنشاطه العظيم القديم .

وهنا مجـال للمقارنة بين عبد الوهـاب وأم كلثوم اللذين كانت المنافسة بينهما فى تلك الفترة حقيقة واقعة . عبد الوهاب يركز جهوده فى التلحين كلون من التعويض وأم كلثوم تنطلق وتزداد تالقا عاما بعد عام على مدى ثلاثين عاما منذ تراجع صوت عبد الوهاب .

وعبد الوهاب ليس هو الغريب ولكن أم كلثوم هى الغريبة . فان تاريخ الغناء العربى كما يقول الأستاذ كمال النجمى (لا يذكر الا أصواتا قليلة جدا غنت للناس وتفننت عشرات السنين بقوة دائمة ، وتجديد لا ينقطع . وصوت أم كلثوم فى مقدمة هذه الأصوات ، واكثرها خلودا بلا جدال !)

وفى ١٩٣٨ غنت لرامى دور : (عادت ليالى الهنا) ولحنه ، زكريا احمـد .

وفى ١٩٢٠ أراد معهد فؤاد الأول للموسيقى أن يضم الى مجلس ادارته عضوين جديدين هما الآنسة أم كلثوم والأستاذ محمد عبد الوهاب !

ويروى الأستاذ التابعى من أسرار الساسة والسياسة أن رجال المخابرات البريطانية فى الشرق الأوسط لاحظوا أن وكلاء المحور راحوا يجمعون من الأسواق جميع الاسطوانات العربية وخصوصا اسطوانات عبد الوهاب وأم كلثوم استعدادا لحرب الدعاية ، فنشطوا هم كذلك الى شراء هذه الاسطوانات وكان سباقا حارا بين الفريقين .

* * *

مرت على أغنية (النوم) بضعة أعوام استطاع أثناءها رياض السنباطى أن ينضم الى هيئة التدريس بمعهد الموسيقى ، وأن يضع عدة قطع موسيقية سمعها الشاعر المرحوم على محمود طه ، فشجعه على تقديمها لاسطوانات كايروفون التى كانت تتردد عليها أم كلثوم . وكان اللقاء الثانى بينهما واتفقا على أن يلحن لها أغنية جديدة هى (يا طول عذابى واشتياقى) .

وفى هذه الفترة لحن السنباطى أجمل كلمات عاطفية سمعها فى حياته (كما يقول) ويعنى بهذا قصيدة (سلوا كئوس الطلا) و (اذكرينى) .

وقد غنت أم كلثوم فى فرحة (اذكرينى كلما الفجر بدا) حتى بدا الفجر .

وفى سنة ١٩٣٩ غنت لرامى والسنباطى مونولوج (فاكر لما كنت جنبى) وطقطوقة (لما انت ناوية تهاجرينى) .

كما غنت من تلحين القصبجى (يا اللى جفيت ارحم حالى) .

ولعل الذى لون اللحنين الجميلين (اذكرينى - سلوا كئوس الطلا) بلون الورد أن السنباطى كان يعيش فى هذه الفترة قصة حبه هو .

وفي الزمالك وضع السنباطي اللحن الذي يردده بينه وبين نفسه ويستعيده كلما اشتاق الى عوده ··· لحن رباعيات الخيام ··

وقف السنباطي في احدى قراءاته للرباعيات عند البيت :

أطفىء لظى القـــلب بكأس الشراب

فانمـــا الأيام مثـــل الســـحاب

* * *

كان هذا البيت أول بيت لحنه السنباطي من الرباعيات ثم أخذ يلحن رباعيات كثيرة مختلفة من الديوان ·

وظل على هذه الحـــال عدة شهور حتى تزوج وذهب الى أم كلثوم واسمعها اللحن ·

يقول السنباطي : ليلتها لم تنم ··· ظلت تبحث بالتليفون عن رامى حتى جاء الينا ، واختار من الرباعيات أبياتا مترابطة المعانى وقد استبدلنا ب (كأس الشراب) ، « شهد الرضاب » حتى تخرج الرباعيات بلا أزمات أو اعتراضات ·

هكذا لحن السنباطي الرباعيات · ومن الطريف أن لحن المطلع من الرصد النيسابوري ونيسابور مسقط رأس عمر الخيام ·

وغنت أم كلثوم الرباعيات فأحدثت دويا فنيا ·

ولعل الرباعيات هي البداية الحقيقية لعهد القصـــائد الكلثومية السنباطية ·

وفي ١٩٤٠ غنت مونولوج (هلت ليالى القمر) لرامى والسنباطي كما غنت من الحان القصبجي طقطوقة (كلامك من حنينى) و (ما دام تحب بتنكر ليه) ·

واذ بدأ المرض يغزو الشيخ محمد رفعت لوحت طبيعة مصر السخية المعطاء بوعد جديد · وسمع الناس شابا جميل الصوت والأداء عرفوه باسم الشيخ مصطفى اسماعيل ·

وفى الأربعينات أيضـــا ظهرت لورداكاش وكانت تنافس (ملك) بحكم التشابه بين صوتيهما ٠

وفى ١٩٤١ غنت أم كلثوم من كلمات رامى طقطوقة (أنا كنت أحب الشكوى اليك) ولحنها زكريا أحمد ٠ وغنت من ألحان القصبجى طقطوقة (حرمت أقول بتحبينى) ومونولوج (لاح نور الفجر) ٠

ويبدو أنه لاح بعد أن قالت لرجل من معجبيها فى لون الليل :
ــ انت موش ناوى تروح علشان النهار يطلع ٠

ومن الطريف أنها حين عادت الى بيتها بعد هــذه السهرة ســمعت سائلا يقول بصوت مزعج : (عشاى عليك يارب طبق طبيخ يا محسنين لله) وضحكت سومة من هذا الطلب وقالت له :

ــ ولسه حايصحوا ويسخنوا لك الأكل ٠٠٠ طيب قول حتة جبنة خلى عندك دم !

وفى ١٩٤٢ غنت ديالوج (فضل ايه يا زمان) لرامى وزكريا ٠

وفى أعقاب سنة ١٩٤٠ انتشرت الدعوة الى انشاء الجامعة العربية فغنت أم كلثوم قصيدة الشاعر الأسمر أحيت بها حفـــلة مندوبى الدول العربية فى بداية تاسيس الجامعة ومطلعها :

زهـر الربيع يرى أم ســـادة نجب
وروضـــة أينعت أم حفـــلة عجب

كانت لهذه القصيدة ضـــجة فى حينها ، فقد كانت أول قصيدة (عروبية) تغنيها أم كلثوم وأول قصيدة من هذا اللون يلحنها زكريا ٠

أما قصيدة (سلوا قلبى) التى غنتها فى أعقاب الحرب العالمية الثانية حين هبت مصر تنادى بالجلاء فان بيت القصيد فيها :

وما نيل المطالب بالتمنى
ولـكن تؤخـذ الدنيا غـــلابا

وكنا نســمى أهـــدافنا « المطالب الوطنية » ولهـــذا كانت كلمة « المطالب » هى مفتاح الحماســة فى اســتقبال هــذا اللحن ذى الأداء الرائـــع ٠

ثـــم :

النيـــــل

(ومصر تتحـدث عن نفسها) التى غنتها فى إبان مقـاومة القنال والفـــدائيين

وقد بلغ السنباطى فى تلحين الأغنية الوطنية غاية النجاح فى الملاءمة بين الحماســة والتطريب . واســتطاعت أم كلثوم أن تجعــل من الأغنية الوطنية فى ذلك العهد وما تلاه ، نشيدا قوميا .

والمثل عندى أغنيات :

— والله زمان يا سلاحى .

— محلاك يا مصرى وانت على الدفة .

— مصر التى فى خاطرى وفى دمى .

— طوف وشـــوف .

— يا حبنا الكبير يا وطنى .

* * *

ويعد صنيع رياض السنباطى فى هذا المجال ، ولعامل الاستمرار ، حدثا جديدا فى تاريخ الغناء المصرى ... لقد لحنت قبل ذلك قصائد لحنها ملحنون وغناها مغنون ولكن الأمر هنا يختلف من حيث (العدد والموضوع والطول والتواصل) فقد لحنت فى الماضى قصائد :

— (مالى فتنت بلحظك الفتاك) .

— (أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا) .

— (علموه كيف يجفو فجفا) .

— (يا جارة الوادى) .

— (مضناك جفاه مرقده) . وان كانت معارضة لـ : « يا ليل الصب متى غده » التى لحنها سيد درويش . ويقال فى رأى آخر انه لحن شامى .

وفى الأمس القريب « كليو بطرة » و « الجندول » و « الكرنك » و « النهر الخالد » .

وكلها قصائد ذات مستوى فى اللفظ واللحن والأداء ولكنها كانت تبرق من حين الى حين كومضات بين الأغانى الخفيفة ·

هذا من حيث الزمن ·

أما من حيث الموضـــوع فمعظمها غزلية ســهلة المأخذ قريبـة اللفظ والمعنى ·

وهى فى الأعم الأغلب قصيرة ·

ولكن مجموعة « شوقى ــ السنباطى ــ أم كلثوم » ذات طابع دينى ــ سلوا قلبى ، البردة ، الهمزية ، عرفات ــ سبحات فى سماء الروح ··· سبحات طويلة مستغرقة لها نفحة تضوع من الموضوع واللفظ معا ·

وقد ظهرت متتابعة حتى لتنتظم حلقة واحــدة وتقترن فى الذهن والسمع بعضها ببعض ·

ثم تأتى « رباعيات الخيام » تمزج بين الدنيا والدين فى شفافية وصـــوفية ·

لقد ذكرنا أن أم كلثوم بدأت حياتها باللون الدينى ، وحتى بعد أن جاءت الى القاهرة عاشت على لسانها طويلا قصيدة :

(مولاى كتبت رحمة الناس عليك) ·

وفى هذه الفترة التى نتحدث عنها عادت الى الأغانى الدينية بطريقة حــديثة ·

لقد جعلت أم كلثوم (الدين) موضوعا للفن ·

كان صــوتها فى الأغانى الدينية يلبس غلالة من سندس واستبرق فاذا جنى الجنتين دان ·

ولأمر ما ، كانت الوصــلة الثانية والأخــيرة من آخر حفلة غنتهــا أم كلثوم فى يناير ١٩٧٣ أغنيتها الدينية الصوفية :

(القلب يعشق كل جميل) ·

ومن الطريف ، بمناسبة القصــائد أن أم كلثوم حين غنت « نهــج البردة » و « الهمزية » و « سلوا قلبى » ، كتب أحد علماء دمشق يقرأ

ان أم كلثوم تقوم بدعاية للاسلام أكثر مما يقوم به الأزهـــر بل كتبت مجلة لايف فيما بعد تصفها :

هـذه السيدة ظلت لمدة خمســة وثلاثين عاما الوتر الحســاس للاســلام ·

وللثنائى السنباطى ـ أم كلثوم قصائد غزلية :

(أنا لن أعود اليك)
(ثورة الشك) · للأمير عبد الله الفيصل
(ذكريات) ·
(أغار من نسمة الجنوب) ·
وأخيرا (الأطلال) ·

وحتى هذه الغزليات تختلف عن القصائد الغزلية فى الماضى ممـا سبقت الاشارة اليه من حيث الطول ·

* * *

أما المجموعة الوطنية فهى خليقة بالوقوف عندها فان السنباطى خير من لحن الاناشيد وام كلثوم خير من أدت نشيدا · وحسبى أن اذكر هنا :

نشيد الجامعة لأحمد رامى ·

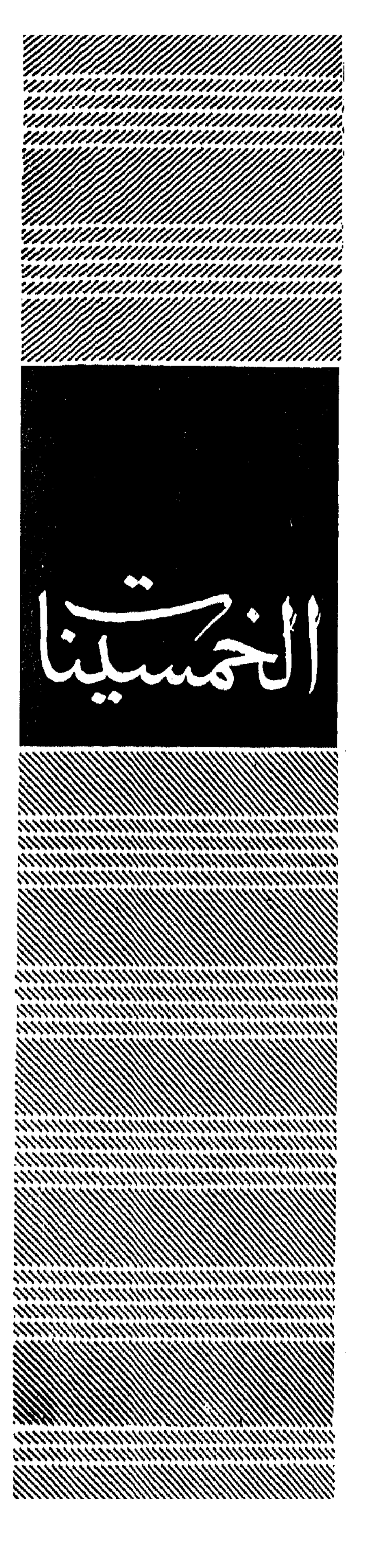
ونشيد الشباب ·

لقـــد تطورت طريقــة اداء الأغنية الوطنية على يدى الســنباطى وأم كلثوم · وقبلهما كان أكثر الأغانى (باستثناء أغانى سيد درويش) يقــوم على ترديد جمل موسيقية بقصــد التطريب وحده ، وهــكذا يقف الصوت فى ناحية ويقف المعنى بعيدا عنه ·

ثم جاء السنباطى ومزج بين الصـــوت والمعنى وعبرت أم كلثوم ـ بغير ما جهد أو مشقة ـ عن أعمق أحلام الشاعر صاحب الكلمات ·

ان مجموعة السنباطى ـ أم كلثوم على اختلاف الوانها ، ظاهرة أدبية موسيقية وهى جزء كبير من تراث هذا الصوت ·

* * *


الخمسينات

ولكن أم كلثوم بعد ما مـــر بنا ، أدركت أن نهوض رامى بالعبء وحده ، مهمة صعبة بعد هذا لاعتبارات تعرفها ، وهى الذكية الحساسة ، حق المعرفة ، فوطنت نفسها على التدبير للغد ٠٠٠

يعزز هذه الرغبة الجديدة حرصها الواعى على مسايرة الزمن ـ ذلك الحرص الذى غدا صفة فيها ـ فى كلمات الأغنية أو لحنها ٠ ومن هذا أنها تقرأ باهتمام كل ما يرسل اليها من قصائد وأزجال وطقاطيق وتدقق فى الاختيار ٠٠٠ اختيار ما يلائمها ٠٠ ويلائم الجمهور ٠٠٠ ويلائم الزمن ٠ مستعينة بالشاعر احمد رامى أى أهل الاختصاص ٠

ففى الحرب العالمية الثانية عندما أثرت الطبقة الشـــعبية من التجـــارة والتوريد ، وتطلعت هذه الطبقة بحكم الثراء الى حفلات أم كلثوم ، التقطت الظاهرة بذكاء ٠ والتمست لأغانيهـــا الكلمات الشعبية والروح الشعبية لترضى جمهورها الجديد فى تلك الفترة ٠ ومن هنا أقبلت على بيرم التونسى فارس هذا الميدان ٠ والدارس يسترعى انتباهه أن الفترة من ١٩٤٢ ـ ١٩٥٠ (أى سنى الحرب وما تلاها ، عمـرت بأغانى بيرم ومعظمها حظى بشهرة واسعة وما زال يتردد الى اليوم كأغانى (الأمـــل) ، (أنا فى انتظارك) (أهل الهوى) ، (حلم) ، (حبيبى يسعد أوقاته) ٠

كما كتب بيرم فى هذه الفترة (الآهات) ، (كل الأحبة اتنين اتنين) ، (الأوله فى الغرام والحب شبكونى) ، (ايه أسمى الحب) ، (أنا وأنت) ٠

وبالطبع لحن هذه الأغانى كلها زكريا احمد الذى كان يكون مع بيرم ثنائيا فنيا آخر ٠

وقد خدم زكريا جميع مقامات صوت أم كلثوم فى اغنية (الآهات) وظل حياته ، يعتبرها اعظم اغنية ٠

كما وقف بيرم وزكريا وراءها ، فى هذه الفترة ، فى افلامها وخاصة فيلم (سلامة) بفوازيره وترانيمه ٠

وختم الثنائى جهوده لها بلحن (هوا صحيح الهوا غلاب) ٠

كما غنت لبيرم فى هذه الفترة طقطوقتين (فى أوان الورد ابتدا حبى) ، (يا قلبى يا ما تميل بنظره وابتسامه) ، ومونولوج « اكتب لى كتير » ومونولوج « البدر أهو نور » ، « أنا ليه اتجاسر وأغافلك » وان لم يكن لهذه المجموعة حـــظ الأغانى الأخـرى من الذيوع والنجـــاح والانتشار .

ومن أغانى الأربعينات التى لاحـظ لها وهى من كلمات رامى هـذه المرة ، مونولوج وداع (وقفت أودع حبيبى) الذى لحنه فريد غصن ولم تغن أم كلثوم بعد هذا ، من ألحانه .

* * *

وكمـا تشـــتد فى الحروب النزعة الأبيقورية فقـــد انتشرت فى مصر فى ذلك الحين أغان هابطة قامت على اثرها حملات شـــديدة على فساد الأخلاق تزعمها الشيخ أبو العيون وبعض الجمعيات الدينيـــة . وشمرت المحاضرات والمقالات عن ساعدها تنعى الى الناس الفضيلة والخلق الكريم كأن هناك عصرا بريئا كل البراءة من الشطحات الشخصية . وقد ردت بعض الصحف فى تخابث على هذه المبالغة بقولها :

(كان الشعر العربى القديم يدور كله حول الخمر والاباحية والهجاء للتهديد ، والمديح للتملق ، والاستجداء ، والشذوذ الجنسى فأصـــبح الشعر فى هذه الايام يدور حول الحرب والوطن والحرية والغزل الرقيق)

* * *

وكان من أثر النزعة الابيقورية من ناحية والحملة عليها من ناحية أخرى ، أن ظهرت نزعة جديدة كرد فعل .. تلك هى النزعة الى التدين والصوفية . وهنا يأتى دور اسلاميات شوقى التى أشرنا اليها ، كمـــا يأتى دور أمير الشعراء من حيث العمل مع أم كلثوم - بشعره وان غاب شخصه - شاعرا جديدا وقمة جديدة .

وكما اقترن شوقى وحافظ فى حياتهما حتى كان حافظ يتندر متفكها بقوله (أنا وشوقى زى البيض والسميط) .. كما اقترن الشـــاعران

فى الحياة ، اقترنا أيضا بعد الحياة فى النقد الادبى وفى الغناء ! فقــد غنت أم كلثوم لحافظ أيضا قصيدته : (مصر تتحدث عن نفسها) ٠

وأخيرا وقفت مع الشاعر الرومانتيكى الرقيق ابراهيم ناجى عــلى (الأطلال) ٠ ولطالما تمنى عليها ابراهيم ناجى فى حياته أن تغنى له شعره فما ظفر ببغيته ٠ على أنه قال عنها سنة ١٩٤٥ ولم تكن بالطبع غنت له شيئا :

مطربة من الجنة !

(على كل وتر من أوتار حنجرتها يجلس اله ! صوتها كأمواج المحيط لا تدرى بعظمته الا بعد أن تغنى فتحسب أنها موشكة على التعب فاذا بهذا الصوت يمتد وينفرد ويتسع ويعظم حتى يخيل اليك أن عباب المحيــط يعلو ويجيش ٠٠ أعظم ما فيهـا على عظمة الغناء جمال اللفـظ وحسن التأدية) ٠

* * *

وهكذا فجرت الحرب العالمية الثانية ألوانا من الأغانى والأناشيد الحماسية والاغانى الوطنية تعبيرا عن (مطالبنا) القومية ، والأغانى الشعبية استهواء للطبقة الجديدة التى خلقتها الحرب من التجار والاثرياء الجدد ، والأغانى الدينية كرد فعل للجانب المقابل أى الاستخفاف والانطلاق بلا قيد ٠

سرت فى سنى الحرب نزعة الى التجديد ٠٠ فى أى صورة ٠٠ لا فى مصر وحدها ولكن فى العالم كله حتى لقد نشرت جريدة النيويورك تيمس الأمريكية مقالا طريفا قالت فيه ان الحرب الحاضرة قد دمرت كثيرا من المبانى العظيمة ودمرت فى الوقت نفسه كثيرا من المعانى السخيفة ! وأضافت أن العالم كان قد سئم سماع أغانى الغزل التى تكررت معانيها وكلماتها ٠٠٠ فروميو يصر على تشبيه جولييت بالبدر المنير أو الزهرة الناضرة ٠٠٠ ولكن الحرب قضت على هذه الالفاظ المبتذلة وتلك المعانى السخيفة ٠

فهناك شعراء يشبهون غرامهم بالمظلة الواقية أو بالسيارة المصفحة ويقولون ان حبهم كالقوات الميكانيكية التى لا يمكن صدها ٠

ومن الأغاني التي انتشرت في تلك الفترة ، في أمريكا هذه الأغنية

أنا أحبك وأعبدك وأريد أن أمطرك بالقبلات

وهذا عندي أهم مما يكتبه روتر وهافاس في البرقيات ·

ولم يفت الصحف المصرية أن تعلق على هذه الأغنية مداعبة الشاعر المسكين أحمد رامي :

لماذا لا يجرب أحمد رامي حظه في قافية جديدة ·· لقد خرج علينا بأغنية سكت والدمع اتكلم فلماذا لا نسمع قريبا (سكت والبمب اتكلم) أو أي كلام فارغ آخر غير الدموع والشعور وطلوع الروح من فرط السهاد وألم البعاد !

* * *

وحرصا على مسايرة الزمن مرة أخرى غنت أم كلثوم للصف الثاني من شعراء وزجالي العصر ، كما استعانت بشباب الملحنين أمثال بليغ حمدي والموجي والطويل تمشيا مع هذه السياسة وامتدادا لهذه (المسايرة) ·

وامعانا في التطبيق تلاقت مع عبد الوهاب فيما بعد ـ ذلك اللقاء الذي أطلقوا عليه (لقاء القمة) و (لقاء السحاب) ·· الخ · هذه المانشيتات التي تستهوينا عادة، تلاقيا في أغنية ليست لرامي كما تقتضي معنويات تاريخ الثلاثة الفني ، ولكن الأغنية للأستاذ شفيق كامل وهو من الفرسان الجدد في تأليف الأغاني ·

وبهذا كسبت أم كلثوم جمهور عبد الوهاب كما كسب عبد الوهاب جمهورها وهو المطلوب ·

* * *

في فترة الحرب العالمية الثانية كانت أم كلثوم ملء السمع والبصر كما يقولون ·· حتى الحلفاء تنافسوا مع ألمانيا ، أثناء الحرب ، على أم كلثوم فحاول كل معسكر تخديم صوتها ـ دون اذن منها ـ في كسب مستمعين جدد يستمعون الى دعاياتهم التي يقدمون لها بأغاني أم كلثوم ·

في الحرب العالمية الثانية منعت انجلترا ممثلتها الشهيرة «فيفيان لى» من احياء حفلة لصالح الجنود على مسرح الازبكية وافق موعدها الخميس الأول من الشهر ، من أجل حفلة أم كلثـــوم · اتقاء لغضب الشعب ولو مكبوتا · وتاقت « فيفيان لى » الى رؤية أم كلثوم هذه وذهبت الى حفلتها وخرجت من الحفل تقول : انها معجزة من معجزات الدنيا ·

وتظهر الى جانبها من حين الى آخر مغنيات ثم يختفين كالفقاقيع أو كألعاب الصواريخ بهرجة ولألاء ثم انطفاء حتى منافستيها العتيدتين منيرة وفتحية لم يبق منهما غير أطياف · فمحطة الاذاعة تتفق سنة ١٩٤٠ مع السيدة منيرة المهدية على أن تذيع ألحان أوبرا كارمن بأجر قدره خمســـة عشر جنيها عن كل حفلة ·

كما تتفق مع السيدة فتحية أحمد على أن تذيع مرة كل ثلاثة أسابيع بأجر قدره عشرون جنيها عن الحفلة الواحدة·

هذا حين عرض الأستاذ سعيد لطفى مدير الاذاعة فى ذلك الوقت على أم كلثوم أن تسجل قطعة غنائية على شريط لحساب محطة لندن مقابل ١٠٠ مائة جنيه فطلبت الضعف ·

وفى ذلك الوقت كانت الأخريات يقفن على بعد ·· فرجاء تتقاضى عن كل حفلة تذيعها ستة جنيهات ، واسمهان تقف فى أول الســـــلم مترددة فترفض فى البداية أن تظهر وتغنى فى حفلات عامة أو تتقاضى أجرا عن غنائها فى الحفلات الخاصة التى كانت تدعى اليها ، ثم تراجعت تحت ضغط مطالب الحياة والمهنة · ولم تلبث أن تزوجت سنة ١٩٤١ من المخرج أحمد بدرخان ثم غادرت مصر فى العام نفســـه الى جبل الدروز لتتعاون مع الحلفاء ساعية فى ضم جبل الدروز اليهم ·

ومن الطريف أن المحطة فى هذه الآونة بدأت تبحث عن المطربين القدامى فاتفقت مع السيدة نعيمة المصرية ·

وفى أوائل الأربعينات سرت اشاعة أن الشيخ محمد رفعت يطلب مساواته بأم كلثوم فنشر الشيخ رفعت بيانا فى الصحف ينفى فيه هذه الشائعة (لايمانه بان صوتها أعظم الأصوات) ·

وفى أكتوبر سنة ١٩٤٠ عرض فيلم دنانير بعد أن عادت أم كلثوم

من مصيفها الحربى فى رأس البر أقصد الذى استبدلته بأوربا فى ظروف الحرب ٠

وأغانيها فى فيلم دنانير باقية الى اليوم ٠ ويعد النقاد أغنية (بكره السفر) ذات النغم السريع السلس من أرق وأحلى ما قدمته الشاشة المصرية ٠ ومن أغانى هذا الفيلم ذات الخاصية أو الذاتية الخاصة قصيدة : (قولى لطيفك ينثنى عن مضجعى) التى غنتها ثلاث مرات مرة بنغمة بياتى ومرة بنغمة سيكا ومرة ثالثة بنغمة صبا ٠

وهى قدرة فنية ليست فى طاقة كل صوت ٠

وحين انتقلت أم كلثوم الى رأس البر انتقلت اليه ، الصحافةوراءها وأصبحت رأس البر المتواضعة محطة أخبار ٠

* * *

وفى رأس البر كانت أم كلثوم تجلس مع رامى أمام عشتها ٠ واذا سيدتان من نساء دمياط تقفان أمام العشة وتخلعان ملابسهما ثم تنظر احداهما الى أم كلثوم وتطلب منها أن تحرس الملابس حتى تستحما وتعودا لأخذها ٠

وضحكت أم كلثوم وهى تقول لرامى :

ـ ياخويا أنا هربانة من الناس اللى عاوزين يشغلونى بفلوس ، آجى هنا ألاقى ناس يشغلونى ببلاش ؟

وعادت السيدتان بعد ساعة لاستلام الملابس وشكرتا الحارسة النشيطة ٠

أما النكتة التى تحدثت عنها رأس البر طويلا فتقول أن احد أبرياء الحرب ذهب اليها فى المصيف يتفق معها على احياء حفلة ، فسألها عن عدد الوصلات التى تغنيها فأجابته قائلة :

اننى فى العادة أغنى ثلاث وصلات ، وعشانك أنت ح أعمل رابعة « والرابعة » كما لا يخفى هى الخاتمة التى تقرأ على روح الأموات٠

* * *

وفكرت أم كلثـــوم فى اقامة حفلة فى رأس البر فهـرع الى الحفلة عشـــاقها من كل مكان · ودبت الحياة فى المصيف الهـادىء القانع حتى غدا وكأنه خلية نحل ، وتنبهت غريزة الحرص والفهلوة فى الدمايطة فانتبهوا الى رأس البر الذى ذاع صيته على (حس) أم كلثوم فاشتروا سيارات لنقل المصطافين ·

وبعد حفلة أم كلثوم طارت الى رأس البر الفرق المسرحيـة · ولم يمض عام حتى غدا رأس البر من المصايف المعدودة فى مصر ! واهتـم المسئولون بالمصيف فاعادوا تخطيطه وتجميله !!

وفى سنة ١٩٤١ غنت أم كلثوم فى حفلة الاذاعة الشهرية طقطوقـة (ما دام تحب بتنكر ليه) ونجحت الطقطوقة الجديدة نجاحا كبيرا ·

وفى سنة ١٩٤٢ وضع القصبجى لحن (رق الحبيب) بكل ما فيـه من عذوبة فى أربع ساعات ·· وكان قد أنجز المقدمة الموسيقية واستمعت اليها أم كلثوم فابدت اعجابها بها · وجلست تستمع اليه وهو يضـرب على العود وأمامه باقى كلمات الأغنية ، وكان ينتقل من كوبليه الى كوبليه وأم كلثوم تعيد معه ·· وحين انتهى قال لأم كلثوم :

ـ خلاص ··· اللحن خلص !

وكان لحن (رق الحبيب) حقيقة أسرع الألحان التى غنتها أم كلثوم ·

وحدث أن حضر القصبجى ملحن الاغنية ، متأخرا عن موعـد البروفة ، قبل الحفلة ، ورأسه أشد سوادا · فنظرت اليه « سومة » وقالت :

ـ انت يا أخى موش راح تبطل صبغ شعرك بقه ·· كفاية كده راسك بقت زى الختامة تمام ·

وأخرج القصبجى زجاجة الصبغة من جديد وأعاد العملية أمـام كوكب الشرق لأن النكتة كانت (حاجة تشيب) ·

وكم تندرت أم كلثوم من صبغة القصبجى التى كان مولعا بها ·

أخذت معه الشاى فى جروبى مرة فطلب شايا (تقيل غامق) فنظرت سومة الى فنجانه طويلا ثم قالت :

ـ الا قوللي يا قصب ـ هكذا كانت تناديه ـ أنت طلبت (شاى) ولا طلبت صبغة شعر ؟

* * *

وفى الخميس الأول من مارس سنة ١٩٤٢ غنت أم كلثوم أغنيتها (كل الأحبة اتنين اتنين) • وفى سنة ١٩٤٢ أخذت الاشاعات تتحدث من جديد عن فيلم يجمع بين أم كلثوم وعبد الوهاب على أن يشتركا فى انتاجه والغناء فيه •

* * *

ويبدو أنه ليست الاشاعات وحدها هى التى جمعت بينهما فى هذه الفترة • فان السلطات البريطانية بعد أن انتزع منها روميل بنغازى وسقطت بعدها طبرق ، كان فى مخططها أن تاخذ معها طوعا أو كرها ، عبد الوهاب وأم كلثوم لأنها كانت تخشى أن تستغلها الدعاية الألمانية لحسابها •

وفى سنة ١٩٤٢ تحدثت أم كلثوم حديثا واعيا عن الموسيقى القديمة والحديثة لا يخلو من (مداعبات فنية) : قالت :

ـ ان كان هذا التجديد هو وضع أدوار راقصة أو غير راقصة افرنجية ويصاغ على أوزانها كلام يغنى فان هذا أعتبره فوضى وليس تجديدا •• أما ان كنت تريد التجديد بمعناه الصحيح فهذا شىء آخر •

حقيقى ان الموشحات القديمة لا تتمشى مع العصر الحاضر ولكنها يجب أن تكون محفوظة بل يجب على الملحن أو الموسيقى المصرى أيا كان أن يحفظ الكثير من الموشحات القديمة وأن يكون عالما بقواعد وأصول الموسيقى الشرقية القديمة •

لا شك أن الموسيقى الغربية وصلت الى مانتمنى أن نصل اليه من مكانة فنية ممتازة ولهذا يجب أن نسمعها بل أن ندرسها ونملأ رؤوسنا وعقولنا منها لا لننقلها كما هى بل لنكسب محصولنا الفنى قوة وغزارة لا شك يظهر أثرهما فى انتاجنا الموسيقى •

ان الأدباء الممتازين من كتاب العربية كهيكل وطه حسين والعقاد والمازنى والحكيم وغيرهم كانوا زعماء تجديد لا شك فيه فى الاسلوب العربى

والتفكير الشرقي وذلك لأنهم تثقفوا ثقافة غربية الى جانب ما حصلوه من الآداب العربية .

* * *

وفي سنة ١٩٤٣ كانت أكثر صراحة فادلت الى آخر ساعة بحديث قالت فيه عن عبد الوهاب :

هذا مطرب الشرق الأول بلا منازع .. له من حرارة صوته وعاطفته المرهفة ما يوفر له النجاح الكبير .

موسيقي ماهر خصوصا في الاقتباس عن الموسيقى الغربية .. وهو يعتز بهذه المهارة في الاقتباس حتى أنه ينسب أحيانا الى نفسه لحنا مقتبسا على أنه مؤلفه الأول .. والأخير أيضا .

* * *

وأخذت الصحافة في ذلك الوقت تداعب عبد الوهاب من ناحية (السن) فاخذت تلف وتدور حول الموضوع الذي لا يهم الا صاحبه سواء أكان عبد الوهاب أم أي انسان لتسؤكد في نهاية المطاف أن عبد الوهاب من مواليد سنة ١٩٠٥ (والعهدة عليها بالطبع) .

وفي سنة ١٩٤٢ أخذ عبد الوهاب وأم كلثوم يتنافسان على رياسة نقابة الموسيقيين باعتبارها ايحاء يوهم الجماهير بأفضلية صاحبها .

وفي ديسمبر سنة ١٩٤٢ عرض فيلم عايدة ـ اشتركت في الفيلم لتحية أحمد وابراهيم حمودة وهو صاحب صوت جميل قوي ونشرت الصحف أن أجور ملحنيه الثلاثة زكريا والقصبجي والسنباطي بلغت ستمائة جنيه قسمت بينهم بالعدل والقسطاس .

واعتبرت الصحف الرقم كبيرا بمقياس ذلك الوقت حتى أنها بدأت تقارن بين أجور المؤلفين والملحنين في العشرينات وبين الستمائة جنيه اياها ، وكيف انه في عام ١٩٢٠ كان (اجحص) مؤلف يتقاضى عشرين قرشا أجرا عن تاليف القطعة أو الأغنية . وكان زكريا يتقاضى جنيها واحدا عن تلحين القطعة . وكان داود حسني وابراهيم القباني يضربان الرقم القياسي في ارتفاع أجور الحانهما . فقد كان كل منهما يتقاضى خمسة جنيهات عن تلحين الدور الواحد .

وتعرض فيلم عايدة لهجوم شديد ولكن هذا الهجوم كان يتحاشاها وينصب على الاخراج والموضوع ، والموسيقى التى عابوها بقلة شيوع الطرب فيها ٠

* * *

وفى رأيى أن سقوط فيلم عايدة يرجع الى :

- ان الفيلم فى أصله (أوبرا) ولم يعالج سينمائيا المعالجة الفنية الصحيحة ٠
- عدم استساغتنا هذا اللون كما نستسيغ الطرب وخاصة فى ذلك الوقت مع أننا عرفنا الأوبريت قبل هذا على يد سيد درويش وزكريا أحمد وداود حسنى وكامل الخلعى ٠
- لا تكون أوبرا بالمعنى الصحيح بغير آلات موسيقية أجنبية ٠

وحز أم كلثوم (الفشل) الذى لم تتعوده لا سيما وأنها مثلت قبله أفلامها الأولى الناجحة ٠

وأدخلت عدة تعديلات فنية على فيلم (عايدة) وأضيفت مناظر وحذفت مناظر كما أضيفت الى الفيلم بعض الأغانى الجديدة ٠ واختصرت شركة أفلام الشرق من زمن الأوبرا مع بث الحركة السينمائية فى مشاهدها ثم عادت الشركة الحائرة فعدلت التعديل بحذف بعض التفاصيل ولكن هذا كله لم ينقذ الفيلم من مصيره المحتوم ٠

* * *

ام كلثوم والفزوات :

وفى بداية الأربعينات ظهرت طفلة تغنى أغانى أم كلثوم وتقلدها فكان طريفا أن يرى الناس الصغيرة التى لاتزيد عن تلميذة الابتدائى تلبس ثوبا طويلا وتمسك منديلا وتقف على المسرح وسط التخت تغنى (حبيبى

يسعد أوقاته) • وظلت هكذا أعواما والناس يغتفرون لها التقليد مع فارق المستوى لأنها كانت صغيرة حتى أطلقوا عليها (نجاة الصغيرة) •

وفى سنة ١٩٤٢ وفدت على مصر من لبنان مطربة جديدة اسمهـا الكسندرا بدران التى أطلق عليها اسم « نور الهدى » • وكالعادة رفعت الطنطنة التقليدية عقيرتها على أثر ظهور الكسندرا بدران أو نور الهدى فى فيلم « جوهرة » • وبلغ الأمر ببعضهم أن رآها قد بزت « بصيغة الماضى » (الكثيرات ممن يكبرنها سنا ويزدن عنها خبرة ومرانا وأنه ليس بعيدا ذلك اليوم الذى يمكن أن تصبح فيه نورالهدى هى « المقياس » الذى تقاس به سواها من المطربات) !!

ونشطت الفبركة وتواترت الأخبار • سمتها الصحف المصرية الطيبة : « الأعجوبة » !! ومن الأخبار :

ـ عبد الوهاب يطلبها للزواج ونور الهدى ترفض !

ـ فكرت محطة الاذاعة فى التعاقد مع المطربة نور الهدى •

ـ غنت نور الهدى فى حفلة (يا ليلة العيد) اغنية أم كلثوم فى دنانير •

واشارت صحف لبنان الى أن فى الطريق الى مصر موكبا جديدا من المطربات اللبنانيات للعمل فى السينما يخايلهن نجاح نور الهدى بالطبع • ومن هؤلاء ايزابيل سمعان ومها غسان وقبلهما صباح وكان لقبها فى ذلك الوقت شحرورة الوادى ولا أدرى من أيضا ! •

وهذه الظاهرة ليست أول هجرة فنية الى مصر فقد اقترن ظهور المسرح المصرى ثم السينما المصرية بهجرات مماثلة •

وبدأ صراع كصراع الجيوش الغربية فى صحرائنا الغربية فنجاح الفيلم الغنائى (جوهرة) يجذب اسمهان فتعود الى الغناء وتظهر فى فيلم (غرام وانتقام) الذى فاق فى نجاحه فيلم (جوهرة) • وقوى نجاح هذا الفيلم عامل الاغراء فهرع الىمصر « وديع الصافى » و « نجاح سلام »

ونجحت فى تلك الفترة أفلام ليلى مراد الغنائية فتحركت أم كلثوم أمام كل هذه العوامل وغنت ومثلت واثبتت وجودها •

وظهر من المطربين الرجال محمد أمين ثم جلال حرب وكلاهما غنى ألحان عبد الوهاب في مبدأ ظهوره وكلاهما شمله عبد الوهاب برعايته (الذكية) ٠

* * *

العاب صواريخ كما قلت – على الرغم من أنها أصوات جميلة – فنور الهدى « المعجزة » و « ملكة الأفلام الغنائية » الخ لم تلبث أن انطفأت حتى في السينما ! لأنهم أوهموها أنها أم كلثوم جديدة لا مجرد مطربة جديدة فسارعت تقيم الحفلات الغنائية كأم كلثوم الحقيقية وأخذت تحاكي سمتها فغنت واقفة أمام أفراد التخت بل وأمسكت منديلا فضفاضا ! فاعترفت الناصحة دون أن تدرى أنها لن تكون أم كلثوم لأن أم كلثوم لم تقلد أحدا بل ابتدعت لنفسها أسلوب شخصية فى كل شىء مما يؤكد مرة أخرى أن الصوت الجميل ليس كل ما فى الأمر ولكن لابد أن تسنده مقومات أخرى كثيرة وعزيزة أيضا ٠

قامت مرة مناقشة فنية بين الأستاذ محمد عبد الوهاب ونقولا أفندى بدران والد المطربة نور الهدى وقال والد المطربة :

– عندنا فى لبنان اللى « ما الها » أراضى ٠٠ ما تسوى شىء والكسندرا « الها » أراضى ٠٠ وأم كلثوم (ما الها) أراضى ٠

و « الأراضى » صفة لعمق الصوت واستقراره ٠

ومن الطريف أو الظريف أن الفنان بيرم التونسى لم يحس وجود (المعجزة) ٠ فقد سألته آخر ساعة سنة ١٩٤٣ (العدد ٤٥٤) رأيه فى المطربين والمطربات فقال فى جرأته المألوفة المطلقة :

أولا : يعجبنى محمد عبد الوهاب اذا غنى ولم يلحن وزكريا أحمد اذا لحن ولم يغن ٠٠ وصالح عبد الحى اذا احتفظ بأدوار عبده الحامولى ومحمد عثمان ٠٠ وفريد الأطرش اذا غنى الأغانى السورية تبع بلاده ٠

وتعجبنى أم كلثوم اذا لحن لها زكريا أحمد ونجاة على اذا وجدت من يعتنى بها ٠٠ وملك محمد اذا لم تغن ولم تلحن ٠٠ أما رجاء عبده فهى أصلح مطرباتنا لتكون مطربة أطفال ٠٠ ونادرة صوتها يغيظ ٠

وهو أشبه ما يكون بالفول النابت الذى يملأ البطن ولا يغذى مطلقا !

وهكذا لم يذكر الكسندرا بدران أو نور الهدى

وفى تلك الفترة رفعت أم كلثوم (سعر) غنائها ·· هل كان ذلك لتخفيف الزحام عليها على طريقة كبار الأطباء المصريين ؟ أم سـخرية ·· أم تحد ·· أم ايحاء بأنها (الأغلى) ؟

متى بدات قصة الأطلال :

وفى الأربعينات ولدت للشاعر ناجى ملحمته (الأطلال) ··وكالوالد المتحمس أخذ يتغنى بها فى مجالسه الأدبية ويلقيها فى الندوات الشعرية خاصة فى رابطة الأدب الحديث ثم طبعها فى ديوان لا يأخذ مظهره العين وان كان يأسر القلب ، سماه (ليالى القاهرة) ···

وكم كان ناجى يتمنى أن تغنى له أم كلثوم « الأطلال » · وعرضت عليها الفكرة مرات ولكنها كانت تنسى الموضوع أو تتناساه · ولم تكن تدرى ولم تكن ندرى معهـا ان الأطلال بعـد بضعة عشر عاما ستكون اغنيتها الكبيرة التى لم تطاولها اغنية أخرى لها ، وبالطبع للآخرين ·

رفضت أن تغنيها فى الأربعينات ثم غنتها وهى فى أعلى القمم ·· فى الستينات فكانت قمة القمة ·

وحين رفعت أم كلثوم أجر غنائها بدأت الصحف تعدد مصادر ثـروة أم كلثوم وعبد الوهاب ·

ويبدو أن مصلحة الضرائب كانت كعادتها ترهف السمع فطـالبت أم كلثوم سنة ١٩٤٤ بألفين وأربعمائة جنيه ـ يعتبر هذا المبلغ كبيرا فى ذلك الوقت ـ فرفعت أم كلثوم قضية على مصلحة الضرائب ·

وفى سنة ١٩٤٤ دخلت أم كلثوم مع عبد الوهاب فى منافسة فنية حقيقية فقد كان عبد الوهاب قد أخذ من رامى كلمات أغنية (سهران) ولحنها ثم ركنها .. وعرفت أم كلثوم فأخذت الكلمات وطلبت من السنباطى أن يلحنها .. وأخذ رياض يلحن الأغنية بينما ذهبت الى طماى الزهايرة لتحتفل بمولد سيدى العوضى . وهو كما تقول شيخ له مقام فى البلد وكانت بدأت حياتها الفنية وهى طفلة بالغناء فى مولده . ولكنها غنت (سهران) سنة ١٩٥٠ .

وفى الأربعينات غنت لرامى والسنباطى قصيدة (كيف مرت على هواك القلوب) ، ومونولوج (يا لى كان يشجيك أنينى) وهى من الاغانى التى عاشت طويلا .

وفى الناحية الأخرى دخل بيرم ورامى فى منافسة أدبية وفى ملاحاة أيضا افرغ فيها بيرم شحنته من الغضب حتى أثار بعض الكتاب فنفروا ، تطوعا ، للدفاع عن رامى .

والحقيقة أن المنافسة بين بيرم ورامى ما كان لها أن تحتدم . فلكل منهما لون خاص هو فيه رأس مدرسة . وهذه (الامامة) أو (الأستاذية) أو (الشخصية شخصية الحضور) خليقة أن ترضى صاحبها عن زمانه وعن أقرانه ولكن ..

كان أشد ما يحنق (بيرم) فى الواقع أن (رامى) يمد أم كلثوم بالأغانى بلا مقابل فما حاجتها الى المؤلفين الآخرين .

على أن بيرم ورامى يلتقيان فى أن الأغنية عند كليهما لها غرض وموضوع من تأثير الأدب الفرنسى فيهما ثم يزيد رامى ما أمدته به حياته العاطفية المليئة بالقصص والمواقف التى أثرت الأغنية المصرية وقبستها الحرارة والصدق .

كما أن بيرم أضاف الى الأغنية المصرية كثيرا من اللوحات الملونة الجميلة كشمس الأصيل .. وهذا طبيعى فانه عندما عاد من فرنسا نظم زجلا يقول فيه :

يا هل المغنا دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله

فتحتم عليه أن يأتى بجديد .

وفي سنة ١٩٤٤ راحت أسمهان ضحية حادث سيارة فذهبت في شبابها الريان كما يقول رامي فقد رثاها في ذلك الوقت بقوله :

يا ضـــياع المنى على أسمهـــان ذهبت في شبابهـــا الريـــان
ثم ولت ولم تزل في صباهــــا تتمنى الحيـــاة ملء الزمـــان
أنــة في الفضاء ضاع صداهــا كعبـــير يشـــيع في الألوان

وذهب بذهاب أسمهان ، صوتها الذى حاولت أكثر من مرة أن تؤمن عليه فكانت شركات التأمين تحجم لأنها هي لم تكن تحافظ على هـــــذا الصوت بإسرافها في كل شيء ٠

ام كلثوم تتسلق القمة :

وكان أهم حدث فني ــ سعيد ــ في ذلك العام (١٩٤٤) الانعام على أم كلثوم بنيشان الكمال عقب حفلتها في النادى الأهلي ٠

وفي تلك الليلة هجم جمهور المستمعين على المسرح وأحاط بهـــا وأرسل على وجهها ويديها غمرا من القبل ٠

وأسرع الأستاذ حلمي ووقف أمامها يذود عنها ويحميها ٠

وأراد أحدهم أن يقبلها فدفعه اسحق بشدة وصاحت هي :

ــ سيبه ده ابن أختى !

وقال اسحق حلمي :

ــ هوه انت لك كام ابن أخت ؟

وضحك المئات الذين هنأوها من قبل ٠ وخرجت من النادى الأهلي في مظاهرة كل من فيها صادق الشعور ٠

وكان من البرقيات التي بلغت آكداسا من مصر والبلاد العربية برقية تقول :

(نيشان الكمال بمنزل الآنسة أم كلثوم ٠٠ نهنئكم) ٠

وقد أقيمت لتكريمها حفلة فى دار الأوبرا شهدها جمهور كبير ومن بينهم الوزراء والرسميون من مختلف الجهات ٠

وعزفت فى الحفلة (حلاق اشبيلية) ٠

وعزفت فرقة موسيقى بقيادة الأستاذ محمد حسن الشجاعى موسيقى (العشرة الطيبة) ٠

واشتركت فى الحفلة طالبات المعهد العالى لمعلمات الفنون ٠

وبمناسبة المعهد أنشىء سنة ١٩٤٤ المعهد العالى للفنون المسرحية على أنقاض القديم الذى أغلقه وزير التقاليد فى الثلاثينات ٠

كما تالفت فرقة مسرحية ترعاها الدولة هى فرقة المسرح القومى أو الفرقة القومية ٠

واتسعت الرقعة المسرحية بعد هذا من حيث عدد الكتاب والمؤلفين أو الممثلين أو المخرجين أو النظارة ٠

وفى سنة ١٩٤٤ ظهرت المطربة شادية (فاطمة اسمها الحقيقى) بلون جديد عرفت به مدة طويلة امتـــدت الى الخمسينات هو لون الأغانى الخفيفة ، خفيفة لحنا وروحا ٠٠ ونجحت فى لونها بسرعة ٠

وفى سنة ١٩٤٥ بدأت الصحف (تانى) تتحدث عن فيلم يجمع أم كلثوم وعبد الوهاب ٠ وفى هذه المرة حددت اسم الفيلم زيادة فىالتأكيد نقالت انه قصة مجنون ليلى ٠ وأضافت أن عبد الوهاب انتهى من تلحين معظم مشاهد القصة وأخيرا حمدت لاستديو مصر هذه الخبطة السينمائية ٠

ويبدو أن الصحافة صدقت نفسها فبدأت تقترح التعديل فىالموضوع كأن يكون مثلا الفيلم عصريا لا مجنون ليلى ٠

وفى هذه الفترة زار مصر المطرب اللبنانى وديعالصافى ذو الصوت الذى يذكر كما يقولون بالمقام الموسيقى الذى يسميه الموسيقيون (راحـة الأرواح) ٠

* * *

متى تتجلى ام كلثوم :

وفي هذا العام أجابت أم كلثوم على سؤال شائع كان في ذلك الوقت يتردد كثيرا على الشفاه · والسؤال هو : هل « تنجلى » أم كلثوم فى جو معين تفضله ؟ سأنقل حديثها بنصه لأنها بفعل الممارسة أصدق تعبيرا عن نفسها في هذا الموضوع ·

ـ يقولون انك تفضلين الجمهور الصاخب على الجمهور الهادىء الرزين لأن الأول يجعلك (تنجلين) فى الغناء ·

ـ أنا ؟ وهل تصدق أن فنانا يرضيه أن يقطع عليه انسجامه ؟ هل الجمهور وحده هو الذى يطرب ؟ ان الفنان بدوره لا يقل استغراقا فى فنه عن الجمهور فى احساسه · ومع ذلك فالجمهورفىنظرى نوعان : نـــوع يهتز من الطـــرب ، ونوع « يتهازز » · أما أن يطـــرب الجمهور فيهتز ويعبر عن طربه بصورة من الصور المألوفة التى لا تفسد جو الطرب ، فذلك معقول ·· لكن ذلك النوع الثانى ·· النوع الذى (يتهازز) ، النوعالذى يثير الصخب فى هذا الجو الطروب ، هذا النوع هو أعدى أعداء الفنان ·

لقد غنيت مرة لرجل واحد ، رجل أعمى كان يجلس فيالصـــف الأخير ·· فى احدى الحفلات ·· ويطرب ويحس الغناء احساسا صحيحا ـ قطعا كانت هذه الحفلة فى مسرح الازبكية حتى تستطيع أن تميز رجلا فى الصف الأخير ـ غنيت طول الليل له وحده ·· وكنت سعيدة بهـــذا التجاوب بينى وبينه ·

وارى أن أم كلثوم هنا صادقة وما قالت الحقيقة ·· انها بعيـــدة عن المسرح تفكر بمنطق وتفضـــل الجمهور الهادىء ، بالمنطق أيضـــا ، ولكن هذا التفكير النهارى يتبخر مع شمس القاهرة الساطعة · وتقف عـــلى المسرح فى الليل ويسعدها هذا اللون من التجاوب لأنها تعودته وأصبح بضعة منها ·· بضعة مكملة للجو ·· تتمنى دوامها ويتمنى غيرهـــا الوصول اليها ·

لقد خشى محبوها من السودانيين على حفلاتها فى السودان لان أهلنا فى جنوب النيل يحبون الأغنية السريعة التى لا يتبعها المقاطعة والترديد ولكن الذى حدث أن جنوب النيل تكلثم كشماله ·

وفى هذه الفترة أصابت الحبسة صوتا عظيما كان يسرى فى قلوب الناس ويهز مشاعرهم بما ينتقل منه اليها من خشوع ... وفى يوم جمعة بكى المصلون فى مسجد فاضل باشا عندما قهرت الغصة الصوت الذى رتل القرآن ترتيلا كأنه نازل لساعته على جناحى جبريل .. وغادر الشيخ رفعت المسجد بين نحيب الناس وعويلهم .

وفى سنة ١٩٤٦ غنت أم كلثوم فى بغداد فى عيد ميلاد الملك فيصل فانعم عليها بنيشان الرافدين من الدرجة الأولى .

ولكن الناس الذين استطارهم الفرح حين أنعمت عليها مصر بنيشان الكمال يبدو أنهم ألفوا الانعام عليها بالأوسمة والنياشين فأخذوا يتساءلون .. ولكن بعد النياشين كيف تعيش هذه الانسانة الفنانة وحدها ؟ تلك التى يحمل اسمها معنى الأمومة فى مقاطعه وجرسه ولم يعرف قلبها نعيمها . وعكست الصحافة رغبة الناس فسألتها . وكان الجواب :

ـ ان العمل نفسه أنسانى سعادة الزواج والحياه الزوجية بل لعلنى لا أصلح لأن أكون ست بيت بالمعنى المفهوم عندنا فى مصر .

وسألتها الصحافة أيضا عن رأيها فى الدنيا بلا رجال فقالت :

ـ تكون ناعمة مليئة بالعفة .

ـ تزول الحرب .

ـ يخلو الغناء من الغزل .

ـ تتغير طريقة الحكم .

وظل السؤال الهام بعد هذا الحوار بلا جواب شاف . لماذا ترهبت أم كلثوم فى محراب الفن ؟

ـ لماذا ترهبت أم كلثوم فى محراب الفن ؟

يخيل الى أن السر يكمن فى ظروف نشأتها ، فقد سبق لى الاشارة الى أن والدها عندما اكتشف صوتها وعزم على الاستعانة بها تحايل

على التقاليد باخفائها فى زى غلام • فنشأت أم كلثوم فى طفولتها نشأة الصبية - لا البنات - وشبت فحضرت مجالس الرجال كواحد منهم تبادلهم الأحاديث والطرف ثم دانت لها الشهرة وتجمع عندها المال •

كل هذه العوامل مجتمعة انامت مطالب الأنوثة فيها وأيقظت طموح الانسان فهفت نفسها فى دنيا الفن الى أمام واستشرفت الى فوق ••• ودفعت أم كلثوم زمنا طويلا ، ثمن المجد الذى يغبطها عليه قوم ويحسدها عليه آخرون ، وحدة القلب القاسية التى تحس مرارتها فى نشيجها عندما تغنى :

صبحت أعيش بقلوب الناس   وكل عاشق قلبى معاه
شربوا الهوى وفاتوا لى الكاس   من غير نديم أشرب وياه

وما كان لهذه الوحدة المرهفة أن تدوم وليس لها ما يبررها بعد أن استوت على القمة التى كانت تطمح اليها فى عالم الغناء •

وهفت أم كلثوم الى (نديم) وتاقت الى رفيق حياة •

كم قاست أم كلثوم وكم تعذبت وكم تمزقت •• مزقها الصراع •

كانت تربى أقرباءها وقريباتها ثم تزوج هذه وذاك •• وينجب الجميع ويعيشون وتنتظر هى •

كانت تسعد ليالى الافراح وتحييها وترى كل حين على مقربة منها وتحت عينها زفة العرس وهناءة الفرح وهالة العروس ونعيم الحب ••• ثم تعود آخر الليل وحدها •• وحدها لتغلق الباب على نفسها ••• والخادمة •

بيتها مأوى فحسب لا يعرف دفء العش ولا حنان الحب •• ولا نعيم القرب ولا سعادة الأسرة ولا هناءة الزوج •

حتى رامى أحيت فرحه هى !! وعادت بعد الحفلة بلا صديق ••• بلا حبيب •• بلا زوج •

كم قاست أم كلثوم • تغنى الوجد للعشاق والحب للأحبة (كل الأحبة اتنين اتنين وانت يا قلبى حبيبك فين ؟) •

وتملأ آهاتها ليالى القاهرة وسماء الأمة العربية ثم تقف بالباب . باب الحب الذى غنت له اعذب الألحان .. تقف بالباب خالية اليدين منه لا يغنى عنها كنوز المال شيئا .

وحدث أن مرضت أم كلثوم بالغدة الدرقية وهدد الخطر عينيها . ولم يجد الاطباء بدا من المصارحة ، فانذروها أن الخطر فى طريقه الى عقلها .. وسريعا أن لم تتزوج وترضى بشريتها .

وطاردتها الأوهام ثم ألحت عليها وضيقت عليها الخناق فكانت لا تطيق ان تجلس مع مخلوق أكثر من دقيقتين تصرخ بعدها فى وجهه فيغادرها حزينا .. عليها .

ونشطت صديقاتها المقربات .. وفى مقدمتهن حرم المهدى يكاشفن بالسر الخطير اصدقاءها المقربين عسى أن يقعن على (الرجل) .

ولشد ما راعهن أن الجميع لم يتحمسوا للموضوع حماستهن . فهذا يعتذر بالزوجة والأبناء وذلك يتهرب بتعلات اخرى !!

وادركت أم كلثوم ان ما تراه عينها من الوله والهيام والهتاف المجنون ، كلام ليل ولوازم غناء ..

وعصرها الألم .. وطن فى اذنها اكثر فاكثر انذار الأطباء ..

وذهبت يوما من ايام هذه المحنة الى نقابة الموسيقيين فوجدت هناك (محمود الشريف) وكان فى ذلك الوقت ، وكيلا للنقابة .

مالك ؟

وانفجرت ام كلثوم كانها تنتظر هذه الكلمة من انسان .. اى انسان .

ــ ناس مافيهاش خير .. كل واحد لا يتردد فى الأخذ ولكنه عند العطاء يتلون ويروغ ..

* * *

ولم يفهم محمود الشريف شيئا فأعاد السؤال دون أن يدرى .

ــ مالك ؟ ماذا جرى ؟

ومرة اخرى انطلقت تقول :

ــ ناس .. ناس حواليا عندما لا اريدهم ولكن عندما دعت حاجتى اليهم لم أجد أحدا .. الكل فاتونى .. الكل جحدونى .

وللمرة الأخيرة قال محمود الشريف :

ــ مالك .. اتكلمى .. ماذا حدث ؟

وهدأت أم كلثوم بحكم الخجل والحرج وخافتت من صوتها وهى تقول :

ــ تصور ان الأطباء قرروا أن أتزوج لا محالة .

ــ وماذا فى هذا ؟ ان كل انسان يتمناك .. ان كل انسان ..

وابتسمت أم كلثوم فى مرارة والرجل الطيب الفنان يسترسل فى حماسه فى وصف شعور (كل انسان) نحو أم كلثوم .

ــ ان كل انسان يتشرف بك وبزواجك .

ــ يعنى مثلا أنت تتشرف بى وبزواجى .

ــ طبعا طبعا .. أنا تحت أمرك .. قولى نعم .. قوليها .

ــ نعم .

قالتها أم كلثوم الغريقة التى تتلهف على شاطىء الأمان فى تلك اللحظة .

لا شك ان ام كلثوم كانت تطمح فى زواج رفيع براق .. الم تصل الى ما لم يبلغه احد فلم لا تصل الى زواج لم ينله احد ؟

ورشحت الاشاعات يوما فى شبه تأكيد شريف صبرى باشا خال الملك فاروق . ولكن الباشا تخلى تحرجا بحكم العقلية القديمة ، أو تهيبا ، أو تحت ضغط أسرته المالكة ..

وأحست أم كلثوم بجرح غائر .. ان تقبيل يدها والهيام بها حركات للاستهلاك المحلى فقط .. مراسيم حفلات وشغل صالونات .

وبكل كبرياء المرأة الطعينة ردت اللطمة لأصحاب الجباه العالية بارتضائها فنانا من صميم الشعب ومن صميم عملها.. محمود الشريف

ونجحت فى تدبيرها فقد هزع اليها شريف صبرى هذا يتلظى ومعه بهى الدين بركات باشا ..

ـ كيف ؟ ولماذا ؟ وما هذا ؟ الخ علامات التعجب والاستفهام ..

واخيراً ذكرها بنيشان الكمال الذى انعمت به اسرته عليها . وكان هذا آخر سهم فى الجعبة :

ـ انسيت انك تحملين نيشان الكمال وان زواجك من اجل هـذا مرهون بارادة فاروق متوقف على رضاه .. السامى ؟

* * *

هل كانت أم كلثوم فى الوقت نفسه تحس فى قرارة نفسها أو بلا وعى منها أن (محمود الشريف) ابن بيئتها ؟ وانه « الرجـل » الذى يقابل الصورة التى فى ذهنها من عهد القرية ؟ .

وكان صباح ..

الصحف تعلن نبأ زواج أم كلثوم من محمودالشريف الفنان الشعبى الذى يقف على أولى درجات السلم فى ذلك الوقت ..

وجاء دور الشعب .. كثرت الاسئلة ونشـط الفضـول . وقال اناس حينئذ أنها أساءت الاختيار ، وانها بعد الانتظار الطويل لم تلتق بالرجل المنشود .

صديقاتها وحدهن هن اللائى هللن من الفرحة .. فرحت المسكينات لأنهن هنا ، نساء يعرفن محنة روح المراة فى هذه الحال . ولكن الرجال من جمهورها الغفير لم يفرحوا .. جلسـوا كعجـائز الفرح ينهشـون (محمود الشريف) : أصله وفصله و .. كل شىء خاضوا فيه الا موهبته والا فنه .. هذا وحده هو الذى اغفلوه أو تغافلوه كأن الرجل ليس له حسنة واحدة !! ولكن هؤلاء ظلموا الرجل وظلموها .. معا .

فمحمود الشريف من وجهة نظر (المظاهر) هو الفنان الذى حصل على وسـام الفنون من الدرجة الأولى فى عيد العلم ـ فيما بعد هـذا التاريخ وعلى التحديد سنة ١٩٦٠ ـ وحصل على أكثر من وسام من دول عربية شقيقة . وفاز بالميدالية الذهبية عن لحن السيـد العالى ، وميدالية بور سعيد عن نشيد بناء بور سـعيد . وميداليـة التسـلح والجلاء فى عيد الجلاء .

ومن وجهة نظر الفن الصحيح محمود الشريف هو الفنان الذى وضع موسيقى اناشيد الكلية البحرية ، وكلية الطيران والكلية الحربية ونشيد الجزائر .

وقد ساهم محمود الشريف فى كل ألوان الفن الموسيقى المعروف فى ذلك الوقت .. لحن الأغنية والمونولوج والطقطوقة والاسكتشات ووضع موسيقى راقصة ..

وله ألحان كثيرة لاقت نجاحا كبيرا (١)

ووقعت فى طريقى مذكرته وقرأت :

ولدت مرتين .. يوم ولدتنى أمى ويوم أحببتها .

ـ سنتان ونصف ولم أقل لأحد أنى أحبها !

ـ ما أسعد القلب حينما يسعى الى قلبه فى غفلة من عيون الرقباء .

ـ طعامى وشرابى فى سماع صوتك .. وسعادتى وهنائى فى رضائك وحياتى ومماتى فى حبك وأملى ورجائى فى وفائك ..

ـ حنينى اليك يجعل قلبى يقطر دما . كلما التفت القلب فلا يرى غيرك انت بجانبى دائما .

---

(١) يابو العيون السود ـ ودع هواك ـ انا وانت فى الهوى ـ يا اهل المحبة ـ ياباي‌منى وانا شارى ـ بياع الهوى راح فين ـ اداري وانت مش دارى ـ ياسايق الغليون عدى القنال عدى ـ وله يا وله ـ البيض الأماره ـ ع الحلوه والمره (غناء عبد الغنى السيد) .

ياعطارين دلونى ـ سمعت ورده ـ توب الفرح ـ يابيت ابويا ـ ياحمام البر رفرف ـ نام ياحبيبى نام (غناء أحلام) .

ـ قالوا لبوها المهر غالى ـ عينى بترف (غناء كارم محمود) .

ـ اسال عليه ـ يالله تعالى‌قوام يالله ـ من بعيد ياحبيبى أسلم (غناء ليلى مراد) .

ـ تلات سلامات ـ يازين الأحبه (غناء محمد قنديل) .

ـ يابنت بلدى ـ يانور عنيه واكتر شويه ـ ليالى العمر معدوده (غناء شاديه).

ـ ياليل كفايه حرام ـ قول ياعزول (غناء فايزه احمد) .

ـ اوصفوالى الحب ـ عطشان يا اسمرانى محبه (غناء نجاة الصغيره) .

ـ القلب ولا العين (غناء سعاد محمد).

ـ عاد السلام ياليل ـ ياواد يا سماره (غناء فايده كامل) .

ـ ياسيدى امرك ـ حلو وكداب (غناء عبد الحليم حافظ) ومحمود الشريف صاحب نشيد (الله أكبر) .

— ليس عندي شيء أقوله سوى أن يتركني الناس وشأني حتى أتفرغ للعناية والسهر على هذا القلب الكبير .

— أرجو من الدنيا أن تبتهل الى العلى القدير أن يبارك هذا الحب ويرعاه ويحفظه من شياطين الانس .

— أى شيء فيها يطرب .. ليس صوتها فقط .

* * *

كل شيء فيها يطرب كما تطرب أغنيته الرقيقة الشجية « من بعيد يا حبيبى أسلم » .

هذا الحب القوى كان الناس أقوى منه ..

* * *

لم تستطع أم كلثوم أن تتحدى الرأى العام الذى ارتفع همسه الى استنكار مسموع فلم تقو وهى العنيدة الصلبة الرأى ذات الهيلمان . على المقاومة .. والمخالفة والمخاطرة .

وكان أن اذعنت ..

وفسخت الخطبة .. واستراح المعجبون ..

* * *

انهمكت أم كلثوم فى العمل من جديد . ولم يكن العمل الغناء وحده ، بل كان التمثيل أيضا . فقد اشتغلت عام ١٩٤٧ بفيلم فاطمة حتى فرغت منه . وعرض فى ديسمبر سنة ١٩٤٧ .

وأثناء العمل فى فيلم فاطمة دعتها الحكومة السورية للمشاركة فى حفلات ذكرى الجلاء ، كما دعاها ملك العراق لاحياء حفلة خاصة ولكنها اعتذرت لاشتغالها بالفيلم .

والاعتذار هنا له مغزى آخر غير ضيق الوقت .. لقد غدت فى ١٩٤٧ فى مركز يسمح بالرفض أو القبول فى حضرة الملوك والرؤساء .

* * *


أحداث
كبار

متى بكت ام كلثوم

وفى هذه الفترة التى تبدأ من منتصف الأربعينات اخذت الافلام الاستعراضية تغمر السوق حتى ليعرض منها فى العالم الواحد فيلمان على الاقل . وكان نجوم هذه الأفلام شادية وليلى مراد ونعيمة عاكف وفيروز وعبد العزيز محمود .

وفى سنة ١٩٤٧ بكت أم كلثوم مرتين . مرة عندما توفيت والدتها، والأخرى عندما سمعت منيرة المهدية بعد عودتها الى الغناء .

عادت منيرة المهدية الى الغناء فى عام ١٩٤٧ . وسعى بعض الناس عندها باهتزاز أم كلثوم لهذا الحدث .. وشمت أم كلثوم ريح الدسائس فهنأت منيرة وتمنت لها التوفيق ولمحت الى ما يقال واكبرتها على تصديقه لأن هم بعض الناس التطوع بالأوهام .

ولكن منيرة لكى تستوثق من حسن نية أم كلثوم دعتها الى حضور حفلتها وحجزت لها (بنوارا) .

وذهبت أم كلثوم في الموعد في رفقة من أصدقائها • ورفع الستار وظهرت منيرة بدينة تحمل وقر السنين • وعندما بدأت تغنى خشخش صوتها فحاولت النزول به طبقة وسارت فى واد والموسيقى فى واد آخر •

واختلس الأصدقاء النظر الى أم كلثوم • ولعله لاح فى خاطرهم فى تلك اللحظة أنهم سيشاهدون على وجهها امارات الانتصار والاطمئنان • ولكن لشد ما راعهم أن رأوا خيطا من دموع على خدها ..

وصمتوا فى اكبار ..

قالت أم كلثوم وقتئذ أنها رقت لمنيرة • واقول انها فوق هـذا ، بكت فيها الفنان عندما يعجز عن الابداع •• أو لعلها بكت من الخوف • من المجهول •

ونسيت أنها أسعد حظا منها بالعلم الذى مد لها بالتسجيل فى الزمن ، واغناها عن سوء المصير معنويا وماديا • لقد خلدها العلم صوتا وصورة فأفلامها وتسجيلاتها فى التليفزيون حفظت ــ فضلا عن الأغانى ــ صورتها فى احسن حالاتها أى حفظتها شكلا وموضوعا •

وعادت سلطانة الطرب سابقا ، أدراجهـا الى العوامة رقم ١٥٥ بامبابة لتعيش فيها بقية أيامها مكتفية بالذكريات •

* * *

وفى سنة ١٩٤٨ ظهرت لأم كلثوم تلميذة أو هكذا يسمون المطربة الجديدة • وكانت أخت المطرب محمد عبد الوهاب علمى •

وأخذت الصحف تتحدث عن هذه التلميذة وكيف أنها غنت فى بعض كليات الجامعة بدون اجر فنالت الاعجاب ، وأنها غنت أمام بعض الملحنين فباركوا صوتها • وكيف أن عائلتها تصرف على صوتها نحو أربعين جنيها فى الشهر ، وكيف أنها ينتظرها مستقبل رائع اذا اعتنت بصحتها •• وكيف وكيف الخ النبوءات التى تصحب كل نجم جديد والتى يتولى النجم الجديد نفسه تكذيبها ولو صدق المنجمون •

أم كلثوم تتعرض للهجوم :

وفى سـنة ١٩٤٨ واجهت أم كلثوم حملتين احداهما رفيقة هينة والاخرى عاتية .

اما الأولى فكانت موجهة فى الحقيقة الى مسرح الأزبكية . فقـد تساءلت الصحافة الى متى تغنى أم كلثوم تحت سقف هذا الصـالون السخيف الكالح الذى تجود به الفرقة القومية . لم لا تغنى أم كلثوم فى منظر طبيعى أغنية كاغنية رق الحبيب - ولم لا تستعمل وسائل التأثير الضوئى التى نراها فى دور السينما كلما غنت مغنية ؟ .

ان حواس الفن هى العين والأذن فلم لا يقـدم للعين ما يسرها من مناظر لكى تستكمل الصورة الفنيـة التى يصـورها اللحن والصـوت والألفاظ .

* * *

اما الاخرى فحملة بعض الصحف عليها لتقاضيها اجرا من الاذاعة عن الأشرطة المسجلة ، ومنطق هؤلاء أن الشريط المذاع لا تبذل هى فيه جهدا ثم انه سجل فى حفلة تقاضت هى عنها أجرا عند اقامتها . ومضت الحملة تقارن بين اجرها واجر الوزراء . واشتد الجدل وانتصر الرأى القائل بميزة الفن والفنان .

* * *

وشاهد عام ١٩٤٩ احتجاب مقرئات الاذاعة الثلاث المشـهورات الشيخة منيرة عبده والشيخة كريمة العدلية والشيخة منيرة الحضرى .

وفى سنة ١٩٤٩ طلب الى أم كلثوم فى مقام الاحتفال باحياء ذكرى سيد درويش أن تغنى بعض الحانه فاعتذرت ثم لم تكتف بالاعتذار بل قالت فى خبث ذكى ان الحان سيد درويش يطلب تأديتها من مطرب رجل لا من مطربة سيدة .

وقد اقترحت بصفتها نقيبة الموسـيقيين ان تخصص فى النقـابة غرفة باسم (غرفة سـيد درويش) تضـم نوتات الحانه الموسـيقية واسطواناته وتاريخ حياته لكل من يرغب فى الدراسة والاطلاع ..

وفى سنة ١٩٤٩ غنت ام كلثوم (ولد الهدى) لأول مرة فى شـهر نوفمبر من ذلك العام .

كما انتخبت أم كلثوم عضو شرف فى معهد الموسيقى .

ومن طريف ما حدث سنة ١٩٤٩ أنه عندما أراد الانجليز والامريكان والفرنسيون أن يفصلوا أقاليم ليبيا الثلاثة بعضها عن بعض ليتقاسموها بينهم ، عملت انجلترا على أن تعجل باعلان استقلال برقة حتى تلتهمهـــا وتطمئن على نصيبها من الغنيمة . وكانت وسيلتها الى هذا ان تحايلت بصوت أم كلثوم لتشـــد انتباه الناس وتجمع آذانهم . فاخذت الاذاعة ترسل أغانى أم كلثوم متتابعة حتى اذا اندمج الناس فى الاستماع أعلنت المحطة استقلال برقة .

وهنا طلعت (أخبار اليوم) بمانشيت عريض يقول :

(أم كلثوم تعلن استقلال برقة)

* * *

وفى ١٩٤٩ عادت الى الآذان نغمة اشتراك أم كلثوم وعبد الوهـــاب فى فيلم سينمائى تحت اشراف وزارة الشئون الاجتماعية هذه المرة .

ولكن أهم حدث سنة ١٩٤٩ هو شفاؤها من مرضها .

وفى سنة ١٩٤٩ صـــعد على المسرح فتى نحيل تتقحمه العين يغنى (صافينى مره وجافينى مره) ولكن الجمهور في تلك الليلة جافاه ثم ما لبثت الاذن العربية أن صافته بعد هذا وعرفت في صوته نكهة خاصة .. هى رقة الحنان المداف فيه الشجى والرجولة معا .. ثم طارت شـــهرته وتوالت أغانيه على امتداد ربع قرن .

كان الفتى هو عبد الحليم حافظ أو العندليب الأسمر .

ومن الغريب أن أغنية (صافينى مرة) تعد احدى روائعه .

واذ صافاه الحظ ، جافته : الصحة . لم يهادنه المرض قط . كان بريق النجاح وحب الناس يعينه عليه مع العلاج الموصول .

ويقول طبيبه الانجليزى ان المرض كان كامنا حين كان غذاء الفتى متواضعا فدا ارتفع طعامه ، وجد المرض مرعى ومرتعا !!

أم كلثوم تحدث زلزالا :

مرضت أم كلثوم بالغدة الدرقية وسرت الاشاعات وقتئذ انها قد لا تستطيع أن تغنى .. وابتهل الشعب الى الله أن يشـــفى أم كلثوم . وعرضت أمريكا على مصر ان تعـــالج أم كلثـوم بمســـتشفى البحـــرية الامريكية . وهذا المستشفى لا يعالج به من غير رجال البحرية الامريكية الا عظماء العالم من الشخصيات ذات الحيثيات الخاصة وبأمر من رئيس

الجمهورية بل ان البحرية الامريكية أوفدت الىالقاهرة الأدميرال براوف كبير اطباء البحرية ليرحب بأم كلثوم تعالج فى مستشفى البحرية .

قبلت مصر الدعوة وقبلتها أم كلثوم . كان سفير مصر يسال المستشفى عن تطور العلاج صباح مساء بل ان طبيبين أمريكيين اهتما بها اهتماما فائقا فأقام سفير مصر فى واشنطون حفلة عشاء رسمية تكريما للطبيبين .

ولكن طبيبا واحدا من الامريكان أو العرب أو غيرهم لم يجرؤ على اجراء عملية لها تهيبا لما قد يترتب عليها ، أو ينسب اليها ، من أثر على حبالها الصوتية .

وكان مئات المصريين الذين يعيشون فى أمريكا لا يكاد المستشفى يخلو من أفرادهم . وكذلك العرب الذين يزورون أمريكا أو يقيمون فيها .

وتلقت المستشفى آلاف البرقيات والرسائل وعشرات المكالمات التليفونية التى تسال كل يوم عن أم كلثوم عبر البحار .

وكانت الصحف المصرية والناس من ورائها يتابعون أخبار العلاج .

ولطف الله وسرت البشرى ان أم كلثوم شفيت وانها فى طريق العودة الى الوطن .

وفى طريق عودتها مرت بأوربا فاعلن راديو باريس النبأ .

بدأت اجهزة الارسال تتحرك فى ركابها وتذيع وقع خطواتها لا فى مصر وحدها بل وفى أوربا أيضا ..

وفى انجلترا اقام النادى المصرى فى لندن حفل تكريم لها .

وباتت مصر تترقب وصول باخرتها . فلما لاحت من بعيد استقل الكثيرون الزوارق لتحيتها فى عرض البحر . وصفت احدى الصحف الكبرى استقبالها فقالت :

(.. وقد استقبلت فى الاسكندرية استقبالا شعبيا رائعا . فخرجت (اللنشات) البخارية والزوارق الى عرض البحر ، انتظارا لوصول الباخرة . وكان من أجملها (لنش بخارى) كبير امتلأ بالفنانين والفنانات من الاسكندرية والقاهرة وقد اخذوا يغنون اغنية وضعوها خصيصا مطلعها (حمد الله ع السلامة) .

ولما وصلت الباخرة أطل ركابها وفى مقدمتهم أم كلثوم على هـذا المشهد الجميل وراحوا يحيون هذه المظاهرة الموسيقية البحرية الرائعة .

وحين رست (اسبيريا) على الميناء ، احتشـدت جمـوع غفيرة تحيى أم كلثوم وتهتف لها. واشتد الزحام حتى اضطر بوليس الجمارك الى التدخل عدة مرات (لانقاذها) .

وبينما كانت العاصمة الثانيـة تسـتقبل وتهلل ، كانت العاصمة الأولى تتاهب لمهرجان تقيمه من اجل أم كلثوم . وجمعت القاهرة فى حفل عيـدها صفوة بنيهـا شـعراء وأدباء وخطبـاء ووزراء ليشيدوا بأم كلثوم .

وانتظم الجميع واقبلت أم كلثوم . ورات هـذا الحشـد الكبير فاغرورقت عيناها حمدا لله وشكرا لمصر . وتصدرت المكان وأخذ الشعر والنثر يتباريان .

قال الشعر بلسان الاستاذ العقاد :

هلـل الشرق بالدعـاء	كوكب الشرق فى السماء
عـاد فى حـلة الضـيا	ء وفى هالـة البهـاء
لم يغب هاجـرا ولـ	كن كمـا غـربت ذكـاء
لا تخـافوا عـلى مطـا	لعـه سـطوة المسـاء
واهب النـور لا يـدا	ريه عن نـوره غشـاء
كوكب الشرق فى امـا	ن من الليـل لا مـراء
يا عروس السماع لبـا	ك من يسـمع الدعـاء
وشفى أنفسـنا ، لعينيـ	ك تسترخص الفـداء
ام كلثـوم يا بشـيرآ	مـن الله بالرجـاء
انت من وحيـه ولـ	ـه فى الفـن انبيـاء
ذلك الصوت صوتك الـ	عذب من عرشـه نداء
فيه سر من جنـة الـ	خلـد لكنـه ضيـاء
فيـه ما يرفع الحجـاب	وما يكشـف الغطـاء
فيـه انس لمن يشـا	ء وسـلوى لمن يشـاء

فيه للمرتجى سلام وللمشتكى عزاء
فيه حرز من الهموم وعون على القضاء
اى نفس اذا ترنمت لا تهزم الشقاء ؟
انه قوة اذا عز من قوة نجاء
انه غنى اذا حسب الصوت من غناء
انه ثروة لمصر وما اجزل الثراء
مهرجان لعيدها حينما رفرف اللواء
وعلى الجرح ان شكت بلسم ناجع الشفاء

ومن تحايا القريض لأم كلثوم قصيدة الشاعر على الجندى ومنها

شجانا ان كوكبنا شكا سقما شكوناه
أيشكو السقم من تشفى سقام الناس رؤياه
ومن انغامه سكر اذا غنى رشفناه
ومن الحانه سلوى لمن آدته بلواه
ومن آهاته احييت لنا قيسا وليلاه
وما الدنيا وزينتها وطيب العيش لولاه
فديناه بانفسنا وقل اسه فديناه

وقال النثر بلسان الأستاذ توفيق دياب :

من الذى حلى لها صوتها كل هذه الحلاوة :

من الذى علمها كيف تملأ رئتيها هواء كالذى اتنفسه انا مثلا ثم أرده هباء ، أو شيئا يشبه الهباء ، فى حين تعيده أم كلثوم الى اسماعنا وقلوبنا طربا يهز أعماق المشاعر مشاعر الحنين والحب ، أو مشاعر الأسى والشجن أو مشاعر الوفاء وفرحة اللقاء وبهجة الحياة !

من الذي علمها أن تبكي حتى العيون الجامدة ، وأن ترقص حتى الابدان المقعدة !

ومن الذى علمها الخطابة ! وما أريد خطابة قس او سحبان ، ولا خطابة ديموستين او شيشرون . فاولئك ملوك الكلام المطلق من قيود الايقاع والتنغيم .

انما أسأل من علمنا أن تكون ملكة الخطابة الغنائية خطابة النغم الشجى القوى الفعال بسحره وتعبيره تحمله كلمات محكمة المخارج ، عذبة الجرس كرنين الدنانير !

وقال الزجل بلسان الدكتور سعيد عبده :

كام فى البلد من متيم ... فى غناها عـــزاه
وكام جـــريح ... بلســـمه فى شـــدوها بالآه
وكام قتيـــل فى الهوى صوتها الرخيم أحيـــاه
وكام خلى لمـــا ناديت ع الحبيب قال جـــاى
واهتـــز قلبـــه وراح للغـــرام واســـاه

ايه اللى أمجـــد ... وايه اللى اتركه فيـــكى
أمجـــدك شـــخص .. أو صـــوره لأغانيـــكى
أو كهف للى اعتفى واللى استجار بيـــكى
أو شـــعلة والعـــة من الوطنيـــة فى أيام
هانوا الرجـــال كالعبيد فيهـــا حواليـــكى

الحنجرة .. الف بلبـــل انصـــهر فيهـــا
والطيبـــة طيبـــة ملايكـــة فى تعاليهـــا
والنكتـــة زى الرصـــاصـــة لمستحقيهـــا
والوحى وحى الأديب والروح زلال صافى
والصـــورة ياما جمان فى الليـــل حلم بيهـــا

كانت اغانينـــا قبلك ... نهنهة اطفـــال
ونوح ولايا انتظم .. طقطـــوقة أو مـــوال
نفختى فيهـــا استحالت ملحمـــة أبطـــال
والياس أصبح أمل . والضعف صار عـــزة
والدمع سلساله أصبح ع الخـــدود شـــلال

فين من (هاتولى حبيبى) فين (سلو قلبى)

فين من قصيدة (السودان) (ماأقدرش انا اخبى)
فين من نشـــيد الشـباب (احترت يا ربى)
وفين من النيـل ونهج البـردة يا ســومه
« ارخى الســتارة » وقـرب والنبى جنبى

خضرمت انا جيل وجيل مشـطتهم تمشـيط
ما شـفت قبلك مغنى فى البلد صييت
اضـحك وابكى واطرب ســامعيه فى خيط
واســتل جبن الجبــان واستنهض الهمــة
واجـرى قلبـه نغم ودموع على زغاريط

عيشى وصــحى وخــلى العيــا ليـنـا
عيشى وصـيحى وعلى الصـوت وغنينـا
عيشى وصـــحى وباركى فى لياليـنـا
ومــن آهاتك ومـن دمعك ومن روحك
ملينــا تكتب آيات المجـد ملينــا

وقدم لها المصور ميدالية عليها صورتهــا من صنع المثــال عباس الشيخ .

واقامت مدرسة تحسين الخطوط الملكية بالاسكندرية سنة ١٩٥٠ حفلة تكريم لها حضرها كثير من رجالات مصر .

هل لام كلثوم بديل ؟

وفى غيبة ام كلثوم بدا للاذاعة أن تجرب نجاة الصغيرة فى قصيدة شوقى وام كلثوم (ولد الهدى) .. وكان يوما لم تعـد بعـده نجـاة الصغيرة الى تقليد أم كلثوم . وحسنا فعلت فكل ميسر لما خلق له .

وفى سنة ١٩٥٠ انتخبت أم كلثوم نقيبةللموسيقيين للمرة السابعة بالتزكية اذ لم يتقدم أحد للترشيح للرئاسة .

وفى الخمسينات نهض المسرح نهضـــة كبيرة تواصلت خطاها .. وتعددت الوانه فمن المسرح الجديد الذى يوائم بين الرغبة الجماهيرية وبين الثقافة المسرحية والفن المسرحى ·· الى المسرح الفكرى والتجريبى ، وهذان اللونان رائدهما توفيق الحكيم · وظهر المسرح الشعرى المتحرر الى جانب المسرح الشعرى الذى يغلب عليه النغم والذى ابتدعه شوقى وتابعه عزيز أباظة .

وفى سنة ١٩٥٢ زار مصر المغنى الفرنسى شفالييه وطلب مقابلة أم كلثوم فدعته لزيارتها . وعندما رآها لأول مرة تملكته الدهشة واخذ يردد هذه الكلمة :

ــ مستحيل ·· مستحيل ·· مستحيل .

ثم قال :

لقد سمعت اسمك فى كل مكان زرته في الشرق فلم أر فنانا يتمتع بهذه الأرقام الضخمة من المعجبين المتحمسين ···

ثم قال :

ــ أنت صغيرة السن جدا بالنســبة الى العرش الذى تجلســين عليه .

وفى الخمسينات قدمتالسينما المصرية كثيرا من الأفلام الوطنية ، كما أخذت تعالج القضــايا الســياسية بعــد أن انحسرت موجة افلام الحرب بتفاهتها ورخصها ·· كما اتجهت الســـينما المصرية الى الأدب المصرى تأخذ عنه قصصه وخاصة قصص الحـكيم ونجيب محفــوظ ويوسف السباعى ويوسف ادريس وعبد الحليم عبد الله .. كما اخذت دعاء الكروان لطه حسين .

وفى سنة ١٩٥١ غنت أم كلثوم قصيدة شوقى (الى عرفات الله) ·

كمــا غنت لرامى والسنباطى مونولوجـين : (غلبت اصالح فى روحى) ، (غنى الربيع بلسان الطير) ·

وفى ١٩٥٢ غنت أم كلثوم مطولة رائعة هى مونولوج (جددت حبك ليه) وهى من أغانيها الباقية . وغنت (صوت الوطن) وهى أغنيـة وطنيـة .

وفى آخر عام ١٩٥٢ (٣ ديسمبر) أصيب زكريا أحمد بالذبحة الصدرية وذهبت أم كلثوم الى أمريكا للعلاج .

وفى سنة ١٩٧١ (١٩٧١/٧/٣١) نشرت أخبار اليوم تحت عنوان « الأمير عبد الله الفيصل يحكى ليلة بكت أم كلثوم كوكب الشرق فى باريس » ، أن الأمير قال ان الليلة التى لا ينساها هى التى قابل فيها السيدة أم كلثوم وطبيبها المعالج فى باريس وهى فى طريق العودة من الولايات المتحدة الى مصر بعد علاجها بالذرة ... بدأت السهر بالاستماع الى تسجيل لأغنية (جددت حبك ليه) ...

(استمعت أم كلثوم الى نفسها وشيئا فشيئا أخذت تهتز ... حتى انفعلت وبدأت الغناء ... أسكت الأمير جهاز التسجيل ووقفت أم كلثوم تغنى بلا موسيقى أكملت (جددت حبك) وانتقلت الى غيرها وغيرها الى أن طلعت الشمس ... انفجرت أم كلثوم بالبكاء لأنها كانت أول مرة تغنى فيها بعد العلاج وتطمئن الى نجاحه) .

وفى سنة ١٩٥٣ انتخبت ام كلثوم عضو شرف فى جمعية مارك توين الأمريكية الدولية . فقد اجتمعت الجمعية الدولية لمارك توين بولاية ميسورى ، وانتخبت بالاجماع أم كلثوم (عضو شرف) فى الجمعية وجاء فى نص القرار :

(ان الجمعية انتخبت بالاجماع أم كلثوم ابراهيم عضو شرف تحية لعملها العظيم فى الموسيقى واسعادها الملايين بفنها المجيد) .

ومن أعضاء الشرف فى هذه الجمعية الجنرال أيزنهاور - مستر تشرشل - مسز روزفلت .

وفي سنة ١٩٥٣ غنت مونولوج (يا ظالمنى) لرامى والسنباطى .

وفى ٨ يوليو سنة ١٩٥٣ توفى أخوها خالد وكانت وقتئذ بأمريكا للعلاج .

زواج أم كلثوم :

ووسط هذه الأحداث التى مرت ، لم تذهب خطوبتها للفنان محمود الشريف عبثا اذ يبدو أنها فتحت الباب فتشجع الدكتور الحفناوى على الدخول ... كان يتصور أنها استبعدت الزواج أو أن هناك من هم المع منه ممن يحيطون بها . فجاءت الخطوبة الأولى وملأته ثقة بنفسه فتقدم .

كان أحد أطبائها وكان يسهر عليها . وهو فى الوقت نفسه (سميع) من أصحاب الصفوف الأولى .

وفى ١٩٥٤/٩/١٧ نشرت الأهرام نبأ عقد قرانها بالدكتور حسن سيد الحفناوى الأستاذ المساعد بكلية طب قصر العينى .

وذكرت الصحيفة أن الدكتور الحفناوى ولد ١٩١٥/٨/٨ فى مدينة أسيوط وتخرج فى كلية الطب سنة ١٩٤٠ .

ومن المفارقات أن الدكتور حسن الحفناوى طبيب الجلد أصلع ، ومع هذا فهو يتلقى آلاف الخطابات من الفتيات والشبان الذين يشكون من سقوط الشعر ويطلبون منه النصيحة . أتراهم يلمحون شعر أم كلثوم

المخمل الذى يبلغ ركبتيها عندما ترسله ، والذى يزين تاجه رأسها اذا جمعته ؟ ان هذا التاج من صنع الله وحده ٠

وفى ١٩٥٤ غنت لرامى والسنباطى قصيدة (أغار من نسمة الجنوب) ٠

* * *

وفى ١٩٥٤ كانت أم كلثوم تغنى يا ظالمنى وسرقت القلوب فى الوقت الذى كان أحد اللصوص قد تسلل الى غرفتها فى المسرح وسرق معطفها ٠ وهو « كاب » من الفراء ثمنه ألف جنيه فى ذلك الوقت ، وما فى حقيبة يدها ولم يكن فى الحقيبة أية نقود ، وانما كان فيها مصحف من الفضة وعلبة من البودرة ، وخاتم من كنيسة سان تزيرا ٠

ومضت تغنى دون أن تتنبه للسرقة وغنت أم كلثوم رباعيات الخيام فى الوصلة الثالثة دون أن تعرف ماذا جرى ٠٠٠ كانت تحلق فى سبحاتها مصورة ما فى القصيدة من وجد مشبوب وصوفية وتسام شف لا يعلق به شىء من طين الأرض بينما كان يتمرغ فى هذا الطين وعلى مقربة منها لص ضعفت انسانيته وفنيته معا فلم يسمع الصوت الهاتف فى السحر ٠ مأمور قسم الموسكي هو الذى سمع الصوت (فهب) يتلقى شكوى أم كلثوم ٠ واجتمع فى القسم عدد من رجال الأمن وأخذوا فى البحث ٠

ومن الطريف ان المصور الصادر فى ١٩٥٤/٥/١٤ وكأنه يبث الطمأنينة ، كتب يقول) ان الفراء الذى سرق من أم كلثوم بينما هى تسعد الملايين ليس هو الوحيد الذى تملكه فعندها فراء يقدر بخمسة آلاف جنيه ٠٠٠ ومع ذلك فان الملايين من عشاق فن أم كلثوم قد أسفوا لهذا الحادث ٠

كما تكرر السطو على بيتها فى ذلك الوقت فخصصت الحكومة جنديين دائمين لحراسته ٠

حفلات أم كلثوم تتعرض للنسف :

وفى العام نفسه أبلغت أم كلثوم النيابة أنها تلقت خطابات تهديد بنسف حفلاتها لمدة ٢٠ سنة ٠

وعلى الرغم من نشر الخبر فى الصحف وتوقع المسئولين قلة الاقبال على الحفلة فان مقاعد الصالة شغلت جميعا ولم يبق محل واحد خاليا ٠

أم كلثوم والطاقة الذرية :

وفى ١٩٥٥/١/١٨ طلعت صحيفة الأخبار بعنوان (أم كلثوم هى السبب فى انشاء معهد للذرة فى مصر) ٠

ومضمون الخبر أن المعونة التى قدمتها الطاقة الذرية لانقاذ الحياة الفنية لأم كلثوم أشهر مطربات مصر ، كان لها فضل وضع الحجر الأول فى مشروع الرئيس أيزنهاور لاستغلال الذرة فى الأغراض السلمية فى الدول الأجنبية ٠

وفى يناير سنة ١٩٥٥ قلدها السيد سامى الصلح وسام الأرز اللبنانى فى السفارة اللبنانية فى القاهرة ٠

وفى مارس قلدها الملك حسين وسام النهضة فى حفل ضباط القوات المسلحة ٠

وفى يونيو من العام نفسه أهداها السيد هاشم الأتاسى وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى ٠

وفى نوفمبر ١٩٥٥ غنت لأول مرة أغنيتها الجميلة (دليلى احتار) كما غنت (آهات) زكريا ٠ وكانت المحكمة قد أصدرت قرارها من قبل بألا تذاع أغنية لزكريا الا بعد استئذانه فما ان أذيعت الأغنية حتى اعتبر الأستاذ زكريا هذه الاذاعة خروجا على قرار المحكمة وأسرع فاستصدر أمرا بالحجز على ايراد الحفلة حتى يتم الحكم فى القضية ٠


تيّارات
جديدة

وفى عام ١٩٥٥ بدأت تنحسر موجة الأفلام الاستعراضية لما تتطلبه من مال وجهد وجدة فى القصة والفكرة وعدد ضخم من العاملين فى الفيلم كمصممى الأزياء وغيرهم ٠

وفى ١٩٥٥ غنت لرامى ذكرياته التى لحنها السنباطى ٠

وفى ١٩٥٦ ارتفعت نغمة تطالبها بالتجديد مشيرة الى فن الأوبريت٠ كما بدأت تظهر فى الصحف مانشيتات (أكبر أجر لمطربة) بمناسبة تقاضيها ستة آلاف جنيه مقابل وصلتين اثنتين فى مصيف عاليه بجبل لبنـــان ٠

وعلقت مجلة (نيويورك) الأمريكية بأنه أكبر أجر تقاضته مغنية فى العالم عن غنائها وصلتين اثنتين ٠

وفى سنة ١٩٥٦ غنت لمصر (والله زمان يا سلاحى) التى ما لبثت أن أصبحت النشيد القومى ٠

وغنت أم كلثوم فى العام نفسه (ما احلاك يا مصرى وانت ع الدفة) ٠ والأغنيتان من كلمات صلاح جاهين وألحان كمال الطويل ٠ وفى أعقاب عدوان ١٩٥٦ توالت الأخبار بتبرعها بعشرة آلاف جنيـــه لصالح تعمير

بور سعيد ٠٠ وقبل هذا فى ١٩٤٨ اتفقت الأخبار على أنها تبرعت بمبلغ ٢٥ ألف جنيه لوزارة الحربية لمشوهى الحرب فى ذلك الوقت ٠٠٠

أقول هذه أخبار ولا أريد تحقيقها فهى بسيطة متواضعة الى جانب موقفها الأخير بعد عدوان سنة ١٩٦٧ فقد جمع صوتها مئات الآلاف ومن العملة الصعبة أعطتها عطاء السماح لمصر وللمعركة ٠ وموقفها هذا عاشه الناس رحلة رحلة ٠ ومن الطريف أن ناقدا فنيا قارن بين رحلة أم كلثوم الى المغرب عام ١٩٦٨ وبين رحلة زرياب الى الأندلس التى هى فى التاريخ العربى الطرف الأقصى للمغرب العربى ، وذلك قبل ١١ قرنا ٠

وفى سنة ١٩٥٧ غنت أم كلثوم مونولوج (عودت عينى) لرامى والسنباطى ٠

وفى سنة ١٩٥٧ دعيت أم كلثوم لحضور افتتاح البرلمان ٠

وفى ١٩٥٨ غنت برنامج رابعة العدوية ٠ وحلا للبعض يومئذ أن يزعم أنها تقاضت عنه عشرة آلاف جنيه من الاذاعة ٠ ونفت هى الخبر ثائرة ، فى الصحف ٠

وفى سنة ١٩٥٨ غنت مونولوج (هجرتك) لرامى والسنباطى ٠

وفى الخمسينات غنت مونولوج (شمس الأصيل) لبيرم والسنباطى٠

وأم كلثوم التى عركتها الأيام أو (دعكتها) كما تقول هى ، تعرف جيدا طبيعة الناس والحياة ٠ نشرت مجلة الجيل ريبورتاجا معها (١٩٥٨/١١/٧) أهم ما جاء فيه مما يصور جانبا من شخصيتها ، هو :

ـ يقولون انك سيدة مجتمع وصالون ٠

ـ من قال أنى سيدة مجتمع وصالون ؟ الناس يتقول على كده لأنى أم كلثوم ٠ افرضى انى كنت سيدة عادية غير مشهورة تفتكرى كانت الناس حتقول على أننى سيدة مجتمع ؟ صدقينى أبدا ٠

ـ طيب وخفة الدم هل هى طبيعية أيضا ؟

ـ الناس عملت معايا زى ما عملت مع جحا ٠٠٠ كل نكتة فى البلد يقولوا أم كلثوم هى اللى قالتها ٠٠٠ فى الأول كنت إنبسط لما النكتة تكون حلوة لكن دلوقت بيقولوا نكت بايخة جدا على لسانى ٠

وفى سنة ١٩٥٨ دخلت روسيا فى منافسة مع أمريكا من نوع جديد فدعت موسكو ، أم كلثوم ليكشف عليها كبـار المتخصصين من أطبـاء موسكو .

لقد التقت روسيا وأمريكا فقط في أن أضمن الطرق الى ارضاء مصر والعالم العربى هو علاج أم كلثوم .

* * *

وفى سنة ١٩٥٨ أقنعها الأستاذ حسنى الحديدى أن تتحدث فى الميكروفون عن قصيدة (ثورة الشك) وطلب اليها قراءتها .

ـ أؤكد لك أن كثيرا من المستمعين حايطلبوا أنك أنت اللى تقدمى لهم حلقات من روائع الشعر .

وردت بسرعة :

ـ كويس ... تبقوا تغنوا انتم بقى .

ويسألها :

ـ ما هى الأبيات التى انفعلت بها أكثر من غيرها ؟

يكذب فيك كل النـاس قلبى وتسمع فيك كل الناس أذنى

ثم طلب اليهـا ان تعمل مذيعة لبضـع دقائق وتقدم للمستمعين قصيدتها . وهنا قالت فى لهجة اذاعية للاطراف :

(هنا القاهرة ... تسمعون الآن قصيدة ثورة الشك ، شـعر الأمير عبد الله الفيصل تلحين رياض السنباطى وغناء ....) .

وهنا توقفت قليلا لتقلد القـاء حسنى الحديدى ثم قالت بقوة : (أم كلثوم) .

* * *

وفى سنة ١٩٥٨ طلعت جريدة الأهـرام بالعناوين الآتية بخط عريض :

ـ قالت أم كلثوم سأغنى القصيدة .

ـ وابرق السفير العراقى الى حكومته بالنبأ ٠

ـ وذهب رئيس الحكومة العراقية وهنأ الشاعر ٠

ثم طلعت صحف العراق بمانشيت واحد (قصيدة الجوهرى) ٠

والذى حدث أن أم كلثوم لم تغن القصيدة ولو غنتها لما وجب أن يعدو الأمر الاشارة اليها ودخولها فى عداد القصائد التى غنيت ٠ ولكن الذى يلفت النظر ويستحق التسجيل أن الكلمة تقولها يتسقطها سفير، ويهنىء بها وزير ، ويرتفع على جناحها شاعر ٠٠٠
أمارة وصول بلا شك ٠

ام كلثوم والقرآن :

وفى سنة ١٩٥٨ نشرت الصحافة المصرية اقتراحا أن يسجل القرآن كله بصوت أم كلثوم وهذه المسألة سبق أن أثيرت سنة ١٩٥٠ ٠

وفى سـنة ١٩٥٨ كادت القيـامة تقوم قبل موعدها فقد نشرت الأهـرام (١٩٥٨/٩/١١) أن أم كلثوم كانت تركب سيارتها ومعهـا زوجها الدكتور الحفناوى فى طريق الهرم واذا ٠٠٠ باتوبيس الهرم يكاد يحطم السـيارة لولا أن تمكن سائق أم كلثوم من الوقوف فى اللحظة المناسبة ٠

وهكذا تدخلت رحمة الله فى اللحظة الأخيرة لتنقذ جمهورها اى مصر والعالم العربى ٠

الجائزة التقديرية :

وفى أكتوبر سـنة ١٩٥٩ انعقدت الجمعية التاريخية برياسـة الدكتور محمـد شفيق غربال ورشحتها بالاجماع لنـ[illegible]ـة الدولة التقديرية فى الفنون ٠

وفى نوفمبر (١٩٥٩) اجتمع مجلس ادارة اللجنة الموسيقية العليا بدار الأوبرا وقرر باجماع آراء الحاضرين ترشيحها لنيل جائزة الدولة التقديرية للفنون نظرا لاعتبارات أوردها :

« نصت المادة الرابعة من القانون رقم ٣٧ لسنة ١٩٥٨ على وجوب توفر من يمنح الجائزة التقديرية أن تكون له مؤلفات أو أعمال أو بحوث سبق نشرها أو عرضها أو تنفيذها وأن يكون لهذا الانتاج قيمة علمية أو فنية ممتازة وأن تظهر فيه دقة البحث والابتكار وأن يضيف الى العلوم أو الفن شيئا جديدا ينفع الوطن خاصة والانسانية عامة ...

ونظرا لأن السيدة أم كلثوم ابراهيم – وهذا رأى الموسيقيين – تقوم بأعمال فنية ممتازة من حيث التوجيه الفنى والأداء الذى انفردت به مما يضفى عليه قوة فى التعبير والابتكار ويجعل من تصرفها فيه لونا من التأليف بالغ الأثر فى استكمال التأليف الأصلى .

وقد رفعت أم كلثوم المستوى الفنى وساهمت بأكبر نصيب فى نهضة الموسيقى العربية وتطويرها مع المحافظة على طابعها مؤدية بذلك الخدمة الكبرى للقومية العربية عامة وبلادها خاصة .

وهى اذ تقوم بأداء هذه الرسالة الكريمة منذ حقبة طويلة من الزمن جاهدة فى نشرها وعرضها وتنفيذها فانها قد نجحت النجاح الأوفى الذى يجعلها جديرة بأن تتوج جهودها بهذا التقدير السامى .

رئيس

اللجنة الموسيقية العليا

(امضـــــاء)

ولم تنل أم كلثوم الجائزة عام ١٩٥٩ على الرغم من هذه الحيثيات . ولكن تبقى دلالتها وهى النظرة اليها ، ومن مختصين ، على مستوى جائزة الدولة التقـديرية التى يرشح لها ويمنحها أصـحاب الاضافات الكبيرة الباقية ، الى العلوم والآداب والفنون .

وفى عام ١٩٥٩ منحت الحكومة اللبنانية السيدة أم كلثوم وسام الأرز الوطنى برتبة كومندوز قدمه اليها رئيس وزراء لبنان (السيد رشيد كرامى) • وجاء بالمرسوم أن السيدة أم كلثوم رفعت المستوى الفنى العربى وساهمت فى احياء تراثه وبعث النهضة العلمية والفنية فى مختلف البلدان العربية والشرقية •

كما أهدى اليها الملك محمد الخامس ملك المغرب سوارا من الذهب مرصعا بالماس والزمرد •

وفى سنة ١٩٥٩ أحست وزارة الثقافة بافتقار السينما للنص الجيد وهى بحاجة اليه بل ان نقص النص الجيد هو سر مشكلة السينما فانشأت الوزارة معهد السينما • وكانت قد أنشأت قبل عامين مؤسسة دعم السينما •• ومع هذا لم تتحرك المشكلة كثيرا نحو الحل • فان الأفلام التى أنتجتها مؤسسة السينما كانت شهاب الدين فى المثل المعروف •

* * *

وفى سنة ١٩٥٩ كان فندق هيلتون النيل قد تعاقد مع فرقة أوركسترا من كوبا لتحضر الى القاهرة لتحيى حفلات افتتاحه وتعزف بعض فواصل موسيقية •

وعلمت أم كلثوم بالحكاية فغضبت واتصلت بالفندق وأظهرت لهم امتعاضها وأن هذا الفندق موجود فى القاهرة • ويجب أن يقدم فنا عربيا خاصة أيام الافتتاح أمام السائحين الأجانب • وأن مصر لم تقفر من الموسيقيين • ورشحت فرقة أوركسترا أحمد الحفناوى (وهو من رجالها اى من رجال تختها) •

وهنا فقط الغى هيلتون اتفاقه مع الفرقة الكوبية وتعاقد مع فرقة الحفناوى المكونة من ١٥ عازفا على أن يعزف ليليا فاصلا موسيقيا خلال حفلات الافتتاح مقابل مائة جنيه فى الليلة •

* * *

أم كلثوم والأغنية القصيرة :

وفي ١٩٥٩ تعود الصحافة الى موضوع الأغنية القصيرة السريعة ٠ ويسألها (المصــور) ـ ١٩٥٩/٧/٣ ـ عن رأيها أو عن قولها في أن الأغنية القصيرة هي الأنسب للعصر الحالى ، عصر السرعة ، فتقول مدافعة عن نفسها :

ـ ان كانوا يعنون بهـذا ٠٠ الأغنيـــة التى لا تتجاوز الثلاث أو الخمس دقائق فانى أسألهم بدورى ٠٠٠ هل يمكن في مثل هذا الزمن القصير أن يؤلف الناظم أغنية مكتملة المعنى ؟ أو على الأصح لها معنى ؟ واذا فرضنا المستحيل وقلنا ان هذا جائز ٠٠٠ فهل يستطيع الملحن أن يضع لحنا متكاملا ـ من الناحية الفنية ـ لمثل هذه الأغنية الذرية ! ومع ذلك فان بعض الأغانى اذا ألقيت تباعا دون مطاوعة الجمهور فى الاعادة ، لما اســـتغرقت أكثر من سبع دقائق ونصف ، كما هى مســـجلة على الاسطوانات فعلا ، ولكن لا يمكن تطبيق ذلك عمليا في حفلاتى الغنائية لأسباب فنية عدة ، ولأن جمهورى بالذات لا يرضى عن هذا ، وأنا لا أكاد انتهى من (الوصلة) الا بالعافية ، ولو طاوعت ذوق جمهورى الخاص ونزلت على حكمه لاسترسلت في الغناء ساعات وساعات دون انقطاع ٠

ثم قالت :

يجب أن نفرق هنا بين الغناء على المسرح ، والغناء فى الســينما ، فالاغنية فى السينما قد لا تتجاوز فعلا ثلاث أو أربع دقائق ولكن المخرج يحييها بالمناظر وتنقلات الكاميرا ، فضلا عن أن المفروض أنها جزء من القصة نفسها وكل ذلك خلق حولها جوا لا يمكن أن يتوافر لها اذا غنيت على المسرح ٠

ام كلثوم والأغنية التقليدية :

وهذا الدفاع ظاهره يطابق الواقع واقع حفلاتها وجوها الفنى ٠٠ ولكن من الممكن تاليف اغنية سريعة ذات معنى ٠ ومن الممكن تلحينها ، ومن الممكن أداؤها ونجاحها ٠٠٠ ليس هناك مستحيل ٠٠٠ وأم كلثوم

بالذات يستطيع صوتها العريض أن يعطى الكثير غير الأغنية التقليدية التى تمسكت بها عشرات السنين حتى حين تفكر فى التطور والتجديد فان التجديد عندها يتم داخل نطاق هذه الأغنية · وحرمتنا بذلك ، منها ، فى الأوبرا والأوبريت · وكانت أقدر الأصوات على أدائها ثم حجبتها مرة اخرى بتمكينها ـ بهيلها وهيلمانها ـ للتخت من الرسوخ والاستمرار فى القرن العشرين ، فكان أقصى أمل الأخريات أن يقلدنها ، ولكن هذا العذر لا ينسحب على الرجال وخاصة الملحنين · لقد قدم زكريا عشرات الأوبريتات هل منعته أم كلثوم ؟

نعود الى الأغنية القصيرة ولأضرب المثل من أغانى أم كلثوم نفسها أغنية (يا صباح الخير) أغنية جميلة وسريعة نابضة ذات معنى جميل بسام تتفتح عليه النفس للحياة والأمل ·· كلماتها جميلة ولحنها جميل وأداؤها جميل نابض عذب ·

هل أضرب مثلا جديدا ؟ أغنية (شوف الزهور واتعلم) هل هناك أجمل من هـــذا الموضوع لفظا ومعنى ؟ وجاء اللحن رائعا والأداء تتويجا لعطاء الشاعر والملحن بل ان من النقاد ، كما أشرت سابقا ، من يعد أغانى أفلامها أحسن أغانيها من الناحية الفنية ·

جمهور أم كلثوم فى الخمسينات :

وقد عرضت الكواكب فى ١٩/٥/١٩٥٩ النماذج من هذا الجمهور الذى تتحدث عنه أم كلثوم وهى نماذج تستحق التسجيل أو من حقها التسجيل فهى تدخل فى نسيج تاريخ أم كلثوم · وبعض هذه النماذج :

الحاج حافظ الطحان صاحب مضارب الأرز يسمع أم كلثوم منـــذ ظهورها وهو يحمل لقب (السميع الأول) خلعته عليه أم كلثوم ·

ومحمد الزقازيقى التاجر بالسويس ، اعتاد ان يحجز مكانه فى حفل أم كلثوم بالتلغراف · وذات يوم نودى على الزقازيقى بعد احدى الوصلات فى الميكروفون للحضور خلف المسرح لأمر هام ، وصعد الى

الكواليس ليجد فى انتظاره برقية تخبره بوفاة قريب له وضرورة عودته الى السويس فورا ولكنه أصر على البقاء فقد طلب من أم كلثوم أغنية وهو يريد أن يسمعها !

وعندما علمت أم كلثوم غنت له الأغنية التى طلبها وطلبت منه أن يغادر الحفل ، ولكنه أصر على أن يبقى حتى نهاية الحفل ليسمع أم كلثوم ، وبعد الحفل استأجر تاكسيا عاد به الى السويس ليدفن قريبه ·

وأحمد الجمل وتسميه أم كلثوم « عامل الانقاذ » فهو دائما سباق الى تلبية اشارتها أو حتى فرقتها اكراما لها · وهو يصاحب أم كلثوم فى كل حفلة أينما سارت ·

وحدث أن أزمعت اقامة حفلة فى طنطا · واكتشفت عند وصولها الى محطة لقاهرة أنها نسيت شيئا فى البيت · وعنها وخف الجمل بسرعة الى الزمالك ليحضر لها الشىء الذى نسيته وعاد الى المحطة ليجد القطار قد غادرها لتوه فلم يضع الجمل وقتا بل استقل سيارة أجرة · ووصل طنطا قبل أن يصل القطار وانتظرها على المحطة ليقدم لها الشىء الذى كانت تريده !

وعائلة زين العابدين بحلوان وقد اعتادت احدى سيدات هذه الأسرة أن تدخل حجرة كوكب الشرق بعد كل وصلة لتعوذها من الحسد ·

ومن رواد حفل أم كلثوم الشـــهرى وجوه تعرفها وتألفها وتحتل الصف الأول من الصــالة · وقد طال عهد أم كلثوم بهذه الوجوه حتى أصبحت تطمئن على وجودهم فردا فردا قبل أن ترفع الستار ، بل هى أحيانا تدبر التذاكر لهم فلا تباع لأحد سواهم من الجمهور ·

وهؤلاء المقربون تلبى طلبـــاتهم بالطبع وتعيــد لهم المقطع الذى يشجيهم وفى مقدمتهم : الشاعر أحمد رامى ، والدكتور عمر شوقى ، وفؤاد الأطرش ، والحاج حافظ الطحان ، وكامل يس ، والمهندس عبدالغفور حسن ، والعميد دسوقى ابراهيم ومحمد اللمعى ، وعلى زكى الملط ، أحمد مختار قطب المحامى ، والقاضى عبــد المنعم حمزاوى ، ومحمــد الزقازيقى ، ويوسف حسين ، وأحمد الجمل ، وعائلة زين العابدين ·

ومن الطريف أن الدكتور عمر شوقى يتبع تقليدا ثابتا يوم الحفل الشهرى لأم كلثوم ، فهو ينام مبكرا فى الليلة التى تسبق ليلة الحفل ·

وفى اليوم نفسه لا يتناول الا وجبة غذاء خفيفة ، ولا يقرب عشاءه وتسأله : ولم ؟ فيقول انه كطبيب يعرف تماما أن هذا التصرف يجعله أكثر قدرة على السماع والاحساس بالطرب ٠

أما أم كلثوم نفسها فلا تتهافت هذا التهافت على سماع أم كلثوم وان كانت تطرب لها كالسميعة كما سبق الاشارة ، وهى تقول :

ان الاستماع الى أم كلثوم يضايقنى أحيانا فقد يخيل الى أنها فى هذا المقطع من الأغنية ـ مثلا ـ كان يمكن أن تكون أدق أداء وأجمل ، وكان فى وسعها أن تقول هـذه الجملة الموسيقية على نحو آخر وأروع وأكمل وهكذا ٠٠٠ وفى هذا ما يسبب لى أحيانا شيئا من العصبية أو من الضيق ، ولكنه فى الوقت نفسه يهدينى الى الأجمل والأروع فأحاوله عندما أغنى الأغنية مرة أخرى ٠

وتسالها أى اغانى أم كلثوم أحب اليك ؟ فتقول : كلها فهى جميعا من اختيارى ٠ كلها حبيبة الى قلبى وان كان لبعضها ذكريات عزيزة على قلبى ٠

وتسالها مرة أخرى : ما أحب أغنية من الآخرين ؟

ــ جبل التوباد من شعر شوقى ولحن عبد الوهاب فشعرها رائع ولحنها معبر أخاذ ٠

* * *

هذه نماذج من السميعة ٠ وهناك نماذج أخرى لا تقل عنها طرافة ٠ وهذه النماذج تتحدث عنها أم كلثوم حديث العارف فتقول :

شتان بين ذلك اليوم الذى وقفت فيه لأول مرة أغنى فى حفلة عامة بالقاهرة ١٩٢٥ وبين هذه الأيام ٠ كنت فى ذلك اليوم أحس أننى أقف أمام لجنة امتحان ، وصحيح أننى كنت كالتلميذة التى حفظت دروسها ، ولكن كان هناك دائما شعور بالخوف من جمهور المستمعين حتى أننى لم أنم فى تلك الليلة رغم أن الحفلة انتهت على خير ٠

ولكن على مر الأيام ـ والحفلات ـ صرت أجد لذة كبيرة فى الوقوف أمام الجماهير ٠٠ وانقلب الأمر ، فاصبحت أشعر وكأننى مدرسة وأن

المستمعين هم التلاميذ · واننى لأجد متعة طيبة فى أن أراقب الجمهور الذى يستمع الى ، وأدرس بعض شخصياته النادرة الطباع وكأننى أشهد فيلما مسليا ·

ثم تمضي تعدد هذه الشخصيات فمنها : الروميو : وهو شخص رقيق جدا ما أكاد أبدأ بالأغنية حتى يضع يده على خده ثم يســـتمع الى فى شرود عجيب وبين كل مقطع وآخر يرتفع صـــدره وينخفض فى تنهيده تعبر عن مبلغ أساه ، وأراه سابحا فى الشرود والتنهيدات ثم يفيق فجأة حين يسمع تصفيق المستمعين ، ليشاركهم التصفيق ··· وأحيانا أرى هذا السميع (الروميو) جالسا الى جانب (جولييت) وعندئذ يضيف الى ما يفعله بعض النظرات يصوبها اليها بين حين وآخر ، ليرى تأثير عبارات الأغنية على وجهها ، وأشعر به كأنما يقول لها (انت سامعة) ·

وتنتقل بعد هذا الى مستمع آخر وهو المستمع العصبى · وهـذا المستمع كثيرا ما يضحكنى بتصرفاته فهو عادة يكون هادئا جدا قبـل أن أغنى ، ثم يطرب فتهتاج أعصابه ويصيح بين كل مقطع وآخر بكلماته (أعد ـ وكمان ياست) ولا يكتفى بذلك بل (يتنطط) على مقعده من فرط النشوة ولا يبدى اعجابه بالتصفيق كغيره بل يقذف بطربوشه فى الهواء · واذكر أننى لاحظت فى احدى الحفلات أن هذا المتفرج حضر حاسر الرأس فقلت فى نفسى (الحمد لله فلن يكون هناك طرابيش تقذف فى الهواء) ولكن ما ان أنهيت أحد مقاطع الاغنية حتى رأيت صاحبنا يخطف طربوش جاره ثم يقذف به فى الهواء ·

وهناك نوع ثالث من المستمعين وهو الذى تسميه (البطانة) · وهذا المستمع لا يلذ له الاستماع الا وهو يردد معى الاغنية التى أغنيها · وفى بعض الأحيان أجد تسلية لطيفة فى مشاهدة هذا المستمع وهو يتمايل يمينا وشمالا وقد تقلصت عضلات وجهه وبرزت عروق رقبته وهو يحاول أن يمشي معى فى الغناء · وكثيرا ما أتوقف أثناء الغناء فجأة قبل أن أتمم المقطع لألاحظ ما سيفعله فأراه عندئذ يتلفت حـوله وهو يبتسم كأنما يدارى خجله عن جيرانه المستمعين ·

أما النوع الرابع من مستمعيها فهو المهرج وتقول عنه : أكاد أشك فى أنه يحضر حفلاتى ليستمع الى غنائى أكثر من رغبته فى أن يثير حوله انتباه الناس · ان هذا المستمع ينفرد بين المستمعين بأسلوبه الغريب فى

ابداء الاعجاب . فهو لا يصفق بيديه بل يأتي معه بقطعة من الخشب ليدق بها على الأرض أو على المقعد كلما انتشى طربا ، وهو لا يقول (أعد ٠٠٠) مثل غيره بل يطلق « زغرودة » طويلة تثير الضحك في جنبات المسرح ٠

ومن هؤلاء وغيرهم — يتألف الجمهور الذى يحبنى وأحبه والذى أصبحت أجد متعة كبيرة فى أن أواجهه ٠

وهى تتلقى فى اليوم التالى لحفلاتها الغنائية أكداسا من الخطابات بعضها شعر وبعضها زجل ومن هذا الطراز خطاب يقول صاحبه :

مين م الملايكة عمل م الحنجرة محراب وبيصلى
ومين من الجن ألف غنوه ويملى
ومين يفصل نغم بالسنتى والملى
غير سومه لما تغنى السحر وتقول آه
يتمهل الليل ويسمع قبل ما يولى

وللمعجبين بأم كلثوم من مختلف المستويات طرائف منها : أن أم كلثوم تلقت سنة ١٩٦٠ شيكا ب ٣٦٥ يوما سعيدا ، وكان الشيك من مؤلف الأغانى الأديب مرسى جميل عزيز ٠

ومن الطريف أنها كتبت اليه :

وصلنى الشيك وأرجو أن يكون باقى الحساب قطعا ذهبية ٠

ويعلن عن انشاء نادى باسم أم كلثوم فيعرض أحد أصحاب العمارات على اللجنة التأسيسية شقة فى عمارة يملكها لتكون مقر النادى دون ايجار مدى الحياة ٠

وبهذه المناسبة تنص لائحة النادى ألا يقبل فى عضويته الا المعجب الذى داوم على استماع أم كلثوم ٢٠ سنة كاملة ويحفظ أغانيها كلها ويؤدى ما تطلبه منه لجنة عضوية مكونة من ثلاثة أعضاء ولو أخطأ فى أغنية واحدة يحرم من العضوية ٠ ويجب أن يكون الحفظ مثل جدول الضرب ٠ لكن هناك ملحقا بعد ثلاثة أشهر ٠

ولعل هذا هو السر فى أن النادى لم ير النور ٠ ان أم كلثوم نفسها تنسى أحيانا كلمة وتأتى بغيرها دون أن يلاحظ أغلب الناس ٠

وفى ١٩٥٩ ألقت السيدة أم كلثوم كلمة اللجنة العليا للمؤتمر العام للثقافة والفنون فى جلسته الختامية بدار الأوبرا ٠

انها ليست مطربة فحسب ٠

وفى ١٧ يونيو سنة ١٩٥٩ نشرت الأهرام تحت عنوان :

(كسوة الكعبة هدية لأم كلثوم)

ان شخصية عربية ستهدى لأم كلثوم كسوة الكعبة كاملة تقديرا لها ٠ وتقدر كسوة الكعبة بثمانية آلاف جنيه ٠ ولكن قيمتها الدينية والمعنوية لا تقدر بمال ٠

وكسوة الكعبة هذه التى تهدى كاملة لأم كلثوم يسعى رؤساء الحكومات الاسلامية سعيا للحصول على قطعة صغيرة منها لا تتجاوز سنتيمترات ، بالثمن الغالى ٠

ولولا أن الأهرام هى التى نشرت هذا الخبر لما أشرت اليه ، وان كانت لم تعد الى الموضوع مرة أخرى ٠ ولكن نشره فى ذاته سواء تحقق بعد هذا أو لم يتحقق له معناه ٠

بل لقد بدأت الأهرام وهى الجريدة الوقور تهتم حتى بالمسائل البسيطة عندما تتعلق بأم كلثوم ٠٠٠ يزعجها صوت ميكروفون فى مقهى امبابة فيرفع بوليس امبابة الميكروفون من مكانه ٠ ومرة أخرى تنشر أن أم كلثوم تشكو من الناموس وأنها طلبت الدكتور السبكى بالتليفون وسألته عن الطريقة التى تحارب بها الناموس فى الزمالك !!

ثم تنشر ، وهذه ثالثة الأثافى كما يقول الفصحاء أى أدهى الثلاثة ، تحت مانشيت كبير بالبنط الأسود :

(كلب ام كلثوم يعض عسكرى)

بالمناسبة الصحيح لغويا « عسكريا » ٠

ولما رأى الكلب أنه عض العسكرى دون عقاب من البوليس ، انطلق يعض كما يشاء فغرس أسنانه فى أحد المارة فاذا بالنيابة لا تقل كرما عن سلطات الأمن !

وعليه ... حفظت النيابة القضية !!

وتقول النيابة (الذوق) :

(ان أم كلثوم اذا أخطأت مرة فقد أحسنت مرات ، واذا نسب اليها الاهمال في واقعة فكم نسب اليها من جلائل الأعمال وروائع الخدمات...

ومن حيث تهمتي الاصابة الخطأ ، ومخالفة القانون رقم ٢٠٣ لسنة ١٩٥٦ ثابتتان قبل السيدة أم كلثوم التي لم تتخذ الحيطة اللازمة بالرغم من علمها بميول كلبها العدوانية وتركه بدون كمامة مما أدى الى عقر المجنى عليه ، الا أنه نظرا لأن المتسبب في الحادث هي السيدة أم كلثوم التي أدت ولا تزال تؤدي للدولة خدمات جليلة حتى كرمتها الدولة في أكثر من مناسبة ومنحتها أرفع الأوسمة الرسمية فهي ... ان أخطأت أو نسب اليها اهمال فطالما حافظت على أداء الخدمات الجليلة . وقد يكون في رفع الدعوى العمومية عليها أضرار لا تتوازن مع شخصيتها . لذلك نرى حفظ التحقيق) .

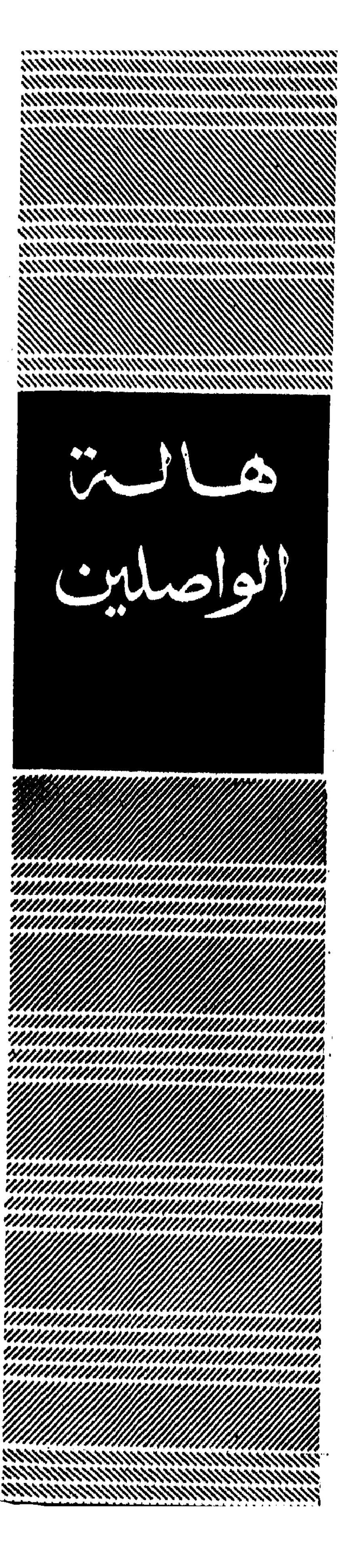
كلية الحقوق بجامعة القاهرة تناقش النيابة العامة في شأن أم كلثوم :

وثار أكثر من مواطن على صفحات الجرائد وناقشت كلية الحقوق بجامعة القاهرة قرار النيابة . وأجمع أساتذتها على نقد القرار على أساس أنه خاطيء .

ونمر (العزيز) يذكرنا بما نشرته روز اليوسف سنة ١٩٣٢ (العدد ٢٠٨) تحت عنوان :

« ممثلاتنا غاويات الكلاب » وأشارت الى « ركس » كلب عزيزة أمير و « لولو » كلب فاطمة رشدي و « عطيل » كلب دولت أبيض ، و « دهب » كلب فردوس حسن .

ولكنه كان حديثا للسخرية و « التريقة » ولكن « نمر » كلب أم كلثوم ... فهو خبر الصفحة الأولى حتى في جريدة « الأهرام » بل هو موضع تدليل النيابة الذي استثنت عضه وقضمه من القانون .


هالة
الواصلين

هالة الواصلين :

والحقيقة ان الصحف أخذت من ذلك الوقت تتسابق فى حمـل القماقم واحراق البخور فالكواكب تقول :

(انها ليست صوتا ولحنا فقط .. انها دنيـا بأكملها انهـا رمز جميل لفننا .. ليس صوتها وحده هو المعجزة ، ان عقلها مثل صوتها ! فهو لا يخلق الكارا بل يغنى افكارا .. تتحدث اليك فتظن أن سر عظمتها فى راسها وتغنى فتجد أن سر عظمتها فى أذنيك) !!

وآخر ساعة تقول تحت عنوان :

(ام كلثوم تؤلف شعرا مع شوقى) ـ وهذا شرف لا تدعيه ـ ادخلت ام كلثوم عدة تعديلات على قصيدة الجلاء شـملت تغيير بعض الالفاظ) .

والحقيقة ان رامى هو الذى ادخل التعديلات ولكن.. ان أم كلثوم تؤمن بالتخصص ولم تفكر يوما فى انتحال الشعر ولكن الصحف المصرية تطوعت بانحالها اياه .

ويبدو ان ام كلثوم وهى على القمة ارادت ان تتسلى بالعمل نهارا فاشتغلت من باب قتل الوقت كاتب صحة الفن . فان صحفنا واشدها وقارا تطلع بعنوان :

(أم كلثوم تكتب شهادة ميلاد جديدة للحن) .

تقول الاهرام :

كانت أم كلثوم فى قمتها وهى تشدو اللحن .. **وكان صوتها آلة موسيقية جديدة اضافتها الى الموسيقى :**

لقد كتبت أمس باغنيتها شهادتى ميلاد جديدتين لملحنها « بليغ حمدى » ومؤلفها « عبد الوهاب محمد » ٠

ويخيل الى ان الصحف عقدت اتفاقا غير مكتوب يجعل ام كلثوم موضوعا تجاريا ٠ فهى تفتعل الكتابة عنها للرواج فيما أحسب ٠ فهى تعرف أنها صاحبة أكبر (شعبية) ، وان (الجمهور) يتلقف أخبارها فتستغل الصحف هذا . فواحدة تجعلها تتحدث عن كرة القدم مع أن المأثور انها قالت يوما وهى تشهد مباراة (ليه بيتخانقوا كلهم على كورة واحدة ادوهم كل واحد كورة) ٠

واراد (الاهلوية) مرة أن يداعبوها فجعلوا منها (حكما) فى مباراة المقصود بها الدعاية فسالت ، وهى الحكم ، بعد المباراة عن النتيجة !

ويبدو أن الصحافة الأجنبية أعجبت بهذه المظاهرة ، او اخذت بها فسارت فيها . فالديلى ميل كتبت سنة ١٩٥٨ مقالا عن صوت ام كلثوم وشخصيتها وثروتها ، وكيف أن صوتها سلاح سرى للدعاية لمصر يجذب اليها الملايين من الشرق .. وأنها بالنسبة للعالم العربى كمغنيتى الغرب دوريس داى وفيرالين ، مجتمعتين فى شخصية واحدة .

ثم اخذت الديلى ميل تصف أم كلثوم بأنها أغنى سيدة فى الشرق فى صوتها — (نعم) — وفى ثروتها (أما هذه فيبدو أن الديلى ميل لم تسمع عن السيدة عائشة فهمى) ٠

وكتب الصحفى الأمريكى جوردون جسكيل بمجلة لايف (ان تغييرا . يشمل نظام وحياة الناس فى الشرق الأوسط على اختلاف طبقاتهم وأعمارهم وعقائدهم مرة كل شهر ودائما فى العاشرة مساء ..

فالمرور يكاد يتوقف فى القاهرة .

فى مقاهى الدار البيضاء تختفى الطاولة .

فى بغداد يترك الاغنياء موائد القمار .

فى السعودية ينزوى الشيوخ داخل خيامهم الضاربة فى الصحراء وكلهم آذان تتركز على اذاعة القاهرة فى انتظار (أم كلثوم) .

واستشهد الكاتب برأى مواطن له عاش فى المنطقة اعواما . يقول (لو تصورت ما يستطيع ان يكون عليه مزيج أصوات كيت سميث وبنج كروسبى وول روجرز وموريس شيفالييه وفرانك سيناترا وجاك بنى من تأثير على جماهير الغرب ، لاستطعت أن تدرك ما يعنيه تأثير صوت « أم كلثوم » على جماهير العرب) .

كما نقلت مجلة لايف فى مقال آخر بعنوان :
Mighty Voice of Um Kalthum

عن زعيم عربى قوله (هيهات للغربى أن يفهم العقلية العربية حق فهمها الا اذا استطاع أن يفهم غناء أم كلثوم) .

وكما افتتحت أم كلثوم – أو صوتها – الاذاعة عام ١٩٣٤ ، **افتتحت التليفزيون فى يوليو عام ١٩٦٠ .**

وفى هذه السنة أهداها همايون كبير ، وزير الثقافة بالهند ، (طبلتين) .. وذلك عندما دخلت حفل الاستقبال الذى أقامه لها السفير .

ودخلت الطبلة بعد هذا بلاط صاحبة الجلالة الصحافة فطلعت الصحف وفى صدرها مانشيتات كبيرة عن الطبلتين وتفاصيل وصفهما .

وفى ١٩٦٠ وقفت لأول مرة أمام عدسة التليفزيون التى سجلت ، فى شريط كامل ، اغنيتها الجديدة فى ذلك الوقت :

(بالسلام مدينا ايدينا بالسلام ردت الدنيا علينا بالسلام)

وذلك بعد ان كانت قد رفضت كل طلبات مخرجى التليفزيون لتصويرها .

وفى ١٩٦٠ غنت قصيدة (قصة الأمس) للشاعر أحمد فتحى والسنباطى ، كما غنت مونولوج (انت فين) لعبد الوهاب محمد وبليغ حمدى ومونولوج (هو صحيح الهوى غلاب) لبيرم وزكريا .

No Westerner, an Arab Leader has said, « Can really understand the Arab mind until he can understand the singing of Um Kalthum ».
Mighty Voice of Um Kalthum

وفى مارس من عام ١٩٦٠ حاز كل من أم كلثوم وعبد الوهاب وسام الاستحقاق من الدرجة الاولى تقديرا لفنهما .

وفى ابريل أقيم لهما حفل تكريم بقاعة ألف ليلة وليلة بهيلتون النيل .. وحضر عبد الوهاب قبل بدايته بخمس دقائق ليستقبل أم كلثوم التى حضرت بعد الموعد بعشرين دقيقة ..

والخبر على بساطته فيه من نسيج شخصيتهما . فعبد الوهاب بخبرته يعرف فيها حب العظمة وحب الاستقبال (الجماهيرية) فلا يرى غضاضة فى مقابلة هذه الرغبة بل يتعمدها .. وأم كلثوم تاتى متاخرة ليكون الجميع فى استقبالها كما حدث .

ويؤيد هذا .. مجاملة عبد الوهاب لها فى حفل التكريم الذى اقامته لها جمعية المؤلفين والملحنين ، اذ قال :

(ينبغى أن أنتقل من صفوف المكرمين الى صفوف المكرمين فأنا ملحن .. ونحن نكرم اليوم ناشرا عبقريا له خطورته .. نكرم أم كلثوم الناشر العظيم للألحان .. وقد منحها الله صوتا قويا وأداء عبقريا وحسا مرهفا .. والملحنون محتاجون دائما للناشر الكفء الممتاز الذى يوصل الانتاج الموسيقى بمهارة الى آذان الناس) .

سبحان مغير الأحوال .. عبد الوهاب الذى كان منافسا عتيدا لأم كلثوم أصبح الآن شبه صديق يجاملها ويحاسن فى الكلام ويتودد .. وزكريا الذى أخلص لها الود ووقف وراء نشأتها الفنية ، بلغ الخلاف بينهما ساحة القضاء .

الصلح الكبير :

ولكن مستهل عام ١٩٦٠ كان بشيرا بعودة الصفاء فقد تم الصلح بينهما أمام الأستاذ عبد الغفار حسنى رئيس محكمة القاهرة الذى ظل زهاء ساعتين يحاول تقريب وجهات النظر بين الطرفين . وقال مستدرجا او مفجرا عاطفة وعلاقة السنين .

(ان المجتمع العربى يود من قلبه سماع أم كلثوم تتغنى بالحان زكريا) . فانطلق الشيخ زكريا العاطفى يقول :

انه ينظر اليها كسيدة مطربات الشرق وهدفه خدمة الفن فى شخصها .

وهنا لم تملك أم كلثوم الا ان تقول :

انها تقدر زكريا وترتاح اليه فعلا .

وقال محامى الحكومة بدوره : ان الاذاعة ترحب بتقريب وجهات النظر وانهاء النزاع على صورة ترضى الطرفين .

فتهلل القاضى الذكى وعرض الصلح على أم كلثوم وزكريا .

وأسرع المحاميان الاستاذ عبد الحليم غنيم محامى زكريا ، والاستاذ مختار قطب محامى أم كلثوم وابديا موافقتهما ..

وتلاقى زكريا وأم كلثوم مرة أخرى .. وتصالحا .. وتصافحا .

وكان الاتفاق الخاص الذى عقده القاضى بينهما بعد مناقشة امتدت خمس ساعات يقضى بان يفتح التعاون بينهما صفحة جديدة فيقوم زكريا بتلحين ثلاث أغنيات لها لقاء سبعمائة جنيه عن كل لحن يتم تلحين الأغنيات الثلاث خلال عام ١٩٦٠ .

وعلى هذا تنازل زكريا عن دعواه قبل أم كلثوم مع ابرائها من الحكم الذى صدر له عام ١٩٥٨ ضدها هى والاذاعة بدفع مبلغ ثلاثمائة جنيه عن أغنيتى : (فرحة الشرق) و (حبيبى يسعد أوقاته) كما تنازل عن جميع طلباته ضد أم كلثوم فى قضايا الاذاعة وحفظ حقه فيما حكم له به ضد الاذاعة .

ومن طرائف القضية ان الدعوى احيلت الى خبير موسيقى هو المستشار محمد فتحى ولكنه اعتذر لأنه عضو فى المجلس الأعلى للاذاعة ، فانتدبت المحكمة الأستاذ محمود على فضلى كخبير ، وقدم تقريرا لم تأخذ به المحكمة . وعينت خبيرا آخر هو الدكتور الحفنى الذى قدم تقريرا لم تناقشه المحكمة لأن القاضى دبر الصلح بين الطرفين .

* * *

كان زكريا فنانا اصيلا شفاف النفس لم تستطع كل هذهالخصومة أن تحجب عن شفافيته الرؤية أو تجعل بينـــه وبين خصمه جدارا سميكا بل كان القائم بينه وبين أم كلثــوم فى فترة النزاع (حجابا من الباغة شفافا ماهوش مطموس) كما يقول :

ويسألونه اثناء النزاع كانهم يمتحنونه :

من احب مطربة أو مطرب اليك ؟

ــ ام كلثوم هى سيدة مطربات الشرق دون جدال . وبعــد ذلك يتســاوى عنــدى المطربون والمطربات لــكل منهم ميزة ولون خاص به ولكنهم يتساوون بعد ام كلثوم .

وكما حفظت أم كلثوم القرآن فى البداية حفظه زكريا فاستقامت له كما تقول الدكتورة سمحة الخولى موسيقى اللغة العربية .. ورتله فتمكن من روح اللحن العربى ، وزاده أداؤه للقصائد الدينية تعمقا فى اسرار الروح العربية الموسيقية . وعندما انتقل بعد ذلك الى التلحين كان مزودا بتلك النشأة التقليدية العريقة التى أنبتت الكثير من المواهب الموسيقية فكانت له الحان مطربة شجية بلا تكلف أو اسراف أختــــار لها مقامات تلائم جوها العاطفى .. وهداه احساسه الموسيقى الفطرى فى كثير من الحانه الى التوفيق بين روح الكلمات واللحن وذلك داخل حدود السياق النغمى العذب الذى هو عماد الغناء العربى .

هذه الموهبة الأصيلة وقفت وراء أم كلثوم منذ العشرينات وقدم لها زكريا فى عداد الكثير الجميل الذى قدمه :

الآهات

الامل

اهل الهوى

الأولة فى الغرام

انا فى انتظارك

حبيبى يسعد أوقاته

شوف الزهور واتعلم .

اغانى فيلم سلامة والكثير من اغانى أفلامها الاخرى كما قدم لهــا الكثير من القصائد .

واخيرا قدم لها : هو صحيح الهوى غلاب .

ولم يمهله القدر بعد هذا اللحن الشجى حتى يلحن القرآن كما كان يتمنى ويضمنه باقى الأنغام الشرقية كما أشرت لتقترن التلاوة بالنغم وليتسق النغم مع المعانى . وكان زكريا يقول دائما ان الله لم يرد بآية (ورتل القرآن ترتيلا) لونا معينا من الترتيل مما يترك باب الاجتهاد مفتوحا .

* * *

غادر زكريا دنيانا فى ١٤ فبراير عام ١٩٦١ بعد أن اضاف الى تراثنا الموسيقى ما يربو على الف لحن وبضعة وخمسين « أوبريت » .

وعندما بدات جنازة زكريا فى المسير اندفعت أم كلثوم تريد السير خلف الجثمان ولكن الحاضرين منعوها ابقاء عليها وادخارا لها لتسير فى طريق الحياة .

وحدث أن انعقدت لجنة جوائز الدولة التقديرية للفنون فاقترحت باعتبارها عضوا فى هذه اللجنة منح زكريا جائزة الدولة التقديرية فى الفنون . وظلت وراء رأيها حتى وافقت اللجنة وان كان الموضوع انتهى عندما خرج من يد اللجنة الى المجلس الأعلى .

وفى العام نفسه مات عازف الرق فى فرقتها الموسيقية الفنان ابراهيم عفيفى ويومئذ نعته الأهرام بقولها :

(رقاق ام كلثوم مات امس)

كان قيمة الرجل الفنان ابراهيم عفيفى أنه رقاق أم كلثوم ... قيمته فى النسبة اليها ! وهو الرقاق الأول فى الايقاع الشرقى كله .

ولم نذهب بعيدا ... ان زوجها نفسه تنسبه الأهرام اليها فقد نشرت الصحيفة الكبيرة فى ١٩٦٣/٦/٧ أن الدكتور حسن الحفناوى تلقى دعوة من الهيئة العلمية لمعامل « لاروش نافارون » بباريس ولكن الأهرام نشرت هذا الخبر تحت عنوان :

(أم كلثوم تطير الى باريس) !

المسافر أصلا الدكتور الحفناوى وسيصحبها معـــه ولكن الأهرام عكست الآية ... أم كلثوم هى التى تطير الى باريس وسيسافر الدكتور الحفناوى معها !!

وبهذه المناسبة مثل الدكتور الحفناوى مصر فى سبتمبر ١٩٦٢ فى مؤتمر الأمراض الجلدية وقدم فى المؤتمر بحثا كان مثار اهتمام الدوائر العلمية فى أمريكا وبعــد ثلاثة أشـــهر أخطرته الأكاديمية الأمريكية للأمراض الجلدية باختياره عضوا فيها .

ومنذ عام ١٩٦٢ والهيئات العلمية فى أوربا وأمريكا تدعوه لالقاء محاضرات وأبحاث فى فرعه .

* * *

وفى أوائل الستينات ظهر المطرب الشعبى محمد رشـــدى بعد محاولات عديدة للظهور والتواجد .

وفى سنة ١٩٦١ غنت أم كلثوم مونولوج (حيرت قلبى معـــاك) لرامى والسنباطى ، ومونولوج (ظلمنا الحب) لعبد الوهاب محمد وبليغ حمدى ، ومونولوج (أنساك يا سلام) لمأمون الشناوى وبليغ حمدى .

الأدب يحرق البخور

وفى عام ١٩٦٢ دخل الكتاب والأدباء فى مباراة كلثومية .. كل يتفنن فى وصف أم كلثوم فالأديب الشاعر صالح جودت يقول : (بعض المصابين بعمى الألوان لا يرون من ألوان الدنيا السبعة الا لونا واحــدا

فقط وأنا مصاب بمرض شبيه بهذا المرض اسمه عمى الأصـوات فأنا لا أسمع صوتا من أصوات أهل الغناء الا صوت أم كلثوم) .

ويقول الأستاذ أنيس منصور من مقال طريف ضاف تحت عنوان : (السيدة التى أخرت ظهور الشمس) :

(كلما استمعت الى أم كلثوم أدركت أن الدولة عندما الغت الأوراق المالية من فئة المائة جنيه قد احتفظت بهذه الأوراق الكبيرة فى صـــوت أم كلثوم وعبد الوهاب وأقلام العقاد وطه حسين والحكيم . فهذه هى الأوراق المالية التى لا يمكن الغاؤها ، أما الباقون فهم الفكه ... فهم الأوراق الصغيرة) !

لقد أفلحت أم كلثوم فى أن تخرس ألســـنة عشرات الألوف من الرجال ، فى كل لحظة ترتفع فيها على المسرح ، وهو أول ما تتمناه كل زوجة وكل حماة !

ان الأوبرا التى يشترك فى غنائهـا العشرات من المطربين المختلفى الأصوات والأشكال والأزياء ، ووراءهم مناظر وديكور وستار يعلو ويهبط لا تزيد هذه الأوبرا عن ساعة ونصف وأحيانا ساعتين تتخللها استراحات قصيرة أو طويلة .

ولكن أم كلثوم بفستان واحـــد ومنديل واحد ووقفة واحـــدة واوركسترا واحد ومنظر واحد ولحن واحد لملحن واحد وشاعر واحد وفى ليلة واحدة تستطيع أن تذيب الناس فى عرق ودموع ، وأن تحرقهم بدموعها هى ، وأن تبخرهم على شكل آهات ، وأن تميتهم وتبعثهم الى العالم الآخر فى أثواب الملائكة .

ان أم كلثوم قد أخرت ظهـور شمس تطوير الأغنية العربية ... أخرت الشمس كما فعل النبى يوشـــع . فقد كان من الممكن أن يتطور المسرح الغنائى والتخت الشرقى والغناء كله ... ولكن أم كلثوم اعترضت بصوتها الساحر سير الزمن ويبدو أن الزمن قد أعجبه صوتها فوقف .. وامسك هو الآخر المنديل وراح يهتز ولا يتحرك) .

وهو نقد لاذع ملفوف بالسلوفان .

أما الدكتور مصطفى محمود فيعلن أن كل ملحن أصبح كلثوميا .. ويقول :

(ان أم كلثوم هى أعظم دار للنشر !

أم كلثوم فى الوطن العربى اقوى من ألف خط طيران يربط الأرض العربية ! اقوى من ألف خط تليفون ! أقوى من ألف خط سكة حديد . فلو أنك خرجت بسيارة ليلة حفلة أم كلثوم لتتجول فى الوطن العربى ، فانك تستطيع أن تحدد معالم هذا الوطن وحدوده ! كل أرض لا يتردد فيها صوت أم كلثوم ، ليلة حفلتها معناها أنك عرجت بسيارتك عن حدود الوطن العربى .

انها أجمل وأوضح خريطة مسموعة تبين الحدود المترامية للوطن العربى !) .

حتى عبد الوهاب دخل فى زمرة الكتاب فيصف صوتهـا بانه (صوت فيه « خلقة » امبراطورية . يحس السامع فى محضر صوتها كانه فى محضر امبراطور ، وهذا يخلع على استماعه صفة الخشوع والمهابة) .

● ● ●

وأرادت مجلة (الكواكب) أن تريح السادة الأدباء فاصدرت عام ١٩٦٢ عددا خاصا عن أم كلثوم .

وفى عام ١٩٦٢ بدأت مستشفى البحرية الأمريكية تستعد من جديد لاستقبال أم كلثوم لاجراء كشف عام عليها على سبيل الاطمئنان (تقديرا من الحكومة الأمريكية لمكانة أم كلثوم فى العالم العربى) .

وفى هذا العام غنت أم كلثوم قصيدة دينية (تائب تجرى دموعى ندما) لعبد الفتاح مصطفى والسنباطى .


الستينات

والحقيقة انه منذ ١٩٦٠ بدات ام كلثوم تعرف معنى الاستقرار الحقيقى على القمة اذ أن معنى المنافسة لأم كلثوم كان قد انتهى نهائيا ٠٠ ام كلثوم كما يقول زكريا أحمد وبعد هذا يتساوى الكل حتى ولو كان لكل لون ٠

انتهى معنى المنافسة بالنسبة اليها حتى مع الكبيرات اللائى نافسنها منافسة حقيقية وحامية فى مطلع حياتها الفنية ٠ فنراها فى يناير ١٩٦٢ تزور منيرة المهدية التى تركت عرشها لها ثم فقدت ، بعد عرشها ، صوتها فى آخريات عام ١٩٦٣ ٠

هناك أصوات جميلة ولكل منها لون ومذاق على حد تعبير شوقى ٠ ولكن ليس بينها صوت استطاع أن يكون (عادة) لنا فهى فى النهاية ، كما اشرت ، فى درجة سواء اذا غاب أحدها أغنى عنه الآخر بلا تغيير محسوس ٠

ليس هناك صوت متفرد لا بديل عنه ٠ لقد نجحت ليلى مراد مثلا نجاحا كبيرا فى الأغنية السينمائية ولكن التعويض تم بسرعة كأنه تلقائى أو مرسوم فقد خلفتها شادية ٠٠٠ وفى اقتدار ٠

ولكن الاستحالة الحقيقية وجود خلف لأم كلثوم بصورتها المرسومة ٠٠٠ حتى فيروز الصوت النقى الشفاف ٠٠ فان صوتها على

صفائه الأبيض ، صوت محدود المقامات والطاقات بل ان بعض النقاد يعتبرها بدورها مدرسة لا امتداد لها هى مدرسة الترتيل الكنسى فهى ـ اذا صدقت هذه النظرة ، صوت دائرى يلتقى أوله بآخره ·

ولكن هذا التفرد الشامخ لم يمنع صوتا يرتفع من حين الى آخر ولو على استحياء بالنقد اى يطالب بالتطور والخروج على الفورمات الكلاسيكية الشرقية التى تلتزمها أم كلثوم أو يلتزمها ملحنوها والتى تتضامن مع المضمون الفردى لأغانيها على تجميدها ·

ولكن مثل هذا النقد كان يضيع فيما يضوع من بخور القماقم وحامليها · ففى العام نفسه رشحت أم كلثوم لجائزة الدولة التقديرية باعتبارها (تتصرف فى اللحن الأصلى تصرفا فيه لون من التأليف بالغ الأثر فى استكمال هذا اللحن الأصلى) ·

والحقيقة ان تصرف أم كلثوم فى اللحن لون من الوشى الفنى لا التأليف ··· اضافة جميلة أو تعميق للخط الأصلى من جمال الصوت واقتداره ··· ولكن يبقى بعد هذا الدلالة التى أقول بها وهى حالة الانبهار التى تكاد تلف كل شىء حتى الهيئات الرسمية التى تتحدث هى الأخرى ، عن أم كلثوم ، بأسلوب الشعر فتكتب اعذب التقارير ·

* * *

وفى عام ١٩٦٣ غنت أم كلثوم مونولوج (لسه فاكر قلبى يديلك أمان) لعبد الفتاح مصطفى والسنباطى ·

ومولونوج (الحب كده وصال ودلال) من تاليف بيرم وتلحين السنباطى ·

كما غنت فى الستينات

مونولوج (أروح لمين) عبد المنعم السباعى والسنباطى ·
ومونولوج (بعيد عنك) لمأمون الشناوى وبليغ حمدى ·
ومونولوج (سيرة الحب) لمرسى جميل عزيز وبليغ حمدى ·
ومونولوج (لا يا حبيبى) لعبد الفتاح مصطفى والسنباطى ·

ومونولوج (أقول لك ايه عن الشوق يا حبيبى) لعبد الفتاح مصطفى والسنباطى ٠

ومونولوج (فات الميعاد) لمرسى جميل عزيز وبليغ حمدى ٠

ومونولوج (للصبر حدود) لعبد الوهاب محمد والموجى ٠

ومونولوج (حا سيبك للزمن) لعبد الوهاب محمد والسنباطى ٠

وفى سنة ١٩٦٣ صور التليفزيون قصيدة (الى عرفات الله) فى أول فيلم تليفزيونى لها ٠

وفى سنة ١٩٦٣ قاد لهـا رياض السنباطى لأول مرة الفـرقة الموسيقية فى أغنية (طوف وشوف) وكانت هذه هى المرة الأولى التى يظهر فيها رياض السنباطى على المسرح وهو الذى لا يحضر حفلاتهـا بطبيعته التى تهوى العزلة ٠

ام كلثوم وعبد الوهاب :

وفى سنة ١٩٦٤ دخلت أم كلثوم تجربة جديدة أعنى غناء الحـان عبد الوهاب ٠

ففى سنة ١٩٦٤ التقت أم كلثوم بعبد الوهاب فى اغنية (أنت عمرى) فخرجت الصحف واحدة تسميه لقاء السحاب والأهرام الوقور ينشر مقالا تحت عنوان « لقاء مع الملايين » يصف أم كلثوم وهى تغنى أنت عمرى ويقف عند كل مقطع وكل مرة أعادته والناس وما فعلوا ... (١٩٦٤/٢/٨) ٠

وفى العدد نفسه فى باب (حديث الناس) ــ وهو من الأبواب الثابتة ــ فى الأهرام تحدث عن الأغنية تحت عنوان « التقاء العملاقين » ٠

وفى العدد نفسه أيضا كتبت الاهرام عنوانا : (الأغنية تعطل المرور فى شبرا ساعتين أمس) ٠

« فشلت محاولات رجال المرور فى تفريق الجمهور الذى احتشد على ناصية شارعى مسرة وشبرا يستمع الى الأغنية من ميكروفون استأجره تاجر خردوات سجل الأغنية على شريط » ٠

وأخيرا بالنسبة لعدد الأهرام ٢/٨ عنوان :

« دمشق تلغى النشرة وتذيع الأغنية » ٠

ألغى راديو دمشق اذاعة نشرة أخبار الساعة ١٥ر١١ مساء أمس واستمر الراديو فى اذاعة تسجيل أغنية أم كلثوم « أنت عمرى » ٠

ان مصر تؤجل نشرة الأخبار فى حفلات أم كلثوم ولا يحدث هـذا التاجيل ولا يجوز فى غير حفلاتها ٠

ولم تكتف الأهرام بهـذا فارادت فيما يبدو أن تنـافس مجلة « الكواكب » فكتبت ـ فى العدد نفسه أيضا ـ تحت عنوان :

(الفستان الذى كانت ترتديه) ٠

كانت أم كلثوم ترتدى فستانا من الشيفون الأخضر فى لون ورق شجر الزيتون ، تحلى صدره فصوص من الكريستال ٠ حركة الصدر درابية ٠ الديكولتيه على شكل (٧) الوسط بانده درابيه ٠٠٠ الجيب واسعة فضفاضة اختفى البروش الماسى من فوق صدر أم كلثوم فى هذه الحفلة ٠

وتحت عنوان آخر (أم كلثوم تقف أربع ساعات) ٠

ضربت أم كلثوم رقما قياسيا فى الوقوف على المسرح فى حفلة أول أمس ٠ هذه أول مرة فى العالم تقف فيها مطربة ٤ ساعات كاملة فوق خشبة المسرح ٠

بدأت الوصلة الأولى ٣٠ر١٠ وانتهت ٤٠ر١١ ٠

بدأت الوصلة الثانية ٣٠ر١٢ وانتهت ٤٠ر٢ ٠

بدأت الوصلة الثالثة ٣٠ر٣ وانتهت ١٥ر٤ ٠

ويشير الاحصاء الى أن أم كلثوم تقف فيغني الليل معها الوصلة الأولى والثانية ·· حتى اذا شرعت في الثالثة أخذ الفجر يغني بدوره معها ·

وقد أرسل معجب من بني سويف الى أم كلثوم هدية عبارة عن احصائية خاصة باغنية (أنت عمري) مكتوبة بخط اليد مسجل فيها بالأرقام عدد المرات التي غنت فيها كل كوبليه وكل مقطع وكل كلمة وعدد المرات التي قالت فيها (آه) ···

وشعرت الصحيفة بحاجتها الى الراحة قليلا فاستراحت أياما لتعود في ١٩٦٤/٢/١٤ تقول تحت عنوان : (مطلوب اذاعة حفلات أم كلثوم من صوت العرب) ·

« تلقت اذاعة صوت العرب ١٢٠٠ رسالة من البلاد العربية تطلب فيها هذا الطلب على أساس أن موجة صوت العرب هي التي تصل الى العرب » ·

وفي ٢/١٥ نشرت أن ٧٥٠٠ اسطوانة لأغنية (أنت عمري) ستطير الى البلاد العربية بعد العيد · وفي ٢/١٨ عنوان (معهد الموسيقى العربية يناقش أم كلثوم) ·

هذه هي صحيفة الأهرام · أما (الاخبار) فقد نشرت بدورها في (٦٤/٢/١٠) أن اسطوانة (أنت عمري) ما كادت تنزل السوق حتى اصطف الناس طوابير ··· الخ ، وانه (في استراحة الفصل الثاني بمسرحية الزلزال فتح أحد المستمعين الراديو الترانزيستور وأم كلثوم تغني (أنت عمري) وبسرعة فتح آكثر من ٢٠ راديو بين صفوف المتفرجين في الصالة) ، وان فريد الأطرش طلب من أم كلثوم أن يلحن لها أغنية ·

واستراحت (الأخبار) هي الأخرى قليلا ثم عادت في ١٩٦٤/٢/١٥ تكتب تحت عنوان (من السحاب للسحاب) ·

ان (أم كلثوم ستجعلنا نعيش هذا الموسم مع السحاب ··· وانها ستقودنا في رحلة رائعة بين السحاب !) ·

وعنوان آخر (قالت لي أم كلثوم وقال لي عبد الوهاب) ·

وفي ١٩٦٤/٢/١٨ أن أم كلثوم وعبد الوهاب طلبا من الاذاعة

(عدم اذاعة أغنية أنت عمرى أكثر من مرة واحدة فى الاسبوع) بعد أن وجدا أن كثرة اذاعتها ستفقدها بهجة الأغنية الجديدة فى آذان الجمهور ٠٠ جاء هذا الطلب بعد أن أصبحت الأغنية تذاع أكثر من ٧ مرات فى اليوم من البرنامج العام وصوت العرب واذاعة مع الشعب ٠ لا يسرى هذا القرار على برنامج ما يطلبه المستمعون على أساس أن جزءا صغيرا فيها هو الذى سيذاع ٠

بل أكثر من هذا نشرت الأخبار فى ١٩٦٤/٥/٨ أن (أغنية « انت عمرى » كانت موضوع أسئلة امتحانات لطلبة السنة الثانية انجليزى بمدرسة الألسن العليا بالزيتون) !

ولم تقصر (آخر ساعة) فى هذا المضمار فنشرت فى ٦٤/٤/٢٩ بعنوان :

(تمثال نصفى للفنانة أم كلثوم بالحجم الطبيعى) ٠

« المثال ابراهيم جابر ٠٠٠ كلف بصنع تمثال نصفى بالحجم الطبيعى للفنـــانة الكبيرة أم كلثوم ٠٠٠ واتفق ابراهيم جابر على أن يتقاضى ٨٠٠ جنيه لتكاليف صنع هذا التمثال ٠٠٠

كما نشرت آخر ساعة بمناسبة (أغنية العمر) كما ســـمتها أن (أول حفلة غنت فيها أم كلثوم فى بدء حياتها الفنية لم تحضر فيهـــا سيدة واحدة لأن الحجاب وقتها كان منتشرا ٠٠٠ وقد كان عدد السيدات اللائى دخلن حفلة (أنت عمرى) يصل الى ٤٥٣ سيدة) ٠

وأن عدد الموسيقيين الذين صحبوا أم كلثوم أثناء تقديم هذه الأغنية اثنان وعشرون عازفا واستخدموا لأول مرة فى أغانى أم كلثوم آلة الجيتار الكهربائى الذى كان يعزف عليها عبد الفتاح خيرى ٠٠٠ وأول مرة غنت فيها أم كلثوم على تخت كامل منذ ٣٨ سنة وكان أفراد أول تخت لهـا هم : محمد العقاد ، وسامى الشوا ، والقصبجى ، ومحمـد رحمى ٠٠٠ وكانت الأغنية قصيدة الشاعر على الجارم !

وأن أغنية « أنت عمرى » استغرقت ١٣٣ دقيقة وهى أطول أغنية ظهرت حتى الآن – ٦٤/٢/١٢ – لأم كلثوم ٠٠٠ واستغرقت مقدمتهـا الموسيقية ١٤ دقيقة كاملة ٠٠٠ واستغرق التصفيق ! من وقت الأغنية

١٥ دقيقة ٠٠ وكانت أطول مدة صفق فيها الجمهور أثناء الأغنية بعد جملة « هوه اللى فاتنا يا حبيب الروح شويه » فقد صفق لهـا الجمهور ٥٨ ثانية !!

ومن الطريف أن السيدة منيرة المهدية أرسلت الى أم كلثوم برقية تقول فيها :

(لو كنت أستطيع أن أسير على قدمى لسعيت اليك مهنئة ، ولكن روحى وقلبى يحوطانك فى خطواتك فى كل ما تقدمينه يا درة الزمن ٠ ارجو من الله أن يمدنى بالقوة لأراك ولو مرة واحدة على المسرح لأستعيد فى شخصك أيامى وأتمتع بفنك الخالد وصورتك المرسومة فى كل قلب وأمام كل عين) ٠

وتقول (الجمهورية) ان أم كلثوم بكت وهى تقرأ البرقية وأنهـا توجهت الى زيارة السيدة منيرة المهدية فى عوامتها بالكيت كات ٠

وفى ٦٤/٨/٢٢ تنشر أخبار اليوم أن مطرب لبنان وديع الصافى غنى فى مهرجان بعلبك على نغمات أغنية (انت عمرى) أغنية لبنانية مطلعها (يا أم العين الكحلا) ٠

* * *

وهكذا احيطت هذه الأغنية قبل اذاعتها وبعد اذاعتها بهالة اقتربت بها من الأساطير ٠

وقد كتبت يومئذ اعلل أو احلل هذه الهالة المصنوعة :

قالوا (أكثر من رائعة) فقلنا نعم ٠٠٠ قالوا (أطول أغنية عربية) فقلنا نعم ٠٠٠ واعتقد ان سر هذا التهليل والتهويل هو عنصر (الطرافة) فى الموضوع ٠٠ فنحن قد تعودنا أن نتحدث كل بضـع سنوات فى موضوع تلحين عبد الوهاب لأم كلثوم ثم نسكت ونمضى فى شـئوننا لنعود الى الحديث نفسه بعد سنوات أخر وكأننا تذكرنا شيئا نسيناه ٠٠ وتناولنا للموضوع على هذه الصورة اعطاه طابعا خاصـا من البعد والاستحالة أو صعوبة التحقيق على الأقل ٠ ونسى الناس فى هذا الصدد اعتبارات كثيرة منها أن أم كلثوم وعبد الوهاب كانا من أربعين سنة فى

طريق القمة وفى قمة الكفاح ٠ وكان عبـــد الوهاب مطربا وملحنا معا بل كانت صفة الطرب هى الغالبة ٠ وفى جو كهذا تحتدم المنافسة التى تحجب الثقـة الكاملة أو يتوهم معهـــا انتفاؤها ٠٠ واعتبار آخر ، غنى أم كلثوم فى هـذا المجال برياض السنباطى وداود حسنى والقصـبجى وزكريا أحمد ٠٠٠ هؤلاء الذين نشئوا صوتها تنشئة موسيقية وعرفوا طاقاته وأبعاده وأعماقه وعملوا على كشفها وجلائهـــا ٠٠٠ فمن حق أم كلثوم وسط هذا الاعزاز الفنى لو صـح هـذا التعبير ألا تتجــاوز بالموضوع حدود (الاقتراح) العارض ٠

أما الآن وقد بلغا القمة واطمأنا الى مكانيهما وأصــبحا فى حياتنا ظاهرتين لا تغنى احداهما عن الأخرى ، هـــذه الطمأنينة النفسية هى العامل الأول فى تقريب المسافة وتحقيق اللقاء ٠٠

والتقيا ٠٠٠ أم كلثوم هي أم كلثوم فى تدفقها وجلجلتها وتمكنها وقدرتها على تقييد الاسماع والأنفاس والمرور أيضا ٠٠٠ وعبد الوهاب هو عبد الوهاب (جواهرجى) بارع الصياغة أو بستانى رائع التنسيق ٠

وقد كانا ، عبد الوهاب وأم كلثوم ، متجاورين فى الأغنية أم كلثوم تملأ السمع والبصر ، وعبد الوهاب لا تخطىء موسيقاه الذوق ٠ وكيف واللحن يأخــذنا لحظات الى الجندول و (قالوا لى هان الود عليـه) و (موش أنا اللى أبكى) فاللحن كان مألوفا نعـــرفه معرفتنا لأبنـــاء عبد الوهاب ٠

ان أغنية (انت عمرى) اذا ســمعت لذاتها من أجمل وأشــجى ما عرفت الأسماع ٠ ولكن اذا ردت أنغامها الى ألحان عبد الوهاب السابقة سواء منها ما غناه هو أو ما ردده المطربون والمطربات فان هواة أم كلثوم بل هواته هو يجدون فى أنفسهم كثيرا من معانى العتب عليه

ولكن سوغها بعد ، الطرافة ، طرافة اللقاء ، اتفاق الجمهورين ٠ فلا مجال لنقد كل منهما فنان الآخر فضلا عن الدعاية الطنـانة وعبد الوهاب بارع فيها ٠

(أنت عمرى) أو أغنية اللقـــاء القممى قد تكون أطول ما غنت أم كلثوم وأكثر ، لهذا السبب ، اشباعا ولكنها ليست أجمل ما غنت أم كلثوم ٠٠٠ فالأغنية أسعدتنى وروت احساسى بالجمال والطرب بل

انى زهدت فى طعامى بعدها حتى لا أخلط مادة بنور ، ولكنها لم تعطنى شعور (التفرد) فى بابها كما أعطتنيه أغنية (جددت حبك ليه) عندما غنتها أم كلثوم لأول مرة . فى كل مقطع من (جددت حبك ليه) بل أكاد أقول فى كـــل كلمة نغم فريد ، ومعنى عجيب ، وندية فذة بين المعنى واللحن ، وقدرة فى الانتقال بين أجزاء الأغنية تزيدها جمالا وتكاملا .

يصعب على أقول لك كان والحب زى ما كان وأكثر
وأفكرك بليـــالى زمـــان وأوصف في جنتها وأصور

نغمة (أفكرك) والوقفة عندها فيها عتـــاب وتحبيب . ونغمة (جنتها) والانتقال ببطء وغنة من حرف الى حرف فى هذه اللفظة المفردة وما فيه من معنى التشبث المتعلق بهذه الجنة الحلوة ... كل هـــذا يدل فى عمق على فهم الملحن لدوره من استيعاب المعنى وتمثله و (خلق) النغم المتكافىء معه من حيث القدرة والاحساس والسمو .

أو :

انا لو رضيت اللى كان وهان عـــلى الهـــوان
اقدر أجيب العمـر منين وأرجع العهـد الماضى
أيام ما كنا احنا الاثنين انت ظالمنى وأنا راضى

أو :

يالى هـــواك فى الفـــؤاد عايش فى ظـــل الوداد
انت الحـــياة والـــروح وانت ســـمير الأمـــل
ييجى الزمـــان ويـــروح وانت حبيب الأجـــــل

كل كلمة من هذه المقاطع .. كل حرف فى كلمة لون من النغم يوشيه الأداء ثم يجلو اللحن والغناء معا التجربة العميقة الصادقة التى خاضها الشاعر وكان الملحن كان رفيقه فيها وشريكه فجـــاء لحنه كفاء للمعنى فى وقدة الشعور وصدقه وتوهجه .

انا لا أريد أن أحلل (جددت حبك ليه) حتى لا أنزل بها الى مقام الوصف والتحليل . ولا أريد أن أحلل احساسى بها حتى لا يتشعع وأنا أهوى أن أظل ممتلئة به روية منه مكتنزة له .

أغنية (انت عمرى) جميلة رائعة ولكن أجمـــــل منها وأروع (جددت حبك ليه) أقولها فى غير تردد وسط الزفة الكبيرة التى نعيشها

احقاقا للحق واعترافا بجميل الذين أسعدونا ونوروا أيامنا ···

أغنية (أنت عمرى) جميلة رائعة ولكن أجمل منها وأروع (رباعيات الخيام) بأعماقها ·· بسبحاتها ·· برؤاها ·· بتحليقاتها ··

كلما علت الضجة واختلطت الأصوات تردد فى سمعى لحن (هجرتك) ، (أنا لن أعود اليك) ، (هلت ليالى القمر) ، (فاكر) ، (رق الحبيب) ، (غلبت أصالح فى روحى) ، (عودت عينى) ، (دليلى احتار) وخل عنك الآن قصيدة (النيل) بلحنها الغنى السرى الزاخر العظيم وقصيدة (ولد الهدى) ·

ولما ألقاك قريب منى وأقول البعد تاه عنى
أشوف عينك تراعينى وقلبى من لقاك فرحان

كلما علت الضجة حول (أنت عمرى) تذكرت تطويع الصوت يهدى اللحن ، فى لفظة (تاه) عنى التى أودعها الشاعر قبلا شحنة من ماضى صبره وعذابه واحتماله ·· تذكرت رقصة الصوت ومرحه وهناءته فى لفظة (فرحان) ·

يا ريتك حلم فى جفونى أنام وألقاه وأعيش وياه
وآخر طيف أشوفه · انت
يا ريتك فجر فى عيونى أنام وأصحا على فرحه
وأول صورة أشوفها أنت

هل تذكرون هذا المقطع ؟

كلما علت الضجة واختلطت الأصوات رن فى سمعى لحن (أهل الهوى يا ليل) ، (الأمل) ، (أنا فى انتظارك) ، (حبيبى يسعد أوقاته) ، (هوا صحيح الهوى غلاب ما أعرفش أنا) ·

ان تجربة تلحين عبد الوهاب لها ، فى كلمات :

- أدخل آلات جديدة ·
- أشاع نغما غربيا فى المقدمات الموسيقية وفى الأغانى (ودارت الأيام)
- حاول أن يطغى على صوتها وهو مميز مهما كان اللحن · ولكن عبد الوهاب يهمه نفسه قبل المغنى ولم يحدث أن ارتفع لحن له بمغن ·
- أطال فى المقدمات خدمةلنفسه ففقدت المقدمة ، الارتباط باللحن ·

---

(١) يقول عبد الوهاب فى حديث له مع مجلة (المجله)- العدد ١٤٧ ديسمبر ١٩٨٠،أنا حطمت عبودية الناس للصوت البشرى» ·

● أدخل على أغانيها ، الايقاع فى توقيت غير مناسب اى فى وقت أردنا لها فيه التعبير المباشر .

ان صوت أم كلثوم القادر على ما لا يقدر عليه غيرها ، أساء اليه عبد الوهـــاب يوم وضع له ألحانا فى متنـــاول الآخرين لولا (كلثمة) أم كلثوم لهذه الألحان .

ما اجمل ان نبارك المحسن ولكن ما أنبل أن نذكر جهود الآخرين وآياتهم .

ان عذر المبهورين هو الطرافة كما أشرت فى التقاء أم كلثـــوم وعبد الوهاب .. بعد تباعد وتباين . واللقاء من هذا النوع عادة يبهر الناس ويثير فضولهم وحماستهم معا سواء أكان لقاء تعاون أو تصـــادق كما حدث بين تاليران ونابليون ، وبين تاليران وفوشيه ، وبين فولتير وفردريك الأكبر .. أم لقاء تصادم كالذى يحفظه التاريخ من صراع أبى جعفر المنصور وأبى مسلم الخراسانى .

حسبى أن تكلمت عن لقاء عبد الوهاب وأم كلثوم فقد تكفل بالباقى الأستاذ على أدهم فى كتابه القيم (تلاقى الأكفاء) .

وبعد أن أفاق الناس من السكرة بدأ يطل النقد برأسه مثبتـــا وجوده ولو همسا .

ومن الهمس :

هناك انفصال واضح بين المقدمة الموسيقية وبين الأغنية لا ترابط اطلاقا . ولا ترديد لنغم منه بين ثناياها ! لقد كانت الأغنية شـــخصية متباعدة عن شخصية اللحن .

المقدمة ــ ولو أنها ممتازة النغم الهـــادىء الرتيب سواء مقتبســة أو مستوحاة أو من توارد الخاطر الموسيقى ، لم تستطع أم كلثوم أن تخضع صوتها فى مطلع الأغنية ليتهادى ويتصاعد موسيقيا ــ بعد المقدمة ناعما يحمله اللحن .. ثم يرتفع . وانما تدفقت حنجرتها بكل قوة تعلن بداية الأغنية . فحددت أكثر التعارض بين ما كان من نعومة المقدمة الموسيقية وبداية انطلاق الأغنية .

تكررت عملية الانفصال الموسيقى .. بين مقاطع الأغنية ذاتها . كانت عبارة عن ٣ ألحان منفصلة لأغنية واحدة . وكان عبد الوهاب يؤلف الأوبريت ! لا ترابط فيهـــا بين الشرق والغرب الا التصفيق وهيصـــة الجمهور . فالنقلات كانت واضحة جدا .

ان الأغنية كانت باقة جميلة جمعت الكثير من الزهور المنسجمة الألوان حينا ، المتضاربة أحيانا .

كلمات الأغنية فيهـــا عاطفة حب ولكنه لم يكن فى مستوى أغنية يجتمع فيها أم كلثوم ساحرة الشرق والموسيقار عبد الوهاب ٠

وتشجع النقاد فتساءل الفنان صلاح جاهين : يد من التى امتدت لتحذف النقد للحن انت عمرى وتبقى المديح ؟ ٠

وكانت مناقشة بينه وبين الملحن سيد مكاوى فى صوت العرب ٠

وتوالى النقد الموسيقى والأدبى ٠ ففى الموسيقى قال الأستاذ سليمان جميل : « المقدمة الموسيقية فيها خط نغمى رفيع من موسيقى كونشرتو البيانو تأليف المؤلف الموسيقى الأذربيجانى (أميروف) ٠

« المقدمة الموسيقية متنافرة مع المقطع الشعرى الأخير (يا أغلى من أيامى يا أحلى من أحلامى) داخل الصورة الموسيقية لأغنية « أنت عمرى » ٠ مع جمالها ولكن كل على حدة ٠

ـ ادت أم كلثوم بدون تصرف ٠٠ تصرفها التقليـــــدى التجويدى التطريبى ٠

ـ ان أغنية أم كلثوم بداية تجربة موســـيقية هامة لو اســـتمرت ـ لاستطاعت ـ أن تخلق منهاجا لأصول الغناء الشعبى العربى له شأنه فى عالم الموسيقى تماما كمناهج أصول غناء الموسيقى الاسبانية الشعبية ذات الأصل العربى والمشهورة فى العالم باسم (الفلامينكو) ٠

ولعل أطرف نقد كان نجمه شيخا واعظا ! فقد نشرت الجمهورية فى ١١/٣/١٩٦٤ أن الشيخ محمد النجار هاجم فى احدى خطبه فى الجامع السهلى بكفر الزيات أغنية « أنت عمرى » وقال ان سماع أم كلثوم حرام ٠

ولم تطق صحيفة الأهرام صبرا فكتبت بعددها الصادر ١٢/٢/١٩٦٤ فى باب رأى الأهرام ـ وهذا الباب غير مخصص للفن ـ تقول :

(تعرضت « أم كلثوم » لحملة عنيفة وظالمة ظهرت فى احدى الصحف أمس تعليقا على الأغنية الجديدة « أنت عمرى » ٠

ان « أم كلثوم » أكدت وجودها خلال سنوات طويلة فى حياة الأمة العربية بأسرها ، ان صوت هذه الفنانة العظيمة سهر مع الأمة العربيـــة أحلى الليالى ، وتمرد على الصمت فى أكثر الليالى ظلاما ، وانطلق كاجراس الحرية يؤدى الدور الخلاق الذى يؤديه كل فنان يؤمن بالشعب ٠

ولم تكتف أم كلثوم بأن تغنى للشعب لكنها عاشت معه وتفاعلت مع كل قضاياه ، واستمعت الى دقات قلبه مثلما كان الشعب يستمع الى صوتها ٠

ومع ذلك نقول ان هذا كله لا يجعل أم كلثوم فوق النقد ٠٠ لكننا نقول فى الوقت نفسه ان أم كلثوم تستحق أن تكون فوق الهدم) ٠

كما تعرضت فى الشهر نفسه لهجوم من نوع آخر فقد حاول أحدهم اقتحام فيلتها وكسر الباب الداخلى بدعوى أن الفيلا ملكه ٠٠

وفى ١٩٦٤ رقى زوجها الى درجة أستاذ بكلية طب القاهرة ٠ وفى عام ١٩٦٤ أيضا حصل على جائزة الدولة التشجيعية اذ أعد ٤٥ بحثا علميا مبتكرا ٠ وقد نشرتها الهيئات العلمية العالمية فى مجلاتها العلمية الطبية ومن بينها ١٥ بحثا عن تأثير ضوء الشمس على الجلد ٠

وفى عام ١٩٦٤ عقد مؤتمر الموسيقى العربية الثانى فى بغداد ٠

* * *

من هى فرقة ام كلثوم الثانية

ان لأم كلثوم فرقتين : فرقتها الموسيقية ، أما الفرقة الثانية فهى الصحافة العربية ٠

ففى ١٩٦٥ عادت الصحافة تعزف ألحانها ٠ فالأخبار تطلع ١١/٢٧ بعنوان : (السنة الغنائية تبدأ الخميس القادم) أى بالطبع حفلة أم كلثوم ٠

والكواكب فى ١٩٦٥/١١/٣٠ عنوانها :

(الليلة السعيدة فى حياة الشعب عمرها ٤٠ سنة) ٠

وكانت مجلة الكواكب قبل ذلك قد نشرت أسماء فرقتها الموسيقية تحت عنوان (٢٥ يقفون وراء أم كلثوم) ٠ والخمسة والعشرون كوكبا كما أوردتهم فى الملحق رقم ١ من الكتاب ٠

وفى ١٩٦٥/١٢/٢٤ نشرت الأهرام أن مواطنا من دمنهور ـ اسمه عبد القادر مفيد ـ أهدى الى أم كلثوم بقرة عمرها ٦ شهور وجاموسة عمرها ٨ شهور تعبيرا عن اعجابه بأغنيتها (أمل حياتى) •

(لماذا استيقظ الطبيب البيطرى فى نصف الليل) :

ويبدو أن معجب دمنهور ليس وحده • فقد قدم الدكتور حلمى زكى مدير الطب البيطرى فى ديسمبر سنة ١٩٦٥ • قدم بلاغا الى شرطة النجدة يقول فيه ان مئات المعجبين يوقظونه فى منتصف الليل • وهم يديرون أجهزة التسجيل أو الراديو على أغنية (أمل حياتى) •

وفى أحيان أخرى ينتحل شخصية سكرتير خاص أم كلثوم ويقول (الست فى السينما) • (الست معزومة بره) •

والسبب فى هذا تقارب أرقام التليفونين ••

مقهى أم كلثوم

وفى ١٩٦٥/١٢/١ نشرت آخر ساعة أن مقهى التوفيقية المشهور بحبه لأم كلثوم ، به جهازان للتسجيل و ١٥٠ شريطا و ٦٠ أغنية •

وهذا المقهى ثلاثة أدوار • ومن الظريف أن به جرسونا ـ بالنحو « نادلا » ـ اسمه سيد غريب النواوى يسمونه فى المقهى المدير الفنى لأنه المسئول عن اذاعة واختيار الأغانى • وهذا « السيد » يحظى باحترام شديد يصل الى حد التملق من زواد المقهى ليحقق رغباتهم واذاعة أغنيتهم المفضلة •

ان مقهى التوفيقية يستهل اليوم بالقرآن الكريم ثم يأخذ فى اذاعة اغانى أم كلثوم بعد هذا الى منتصف الليل •

وقد أشار الى هذا المقهى « ديزموند ستيوارت » فى كتابه : Cairo على أنه أحد معالم القاهرة •

البلاد العربية وأم كلثوم

وفى سنة ١٩٦٥ تواترت الأخبار عما تفعله البلاد العربية بدورها . فقبل حفلتها تحجز الطائرات القادمة من البلاد العربية وبعضهم يحجز التذاكر بالتلغراف .. ومن تفوته الطائرة يحرص على التسجيل حتى أولئك الذين يعيشون فى الصحراء ينحرون الخراف ليلة الحفلة ويطيب (الأرز السليج باللبن والمرق) ويتم التسجيل .

انها بترول مصر الذى ياتى لها بالدولار والاسترلينى

وفى العراق يغلق شارع (أبو نواس) وهو شارع الفن فى بغداد ، أبوابه ليلة حفلة (أم كلثوم) . وتسأل عن السبب فيقولون : ان أصحاب المقاهى والملاهى يرون أن من حقهم أن يتفرغوا تماما فى تلك الليلة لسماع أم كلثوم فى هدوء بعيدا عن ضجيج الزبائن .

وفى سنة ١٩٦٥ (٣/١٠) ودعت الحياة السيدة منيرة المهدية . وكان وفاتها كانت حافزا لتذكرها لا لنسيانها اذ طالب الأستاذ عبد الفتاح البارودى بانشاء فرقة للأوبريت يطلق عليها اسم منيرة المهدية .. باعتبار أنها أقامت مسرحا ، وشاركت فى وجود مسرحنا الغنائى الأول .

رحيل القصبجى :

وفى عام ١٩٦٥ أصيب القصبجى بالشلل ولم يمهله المرض طويلا فقد توفى عام ١٩٦٦ .

لقد لحن القصبجى مئات الألحان ولأم كلثوم وحدها منه أكبر نسبة بين المطربين والمطربات ...

تقول الدكتورة سمحة الخولى :

(ان الرحلة التى ارتادها القصبجى (١) منـــذ أن لحن « ان كنت أسامح » و « ليت للبراق عينا » و « يا طيور » و« يا مجد» و«رق الحبيب» ليست رحلة عادية توجهها احتياجات السوق ، ولكنها حلقات لتطوير فنان موهوب ، متفتح للبحث والتجديد داخل اطار شرقى أصيل ·

فحياة القصبجى سلسلة من المحاولات الناجحة لاثراء الألحان العربية بطاقات تعبيرية وتطوير وسائلها التى يتعامل بها وهى الصـــوت الغنائى والعود · وهو صاحب مدرسة جديدة وثقت الصلة بين الكلمة واللحن ·

ارتفع القصبجى عن مرحلة التلحين الشعبى البدائى التى تقتصر على لحن واحد لكل (مذهب) ، ولحن ثان يتكرر لكل (دور) أو مقطع شعرى مهما تغيرت المعانى ، وهدته فطرته المرهفة الى مبدأ التلحين المتصل · فكان يصوغ لكل بيت لحنا خاصا يعبر عن معانيه · وهذا المبدأ سر نجاح الكثير من أغانيه الشهيرة مثل (يا مجد ، ورق الحبيب) ·

هذا المبدأ هو الذى اتبعه كبار الموسيقيين الأوربيين فى القرن التاسع عشر فى تلحين أغانيهم الرفيعة (الليدر) · أما القصبجى فانه لم يتأثر فى ذلك بالغرب مطلقا ، بل توصل اليه بفضل طبيعته الحساسة المتفتحة وطبقه داخل الاطار الشرقى ، وبوســـائله القاصرة على النغم والايقـــاع وحدهمـــا ·

عزف القصبجى العود فى تخت أم كلثوم ٤٢ عاما بعد أن عزف فى تخت العقاد الكبير والشيخ سيد الصفتى ·

وكان القصبجى من أبرع عازفى العود (بلغ به مرتبة الفيرتيوزو · واستخرج منه عزفا رنانا براقا · وسخر طاقاته المتزايدة لمصاحبة الغناء ، كما بلغ بها ذروتها فى عزفه لتقاسيم كان يجوب فيها آفاق المقامات العربية بعلم وتمكن يشهدان برسوخه فى علوم تلك الموسيقى) ·

---

(١) لحن القصبى خمس أوبريتات منهـا أربع أوبريتات لمنيره المهدية وهى : (حرم المفتش ، كيد النســاء ، حياة النفـوس ؛ المظلوم) والخامسة لنجيب الريحانى (نجمة الصباح) ·

هذا الفنان كان أكبر أجر حصل عليه من أم كلثوم قبيل وفاته فى عام ١٩٦٦ ، ثلاثين جنيها عن الحفلة الواحدة ٠

هذا هو القصبجى الذى علم عبد الوهاب العزف على العود ، وعلم أم كلثوم العزف على أوتار القلوب ٠

رحم الله القصبجى فقد كان متواضعا تواضع الغصن المثقل بالثمار ٠

* * *

اهداء النيشان :

براءة النيشان :

وفى ١٨ ديسمبر سنة ١٩٦٥ أهدتها مصر قلادة الجمهورية ٠

وفى عام ١٩٦٦ (٢/٢) نشرت الجمهورية أن الدقهلية ــ بها فتاة سنها ١٤ سنة تحفظ أغانى أم كلثوم وتغنى فى المحافظة كلها على الرغم من أنها لا تعرف القراءة والكتابة ٠ والفتاة اسمها نجية سـلامة وهى ريفية ٠

وابتسم بعضهم وقال هل هناك وعد لمصر ؟

ولكننا لم نسمع عن الفتاة بعد هذا ٠

وفى ١٩٦٦/٢/٥ نشرت الجمهورية برقية طريفة بعث بها من شتورا السيد اللبنانى نجيب حنكش ونصها :

(هياكل بعلبك ، أعجوبة الماضى البعيد ، ترحب بقمة الطرب المعاصر وصاحبة الصوت المعجزة أم كلثوم أجمل ما نقشه الانسان على الحجر ، أروع ما خلقه الله من أصـوات البشر ٠٠ سيلتقيان على مدرج هياكل جوبتير ٠٠ أهلا بسيدة الطرب وأكاد أقول خاتمة المطربات وسهلا بمن تستعمر قلوب الملايين ، ولكن بالكلمة الحلوة والصوت الفريد) ٠

وردت أم كلثوم :

(شكرا لتلغرافك المزركش يا سيد حنكش) متفكهة من السجع في البرقية اللبنانية .

والصوت الفريد الذى تحدث عنه السيد حنكش وصفه فى مصر في الاسبوع نفسه ، الأستاذ كمال النجمي وصفا ظريفا وصـــادقا بأنه (صوت ذهبى بالمعنى الحرفى لهذه الكلمة فالصدأ لا يتطرق اليه أبدا ..

لقد استوفى صوت أم كلثوم نضجه منذ بداية الثلاثينات ، وامتلأ بالروعة التامة من قمته العليا الساطعة الى سفوحه الخضراء الفاتنة ..

أما (أراضيه) التى جرت العادة بتسميتها (القرار) فلم يتوقف عندها ملحنو أغانى أم كلثوم حينذاك ، لأن الثراء الأسطورى فى قمته وسفوحه أغرى الملحنين باستغلالها واستنفاد طاقتهم هناك) .

تقول أم كلثوم انهـــا فى طفولتها أحبت عروستها القطن فتعلن القائلون كلماتهم ولا يزيدون شيئا وكأنها شمس شوقى التى قال فيها :

ما كـلام الأنام فى الشمس الا   أنها الشمس ليس فيها كـلام

تقوم أم كلثوم انهـــا فى طفولتها أحبت عروستها القطن فتعلن الصحف الكبرى عن مسابقة عروســة أم كلثوم وترصد لها الجـوائز الـكبيرة .

ويطلق اسمها على المواليد .. وأى مواليد ؟ مواليد المشهورين القمم فى فنهم مثلها فاديبنا نجيب محفوظ كما أشرت يسمى ابنته فى النصف الثانى من القرن العشرين (أم كلثوم) ، الاسم الذى لم يعجب نساء قرية طماى الزهايرة من جارات أمها عندما قال به والدها .. وأرادت الفصيحات أن يستبدلن به اسم (خضرة) أو (بدوية) .

ان أم كلثوم عزيزة على المصريين لا فنانة فحسب بل انسانة مصرية ساهمت فى كل حركات الانشاء بمصر .. فعلى ايراد حفلاتها الخيرية تقوم الروابط والأندية وجمعيات الخير فهى منبثة فى كل ناحيـــة من بلدنا صوتا ، وعملا ، وبناء .

ام كلثوم ومصلحة الضرائب :

هذه الضجة الكبيرة يبدو أنها أيقظت مصلحة الضرائب وهى غير غافية .. فقدرت فى سنة ١٩٥٨ أرباحها عن سنة ١٩٥٢ ب ١١٫٣٨٦ جنيهـا .

وفى سنة ١٩٦٦ تقاضتها ٢٦ ألف جنيه عن حفلاتها بالكويت سنة ١٩٦٤ .

نشرت روز اليوسف فى ١٩٦٤/٤/٦ تحت عنوان : (دخل أم كلثوم ٤٦ ألف جنيه) تبين بعد صدور قانون الضرائب الخاص باعفاء ٢٥٪ من ايراد الفنانين أن دخل السيدة أم كلثوم بلغ فى الموسم الماضى ١٤ ألف جنيه من الحفلات و ٣٢ ألف جنيه من الاذاعة والتليفزيون ..

وتشير الصحف من وقت الى آخر الى تجدد النزاع بين أم كلثوم ومصلحة الضرائب التى لا ينجو منها أحد ولو كان ساحرا كأم كلثوم .

وفى عام ١٩٦٦ نشرت آخر ساعة أن فى الطريق أغانى تلغرافية لأم كلثوم لا تتجاوز الواحدة عشر دقائق استجابة لروح العصر .

وكأنها تورطها بذكاء ولكن الذى حدث أن أم كلثوم غنت (فكرونى) وهى واحدة فى الطابور الطويل من أغانيها الطويلة .

وفى عام ١٩٦٦ غنت لمصر (يا حبنـا الكبير والأول والأخير يا وطنى) وسجلت للكويت بمناسبة عيدها ، قصيدة « أرض الجدود » . شعر أحمد العدوانى تلحين السنباطى ، كما سجلت للكويت عام ١٩٦٨ فى عيد استقلاله قصيدة (يا دارنا يا منبت الأحرار) . وكانت درة اغانيها العاطفية لعام ١٩٦٦ قصيدة (الأطلال) شعر الدكتور ابراهيم ناجى وتلحين السنباطى .. وظلت الأطلال متوهجة بل انها طغت على كل لحن جاء بعدها .

وأم كلثوم فى هذه الفترة غنت لشعراء وملحنين جدد بل ممن يقفون فى منطقة الظل ، وكأنها تؤكد ان فنها لا يرتهن بأحد ، ولا يتوقف على أحد .. ليؤلف لها أى ناشىء ، ويلحن لها أى ملحن وستنجح **لأنهـا هى ام كلثـوم** .

لقد ظل الشاعر أحمد رامى ٣٥ سنة لا ينافسه فيها أحد ثم أعطى طريقا لغيره ٠٠٠ وأساله السبب وأنا أعرفه فيقول :

أستطيع أن أؤلف أغنية فى أى وقت ، ولكننى فى هذه الحالة أكون ناظما لا شاعرا ٠

ومن طريف قوله أنه يطيب له أن يتفرج على الأغنيات تصاغ لها ثم يطلع بين حين وآخر بأغنية ليقول الناس : ها هو ذا ٠٠ رامى ٠

ولكن الحقيقة أو هكذا يخيل الى أن الفتات الحلو الذى يشكل الأغنية مضى ٠٠ لم يعد رامى يعلم الشوارع التى تفضى الى بيتها وأيها (وشه حلو) ٠٠ لم يعد يتفاءل ويتشاءم ويغار ٠٠

وهو لا يستطيع فى شعره فيها الا أن يكون صادقا لا نظاما ٠٠ لقد وقف نفسه عليها فلم يؤلف لغيرها الا أغانى أفلام ٠٠ وأغانيه فيها حب صادق ٠٠انها قصة حبه كما يقول فى « ذكرياته » لهذا لم يقبض فيها ثمنا ٠

وهناك اعتبار آخر له اعتباره ٠ فزوجها كما يقول (صديقه وحبيبه وزميله فى السماع) :

(كان يميل على وأميل عليه اذا استخفنا الطرب ٠ أنا عرفته منها٠٠ انه طبيبها) ٠

ورامى لا يعتد من أغانيه الا بالأغانى التى كتبها لأم كلثوم ٠ أما الباقى مما كتبه لغيرها فى الأفلام فهو صناعة حتى أنه حين جمع ديوانه حذف منه أغانى المناسبات هذه ٠

ورامى الوحيد الذى لم يتقاضاها ثمنا يوما من الأيام ٠٠ ولكن الجزاء لا يضيع وان أتى متأخرا ٠ فقد جاء الأداء العلنى والأداء الميكانيكى فعوضاه بما لم يكن له فى حسبان ٠٠ ان دخله منهما نحو ١٠٠٠ جنيه فى العام ٠

والآن يتقاضى رامى ٤٪ من ثمن الاسطوانة ٠

لقد تقاضى رامى فى مبدأ الأمر عن أغنية « ان كنت أسامح » من شركة الاسطوانات جنيها واحدا ٠ وتحتفظ احدى شركات الاسطوانات

بعقد بينها وبين رامى قدره ثلاثة جنيهات ! فاذا صاح فيها مؤلف أظهرت الشركة عقد رامى فى خبث فلا يملك المؤلف الناشىء الا السكوت ٠

ويروى رامى أن الشـــاعر مأمون الشناوى كلمـا قابله قال له : « وكستنا » ٠ يقصد ماديا بالطبع ٠

كيف واجهت أم كلثوم هزيمة ١٩٦٧ :

وفى عام ١٩٦٧ أصـاب الذهول كل شىء ٠ تجمدت الكلمـات على الشفاه ، وتحجرت العيون وتصامت الآذان ٠ ولم يعد لأم كلثوم أو لأى أحد مكان مميز فى هذه الغمة ٠٠ لقد كنا نقول ان صوتها يجلو الأحزان ، ولكننا بعد يونية ١٩٦٧ تبينا أنه كان يجلو الأحزان الكبيرة التى تدخل فى طاقة الانسان ، أما حزن عام ١٩٦٧ فقد كان أكبر من صوت أم كلثوم لأنه حـــزن أكبر من طاقتنا ٠ لو وجدت بيننا عاقر لضـاقت بمناغاة طفل لها بعد طول حرمان ٠

وصمتت أم كلثوم مع الصامتين ٠٠

وبكت أم كلثوم مع الباكين ٠٠

ثم انتفضت كبرياؤنا الجريحة فتحرك كـل شىء من جـديد ليعلن انتصار الحياة وبعث ارادة المقاومة ٠٠

وتحركت أم كلثوم ٠

أخذت تجمع المال بيدها وبصوتها للمجهود الحربى ٠٠ فى بلادها ٠٠ وفى بلاد الآخرين حتى فرنسا ٠٠

بدأت الحياة المصرية تلملم نفسها المبعثرة المنفطرة ٠

وبدأت أم كلثوم ٠٠

ودارت من جديد دورة الفلك ٠

ومع الأيام ٠٠ سارت أم كلثوم ٠ ولكنها فى سيرها هذه المرة كانت تستهدف الواقع الجديد ٠

واستهدفت الواقع الجديد الكلمة فى سائر فنونها ٠ فانبثق عن نكبة ١٩٦٧ المسرح الغاضب الذى دعت اليه مسرحية الكاتب السورى سعد الله ونوس (حفلة سمر من أجل حزيران) ٠

وتمثل ايمان الغناء بالتراث ، فى العودة الى الفلكلور الشعبى ، كما تمثل فى المسرح أيضا دعوة الى احتضان التجارب والعروض الشعبية ذات اللون الخاص ٠٠ دعوة اضطلع بها توفيق الحكيم والدكتور يوسف ادريس ٠ وأنا أعنى هنا مسرح الحلبة الذى يجمع ألوانا من الفنون فى عرض واحد فيشمل القصة والرقص والغناء والموسيقى وألعاب التسلية ٠ وهذا اللون من العرض المسرحى هو بعينه مسرح الحلقة فى المغرب ، و (السامر) فى مصر ٠

كما دعا الدكتور الراعى الى المسرح المشترك أى الذى يجمع كما يقول ، بين الممثل والمتفرج فى عرض فنى واحد بحيث يصبح المتفرج فنانا مؤديا هو الآخر ، بدلا من مجرد مستقبل سلبى لما يعرض عليه ٠

لقد غدا المسرح العربى وجودا حقيقيا وحقيقة كبيرة ٠

وكما صعدت الكلمة الحرة الشريفة على خشبة المسرح، صعد الرقص الفنى الجماعى الذى يعتمد على المجموعة ويتجه الى المجموع ٠٠

وهذا اللون من الرقص المدروس المرسوم يستمد كالأدب والأغنية ، من التراث ، مادته وموضوعه ، كما يستمدها من الأحداث والهزات مثله مثل المسرح السياسى سواء بسواء ٠ فالرقصات المسرحية لوحات ملونة معطرة أو صيحات بالحركة لا بالصوت تدعو الى المقاومة والفداء ٠

وتألفت الفرق الشعبية والفنية وقدمت العروض المشرفة فى بلادها وخارجها كفرقة رضا وغيرها من فرق الفنون الشعبية ، فى سائر أنحاء الوطن العربى ٠


السبعينات

شربت أم كلثوم دموعها ٠٠ دموع النكســـة ، وهبت واقفة وراء المجهود الحربى ٠٠ قررت أن تجوب البـــلاد كايزيس فى محاولة للبعث واعادة الروح الى أوزوريس ٠٠ النيل والوادى ٠٠

رحلات وطنية :

سافرت أم كلثــوم الى باريس فى نوفمبر ١٩٦٧ لتغنى على مسرح أوليمبيا ، معلنة بصنيعها رفض الهزيمة ٠

وسهرت باريس مع أم كلثوم ٠ سهرت محطة الاذاعة بها الى الرابعة صباحا ! لكى تذيع حفلتها على موجات اذاعة القاهرة ٠

والتف حولها المصريون والتف حولها العرب من كل مكان ٠٠ طارت أسرة مغربية من سبعة أعضاء الى باريس وكلفتها التذكرة الواحدة مائة جنيه استرلينى ، وتبارت الصحف الفرنسية الكبرى فى وصفها ٠

وغادرت أم كلثوم فرنسا خير سفيرة لمصر والعرب • ولا تنسى أن ترسل الى الرئيس ديجول برقية تؤكد احساسها برسالتها •

(قبل أن أغادر فرنسا العظيمة أحيى فيك وقوفك مع العـدالة ، وفي جانب السلام) •

ويرد عليها الرئيس ديجول :

(لقد لمست بصوتك أحاسيس قلبى وقلوب الفرنسيين جميعا) •

اكبر كثيرا من مطربة •• أم كلثوم •

وفى عام ١٩٦٧ غنت قصيدة (حديث الروح) لشاعر الباكستان الكبير محمد اقبال ولحن السنباطى •

وفى نوفمبر سنة ١٩٦٨ قررت أن تغنى وصلتين فقط فى حفلاتها بدلا من ثلاث •

ونفذت هذا فى حفلة ديسمبر ١٩٦٨ •

وفى هذه الفترة نشرت الصحف (آخر ساعة) ، أن أم كلثـوم صرحت بأنها ستغنى ملحمة السيرة النبوية ، وتتخلل هذه السيرة بعض الآيات القرآنية المتصلة •

فهل تستهل أم كلثوم حياتها الفنية بالسيرة النبوية ثم تعود اليها بعد انجازات كثيرة متنوعة على مدى السنين •• ؟ سؤال لاح فى ذلك الوقت ••

وفى عام ١٩٦٨ فازت أم كلثوم بجائزة الدولة التقديرية وجاء فى حيثيات الحكم أن :

(أم كلثوم قدمت الى الدولة فى جميع المناسبات القومية صورة من تفاعل الفن وتجاوبه مع الأحداث الكبرى ، وأنها أشاعت التذوق الجمالى عن طريق اللحن والنغم بصوتها الفريد ، الأمر الذى فرض نفسه فنيا على جميع المستويات المحلية والعالمية) •

وقال المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية :

(ان أم كلثوم استطاعت أن تعمق معنى الكلمة العربية وتوصلها الى النفوس عن طريق أدائها المميز ، واستطاعت أن تضيف الى التاريخ الفنى مدرسة تعتمد على صفات لها قيمة فى استمرار التراث الفنى ، وفى نفس الوقت بعيدة عن التجمد ، مما أعطاها التطوير الحي المستمر) .

وتنازلت أم كلثوم عن القيمة المادية للجائزة التقـــديرية وقدرها ٢٥٠٠ جنيه لصالح صندوق معاشات الفنانين .

وفى عام ١٩٦٨ قيل انها وافقت على الاشتراك فى فرقة الموسيقى العربية فهلل عشاق سيد درويش لهذا النبأ وقالوا (ستخلد أغانى سيد درويش الشعبية اذا غنتها أم كلثوم ، كما خلدت الأغانى الشعبية الايطالية عندما غناها المطرب الايطالى العظيم كاروزو) .

وفى ٤ يونية سنة ١٩٦٨ أهدتها تونس وسام الجمهورية الأكبر . كما منحتها مصر جواز سفر دبلوماسى تقديرا وعرفانا .

وفى عام ١٩٦٩ غنت فى ليبيا فى طرابلس وبنغازى .

وفى ٢ يولية سنة ١٩٧٠ خلا وراءها أهم مقعد فى فرقتها الموسيقية اذ انتقل الى رحمة الله الفنان عبده صالح الذى طالما صاحبها بقانونه عندما (تتسلطن) أو يتسلطن النغم .

وفى عام ١٩٦٩ غنت طقطوقة (اسأل روحك) لعبد الوهاب محمد والموجى .

وغنت مونولوج (أقبل الليل يا حبيبى) لرامى والسنباطى .

ومونولوج (ألف ليلة وليلة) لمرسى جميل عزيز وبليغ حمدى .

وقصيدة مصر (أجل ان ذا يوم لمن يفتدى مصرا) للدكتور ابراهيم ناجى والسنباطى . ولكن مصر فى هذا العام خسرت خسارة لا حدود لها فقد احترقت الأوبرا واحترق معها تاريخ وآثار فنية لا تعوض .

وفى ٣٠ يونية ســـــنة ١٩٧٠ غنت فى بعلبك حفلتين . وسجل التليفزيونان الانجليزى والفرنسى حفلتها الأولى كاملة لعرض لقطات طويلة منها فى لندن وباريس .

وفى سنة ١٩٧٠ بدأت تتألق مطربة مصرية جديدة هى « عفاف راضى » وتتوالى أغنياتها الخفيفة • وكانت أول أوبريت تشترك فيها بنجاح كبير : « أوبريت يس ولدى » التى عرضت سنة ١٩٧١ • وهو العام الذى قدمت مصر فيه صوتا جديدا آخر من معدن صوت عفاف راضى ••• صوت زميلتها فى معهد الكونسرفتوار « سهير حشمت » والصوتان مدربان تدريبا أوبراليا وهما بهذه الصفة مثقفان ثقافة موسيقية •

وفى عام ١٩٧١ بدأ الملحن المصرى سيد مكاوى ينضم الى الصف الطويل من ملحنى أم كلثوم • فقد بدأ يضع لها لحن أغنية « يا مسهرنى » التى استغرق تلحينها عاما كاملا اذ غنتها لأول مرة فى مارس ١٩٧٢ • وكانت يقظة منها أن تستفيد بهذا الملحن الذى بدأ فى هذه الفترة يتألق وتسرى ألحانه فيما وضع من مسرحيات استعراضية • ويمتاز كسميه سيد درويش باستقاء ألحانه من نبض الحياة المصرية • فهو فى ألحانه مصرى عربى شرقى مسلم فيه من القرآن حلاوة الغنة والوقف والمد لأن القرآن اذا كان أساسا ، قوم اللسان وأشاع فى صاحبه حسن التوقيع والترجيع ، والتنغيم والترخيم •

واجتمع لسيد مكاوى مع الموهبة وذكاء الفطرة فيه ، ذكاء الاحساس ، واحساسه مركز فى أذنه لأن بها يرى ويسمع • ومن كانت آذانهم لهم عيونا ، ملتهبوا الرغبة فى السماع •

وسيد مكاوى عواد طيب مما يعينه على التلحين • وهو واسع المسموع والمحفوظ من الألحان القديمة •• الموسيقى عنده ركيزة وحصيلة ضخمة • وهو يتمتع بصفة اذا رزقها الفنان فقد أوتى خيرا كثيرا وأعنى سرعة التمثل وحلاوة الانتخاب • ولعل هذا السر فى أنه لين فى ألحانه ليس عنده النقلة الفجة بين المقامات وهو لا يكرر نفسه ففى داخله نهر يغترف منه ••

وسيد مكاوى ممن يعيشون ألحانهم وتعيشهم الألحان • ولهذا نحس فى صوته عندما يغنى ، (ختة) الامتزاج والمزاج •• والروح •

لقد كان أعلامنا سيد درويش ومحمد عثمان وأبو العلا أصواتا قيمتها ليست فى الجمال ولكن فى « الروح » والاحساس الصادق المشحون • وكم من خط حسن ومعنى ردىء ومحتوى فارغ ••

هذا اللحن الجديد على أم كلثوم فيه الأصالة المصرية والعذوبة المصرية ..

لحن لها سيد مكاوى أغنية « يا مسهرنى » من مقام الرصد ، وكثيرا ما تذكرنى هذه الأغنية بأغنية أم كلثوم الجميلة : (يا طول عذابى) . لعل هذا للمشابهة بينهما فى أكثر من موضع فمن مقام البياتى نغمة :

يا ناسينى وانت على بالى   وخيالك ما يفارق عينى

ومنه فى الأغنية القديمة :

بعد الحبيب ولو انه يطول   وانت يا قلبى كلك أمانى

ومن مقام « الكورد » : يا مسهر النوم فى عنيا فى « يا مسهرنى » .
ومنه فى « يا طول عذابى » : أصبر مع الأيام تتحقق الأحلام .
ومن مقام « النكريز » فى « يا مسهرنى » تعالى خلى نسيم الليل .

واغنية (يا طول عذابى) لحنها السنباطى من مقام « النهاوند » ومقامات « النهاوند » و « النكريز » و « نوا أسر » أشقاء .

وطلبت أم كلثوم من سيد مكاوى فى ليلة اذاعة الأغنية أن يحضر ليصلح آلات العازفين فحضر واذا به يجدها كعادتها تصلح الآلات بنفسها وانتظر .. وكانت مفاجأة له عندما فتحت الستارة أن قدمته للجمهور . وهنا تبين قصدها الحقيقى ..

وأسرته اللفتة .

وفى ديسمبر عام ١٩٧١ غنت أم كلثوم فى (أبو ظبى) لتضيف الى عطائها للمجهود الحربى ٢٤ الف جنيه استرلينى .

وفى يناير ١٩٧٢ منحتها مصر لقب (فنانة الشعب) وقد أهدى اللقب أيضا الى محمد عبد الوهاب ، ويوسف وهبى .

وفى هذه الفترة تالقت شادية فى اللون الوطنى . وكان صوتها الذى اشتهر فترة طويلة بالأغانى الخفيفة المرحة ، قد رشد وشب وتواصل على الطريق ، ومن أحب الأغانى بعامة (يا حبيبتى يا مصر) و (يا أم الصابرين) ..

وفي السبعينات غنت أم كلثوم لشعراء المنطقة فمن السودان غنت للشاعر الهادى آدم (أغدا ألقاك) ، ومن سوريا غنت لنزار (أصبح عندى الآن بندقية) ، ومن لبنان غنت لجورج جرداق (هذه ليلتى) ، ومن باكستان (حديث الروح) شعر محمد اقبال وترجمة الأستاذ الصاوى شعلان .

ومن السعودية غنت عام ١٩٧٢ للشاعر الأمير عبد الله الفيصل قصيدة (من أجل عينيك) . وكانت غنت له قبل هذا قصيدته : (أكاد أشك في نفسى) .

* * *

وبعد العدوان أصبحت أم كلثوم عنوانا ثابتا فى الصحف فهى تدعو السيدات الى التجمع الوطنى . وهى تجتمع بالصائغين لحثهم على التبرع بالذهب وتنتقل لجنة التبرعات بالذهب ببنك القاهرة الى منزلها لتتسلم مجموعة المصوغات المتبرع بها من سيدات التجمع الذى ترأسه .. ومن بينها اسورة كبيرة لها مرصعة بالماس . وعقد عبارة عن سلسلة ذهبية مجدولة طولها متران وساعة ذهبية وعقد آخر مرصع بالماس .

وعندما طافت بالمحافظات تغنى للمجهود الحربى تسابقت المحافظات فى تكريمها . فمحافظة البحيرة فى حفلة دمنهور طبعت التذاكر باسمها .. كما تقدم رئيس مجلس المدينة وقدم لها مفتاح مدينة دمنهور الذهبى تقديرا لدورها فى حياتنا . وكانت هذه هى المرة الأولى التى تهدى فيها دمنهور مفتاحها لانسان .

اما البلاد العربية فقد تنافست فى تكريمها . ففى السودان صلى الناس فى المسرح أثناء غنائها شكرا لله . وزارت مدرسة فأطلق اسمها عليها ونظمت لها الاستقبالات الرسمية والشعبية .

ويقول فيها شاعر السودان الكبير الشاعر محمد المهدى المجذوب :

منابع النيل أعشاش وأجنحة ... من صوتك العذب حيانا وأحيانا
أمسى على الشرق ميعادا نخف له ... ونستريح به أهلا وأوطانا
يا أم كلثوم هذا النيل خضرته ... فيض بصوتك أعطارا وألوانا

يا نخلة النيـــل أثمـــارا وعافية هاتى لنا شعرك المعسول ألحـانا
ورقرقى اللغة الفصـــحى بشاطئه وزودى العرب الأحـرار بســتانا
رفعت منـــه لواء فى ملامحـــه ما خلد النيـــل ابداعا واحســانا

وفى الكويت رشوا عليها العطر واستقبلتها الجامعة واستقبلها قصر الحاكم وقدمت الاذاعة اليابانية بمناسبة زيارتها للكويت برنامجا خاصا عنها فى ١٢ دقيقة (أبريل سنة ١٩٦٨) • وكانت هذه هى المرة الأولى التى تقدم فيها الاذاعة اليابانية (ن•هـ•ك) برنامجا عن فنان عربى •

ومنحها لبنان ١٩٦٨ وسام الاستحقاق •

كما منحتها الباكستان وسام (نجمة الامتياز) تقديرا لغنائهـــا قصيدة اقبال « حديث الروح » • وهو أرفع أوسمة الباكســـتان ولم يسبق اهداؤه لشخصية غير باكستانية بل ان من يحملونه من كبـــار الباكستانيين الذين قدموا للدولة أجل الخدمات فى مختلف العــــلوم والفنون لا يتجاوز عددهم أصابع اليدين •

وفى المغرب قدم لها أهل مدينة فاس شـــمعة خضراء طولها متر مرصعة بالذهب رمزا للحب والاعجاب • وسجلوا كالسودان وتونس المواليد الاناث فى أسبوع زيارتها باسم « أم كلثوم » •

وفى المطار اضطرت سلطات الأمن الى استدعاء جنود الجيش لكى تستطيع أم كلثوم أن تقطع المسافة بين الطائرة وصالة المطـار والسيارة التى تنتظرها خارج المطار •

وفى مراكش كانت تقف فى خيمة الملك الأنيقة وقد حشدوا لهـــا ١٥٠٠ راقص وراقصة واستقبلوها باحدى رقصاتهم الشعبية بما يصاحبها من غناء •

وفى تونس احاطوها فى المسرح ببستان من زهور القرنفل روت الصحف فى حينها أن عدد الزهور بلغ ٢٨٠ ألف زهرة • وفى الحفلة الأولى وزعت مناديل تونسية عليها صورتها

وقد منحتها **تونس** وسام الجمهورية الذى لا يمنح هناك الا لرؤساء الدول بل عزفوا لها السلام الجمهورى من باب الاستثناء ايضا كمـا أطلق

اسمها على أحد شوارع تونس · وشارع أم كلثوم أو (نهج أم كلثوم) كما يسمونه فى تونس يربط بين شارع قرطاج وشارع الجمهورية ·· يقع فى حى الفنون ، ويتقاطع مع شارع العظيم ابن خلدون ·

وفى تونس تبارى الشعراء فى صوغ القصيد تحية لها ·

ترسلين اللحن ترياقا لأرواح شقيه
كم شفى اللحن نفوسا زادها الطب بلية
يا لها ليلة أنس من لياليك هنيه
يوم حلت كوكب الشرق ورمز العبقريه
سوف لا ننسى جميعا قصة الحب الشجيه
أنت عمرى فكرونى بين أطلال خفيه
يا عروس النيل يا من أنت باللحن حبيبه
أن يكن للخلد لحن أنت لحن الأبدية

وفى باريس عملوا لها صورة بالحجم الطبيعى بالأنوار النيون فى جميع شوارع باريس المهمة · وعقدوا لها مؤتمرا صحفيا كانت الصحافة فى العالم كله ممثلة فيه ·

ويقيم الفنان العراقى مقبل الزهاوى سنة ١٩٦٨ معرضا للوحاته فى جنيف فيصطحب مع لوحاته أغانى أم كلثوم لتكون أنغامها خليفه لصوره المعروضة ·

انها فنانة الجميع على امتداد الشرق العربى فنانة مصر وفنانة العرب فى سائر بلادهم · وهى فى مصر مطربة المثقفين والبسطاء ·· المتصوفين والعشاق ·· الجيل القديم والجيل الجديد ·· الرجال والنساء ·· الكل تقريبا يلتقون على صوتها على ما بينهم من تفاوت فى السن والتفكير

تودعها الصحف جميعا اذا سافرت ، وتستقبلها جميعا اذا عادت بأسلوب النابغة فهي (كوكب الشرق) وهي (الشمس) وهي (مصر تعود الى مصر) وهي (الأسطورة) و (المعجزة) و (راهبة الاسلام) وهي (تفوق رابعة العدوية) بوصفها راهبة في محراب الحب والايمان في دنيا طغت عليها المدنية والمادية !!

وهي (صاحبة السحاب) • فمن يؤلف لها فهو شاعر السحاب وملحنها ملحن السحاب • وهي التي توجه الشعراء وتعدل لهم ! وتدخلهم منطقة الضوء أو تنقلهم من منطقة الظل • ويبدو أنها تعدل بينهم في هـذا لا فرق بين كبير وصـغير • فصـحيفة الأهرام الوقور طلعت يوما بعنوان كبير :

(أم كلثوم تضيف اسم اقبال الى قائمة الخالدين) !! كان اقبالا ينقصه الخلود أو التخليد •

بل أدخلوها في عداد الظواهر غير الطبيعية ، لا في الصـوت فحسب فهذا مقبول ، ولكن في التفكير أيضا ! مع أن أم كلثوم عندها من سخاء الموهبة الفنية الجميلة ما يثنيها عن ضلاعة التفكير وجهامته ولكن السادة الصحفيين لا يريدون أن يتركوا أهل الفكر والفلسـفة في هدوء •

حتى الاقتصاد زعموها تتحدث فيه لمجرد أنها تقف مع رجلين من رجاله في حفلة السفارة المصرية !

ونشرت صحيفة يومية سيارة عن أحد الشعراء حديثي العهـد بأم كلثوم أنه يقول عنها انها (شاعرة وأديبـة وكاتبة وسيدة تفكر بعقلية كبار الفلاسفة وأنها تستطيع — وهي تغني — اذا نسيت بيتا من الشعر أن ترتجل لفظا جديدا لا يقل روعة عن البيت الذي نسيته ان لم يزد !!

وانصافا للحقيقة أقول ان الشاعر قال هذا الكلام عندما زفوا اليه أن أم كلثوم ستغني — وكان ذلك للمرة الأولى بالطبع — قصيدته •

لقد استخفه الفرح •

وغدت أسطورة :

نالت أم كلثوم في دنيا العمل ، ما تتمناه بل لعله أكثر مما خطر لها فخلعت عليها الألقاب والصفات بلا حساب حتى مالا تدعيه منها ـ من مثل نسبتهم اليها الشعر والنثر ـ وأطلق اسمها على الشوارع خارج مصر وسمى باسمها المواليد فى السودان كمصر ، ونظمت لها المواكب وأحاطت بها عدسات التصوير وسارت فى ركابها بعثات التليفزيون والاذاعة والصحافة والسينما • وتجمع حولها مندوبو وكالات الأنباء فى كل بلد تحل به • وعقدت لها المؤتمرات الصحفية وصنعت لها التماثيل الكاملة (تمثال السجينى) • كما صنع لها مختار من قبل تمثالا نصفيا • وكان الفنان مختار يقول فى مجالسه الخاصة ان وجه الفلاحة فى تمثال نهضة مصر ، قد استوحاه من وجه أم كلثوم • ان الفلاحة فى بلدنا أعظم مصرية • وأم كلثوم أعظم فلاحة • بل ان صحيفة الوطن الكويتية دعت سنة ١٩٦٦ الى اقامة تمثال لأم كلثوم فى احدى ساحات الكويت الرئيسية •• وحرص الفنان طاهر على رسمها فى أكثر من صورة • ورصع صدرها بالأوسمة والنياشين وكرمتها الدول والشعوب فى اجماع يشتهيه الملوك • وأوقفت عليها برامج دائمة فى الاذاعة ، وحملت الصحف لها المباخر وأنشئت باسمها النوادى والجمعيات للمعجبين بل ان مصلحة البساتين أطلقت بدورها ، اسمها على نوع من المانجو تعهدته بالتطعيم والرعاية فسمته (مانجو أم كلثوم) ، ودرس صوتها فى كلية الهندسة ، وأهديت لها مفاتيح المدن من الذهب الخالص ، وأوحت الى الكتاب والشعراء فى مصر وخارجها • فكتب توفيق الحكيم مسرحية تدور حولها (كتاب مسرحيات توفيق الحكيم) وألف عنها وزير المعارف الباكستانى كتابا باللغة الأردية • ووضع عنها احمد الحفناوى قطعة موسيقية سماها (أم كلثوم) • وأهدى اليها الأستاذ عبد المنعم الصاوى كتابه (طويل يا زمن) الذى يحكى تاريخ مصر عبر آلاف السنين • وفى اهداء كتاب كهذا معنى أنها معلم من معالم مصر وبضعة من تاريخها • وأصبحت (تقويما) ثالثا فقالوا ان السنة تبدأ بحفلها وتنتهى بحفلتها الختامية أى سنة غنائية الى جانب السنة الشمسية والسنة القمرية •

وكما كان البسطاء منا ينسجون الحكايات عن سعد باشا عند قيام الثورة المصرية سنة ١٩١٩ كقولهم ان البطيخ فى الحقل مكتوب عليه

يحيا سعد باشا فقد تولت الصحافة المصرية هذه المهمة المسلية فقرأنا عن الفراشة الملونة التى لزمت صدر أم كلثوم وهى تغنى (فات الميعاد) ، والحمامة البيضاء التى لزمت المسرح وهى تغنى (الأطلال) ٠

انها عبادة البطل المتأصلة فى الشعوب العاطفية ٠

بل ان مجلة فرنسية هى Jeune Afrique أى (افريقيا الفتاة) جعلتها صورة الغلاف وكتبت فوق الصورة أم كلثوم معجزة الكون ٠

* * *

أحيطت أم كلثوم بهالة من التقديس جعلت نقدها شائكا بل جريمة يحقق بسببه مع الاذاعات التى اجترأت عليه ٠ أصبح صوتها فى كافة الاذاعات العربية كالهواء لازما للأحياء حتى تعيش ، فأينما أدرت مفتاح الراديو وجدت أم كلثوم على امتداد رقعة الوطن العربى ٠

وأخيرا نشرت الصحف أن أحد البنوك الألمانية قرر طبع عملة ذهبية خاصة على وجه منها صورة أم كلثوم تتوسط زهرة اللوتس وملاك ينفخ فى أرغول ، وعلى الوجه الآخر صور فرعونية ٠ وذلك شأن عظماء الدول ٠

لقد شاركت أم كلثوم فى الأحداث وارتفعت الى مستواها فرفعتها مصر الى « قيمة » قومية ٠ ومنحتها فى أبريل سنة ١٩٦٨ جواز سفر دبلوماسيا وهو اول جواز سفر دبلوماسى يمنح لفنان مصرى ٠ وهو أقصى ما يصبو اليه الانسان فى وطنه وبين قومه ٠٠ أن يكون رمزا ومعلما ٠


شخصيّة
أم كلثوم

السر الكبير :

ان سر أم كلثوم أو معجزتها .. **فى الاستمرار** .. فى الصمود .. فقد تخطت بنجاح ومقدرة السن التى يعجز فيها غيرها ويبلى ، أو على الأقل تدب فيه عوامل الفناء .

ووراء أم كلثوم عاملان كبيرا الخطر فى حياتها : **البداية المبكرة** .. غناؤها طفلة فى سن اللعب فعركتها الأيام مبكرة . واختزنت الكثير من التجارب وعرفت الحياة والناس بادراكها وادراك ابيها واخيها معا . فقد كانا يلازمانها ملازمة الظل . وهذه الملازمة تعنى الحماية والتلقين والتبصير والتوعية .

هذا حين بدأت الاخريات فى سن كبيرة بلا مجهود سابق سلاحهن الاكبر الجمال والأنوثة وهو سلاح بتار يعمى عن الطريق الصحيح . فضلا عن انه سلاح موقوت سريع العطب .

وقفة ابيها واخيها وراءها حمتها من السقوط والانحراف الذى تتعرض له فى الوسط الفنى كل فتاة غريرة ساذجة طيبة قادمة من الريف او حتى من المدينة .

لقد التف حول أم كلثوم فى تباشير الشهرة الكثيرون وزاد عددهم مع الايام بتالق نجمها . وفى هؤلاء ككل مجموعة الطيب والخبيث ولكن الكل كانوا يحسبون «للحارسين» ألف حساب . كما كانت هى نفسها

بالطبع تحسب حسابهما كأسدين رابضين حتى اذا فرق بينها وبين أبيها .. ثم أخيها ، الموت ، كانت فى السن الناضجة القادرة على التمييز .

يضاف الى هذين العاملين عامل لايقل خطرا وهو **الذكاء الفطرى والموهبة الاصيلة والاستعداد الطبيعى** .. الذى يغـذى الطموح ويعين عليه .

الذكاء الذى حدا بها فى البـداية الى تثقيف نفسـها فتعلمت ولو بالتلقين الفرنسية ودرست العربية ثم عكفت على دراسة الانجليزية حتى احسنتها أو نالت قدرا لاباس به قبل سفرها الى أمريكا للعلاج .

عصامية أم كلثوم من معدن عصامية العقاد فكلاهمـا كون نفسـه بنفسه فى اصرار عنيد وعتيد ..

وكلاهما خرج من هذه الارض واختلط بترابها وعرقها وأحداثها وايامها .. عاش بها ولها .. حتى اذا استوى ، أحسست ان داخل كل منهما مسلة او مئذنة من سراوة العود ، وتكثيف المجهود ، وعمق المعنى والدلالة .

كلاهما صنع تاريخه وتاريخ أمته معه ، فى مجاله ، على طريقة بناء الهرم الاكبر حجرا حجرا فى التحام سره خاف بعـد كل التفسـيرات والاجتهادات .

كلاهما ابن بيئته ... وبيئتهما زراعية منذ القدم . فزرع كل منهما نفسه وكان المحصول وفيرا بمقياس الحجم والقيمة معا .

كلاهما ابن بيئته التى ابتدعت الرهبانيـة فى المسيحية واسست التصوف فى الاسلام . وترهب العقاد .. وترهبت أم كلثوم حتى تجاوزت الخمسين ! فى مجتمع يقيس شباب المرأة بالثلاثين الأولى من عمرها . وان تسامح احتسب لها عشرا أخر .. هذا فى المدينة .. اما الريف حيث تتزوج الفتيات بعد العاشرة فالخمسون نهاية .. ولكن أم كلثوم جعلتها بدايات شتى .. ومنطلقات شتى ..

وكالراهب فى الخلوص الى شىء .. والعـكوف على شىء ، خلص العقاد للفكر .. وخلصت أم كلثوم للفن وأخلصت .. فكانت «ظاهرة» .

يقول القصبجى (انها تحفظ أقوى الألحان فى جلستين اثنتين وهذا يعد فى نظرى احدى خوارق أم كلثوم) .

لقد بدأت بداية علمية لا من عمل المدرسة بل من تلقين الفطرة .
لقد غنى الآخرون فهلوة وارتزاقا ، ولكنها وصلت الى ساحة الغناء بعد ان قطعت طريقا طويلا من التدريب المضنى والتلقين والتمرين والكفاح الذى شقيت به فى حينه . ولكنها تحمد له بلاشك مااختزنته خلاله من التجارب والخبرات والوان العيش والحياة ، والدربة على الجلد الطويل ، والصبر على الكمال ، وعبادة العمل والبذل له فى ولاء واصرار .. واكبار .

هذا الذكاء والاستعداد واللقانة الفطرية هذه العوامل التى جعلت أم كلثوم تصل حين تخلفت فتحية أحمد وهى صاحبة صوت جميل قوى له طاقات قادرة . وقد أعطاها رامى اللفظ كما اعطاها السنباطى اللحن .. المؤلف نفسه والملحن نفسه اللذان ظاهرا أم كلثوم ولكن الوسيلة وحدها لا تجدى بدون سند من « الشخصية » . والكلام نفسه يطبق بسهولة أسهل على منيرة المهدية التى استوت يوما على عرش الغناء بجدارة ومع هذا فانى أعتقد أن نهايتها كانت « حتما » حتى ولو لم تظهر أم كلثوم .. يكفى أنها كانت لاتحترم جمهورها . فكم مرة ردت له ثمن التذاكر لانها (مالهاش مزاج) او لأن عدده بسيط لا يناسب المقام . يكفى هذا السلوك سببا للتنفير وعزوف كل من يحترم نفسه .

شريط عجيب حياة أم كلثوم .

فمن وقفة الكنبة البسيطة العفوية الى وقفة تقليدية خاصة بها .. وقفة ابهة وفخامة ..

ومن البالطو والعقال والكوفية الى الفستان الذى يتكلف مئات الجنيهات .

ومن الحمار الى السيارة الكاديلاك المجهزة كما تقول الصحف بثلاجة وتليفون وتليفزيون .. ثم الطائرة الخاصة ترسلها دولة من الدول كما حدث فى رحلة الكويت وتونس .

ومن البيت أو الكوخ الى فيللا الزمالك التى تتملى النيل ...

ثم استعلاء على الحرمان الاول والفقر والعذاب .. استعلاء

يتحدى بمجموعة ثمينة من الماس تتحلى بها دفعة واحدة ٠٠ حلق طويل يمكن أن يصاغ من فصوصه عشرات الحلقان الثمينة أيضا ٠ وبروش فخم يمكن ان يوزع اقباسا ، وخاتم سولتير يساوى وحده ألوفا من الجنيهات ٠

الشيء الوحيد البسيط فيها هو تسريحة شعرها ٠ ولعل هذا يؤكد التفسير السابق ولايتنافى معه ٠ فشعرها منذ خلقه الله غنى ٠٠ غنى بنعومته وغزارته ، فهو فى غير حاجة الى «الاضافة» .

ان أم كلثوم بزيها وحليها مجموعة كنوز ٠ غير ان كنوز المال هذه تتضاءل الى جانب الكنز الذى أودعه الله فى حنجرتها ٠ فى الصوت الذى فيه من شخصية مصر وخيرها وقبابها ومآذنها وهرمها وفيه شىء من فن زخرفة مصر الاسلامية ونقشها المطعم بالصدف .

ومن أجل هذا الصوت ترهبت أم كلثوم فى محراب الفن ٠ وهو دليل نفاذ ووعى منها ٠ وقديما كانت هوليوود تحرص على تجريد الفنان ما أمكن من عموميات الحياة فى عين الجماهير ليظل فى العين صورة لها سر المكنون وجماله ٠٠ وقد وصلت أم كلثوم الى هذا ٠٠٠ فان صورتها متوحدة ، خالصة للفن ، نقية تمس القلوب اذ تشعرها التضحية ، وتأسر العقول اذ تشعرها قوة الارادة ٠ واذ وقر فى النفوس هذا الاحساس بها ، أمعنت فى حبها وأحاطتها بهالة الحب التى تضفى وتضيف ٠٠٠ انها مثال حبيب فى الحياة له معان ٠٠ مثال **فذ لا يتكرر ٠٠ على الأقل بسهولة** ٠٠ مثال يشيع الأمل ويلهب المشاعر المشبوبة ٠

ان أم كلثوم فى عزوفها عن الزواج فى مرحلة تكوينها الفنى تذكرنى بالفنان توفيق الحكيم ٠ ٠ففى سبيل تحقيق الذاتية الفنية آثرت مثله العزوبة حتى لا تنعطف أو ترتبك ٠٠ حتى لا تشغلها الأسرة ولا يستنفدها انجاب الأولاد وتربيتهم ٠٠٠ حتى لاتكون الوسط المكرر وقد أضمرت أن تكون العلم الفرد فى مجالها ٠٠ فلما انصبت حياتها فى القالب ٠٠ قالبها الفنى حتى لم يعد يخشى عليها اى مؤثر ٠٠٠ وحين كانت من السن فى منطقة الأعراف ، تزوجت بعد أن اطمأنت على نفسها ٠٠

وتقبل الناس زواجها في هدوء وفرحة حين كانوا يرفضونه قبل هذا ... انها في المكان الأشم بحيث لا يلوى بها شيء ، فمم تخاف الجماهير !

ان أم كلثوم نموذج عال من صور الكفاح النفسي والعملي . ولأمر ما كان يقول العقاد جادا كالمتفكه ، ومتفكها كالجاد :

في مصر خمسة لا تتكرر :
النيل والهرم وأبو الهول وأم كلثوم والعقاد .

لقد كتب دزموند ستيوارت كتابا عن القاهرة كاحدى مدن العالم الكبرى ، **فكانت أم كلثوم أحد معالم القاهرة أو أحد معالم هذا الكتاب كما أشرت .**

وقد عجبني وصفه لها **بالصوت المحيطي** الذي ينتظره في مطلع كل شهر العرب من بغداد الى مراكش حيث يتزاحمون في مقاهيهم متلهفين على الأغنية الجديدة .

* * *

سمعت أم كلثوم تتحدث عن طفولتها وما صادفت فيها من حرمان، وعمن تأثرت بهم وأخذت عنهم ، وعن الأدب والموسيقى وعن أغانيها وكيف تختارها ، وكيف تؤديها فكان أكثر ما أعجبني حديثها الحفي عن الشيخ أبي العلا الذي أخذت عنه صغيرة .

نشرت صحيفة (لابورص اجبسيان) سنة ١٩٢٧ حديثا لأحد محرريها قال فيه :

« جلست في القاعة أستمع أقوال الخطباء في الحفلة التي أحياها المعجبون بفن المرحوم الشيخ أبي العلا . انتهت الخطب وجلس آخر خطيب ، ونهضت أم كلثوم فغنت قصيدة من تلحين الشيخ أبي العلا ، الذي يحتفل بذكراه .

غنت بكل جوارحها وصوتها الرنان ، صوتها الذي طالما سمعناه ينشر قصائد شعراء العرب الغرامية ، وصوتها الحار الشجي الذي طالما أنشد آيات البطولة والتضحية والحب والحزن والالم ، ذلك الصوت سمعناه مطبوعا بطابع حزن مختلف ، حزن ليس الا حزن الموت .

ذهبت اليها فوجدتها تحت تأثير شديد ، ورأيت دمعة تتلألأ فى عينيها السوداوين :

ــ انك تتحسرين عليه كثيرا ...

فأجابتنى المطربة : وهى أشهر المطربات العربيات الآن (كذا) كما هى أصغرهن سنا .

« نعم » كان الشيخ أبو العلا موسيقيا عظيما بل من أعظم الموسيقيين العرب . كان غزير العلم رقيق الشعور وقد أتم ما بدأ به الأولون وحافظ على التقاليد الموسيقية العتيدة التى وضعها الأساتذة القدماء ... وكان آخر تلك السلسلة المرحوم العبقرى عبده الحامولى الذى احتل الشيخ أبو العلا مكانه ، ثم ان الشيخ أبا العلا كان شهيد الموسيقى العربية .

ــ هل تألم كثيرا ، وكيف ؟

ــ كان فى أيامه الأخيرة مريضا . (وقد أصيب بالشلل) ، فتعذر عليه أن يغنى وأن يلحن ، وعندما كنت أذهب لزيارته (لأننى أبكى فيه الآن أستاذا) كنت أشاهده وأنا مكتوفة الأيدى لا أستطيع شيئا أمام عذاب ذلك الرجل الذى أحب الغناء والموسيقى والطرب والذى أوجد أنغاما ساحرة . لقد تأثر كثيرا ، لكنه حاول بالرغم من أمله أن يحيا من أجل جمال ألحانه . لن أنسى هذا كله وسأحفظ له جميل الذكرى) .

ولما استأثرت رحمة الله بالشيخ أبى العلا سارت ــ وهى السيدة ــ فى جنازته ولم يشيعه من أهل الفن غير أم كلثوم وأخوها خالد والأستاذ سامى شوا .

هذه صورة من صور الوفاء تذكر لأم كلثوم بل لعلها أكبر قصة وفاء للغرباء ... وان لم تكن الوحيدة فى حياة أم كلثوم فقد نشرت روز اليوسف (العدد ٢١٥ لسنة ١٩٣٢) عن حفلة خيرية تقام فى ٢٩ مارس على مسرح رمسيس « تبرعت بالغناء فيها ملكة المطربات فى الشرق الآنسة أم كلثوم لمساعدة القانونجى المشهور عبد الحميد أفندى القضابى » .

أما أكبر قصة وفاء للأقرباء فكانت قصتها مع أمها · وأمها تستحق هنا وقفة ·· اسمها فاطمة المليجى السيدة التى أنجبت أم كلثوم · أرض مصر عجيبة الخصب وفاطمة المليجى من طينة هـذه الأرض ·· لا تكتب ولكنها تقرأ الأفكار والأخبار والأحداث والوجوه ·· طويلة الصمت فاذا تكلمت أدت ·· قصيرة العبارة فى بلاغ ·· كثيرا ما تغنى نظرتها عن الكلام ·· ترى الرأى فيكون ، فى محيط أسرتها على الأقل ·· تحترم نفسها وتحترم الناس ويحترمها الناس · حددت نسلها وأهل الريف هوايتهم التناسل ، والتكاثر ·· وعلمت فتاتها والفلاحون فى القرى لا يعبأون بتعليم البنين ·

اذا أكلت تعففت ، واذا تحدثت تلطفت ·· تزهو بابنتها دون أن تشعرها بالزهو ·· بل لعلها تتعمد اشعارها بأنها كبيرة عند الناس ولكنها ازاءها بنت فقط أمام أمها فحسب ·· غضبتها مروعة ، ودعوتها مباركة رائعة ·· السعيد من نالها ، والشقى من حرمها ··

عن هذه الأم ورثت أم كلثوم العذوبة ، و « القفشة » ولهذا سهل عليها الاكتساب فى هذا الباب ·· كما أخذت عنها أم كلثوم غير صفة من الصفات ·

لم تكن أم كلثوم كبيرة اخوتها ، بل كانت أصغرهم ولكنها أقربهم الى قلب أبيها وأعزهم عليها وآثرهم عندها ·

توسمت الأم فى الصغيرة ، الخير · وأدركت الطفلة مكانها فازدهاها المكان والمكانة ، فتمايزت وامتازت ، وقررت أن تكون شيئا فكانت ·· وسلم اخوتها اذ سلم قبلهم الناس ·· وصارت أم كلثوم ·· وسارت بها الأيام ·· ولكنها بعد هذا كله ظلت لأمها (ابنة) تقبـــل يدها قبيل خروجها للحفلة ·· ولم تذهب أمها الى المسرح قط ولكنها كانت لا تنام قبل أن تعود ··

ولدت أم كلثوم فى ليلة القدر ·· وفى ليلة القدر من كل عام ، كانت الأم تحتفل بهذه الليلة ، احتفالا كبيرا وخاصا · وتظن الأسرة أن الاحتفال بالمناسبة الدينية وحدها ، وان كانت تحس أنه موسع ·· ولم يدر أحد أن التوسعة لازدواج المناسبة فان ليلة القدر هى ليلة المولد أيضا ·· مولد أم كلثوم ·

وظل هذا سرا بين الأم وابنتها ٠٠ وكلتاهما خزانة أسرار لا تبوح ولا تصيح ٠٠ وظلت الأسرة تشارك فى الاحتفال بالليلة المباركة دون أن تعرف سر نكهتها الخاصة حتى أواخر الستينات ٠

أخيرا أفصحت أم كلثوم ٠٠ واذ عرف الجميع ازداد الأبتهاج بالليلة المباركة ٠ فأطفال الأسرة يحملون الورود والشموع ٠ والكبار يهنئون ٠

وظلت الأسرة منذ ذلك التاريخ تحتفل بمولد أم كلثوم مرتين فى العام : مرة فى ليلة القدر وتعتبره مولد المعجزة ٠٠ ومرة فى ٣١ ديسمبر ٠٠ وتعتبره مولد الانسانة ٠

على أن أم كلثوم لم تشأ أن تخرج بالاعلان عن اطار الأسرة الى الحياة العامة التى كانت تتلقف أخبارها ٠ لم تشأ أن تكلف أحدا شيئا وهى تعرف جيدا ماذا يفعله محبـــوها وما أكثرهم لو أن الأمر غدا معروفا ومؤكدا ٠٠ وهو لون من التعفف ولون من الذكاء يتقى الحرج فى حالة الاحتفال أو عدمه ٠

وكم قصص فى حياة أم كلثوم ، للذكاء عليها دليل ٠

أحبت أم كلثوم أمها حبا جما ، واعتزت بها بل كانت لها حياة ٠٠ حتى اذا مرضت مرض القلب أحست أنها ستفقد بفقدها مقوماتها هى ٠٠ وماتت عنها (١٩٤٧) وهى فى سن الرشاد والنضوج والوصول ولكنها تفجعت عليها ٠٠ لقد أحست أنها فقدته كل شىء ٠٠ فقدت عزوة من الحب والملاذ والسر والحدب والحنان ٠

وانهارت أم كلثوم اذ غادرت أمها البيت وغادرت الدنيا ٠ بكتهـــا وظلت أسبوعا لا تغادر حجرتها فى صلاة موصولة تفزع فيها الى الله فلا تهدأ من روع الا اذا زارت مدفنها وخلت اليها غائبة كالحاضرة كما كانتا تخلوان فى الحياة ويطول بينها السرار ٠

وظلت أم كلثوم تفعل هذا الى أن لحقت بها ٠ فكانت كلما أثقلها هم تفزع اليها حتى أصبح ذهابها الى مدفن أمها علامة يخشاها المحيطون ! ٠٠ أزمة نفسية تفرجها هى حين يعجز الأحياء ٠٠ وما أكثر ما ترددت على أمها فى العامين الأخيرين ٠

وفى رأيى أن الأيام القفر التى عاشـــتها صـغيرة وأهوال الكفاح التى واجهتها صبيــة حفرت فى نفســها أثرها ٠٠٠ أورثتها طفولتها الخوف والحذر حتى غدا الحرص ظاهرة تستطيع أن تفسر فى ضـــوئها الكثير من أحوالها وصفاتها ٠٠٠ حريصة فى صداقاتها فهى لا تتهافت على الصحفيين والعاملين فى الأعلام كما يفعل غيرها بل هى تتعمد أن تكون أخبارها الشخصية مقفلة ٠ لم يسمع عنها الناس يوما اخبار ديكورات أو حفلات ٠ **ان أناقتها فى بيتها ونفسها أناقة (القيمة) ٠٠** كانت صديقة لدار أخبار اليوم لأن صاحبيها كانا يتشيعان لها وكانت جرائد ومجلات الدار تستقبل كل اشادة بها حين ترد كل سوء عنها ٠

وقد يقول قائل وهل المعلم دبشة الجزار صاحب جريدة ؟ وأقول ان دبشة ليس صاحب جريدة ولكنه صاحب نكتة تعرف قيمتها أم كلثوم بنت البـلد ٠ وكم تحـلو مطارحات الفكاهة لمحبيها ولمن حولهم ٠٠٠ ومعجب كهذا يعطى الحفلة نكهة خاصــــة ويشيع الأنس فى المجلس ويخلق « جوا » ٠

حريصة فى فنها وهذا أجمل ألوان حرصها على الاطلاق اذ الحرص هنـا مرقاة الى الكمال الممكن ٠ فجلدها على البروفات الكثيرة للحن الجديد ، ومواظبتها الدقيقة على مواعيد العمل ، ومراعاتها اليقظة لنظامها الصحى فى الأكل والنوم من أجل المحافظة على صوتها ٠

كل هذا تفعله بعد أن بلغ بها هذا الصوت الغاية المنشودة من الشهرة والمال والجاه ٠ ولو أخرى غير حريصة لتراخت بدعوى تدليل نفســها أو دالة الوصول ٠ ولكنها لم تتهاون أو تقصر بل لعلها لم تأخذ الأمر مأخذ الجد الصارم بمثـــل ما فعلت فى الأعوام الأخيرة تشبثا بالقمة ٠٠وهو وعى يحمد لها وفطنة ٠

وعلى ذكر البروفات الكثيرة روت مجلة الاذاعة (١٩٥٨/٦/٢٨) أن أم كلثوم بينما كانت تعيد للمرة الثالثة تسجيل قصيدة (الشك) ضج مهندس التسجيل فما أن قالت فى المرة الثالثة (أكاد اشك فى نفسى) حتى قال لها : العفو يا ست ، ده أنا اللى باشك فى نفسى ٠

مما يروى عنها أنهـــا فى كل حفلة تعطى للاذاعة ثلاثة أشرطة

تسجلها لحسابها وعند ملء الاسطوانات تستعرض شرائط اللحن الواحد وتجمع خير ما فى شرائطه ٠

يحكى رامى عن أم كلثوم انها تعشق صوتها وتحب فنها حبـــا لا مزيد عليه حتى انها عندما تغنى لحنا تبدع فيه ، تطرب من صوتها ٠ وتند عن صدرها قولة (آه) ولكن بصوت خافت حتى لا يســـمعه الجمهور ٠ وقد كان الشـــيخ أبو العلا يقـول لى : « البنت دى بتغنى بدمها ٠٠ ياواد دى بتقول لنفسها آه ٠٠٠ » ٠

ويبـــدو أن البنت الناشئة الخفرة التى كانت تقول لنفسها فى خفوت آه ، أصبحت تقولها بعد أن استوت على القمة سيدة للغنـــاء ، جهيرة منغمة بل هى التى توشى بها النغم حتى ليتلهف سامعوها على (الآه) منها ويتخذونها دليلا على « التجلى » ٠

وتقلدها المقلدات فتخرج الآه منهن صرخة ألم ، أو أنة مريضة ، وتبقى (آه) أم كلثوم وحدها بسمة أمل وجنة شوق وسحر غريد ٠

* * *

وهى بارة بأهلها وبلدتها ترعى ضعيفهم وتعالج مريضهم وتعلم طالبهم ٠ من آثارها فى القرية : المسجد والمدرســـة والمستشفى والقاعة الثقـافية ٠ ومن آثارها فى المدينة ما تعرفه الهيئات والمؤسســات على اختلافها ٠ فما من جمعية أو هيئة احتاجت الى المال الا استشرفت الى حفلة أم كلثوم وكأنها خاتم سليمان التى تحكى عنه أساطيرنا ٠٠٠ ان ما تدره حفلة أم كلثوم دعامة قوية لأى مشروع أو تعمير ٠٠٠

وفى عامها الأخير دفعت ٩٢ ألفا من الجنيهات نواة لمشروعها (دار أم كلثوم للخير) ٠

الذكاء الفطرى الموهوب الذى جعلها مفتوحة العين فى يقظة تامة عندما خاضت غمار الحياة أول عهدها بالقاهرة فصانت نفسها عن التبذل مما رفعها فى أعين النـــاس ، ثم حاولت بالذكاء أيضـــا أن تستفيد من احتضان أسرة عبد الرازق لها فى مطلع حياتها ثم أنخراطها فى الأوساط الكبيرة فالتقطت العادات السليمة فى أسلوب العيش ومظاهر السلوك ٠

وتعلمت باللقانة وصقلت نفسها بالتطبع حتى غدت ـ وهى الفلاحة المصرية الساذجة التى تتجمع سعادة الدنيا لديها فى طبق مهلبية ـ من سيدات المجتمع ··· مجتمع الأناقة والظرف بل ان هذا المجتمع نفسه يتلقف كل شيء ترتديه أو تقتنيه مادة للحديث · كانت فى الثلاثينات والأربعينات تحيى ليالى علية القوم وفيها تستبق سيدات المال الى الظهور بأبهى الثياب وأنفسها ولكن الصحف تسجل أن أروع أزياء الحفل هو ثوب أم كلثوم ·

وتقيم هى حفلة فيجد مذيعها فى ثوبها مادة غنية للوصف الشائق حتى أصبح وصف ثوبها عادة للمذيع وسامعيه معا · وأناقتها أناقة الكمال · فلا بهرجة ولا فضول ·· أحب الألوان اليها ما كان داكنا ـ وان كانت تحب التركواز ـ وخاصة اللون الأسود الذى تسميه بين الألوان، سيد الكل ··· والبنى بكل درجاته ·· الأخضر الزيتى ·· الأحمر الداكن فى لون البنفسج ··· انها كما تقول تميل الى الألوان الهادئة الداكنة لأنها دافئة وتضفى جمالا على البشرة السمراء ··· وتفضل من الثياب ما كان ذا لون واحد ·· وأحب الجواهر اليها الزفير Sphire اذ يطيب لها لونه الأزرق ·

أصبحت الفتاة التى كانت تجهش بالبكاء اذا تندر منها أحد أصبحت تسدد النكتة فورية فوسفورية تشق الصفوف كالسهم يسكن فى صدر العابث الذى غره شيطانه وأغراه ·

تقول ألين فورد ـ الامبراطورة التى تسيطر على عالم المانكانات وفتيات الغلاف فى بريطانيا وأوربا وأمريكا :

(الجمال أن تصنع المرأة لنفسها أسلوبا خاصا جديدا : طريقة خاصة للتعبير عن شخصيتها بالماكياج وتسريحة الشعر واللبس والكلام والجلوس والمشى بحيث تحصل فى النهاية على شخصية مميزة محببة ، وتجعلها جزءا من طبيعتها بلا مبالغة ولا اسراف) ·

وهو ما صنعته أم كلثوم · يكفى منديلها التاريخى الذى أصبح

كالراية ... راية (الطريقة) التى يراها الأتباع فيشتعل الوجد فى قلوبهم . وآخر ساعة تسميها أو تسميهم مؤسسة أم كلثوم .

هذا بعض سرها فلو أن الأمر أمر صوت فقد كانت هناك أصوات تعادلها عند نقطة الابتداء كصوت فتحية أحمد وبالطبع منيرة المهدية كما أشرت ، ولكن وصلت أم كلثوم وتخلفت أصوات جميلة قوية لأنها لم تعن عنايتها بالصقل والفنية سواء فى الصوت أو فى الشخصية .

ويذكرنى هذا بالسمراء (سيدة بهجت) التى كانت المغنية الأولى فى تخت حليم بطنطا ، والذى كان يقصده سيد درويش ليستمع فيه الى أدواره الغنائية تؤديها (سيدة) هذه باقتدار يعز نظيره يعمق له فى النفوس صـــوت رخيم دافىء ســحرى النبرة والرنين ، قوى التعبير والتأثير .

ولكن قصة حياتها توحى بأنها كانت متواضعة فى كل شىء : فى مواهب الجسم والعقل ، فلم تعرف كيف تسـتفيد من احتضــان سيد درويش وزكريا أحمد لفنها .. كانت غير طموح فلم ينتظرها المجد الذى كان فى العشرينات من هذا القرن على عجل .

وبعد ، فان العاملين فى الحقل الفنى على مختلف المستويات يدعون أم كلثوم (الست) ، وقد عرف هــذا الناس . فاذا قيل فى مجلس (الست) دون اقتران اسم . انصرفت التسمية أو اللقب الى أم كلثوم وحدها وكأن الحياة اعتمدتها سيدة للغناء .

بل انى أعتقد أن المسألة أكبر من هذا كثيرا ...

لقد أطلق عليها هذا الاصطلاح فى وقت أصبحت فيه تجسـيدا لقيم كثيرة .. وحين تستقطب المرأة المصرية فى شخصيتها صفات مصر من عطاء وصمود واتقان وحنان وتواصل تغدو : « الست » :

فايزيس التى حاولت أن تعيـد الروح الى أوزوريس أى النيـل والوادى ، كانت بالشموخ والاستعلاء على المحنة ، ومحاولة البعث ، فى عين مصر : « الست » .

ونفرتارى ونفرتيتى بالجمال والجلال وعزة الملك فى عين مصر : « الست » .

وتيتيشرى جدة أحمس بقيادتها المقـاومة الشعبية والرسمية ، ودفعها الملوك من بنيها لمحاربة الهكسوس حتى جاء البطل » أحمس « بالنصر ... تيتيشرى فى نظر مصر : « الست » .

وحين اعتنقت مصر المسيحية ووقفت وراءها ورأت فيهـا رأيا ، واتخذت موقفا ، ركزت مصر على الأم لا الصلب . فالسيدة البتول مريم فى نظر مصر : « الست » .

ودانت مصر بالاسلام فرأت فى السيدة زينب قيمة معنوية تجسد كل ما فى عالم الانسان الأعلى من نبل وسمو وتضحية وفداء ، رأت فيها بكل ما تمثله معنى من معانى الحق وشجاعة الرأى والموقف والضمير .

يزيد أخرجها ... ومصر أدخلتها فى كنفها وقلبها .

مصر استقبلتها واليها وشعبها عند حدود الشرقية . وتنـازل الوالى عن قصره لها وأنزلها فيه .... وهو ضريحها الآن ...

السيدة الطاهرة فى نظر مصر : « الست » .

وجاء العصر الحديث فشهد كفاح المرأة المصرية منذ قاسـم أمين .. وشهد انجازات المرأة فى شتى الميادين وانتصاراتها على التخلف والعجز والجمود .. ورقيها أعلى المناصب ... ولكنه أطلق على أم كلثوم وحدها من بين المصريات قاطبة ، كلمته التاريخية « الست » .

ان هذا يلفتنا الى ظاهرة غريبة . لقد جاءت أم كلثوم القاهرة بعد الريف ... ولم تكن القـاهرة معها بطيئة كالريف فعرفتها مجاليها بسرعة بدأت معها المقارنة بينها وبين شهيرات العصر فى الغناء ثم أخذت المقارنة تخفت رويدا رويدا حتى كان عام ١٩٣٠ فانفردت وحدها بالميدان وان ظلت على المسرح أخريات يحاولن البقاء أو يصارعن الفناء .

ومنـــذ ذلك اليوم ظلت متفردة بل أمعنت فى التفرد . وكلمـــا

اقتربت من القمة مخلفة على السفح رتلا من الناشئات و (المطربات) تمعن هي في الصعود • ويدرن هن حول أنفسهن في نقطة واحدة فلم تجر في عهدها مقارنة اذا استثنينا مقارنة عارضة بينها وبين أسمهان كان يكفي لترجيح أم كلثوم فيها تفرد شخصيتها وتقليدياتها •• على أن هذه المقارنة سرعان ما اختفت باختفاء أسمهان •• من الوجود مأسوفا عليهـا •

لم تجر مقـــارنة على مدى ربع قرن بين أم كلثوم وبين الباقيات حتى لقد سئل زوج مطربة مشهورة : أي صوت تحب سماعه ولا تمل منه مهما تردد ؟ فقال على الفور : أم كلثوم • الجميـــع يضعونها فوق المباراة ••• بل ان المقارنة تعد طرفة •• ان الكل « تفاريح » ولكل لون محدود وطاقة محدودة لا تتعداها •• على الرغم من أن عوامل الظهور ميسرة لهن ـ أضـعاف ما أتيح لأم كلثوم في احتـدام المنافسة ابان نشأتها ـ لو أن مقـــومات النبوغ عنـدهن ••• فالاعلام بوســائله ، والميكروفون بتكبيره الصوت واخفائه العيوب الى حد كبير ، وارتفـاع الجمهور ولكن •••

لقد قلت منذ قليل (تقليديات) أم كلثوم وأخشى أن تكون الكلمة مرت في زحام السطور ، عارضة وهي تعني عندي الكثير •

تقليديات أم كلثوم :

لقد عنيت أم كلثوم منذ البداية ، بالتكنيك والرسم المنظم لشد الجمهور وتكييفه وربطه بها • فاستننت سنة خاصة بها وهي أن تغنى مرة واحدة كل شهر وعلى التحديد الخميس الأول من كل شهر حيث يتوفر المال لشراء التذاكر والوقت للنوم والراحة في عطلة الجمعة غـداة الحفلة ••• مرة كل شهر جريا على قاعدة « تشوق ولا تدوق » •

ضحت فى مطلع حياتها بالمال فلم تتهافت على الغناء والكسب كل ليلة كالأخريات • فى سبيل احاطة نفسها بهالة « التعزز » والانتظار والشـــوق •• حتى غدا الجمهور ينتظرها ويحتشد ليوم الخميس هـــذا حين شبع من كثيرات حتى بشم بل ضاق بهن أحيانا لأن الانسان مهما بلغت طاقته أو خبرته لا يستطيع التجويد كل يوم وبنفس القدر ، على الارهاق المتواصل •

وهكذا نرى بعض تقليدات أم كلثوم أن أصبحت عادة من عادات هذا الشـــعب ••• أصـــبحت (مزاج) ــ والنحو مزاجا ــ ثم انتقلت العدوى الحلوة من مصر الى سائر البلاد العربية •

والتعزز يغرى بالكبرياء النبيل •

والعصامية تجعل صاحبها يشعر ان له حقوقا يراها لنفســه على الناس •

والكبرياء أحد عوامل نجاحها ••• فالكبرياء حائط بينهــا وبين الناس يعطيها وقتا لفنها • ان الوقت رأس مال الفنان والتبديد فيه تبديد فى فنه •

لقد كان كاتبنا الأستاذ العقاد يقيس شعبا من الشعوب أو انسانا من الناس بمبلغ محافظته على الوقت واحترامه له • وطرائفه فى هــذا الباب كثيرة • وكذلك لأم كلثوم طرائف • فقد نشرت روز اليوسف مرة (١٩٦٥/٥/٣١) أن أم كلثوم (قررت فرض غرامة جنيه على كل موسيقى يتأخر لمدة عشر دقائق •• فى بروفة لحن « بعيد عنك حيـــاتى عذاب ») •

ويذكرنا هذا فى باب الحرص على المواعيد بما نشرته آخر ساعة ٤٥١ فى (١٩٤٣/٥/٢٣) لاحقتها صحفية بأسئلة سطحية فقالت لها أم كلثوم :

ــ حاولى ان تسألى أسئلة غير صحفية •• لا تسأليني ماذا آكل او اشرب أو كيف انام •

ــ اذن قولى لى ، لو كنت صحفية وذهبت لمقابلة أم كلثوم فماذا كنت تقولين لها ؟ •

ـ لو كنت صحفية لما حاولت أن أقابل أم كلثوم ـ كنت أتركها لفنها ولا أضيع وقتها ٠

ـ وجمهورك ، يريد معرفة أخبارك ٠٠٠ ألا تلتزمين تجاهم بشيء ؟

ـ طبعا أقدم له فني في أفضل المستويات وأحاول أن أقدم له كل مرة أغنية حلوة مدروسة تتفق مع الانفعالات الانسانية والعاطفية التي تدور في نفوس أفراده ٠

ويبدو أنها (متقصدة) الصحفيين ٠

سألها صحفي عن أمنياتها للعام الجديد ثم قال :

ـ باذن الله سنسألك سنة ١٩٩٩ ٠ ضحكت وشكرت وقالت على الفور :

ـ بس أنت حتكون عايش ؟!

ومن (تصون) أم كلثوم وتقليدياتها معا **طابع خاص في الزى وسمت خاص في الوقفة** ٠ فهي على تطورها مع الأزياء ظلت الى أن تزوجت تلبس الكم الطويل الذى يعجب الجمهور الشرقي المحافظ منه بل والمتفرنج ٠ وكان الكم الطويل يخلع وقارا عليها ويجعل فستان السهرة الطويل بطبيعته كان طوله مقصود للحشمة والكرامة ٠٠ هذا كله يحدث حين تعرض الأخريات الكثير من بضاعة الأجسام فتنعقد على الفور في السر أو العلن المقارنة بينهن وبين أم كلثوم ٠٠٠ ويزداد الشعب بها تعلقا ٠ ثم التسريحة هي هي مع أن شعرها طويل جدا سخي جدا يصلح لكل تسريحة ٠ ولكن التسريحة بالنسبة الى المرأة أسلوب شخصية كما تقول ٠

وبعض تقليديات أم كلثوم الايشارب الشهير كما أشرت ، والذى تتفنن في اختيار لونه على ضوء لون الفستان ليكون كل منهما زينة للآخر ٠

وينفرج الستار عن أم كلثوم جالسة أمام فرقتها الموسيقية حتى

اذا أخذت الموسيقى فى العزف ووصلت منه الى مطلع اللحن ، وقفت أم كلثوم فيتكرر الاستقبال ...

تكتيك وأسلوب شخصية .

* * *

حين تغنى أم كلثوم :

وتبدأ الموسيقى فتميل برأسها تتسيد النغم ثم خطوة الى الأمام وخطوة الى الخلف وشبة الى أعلى فى عملية سيطرة على الموقف كله حتى لقد سماها أحد عتاة المعجبين بها « سيطرة » .

نشر المصور (١٩٤٩/١١/٤) أنه حدث فى حفلة ـ المحامين ـ التى أقيمت ابتهاجا بالغاء القضاء المختلط أنه حينما ظهرت أم كلثوم على المسرح كان بعض الحاضرين فى مشادة حول الكراسى فصاح أحد المحامين قائلا بلهجة حجاب المحكمة : (محكمة) . فانفضت المعركة فى الحال وساد الصمت . لقد ظهرت أم كلثوم .

وأم كلثوم صاحبة (جو) من يومها ... حكى لى السيد يوسف وزير التربية السابق وهو ممن صاحبوا نشأتها الفنية انها كانت فى العشرينات تقصد راس البر فى الصيف . وفى الليالى المقمرة تستقل زورقا فى النيل وتغنى ومن حولها زوارق المعجبين . وكان الناس يطلقون على هذا الموكب النهرى : « اسطول ام كلثوم » .

صاحبة جو وتكتيك من يومها . تقول فى مذكراتها عن أيام الكفاح الأولى أنها كانت تركب مع ابيها وأخيها (القطر فى درجة ثالثة وأول ما يتحرك آخذ ابويا وأخويا ونروح على درجة أولى ولما ييجى الكمسارى ويشوف التذاكر اتحايل عليه يسيبنا .. من زحمة درجة ثالثة ... ولما يعرف أننى البنت اللى بتغنى فى الموالد والأفراح يسيب (القطر) وييجى هو وزمايله يقعدوا فى الديوان معانا ... واغنى لهم طول السكة .. مكنتش أسكت الا لما « القطر » يقف فى محطة .

والحقيقة ما كانتش الزحمة السبب فى قعادنا فى « البريمو » ، وانما علشان الناس اللى مستنيين على محطة البلد اللى رايحاها يشوفونا نازلين من « البريمو » فاحترامهم لينا يزداد ونكبر فى عينهم) .

وتحرص أم كلثوم على حجب أغانيها (صـــيانتها) فهى بنفوذها تمنع الاذاعة من اذاعة أشرطتها المسجلة حتى لا يفقدها التكرار جدتها وطعمها وان كان هذا (الحبس الاختيارى) زال منذ بدايات النصف الثانى من القرن العشرين .

حتى يوم الحفلة تغلف كل شىء بالأسرار ... فستانها تلبس عليه معطفا طويلا لا تكشف عنه الا قبل رفع الستار ...

الأغنية تسر بها الى المذيع قبل رفع الستار بدقائق .

البروفات الأخيرة على أكثر من أغنية حتى لا يتسرب اســم أغنية محددة الى الجماهير .

عملية شد وتشويق محسوبة ومرسومة .

وان شكوت يوما لأم كلثوم صعوبة الحصول على تذاكر ، ســارعت الى ... الشكوى معك أو مثلك وأكدت لك (وبراءة الأطفال فى عينيها) أنها شخصيا تعجز عن توفير التذاكر بالثمن !! وذلك لحرصها على ايحــاء الجو الأسطورى واستحالة الوصول اليها .

* * *

لقد ارتفعت أم كلثوم بالغنــاء عند ظهورها حين يتهافت اليــوم ويدور حــول أدوات المطبخ أو الحمام . ولهــذه الظاهرة فى الحقيقــة أسباب ...

أحدثت أم كلثوم ومؤلفوها وملحنوها طفرة بعد ثورة سنة ١٩١٩ وسيد درويش . لقد ارتفع الغناء المصرى فى الثورة الأولى الى مستوى الأحداث ثم انتهت الثورة الى استقلال صورى سلبى فانسحبت السلبية على كل شىء ... أصيبت الحياة المصرية بتشاؤم بدا معه الطريق طويلا

وعرا فوجدت المهرب من ثقل هذا الشعور فى التخفف منه · وما لبث التخفيف أن غدا استخفافا يأخذ بالأسهل والأقرب والأكثر تسلية وأقل جهدا ·· يأسا من جدوى الجد والكفاح ·· فانتشرت أغانى القناطر والشاطر الخ ···

وصادف هذه المحنة تكاثر شركات الاسطوانات لتغذى رغبة التسلية عند الشعب ، وتنافست عليه فيما بينها تنافسا شديدا جعلها تدفع المؤلف الى كتابة عشرات الأغانى دفعة واحدة والمغنى الى تسجيل عشر اسطوانات فى جلسة واحدة !!

وسط هذه البلبلة قيض الله لأم كلثوم رامى والدكتور صبرى وزكريا والقصبجى ورياض و (أبو العلا) الذين صفوا لها الكلمات والألحان فأذاعتها وسارت ··· وسارت الأيام ·

أما فى الستينات فان السلبية شاعت فى الحياة المصرية ·· هذه السلبية رمت الأغنية الحاضرة بالغثاثة والتفاهة والاسفاف · حتى أن بعض الأغانى اليوم سباب ملحن أو بذاءة موقعة لو جاز هذا التعبير·· يمد لهذا فى التواجد والانتشار ، كثرة الراغبات فى الغناء وكثرة ساعات الارسال فى الاذاعة والتليفزيون مما يذكرنا بشركات الاسطوانات والرغبة المحمومة والحتمية فى ملء هذه الساعات بأى شيء ··· المسألة غدت كما لا كيفا ··· يستثنى من هذا بالطبع الأغانى التى تلدها الأحداث الكبيرة التى هزت الأعماق سنة ١٩٥٦ ·· وسنة ١٩٦٧ ·· وسنة ١٩٧٣ مع الفارق ·

هذه بعض خطوط شخصيتها من زاوية فنها تقريبا · أما الخطوط الأخرى التى ترسم الانسانة فيها فكثيرة · **فأم كلثوم الانسانة تحب الأطفال** وفى قلبها جرح غائر أنها لم تنجب طفلا ·

الانسان فى أم كلثوم :

حضرت مرة عرض أزياء واشتركت فى بعض الألعاب القائمة فى الحفل . وكسبت مرة فكانت جائزتها « بطانية » وهنا قالت أم كلثوم :
ـ لأ ... عايزة عروسة .

وكسبت مـرة أخرى . وفى كل مرة ترفض جائزتها مصرة على « العروسة » حتى ظفرت بها وخرجت من الحفل تحمل العروسة.وتحمل القصة شوقا دفينا ... الى الطفولة والأمومة . والتى نشرت القصـــة ليست مجلة تعليقات ولكنها صحيفة الأهـرام فى ١٩٦٤/٤/٩ تحت عنوان : **أم كلثوم وحكاية عروسة !**

ان أم كلثوم لم تعرف لها طفولة . حتى عروستها القطن انتزعت منها لتخرج الى العمل . ولهذا كانت وهى كبيرة .. وهى أم كلثوم وكوكب الشرق تحب العرائس . ولهذا أيضا تشترى كل عام فى مولد النبى « عروسة المولد » وعرف المحيطون بها هذا ، فتسابقوا الى اهداء « عروسة المولد » لعروس الفن .

وتعتنى أم كلثوم (بالعروسة) ويحرص عليها العـــاملون فى بيتها .

وتقول أم كلثوم عن حبها للأطفال أن **السر فى ذلك أنها لا طفولة لها** ... وتقول انها تحبهم الى أن تصبح لهم (ارادة) وعندئذ تصطدم الارادتان ..

وهى تندمج معهم تماما حتى تتـلاشى فروق السن فتجرى منهم وتجرى وراءهم .

وام كلثوم عذبة الروح طـروب تهش للنكتة وتسعفهـا سرعة بديهتها وذكاؤها على توليدها حلوة مستملحة تشيع السرور والبهجـة فيضج المجلس حولها بالضحك والمرح .

وهى تقول ان الحكاية بدأت بأصحاب دار الهلال أشاعوا أننى خفيفة الدم وأخذوا ينشرون قصصا على لسانى وكنت باعتبرها سخيفة لدرجة أنى كلمتهم بالتليفون وقلت لهم :

ـ يا جمـــاعة اذا كنتم عاوزين تنشروا نكت حلوة قولوا لى وأنا أقولها لكم ٠٠٠

أيا كانت البداية فقد اشتهرت أم كلثوم بالنكتة وأنس المحضر حتى لتروى عنها الطرائف بل تضاف اليها للاطراف شأن كل من يشتهر فى شىء فينسب اليه منه ما يدخل فى بابه ولو لم يكن قائله ٠ غدت كجحا كما تقول ٠

ومما يروى عن أم كلثوم هذه النوادر :

حضرت مرة حفلة زفاف وأراد أحد المدعوين أن يستعرض صوته غافلا عن قبحه ٠٠ فأدار أحمد رامى ظهره للمغنى من نفور ٠ فابتسمت أم كلثوم وقالت له :

ـ اتعدل يا رامى أحسن الغنا ييجى فى ضهرك !!

* * *

وذات يوم

فى نقابة الموسيقيين دخل فجاة فنان أديب معروف بكثرة السهو والشرود فسلم وجلس ثم حملق كمن تذكر شيئا والتفت لأم كلثوم وقال :

ـ أنا سلمت عليكى ؟

فردت على الفور :

ـ لا ٠٠ أنا اللى سلمت عليك ٠

ثم استلمته فزعمت أنه الوحيد الذى يستطيع أن ينام وهو سائر دون أن يغمض عينيه بحيث لا يعرف أحـد ان كان نائما أو مستيقظا ٠ وبناء عليه اقترحت أن يعلق على صـــدره لافتة ذات وجهين يكتب على أحدهما كلمة (صاحى) وعلى الوجه الآخر كلمة (نائم) ٠ وفى الحالة الأخيرة يستطيع سائقو السـيارات أن يتحاشوه فلا يصـدمونه ٠٠٠ وراحت أم كلثــوم تؤكد له فى حماس أهميـــة اقتراحها فى انقاذه من الخطر قائلة :

— على الأقل لما النوم ياخدك ، ربنا ما ياخدكش !

وهذه طرفة من أطرف ما صدر عنها :

شكا اليها أحدهم أن فمه (بيوجعه) واستمعت اليه أم كلثوم في اهتمام له ما بعده • فما أن فرغ من شكواه حتى قالت له سومة :

— خازوق يا فلان ••• أمال بتأكل مال النبي ازاى ؟

فأجاب وكان الظرف أعداه :

— بازلطه !

وقامت يوما بتقديم الحاضرين بعضهم الى بعض حتى اذا وصلت الى جار لها كان موجودا وقتئذ وقالت : وحضرته (جارسومه) مدغمة اللفظين لتحقق المعنى الثاني من التورية التي قصدت اليها •

* * *

وفي مجلس ، يوما ، أسرع اليها ابراهيم فرج باشا بالسلام المشوق فداعبته قائلة : أخي ان شاالله « تسلم » •

وسارت مرة في احدى الحفلات وعن يمينها المرحوم سعيد ذو الفقار (باشا) وعن يسارها المرحوم أحمد حسنين (باشا) فقال لها أحد الحاضرين : أنت مهمة قوى يا سومة فردت عليه : علشان كده بين قوسين •

وقصت مرة متندرة : ذهب أصلع في رأسه ثلاث شعرات الى الحلاق وطلب اليه أن يفرق له في النصف مصففا الشعرات الثلاث واحدة في الجانب الأيمن والأخرى في الأيسر والثالثة من الأمام في شكل (قصة) • فاستجاب له الحلاق وشرع في العمل • واذا باحدى الشعرات تقطع فاستغنى الأصلع عن (القصة) مكتفيا (بالفرق) من النصف • ولكن الشعرة الثانية طلعت في يد الحلاق • ولم يبق في رأس الأصلع الا شعرة واحدة فثار غاضبا وقال له :

ـ انكشها ياه وسيبها ٠

* * *

وفى الأربعينات كانت أم كلثوم تحرص على حضور مباريات كرة القدم بالنادى الأهلى ٠ وفى مباراة جلست فى الصف الأول الى جوار المرحوم توفيق رفعت (باشا) الوزير فى تلك الفترة ٠ وتوفيق رفعت كان قصير القامة ضئيل الجسم جدا ٠ وتصادف أثناء المباراة أن فتحت أم كلثوم حقيبة يدها لتخرج منديلها فاذا بتوفيق رفعت ينظر الى الحقيبة محاولا أن يداعب أم كلثوم واذا بأم كلثوم تقول له وكأنها تنصحه :

ـ حاسب يا باشا أحسن تقع فيها ٠

* * *

وكان القصبجى معها مرة فى قطار الاسكندرية فأخرج قلما أسود وأخذ يصبغ شاربه فقالت أم كلثوم :

ـ شوفوا الراجل رجع شباب بّجرة قلم ٠

* * *

وأم كلثوم صاحبة النكتة صاحبة مقالب أيضا ٠ ويبدو أن القصبجى كان أوفر الناس نصيبا من هذه المقالب ٠

فى رمضان أحد الأعوام أرسلت بطاقة دعوة الى الافطار باسم القصبجى الى جمع من معارفهما ٠

وعلى الافطار حضر المدعوون الى منزل القصبجى تلبية لدعوته التى لا يعرف عنها شيئا ٠

وفوجىء القصبجى بالضيوف ٠ وقبل أن يفيق من حيرته ، رن جرس التليفون فاذا بأم كلثوم تقول له :

ـ باوصيك على الضيوف تفطرهم كويس ٠

الذى حدث بعد هذا أن أخذ المسكين الضيوف الذين دعتهم هى الى مطعم كبير ودفع الحساب لخمسة عشر شخصا ٠

وأم كلثوم التى تجيد النكتة و « تشك » المقلب تقول ان أحسن نكتة سمعتها عن البرد كانت من حسين الترزى الذى يقول :

ـ يا سلام لو الواحد فى الشتا يقدر يحط رجليه فى جيوبه ٠

وبهذه المناسبة نقول ان (حسين الترزى) أحد المشهورين بالدعابة الذين أحاطوا بها عند هبوطها القاهرة ٠ ومن حسين الترزى ودبشة ومحمد البابلى تعلمت أم كلثوم فن النكتة لا سيما محمد البابلى الذى كان ينزل الفندق نفسه « جوردن هاوس » فكان يلازمها فى سهراتها وندواتها فتسمع منه كل طريف ٠ وساعدها ذكاؤها بعد ذلك على التفوق فى هذا الضرب من الفكاهة ، مما رويت بعضه فى هذا الباب ٠

وأم كلثوم التى تقول النكتة حتى غدت تلحق بها وان لم تقلها ، أصبحت بدورها مادة للنكتة المصرية ٠ فيروى أن أحد الضـيوف الذين يزورون مصر سأل أحد المصريين :

ـ ازى الحال ؟

فقال له :

ـ عال ٠٠٠ الاسبوع ثلاثة أيام أم كلثوم ، واتنين كرة ، وواحد لحم ٠٠٠

* * *

أم كلثوم والكلمة

وهى لبقة فى ذكاء احساس يبدو فى الشعور بمواقع الكلام واختيار ما يصلح من الغناء للمناسبة ٠

أقيمت حفلة فى معهد الموسيقى فى عام ١٩٣٢ حضرها الملك فؤاد كما سبقت الاشارة وقد رأت أن تغنى أمامه قصيدة :

أفديه ان حفظ الهوى أو ضيعا ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

ولكنها أفضت الى شاعرها أحمد رامى قبل الحفلة أنها غير مرتاحة الى البيت الذى يقول :

هل فى فؤادك رحمة لمتيم ضمت جوانحه فؤادا موجعا

تحرجت من كلمة (موجعا) لأن اسم الملك (فؤاد) فكيف تقول فؤادا موجعا فاستبدل رامى بلفظة (موجعا) لفظة (مولعا) ٠

ومن أمثلة هذا طلبها الى الشاعر أحمد رامى أن يغير لفظة « منتصت» فى بيت شوقى من نهج البردة :

إنى أعرتك أذنا غير واعية ورب منتصت والقلب فى صمم

فاستبدل رامى بكلمة « منتصت » لفظة « مستمع » (ورب مستمع والقلب فى صمم) التى نسمعها ٠ ومثل هذا فى قصيدة (الى عرفات) ٠٠استبدل بشطر (الى بيت طهور الساح والعرصات) الشطر (الى بيت طهور الساح والشرفات) ٠٠

وهى لطافة حس تحسب لصاحبها ٠

غنى مرة المطرب الطيب عبد اللطيف البنا ـ وقد كان من منافسى عبد الوهاب ـ فى حفلة زفاف كريمة أحد أثرياء الحرب الماضية من أهالى مصر القديمة فاذا به يغنى والعروسان فى الكوشة :

جوزى أجوز عليه والحنة لسه فى أيديه

فهاج والد العروس وكان من أولاد البلد وانتهت الحفلة بعلقة وهد السرادق ٠

ومثل هذا المازق وقعت فيه السيدة نادرة هى الأخرى فقد غنت فى حفلة زفاف « يقولون ليلى بالعراق مريضة » وكان اسم العروس بالصدفة « ليلى » ٠

فارتفع صوت أم العروس تقول (ليلى مريضة بعيد الشر فال الله ولا فالك) ٠٠

وانتهت الحفلة بما لا يحمد عقباه ٠

وهنا يبدو يقظة أم كلثوم ووعيها وعنايتها بالاختيار ولباقتها فيه .. هذه اللباقة التى تعينها فى كثير من المواقف .

سألتها صحيفة الأهرام (عدد ١٩٦٥/٨/٢٦) :

ـ يا ترى تعملى ايه لو نسيت كلمة من كلمات الأغنية ؟

فترد ببساطة : اللى يهمنى هو المعنى وساعتها باقدر أتصرف بسرعة وأغنى كلمة أخرى طالما أنها تؤدى الى ذات احساس المعنى الأول . يعنى مثلا لو كان المفروض أن أقول (حبى) ونسيتها فأتغنى بـ (قلبى) .

وقد نشرت جريدة (الجمهورية فى ١٩ / ٢ / ١٩٥٩) أن أم كلثوم اعترفت لأصدقائها بأنها نسيت كلمات أغنية (يا ظالمنى) فى حفلتها الأخيرة. وكانت تتعمد ترديد المقطع عـدة مرات حتى يقوم عازف « الفيانسيل » بتلقينها كلمات الأغنية من البرنامج المطبوع . وكان المستمعون يظنون أن أم كلثوم قد أخـذها التجلى فأطالت . ودوت أرجاء المسرح بالتصفيق وعبارات الاستحسان .

* * *

لبقة ... ومن تعبيراتها اللطيفـة اللبقة فى مجـال رفضها لبعض أشرطة التليفزيون :

ـ ان الكاميرا لا بد أن تقف حيث يقف المستمع . أما فى الأشرطة التى التقطت فالمصور كان كأنه يريد أن يصور أفكارى .

ويبدو أن أم كلثوم حالفت النجاح فهى تأبى بعده ...

قابل الناس بزهد يكتم الغضب أغنيتها « فكرونى » التى لحنهـا عبد الوهاب . وليس الزهد فيها وانما فى بعثرة الصوت الغالى القادر، صوت القصائد ، فى توليفة غير متجانسة من الألحان القصيرة العاديـــة التى تستطيع أن تؤديها الأخريات ، بل ان ن بينهن من تليق بهـا هذه الألحان المزركشة الأنثوية أكثر من أم كلثوم شادية القصائد والصـــعب الممتنع .

ولكنها لم تقبل الفشل وان كان فى ظاهره غير لصيق بها بل تحدت ودبرت فأجلت غناء أغنية جديدة كانت تزمع غناءها فى الحفلة التالية ، وكان قد تم اعدادها حتى لا تختنق (فكرونى) بين (الأطلال) و (فات الميعاد) ٠

ومن تدبيرها أن غنت (الأطلال) قمتها الغنائية فى عين الناس فى الوصلة الأولى ، و «فكرونى» فى الوصلة الثانية وكأنها تقول ان «فكرونى» تستطيع أن تقف الى جوار الأطلال ٠ ولكننا لم يفتنا تعمدها المقصود فى التوقيت والأداء ٠ فالوصلة الأولى يبددها انشغال المستمعين بالجو والمكان وبأنفسهم وبشخص أم كلثوم المظهرى الكبير ، حتى اذا أرضـــوا حاجة أنفسهم من هذا كله تهيئوا لصوت أم كلثوم فتكون الوصلة الأولى قـــد شارفت نهايتها ٠ وبهذا يحتشدون أكثر للوصلة الثانية فى تصميم على التفرغ بعد أن تكلثموا ٠٠ وهنا سر الوصلة الثانية ٠

وأم كلثوم تعرف هذا جيدا فرامى يروى فيما يروى عنها اذا تشقق الحديث فى المجلس عن قصتهما ، أنها تقول له وكأنها تحاوره : الوصلة الأولى خنان فيقول : والثانية ؟

تقول : جنان (بالجيم هذه المرة) ٠
ـ والثالثة ؟
ـ ماتقوليشى باه ٠

* * *

هذا من حيث التوقيت ٠٠٠

أما من حيث الأداء فقد (كرت) أم كلثوم الأطلال كرا بلا وقفات أو تحليقات كما تفعل حين تريد أو حين يحلو لها الترديد ٠ وهو ما حدث فى (فكرونى) فى الوصلة الثانية التى بدأتها بالآهات الموشاة الكلثومية وكأنها تقول : دخلنا فى الجد ٠٠٠ انتباه ٠٠٠

وهكذا نجحت « فكرونى » فى الملحق بعد اخفاق فى الدور الأول ٠

وهدأت أم كلثوم هدوء الظافر بعد صراع ٠

معذورة ٠٠ ان الجالس على القمـــة يخشى أقل اهتزاز أو قلقلة فان سقطته قاتلة ٠

قالت مرة عندما سمعت دقات المسرح التقليدية قبل رفع الستار :

ـ قلبى يدق مع هذه الدقات ٠

ـ لماذا ؟

ـ خايفة ٠

ـ ولكنك أم كلثوم !

ـ لأنى أم كلثوم خائفة ٠

انها تخاف ! ٠٠٠ ومن خوفها أنها فى أول كل حفلة تتفقد الوجوه من خلف الستار ٠٠٠ الوجوه التى تعودت أن تراها فى كل حفلة لتستشعر الأمان ٠

أما بعد الحفلة فانها تهرع الى النيل ٠ وعلى شاطئه تنطلق بها السيارة فى مشوار طويل وكأنها تغسل تعبها وقلقها ٠٠ والخوف ٠

وعند كل حفلة تكثر الأخبار فى الصحف عما تفعله قبل وبعد الحفلة ٠ فصحيفة تقول انها لا تأكل قبل الحفلة وتحب الانفراد بنفسها ٠٠ وبعد الحفلة تقول صحيفة أخرى (الأخبار ٥ / ٦ / ١٩٦٥) ٠

(قد لا يعرف الكثيرون أنه عندما يتهيأ ملايين الساهرين العرب للنوم بعد ليلة أم كلثوم ، تظل هى متيقظة ، ما تبقى من ساعات الليل ٠٠٠ فأم كلثوم لا تنام تلك الليلة ! ان نشوة الجمهور تنعكس عليها وتمسها فتسرى فيها تيارا من الحيوية الدافقة ٠٠٠ وتبقى لتلتقط أول خيوط الصباح لتصلها بيومها السابق ٠٠٠ بل انه ـ ذلك الصباح يحمل اليها دائما اشراقا غريبا ونشاطا يفوق غيره من الأيام ٠٠٠ وتبدو وكأنها لم تبذل مجهودا ، ولم تشعر بأى عناء ٠٠٠ حتى يقبل المساء ٠٠٠ وتبدأ حواسها وأعصابها المتيقظة تستسلم للنوم ٠٠ فان أم كلثوم تكره نوم النهار !

ومرة سمعت مهندس ديكور مشهور يحكي ـ وهو مبهور ـ كيف رأى أم كلثوم مرة فى ساعة مبكرة من صباح اليوم التالى لسهرتها ، وكانت

تتوهج حيوية ونشاطا · وكان مكلفا ببعض الأعمال فى بيت أم كلثوم ··· ولم ينس الرجل الفنان أن يذكر تفاصيل صورتها حتى لون الفستان والعقد اللولى الذى كانت تتحلى به ويجمع بين اللونين الرمادى و « الروز » ···

ام كلثوم المراة :

والأناقة والمظهر الرفيع هما أحد الجوانب المكملة لشخصية أم كلثوم · ··· وهى تقتنى الثوب الجميل ليس باعتباره (ضرورة اجتماعية) ، وانما هى تختار أثوابها بفهم وذكاء وترتديها بمزاج · وهذا فن (المراة) فى أم كلثوم ·

لقد قالت لى أم كلثوم يوما (ان اهتمامى بالفستان الذى أرتديه أمام الجمهور ، هو جزء من احترامى لهذا الجمهور · والانسان عندما يحترم أحدا فهو يهتم حتى بمظهره أمامه !) ·

طلعت مرة صحيفة الأخبار (عددها الصادر فى ٨ / ١٢ / ١٩٦٣) بهذا العنوان : أناقة أم كلثوم !

وتحت هذا العنوان كتبت :

(لأول مرة تغير أم كلثوم فى موديلات فساتينها التى ترتديها فى حفلاتها الغنائية ·· ارتدت فى أولى حفلاتها الغنائية هذا الموسم فستانا أسود من الدانتيل المشغول كله بالخرز الرديل بسيطا بدون درابيه وصدره مقفل تماما يحليه بروش من الماس على شكل هلال · وأمسكت بمنديل بلون النار ··· وعادت أم كلثوم الى تسريحة شعرها (القديمة) ·

* * *

وفى هذا الباب ·· باب ما تحب أم كلثوم وما تكره تقوم ريبورتاجات الصحف بدور كبير ·· ومن هذا الريبورتاج الذى نشره الأستاذ كمال الملاخ فى الأهرام (العدد الصادر ٧ / ١١ / ١٩٦٢) ·

ـ تحبى الليل ولا النهار ؟

ـ الليل ٠

ـ عندما يضيئه قمر مستدير ولا هلال رفيع ؟

ـ لما يكون فيه القمر وليد ٠٠ اقصد هلال ٠ فأنا أحب أن يكون للحاجة مستقبل ٠

ـ تحبى الصحراء أم البحر ؟

ـ المية ٠٠٠ الصحراء لا أجد فيها حياة ٠٠٠ الخيال أجده دائما فى الخضرة ٠٠٠ فى البحر ٠٠٠

ـ ما رأيك فى ناطحات السحاب ؟

ـ لم تحرك شعرة واحدة عندى ٠٠ بالعكس راديو ترانزيستور الذى يضمه الكف هو المدنية ٠٠ شوف ثورة اليمن وتحرير الشعوب ٠٠ الاذاعة بقى ولا ضخامة المبانى !

ويسجل كاتب هذا الحديث لمحات مـن بيت أم كلثوم ٠٠٠ ففى الصالون لوحة لوجه وصدر شابة قد استدار كل ما فيها الا شـــعرها ٠٠٠ جميلة كالورد ٠٠٠ ناضجة كالتفاح ٠٠٠ ثم تتكشف أنها بريشـــة الفنان بابينسكى ٠٠ وعند البهو تمثال قط فرعونى من البرونز والقط رمز السعادة والتفاؤل والفرحة عند الأجداد ، ولوحة للعذراء تعتز بها ، ولوحة لفــلاحة ٠

لســت أدرى لماذا أقف عند لوحة الفلاحة ٠٠٠ أتراها ترى فيها نفسها ٠٠٠ طفولتها ؟ أم أنها من خلالها ترى حاضرها فى خيط غير منظور يربط الماضى بالحاضر ٠

لا شىء أعز على أم كلثوم من القرية ومعالمها ٠٠٠ هذه القرية وهذه المعالم هى التى تستأثر بحبها والحنين ٠٠ منظر فيضان النيل فى الترعة ٠٠ ساعتها يبقى الحشيش طالع أخضر من وسط المية ٠٠ (أهو ده المنظر اللى يفرحنى صحيح ٠٠٠ لغـاية دلوقت باحن اليه فأركب « عربيتى » وأروح لغاية القناطر الخيرية خصوصا أيام المية بتاعة الفيضان اللى لونها بنى ٠٠ مش الرايقة ، تصوروا المنظر ده لو قعدت قدامه ساعات ما أزهقش لأنه بيذكرنى بطفولتى) ٠

حتى طعام الطفولة وزادها القليل هو الذى يستهويها (لغاية النهارده لما أروح البلد لازم يكون جنب الأكل مهما كان نوعه أكلة الطفولة المفضلة ٠٠ وهى السريس والجبنة القريش ٠٠ الأكلة اللى أسيب الحمام أو أى نوع من أنواع الطيور وآكلها ٠٠٠ صحتى لغاية دلوقتى بتيجى عليها ، لدرجة أن أى واحد من البلد أعرف أنه جاى مصر ٠٠ أطلب منه أن يجيب معاه هذه الهدية اللى باعتز بيها حتى النهارده ٠٠٠) ٠

وفى آخر عام ١٩٦٠ سألتها صحيفة الجمهورية :

ـ ما هى أهم أغنية لك فى سنة ١٩٦٠ ؟

ـ اسأل الشعب هو الذى يحكم ٠

ـ فى هذا العام منحتك الدولة أكبر وسام فمن الذى ترشحينه له فى العام الجديد ؟

ـ أنا لا أحدد اسما ٠٠ ولكنى أتمنى أن ينال كل فنان يبذل الجهد من أجل بلاده وساما على هذا الجهد ٠

ـ ماهو أهم حادث أسفت له هذا العام ؟

ـ تصرف الأمم المتحدة فى الكونغو ٠

وهكذا نرى اجاباتها تؤكد تتبعها للأحداث دليل وعى واحساس بالنفس ٠ انها ليست مطربة فحسب ولكنها ذات مستوى ٠٠ انها سفيرة لمصر ٠ السفارة الباقية ٠٠٠

انها تتابع الأحداث والسياسات والاهتمامات المصرية على المستوى الدولى باعتبارها (شخصية) ٠٠

تقول الين فورد :

لا أستطيع أن أنظر الى فتاة غير متعلمة وغير مثقفة وأشعر بأى جمال فيها ٠٠ صحيح أن الجمال المجرد له قيمته ٠ ولكن أكثر منه قيمة الجمال الذى يضفيه مزيج من العلم والثقافة على وجه المرأة ٠ حيث تبدو دائما مهتمة اهتماما حقيقيا بكل ما يدور حولها من أحاديث سياسية وأدبية

وفنية وعلمية وتشارك فى الرأى وتبدى اقتراحات ، وتظهر بمظهر الانسانة المتيقظة التى تدرك الأمور المختلفة وتقدرها ٠

« هذا فى رأيى هو الجمال » ٠

وقبل هذا بعام سألتها الجريدة نفسها (عدد ٣ /١٠ / ١٩٥٩) لماذا لا ترشح نفسها فى الانتخابات ؟ فكان جوابهـا انها تؤمن بالتخصص ورضاها كله فى خدمة فنها والعيش فيه ٠

* * *

وتعود الأهرام مرة أخرى (٥ / ٨ / ١٩٦٥) تسألها فتقول اذ تجيب :

الصحراء تخوفنى ٠٠ لأنها حاجة ما فيهاش نبات ولا انتـاج ٠٠ موحشة مفيهاش خلق ٠٠ بالعكس بالاقيها سراب ووهم ٠

البحر ٠٠٠ عندى مؤكد ملوش نهاية ٠٠ آفاق واسعة عريضة وعمق غير محدود ٠٠ البحر عندى حلو فيه حاجات ٠٠ المية والرزق والأفق ٠٠ مركب جاية من بعيد ٠٠ قدامى شراع يبص لك كده ٠٠ فيه حركة وحياة وكذلك الغابة خضرة ٠٠ سهول ٠٠ جبال ٠٠٠ مياه ٠٠٠ شلالات فيها روح وتفاؤل وصوت ٠٠٠

الريف أيوه يشدنى بجماله ما فيهوش تكلف ٠٠٠ صحيح المدنية فيهـا مصانع وزحام وبهجة ٠٠٠ ولكن الطبيعة أحلى لأنها من خلق الله موش الانسان ٠

وهى قوية الشخصية معتدة بنفسها ٠

حلا لعازف ماندولين يعمـل فى التليفزيون أن يقدم ضمن عرض فكاهى له تقليد أغنية (يا ظالمنى) ٠

فاتصلت أم كلثوم بمراقب البرامج وطلبت منـه عدم عرضه ٠ فاستجاب المراقب بل استدعى العازف وقال له :

ـ اقتصر على تقليد فلانة أو فلانة ولكن اياك وتقليد أم كلثوم ..

وطلعت روز اليوسف فى ١٩٦٢/٧/١٦ بعنوان (ممنوع تقليد أم كلثوم فى التليفزيون) .

أما الأهرام فقد طلعت فى ١٠ / ٩ / ١٩٦٢ بعنوان :

(أم كلثوم تمنع اذاعة ١٤ أغنية من أغانيها) .

وفى نهاية القائمة تقول :

الاذاعة تفكر فى شراء الاسطوانات المسجل عليها الأغانى التى طلبت أم كلثوم منع اذاعة أشرطتها لتقدمها للمستمعين . وبعض هذه الاسطوانات مسجلة تسجيلا بطيئا تستغرق اذاعتها بالوجهين ٤٠ دقيقة).

ومحطة الاذاعة تذيع لمدة ثلاث ساعات متواصلة بدون تعليق أو تقديم : أشرطة حفلات أم كلثوم . وظل الحال على هذا المنوال نحو عامين والناس تتساءل عن كنه هذه المحطة . ويذهبون فى تعريفها وتفسيرها مذاهب شتى ثم طلبت أم كلثوم الاقتصاد فى اذاعة أغانيها بصورة موصولة حرصا عليها .

واستجابت المحطة لهذه الرغبة ولكنها تبدأ بأم كلثوم وتنتهى بأم كلثوم .

ومع هذا ترى أم كلثوم المجد بعيدا .. بعيدا ... فالشهرة والجماهير ... وحب الملايين ... والثروة ... وكنوز الماس .. وتهليل الاعجاب .. وتصفيق الحماسة ... وتمجيد الحكومات ... وشغف الشعوب ... كل هذا وقف فى موكب طويل على باب أم كلثوم ثم تزاحم فى الدخول . وعندما دان لها الجميع سمته « النجاح الكبير » ؟ !

فقط نجاح .. أما المجد فيبدو أنها تنتظره كأنه لم يصل بعد ...

ان كان هذا تواضعا حقيقيا فهو صفة طيبة تحسب لها وان كان اصطناعا للتواضع فهو ذكاء وأسلوب شخصية .

وقد طافت أم كلثوم مبكرا ـ منذ الثلاثينيات ـ بكثير من البلاد الأجنبية وشهدت معالم حضارتها فزادها هذا كله صقلا واشراقا . فجليسها

انما يجلس الى سيدة صالون من الطراز الممتاز . سيدة واسعة الأفق عذبة الحديث .. وصفها صحفى كبير فقال :

(كلما رأيتها شعرت بكثير من الفخر أن تستطيع فتاة مصرية أن تصل الى ما وصلت اليه وأن تخط لنفسها طريقا للمجد وترتفع درجات هرم الشهرة فلا تنزلق مرة واحدة .. تعرف فى كل مجلس ما يقال وما لا يقال .. وسر عظمتها فى شخصيتها القوية) .

وقد قرأت أم كلثوم على رامى من الشعر العربى فى عصوره المختلفة كما سبقت الاشارة ودونت منه بيدها مختارات راقت لها . وقرأت عليه من عيون الأدب العربى كتاب (الأغانى) وأحاطت بطرف من الأدب المصرى الحديث . كما تعلمت اللغة الفرنسية ولو بالتلقين ثم عكفت على دراسة الانجليزية قبل سفرها للعلاج فى أمريكا ، ونالت قدرا منها لا بأس به . وصاغت من هذا كله نفسها فأصبحت طرازا وحدها بين الفنانين ومحترفى الفن .

وقد اطلعت على « مختارات أم كلثوم التى اصطفتها مما قرأت وكتبتها بيدها فى كراسة خاصة . وفى هذه الكراسة قرأت من لطائف الشعر العربى فى عصوره المختلفة أقباسا من فن القول ، فيها من النفس الانسانية خلجات ، ومن الروح الانسانية ومضات شفافة . واذا كان اختيار المرء بضعة من عقله ، فان اختيارها أبيات الشريف :

ولقد مررت على ديارهم وطلولها بيد البلى نهب
فوقفت حتى ضج من لغب نضوى ولج بعذلى الركب
وتلفتت عينى فمذ خفيت عنى الطلول تلفت القلب

ان اختيارها هذه الأبيات يدل على شفافية ونفاذ واحساس أدبى رهيف . وان كان رامى حتما وراء هذا الاختيار أو هو موحيه .

ومن مختاراتها هذه الأبيات :

وما أتبعت ظعن الحى طرفى لأغنم نظرة فتكون زادى
ولكنى بعثت بلحظ عينى وراء الركب يسأل عن فؤادى

ان الشاعر هنا مسلوب القلب ٠٠٠ القلب كله ٠

ومن مختاراتها الأبيات :

قد تسترت بالسكون وبالاطـ راق جهدى فنمت العينان
تركتنى الوشاة نصب المشيريـ ـن وأحدوثة بكل مكان
ما أرى خاليين للسر الا قلت ما يخلوان الا لشانى

ان هوى الشاعر مبرح لم يجد معه السكون والمداراة والهرب بالاطراق فانه هو تحسه كل جارحة لا سيما العينين ٠ وقلما تكتمان فان لمعتهما وعمق نظرتهما ولهفتهما تشى بما شف النفس ، وعمر الفؤاد ٠٠٠

ولعل حفظها للقرآن صغيرة طبعها على جمال الكلم تحبه وتتفهمه٠ ولعل هذا يفسر بصرها بفروق المعانى منذ نشأتها الأولى فتروى أنها كانت وهي صغيرة تنشد الموشحات مع والدها تقف عند لفظة الجمان فى الموشحة :

جل من طرز الياسمين فوق خديك بالجلنار
وارتضى ذا الجمان الثمين معدنا من لماك العقار

وهي تعلل هذا بأنها كانت لا تعرف معناها لتعطيها النغمة الصوتية التى توائمها ! وتقول ان لفظة (رقيق) يتطلب أداؤها لونا معينا من الصوت وتعبير الوجه يختلف كل الاختلاف عن أداء كلمة (فظ) !

فالطفلة التى تتوقف عن غناء كلمة لا تعرف معناها وتدرك الصلة بين المعنى والأداء ببداهة الفطرة مطبوعة على الفن ٠٠٠ فن الكلمة ٠٠ وفن الأداء فوق موهبتها فى الغناء ٠

ومن امثلة بصرها بالمعانى أنها سمعت يوما تسجيل (نهج البردة) فراعها أنها تخطت البيت الثانى من الأبيات :

جبت السموات أو ما فوقهن بهم على منورة درية اللجم

مشيئة الخالق البارى وصنعته وقدرة الله فوق الشك والتهم
حتى بلغت سماء لا يطار لها على جنـاح ولا يسـعى على قدم

ولكنها فطنت الى اتساق المعنى مع النسيان مدركة أن البيت الثانى بمثابة الرد على منكر الاسراء أو الشاك فيه ·· وأن تخطيه ثقة بايمـان السامعين ايمانا لا ضرورة معه الى الاقناع ···

ترى هل جاملها أحد الأدباء بهذا التفسير أو التبرير نتعلقت بهذا التعليل دفاعا عن النفس ؟ أم نفاذ كلثومى ؟ ·

وهى تتحدث عن العلاقة بين الأدب والموسيقى وتلمح الصلة بينهما فى التشابه بين أوزان الموسيقى وأوزان الشعر ·

لاحظت عليها فى الرباعية :

ان تفصل القطرة من بحرها ففى مداه منتهى أمرها
تقـاربت يا رب ما بيننـا مسافة البعـد على قدرها

لاحظت عليهـا أنها فى نطق (أمرها) ترقق الميم والراء ترقيقا يكاد معه الحرفان يتلاشيان ·· كانها تنطق الكلمة على هذه الصـورة لتمثل ذوبان القطرة فى البحر العظيم وتلاشيها فيه !! وقد تبين لى أنها كانت تعنى ما ذهبت اليه من تفسير ·

وأم كلثوم فى « رباعيات الخيام » حين يصفو مزاجها ، تؤديهـا تراتيل وسبحات · وهى من أحب أغانيها اليها وأقربها الى قلبها ·

وأم كلثوم ترى أو تؤيد الرأى القائل بان ذكر الخمر على لسان الخيام لا تعد اثما اذا نظرنا اليها نظرة أوسع وأعمق · نظرة ترى المنكرات تعلقا بالظواهر أما اذا استشف فاعل المنكر ما وراء الأشياء وشرب الخمر شاربها بعقيدة أنها تخلصه من عالم المادة وتسـاعده على النفاذ والمضى الى ما وراءها ، فهو ليس بآثم فى نظر الفن ·

وهنـا يختلف الفن مع الأخـلاق فى الظواهر لا الحقائق · وقد يعارض الفن الفضيلة العمليـة لأن القانون موضوع على الظاهر وهو مضطر أن يأخذ به فيعاقب على المعصية ولا يثيب على الطاعة · ولكن

الفنان كالصوفى لا يتحرج من الأشـــياء تحرجا ظاهرا كتحرج الفقيه بل الخيرية والشرية عنده تتوقف على النية •

وأم كلثوم حين غنت رباعيات الخيام سنة ١٩٥١ لم يكن اختيارها ابن ساعته ولم تكن رباعياته جديدة عليها ، بل اختارتها بعـد سبق دراسة واقتناع • فقد سألتها مجلة دنيا الفن سنة ١٩٤٧ عن الشخصيات التاريخية التى تحب أن تراها على الستار الفضى فقالت :

عمر الخيام الشاعر الذى عاش شعره نشيدا عذبا يتردد صداه فى قلب الانسانية مئات السنين ، مستمدا خلوده ، وبقاءه من واقعية الشاعر وايمانه بما يقول ، فقد عاش الخيام فى شعره قبل أن ينظمه• ولذلك جاء أثرا صادقا لانسان خبر الحياة ومارسها وعبر عنهـــا بكلام لا بريق فيه ولا تزويق • أما الشخصـــية التـــاريخية فهى الســـيدة أم المؤمنين ، أول من آمن برسالة النبى صلى الله عليه وسلم • فقد كانت هى أول الثلاثة الذين آمنوا به وهم : أبو بكر وعلى بن أبى طالب وكانت هى أولهم ••

السيدة التى آزرت النبى ، ووقفت الى جانبه فى أشد أيام محنته حتى أدى رسالته كاملة • واذا قلت لى : ان شخصيتها من الشخصيات المحرم ظهورها على الستارة أقول لك : اننى ضد هذه الآراء التى تحب أن تخفى عن الناس أجمل نواحى البطولة والعظمة فى تاريخنا الاسلامى، فمثل هذه الشخصيات يجب أن يراها الناس لتنشر فى قلوبهم الايمان بالله ، وتذكرهم بمجد الاســلام ، ونواحى العظمة فى حيـــاة أبطاله وبطلاته !!

* * *

● اذا صحت نظرية تناسخ الأرواح ، فماذا كانت ، وماذا تحب أن تكون ؟

« اننى لا أحس اننى عشت قبل الآن ، أما الحياة التى كنت أتمنى أن أعيشها فهى أن أكون أى واحـــدة من أولئك اللواتى عشن فى زمن النبى عليه الصلاة والسلام ، لكى أرى ظهور النبى وأكحل عينى برؤية فجر الاسلام وهو ينبثق على العالم •

أما الحياة التى أحب أن أحيـــاها فى المستقبل ، فهى أن أكون « سميعة » .

* * *

فأم كلثوم التى تستعذب شعر الخيام مع ما فيه ، هى أم كلثوم التى تنظر بعين الاكبار الى السيدة الأولى فى الاسلام .. وهى أم كلثوم التى تغفل ما تتمتع به الآن من شــهرة ومجد وتتمنى لو أنها أى واحـدة من أولئك اللواتى عشن فى زمن النبى عليه الصلاة والسلام ، لكى ترى ظهور النبى وتكحل عينيها برؤية فجر الاسلام وهو ينبثق على العالم .

وهذا اللون من الايمان هو الايمان الواسع الأفق الذى يتسامى عن الظهور بالتزمت والتحرج من لا شىء .

هذه هى الصورة التى ترسمها لنفسها على كل حال .

ان كانت حقيقية فهى صورة طيبة ، وان كانت اجابة دبلوماسية فهى ذكاء ووعى ...

ولكن الذى كان يحدث أن أم كلثوم التى حفظت القرآن صـــغيرة وقرأت السيرة النبوية ، كانت تقرأ القرآن فى بيتهـا وتقرأ القرآن اذا خرجت من البيت ـ فاذا تجاوزت عتبة دارها فان آياتها التى تعلو شفتيها حرزا وأمانا كانت (ان الذى فرض عليك القرآن لرادك الى معاد) .

واذا صعدت سلم طائرة قرأت آية الكرسى مرات ...

وفى ذكرى مولد الرسول من كل عام ، كانت أم كلثوم تحتفل بالمولد فى بيتها بقراءة السيرة النبوية بالطريقة نفسها التى كانت تقرؤها بها وهى صغيرة احياء للمولد ، ووفاء للقرية .

وفى أزمتها الأخيرة عندما افاقت من غاشيتها أول مرة ، طلبت أول ما طلبت المصحف وقرأت فيه ...

وليس اعتباطا تاديتها الهمزية ونهج البردة وسائر القصائد الدينية بكل هذا التجلى ... ان استشعارها المعانى من عمق وجـــدان دينى « ناشىء فى الورد من أيامه » .


دور أم كلثوم
فى الموسيقى
الشرقية

يرى الأستاذ سامي الشوا أنه لولا أم كلثوم لما ظل للموسيقى العربية طابعها التقليدي. وهو يستشهد لرأيه بأنه منذ سبعين عاما كان المغني يغني التواشيح والقصائد ، ثم جاءت فترة تجارية راجت فيها الطقاطيق ، ثم عادت بنا أم كلثوم الى القصيدة . وبهذا حفظت للموسيقى الشرقية طابعها التقليدي .

وكان من أثر تأثرها بالشيخ أبي العلا وحفظها الموشحات أنها طبعت على حب الموسيقى الشرقية . وسرى في دمها هذا الحب حتى كاد أن يكون تعصبا لها من فرط اعتزازها بها . وهي ترى من واجب الملحن أن يحفظ الكثير من الموشحات وأن يكون عالما بقواعد وأصول الموسيقى الشرقية القديمة . **ومع حفاوتها بالموسيقى الشرقية ترى أن ندرس الموسيقى الغربية على الا ننقلها كما هي بل** لتكسب محصولنا الفني قوة وغزارة يظهر أثرهما في انتاجنا الموسيقي . وهي لا تعارض في التجديد في الموسيقى ، بل تراه واجبا محتوما لكي تساير الموسيقى جميع النهضات . ولكنها ترى في الموسيقى الحديثة عندنا خلطا وتشويشا . وخير منها أن ننسج من ثوب الموسيقى القديمة ثوبا عصريا يناسب العصر الحاضر وهي تدافع عن رأيها بقولها :

« اننا قد نعجب بالموسيقى الأفرنجية ولكننا لا نطرب لها · وان الجمهور قد يعجب مثلا بأنغام الفالس المحشورة فى القطعة ولكن عندما يصل اللحن الى جزئه العربى يتغير حاله ويغلبه التأثر · وهذا هو الفرق بين شعورنا أمام الموسيقى الأفرنجية والموسيقى العربية ···· الفرق بين الاعجاب والطرب ·· » ·

ام كلثوم ومنيرة المهدية :

وقد بدا لى أن أسأله عن أم كلثوم ومنيرة المهدية باعتباره سمع الاثنتين فى اكتمالهما ، وباعتباره موسيقيا يعتد برأيه فى عالم الأصوات والأنغام ، فكان جوابه الصريح دون مواربة أن منيرة صوت جميل بلا فن، ولكن أم كلثوم صوت ترفده أذن موسيقية مرهفة ذواقة نقادة . وعلم بأصول فن الموسيقى ·

والأستاذ رياض السنباطى يصف منيرة بأنها صوت قوى بلا فرامل ·

وقد قرأت فى العدد الثالث من مجلة الناقد الصادر فى ١٧/١٠/١٩٢٧ مقالا للأستاذ حماد يقارن فيه بين الشخصيتين فقال عن منيرة المهدية :

(لها صوت رنان جميل النغم وقد وهبتها الطبيعة حنجرة سليمة الأوتار صافية نقية ، لولا أنها لا تحسن استخدامها · وما قيمة التبر لدى من يجهله والماس عند من لا يفرقه من الزجاج البراق · لا تحتكم على نبرات صوتها ، ولا تستطيع ان تضبطها وفق ما تشاء . فكثيرا ما تستمع منها فتلمس الاختلاف بين ما تنشده وما تعزفه الموسيقى ، وهذا أوضح عيوبها · واذا كانت لا تستطيع اصلاحه فمرجع ذلك الى الطبيعة والى ما أخذت به السيدة منيرة نفسها من الاهمال وعدم التدرب الصحيح على أيدى أساتذة الفن · تستمع لها وهى تغنى فيطير بك صوتها الجميل ولكن أى حس ينقله اليك وأى شعور يبثه فيك ؟ لا شىء ·· لا تتميز فى انشادها عاطفة من عواطف القلب ·

ولا يمكن أن يكون له وقع لديك أكثر من وقع منظر عادى تاخذه

عيناك فتمر به مرا دون أن يبقى منه فى دخيلة وجدانك بقية صالحة أو غير صالحة • هى تغنى لتطرب أذنك وحاستك المادية فقط أما دون ذلك فتطلبه عند أم كلثوم او فتحية) •

هذا هو رأى أديب •• وذلك هو رأى موسيقى مشهود له بالامتياز فى فنه ••• فالرأى منه شهادة خبير مختص ومن ثم ــ فوق عنصر المعاصرة لهما ــ فهو من النقد الفنى فى الصميم •

ويقول المعمرون فينا من أهل الفن ان صوت منيرة قوى عريض ولكنه بلا فن ••• بلا رتوش •• معدن غير مصاغ • صوت أمى ••• أمى الأداء •• أمى النطق •• أمى العرض •• أمى الأسلوب •• وكانت صـاحبته أمية الحركة •• أمية التصرف •• أمية التعبير والتفكير ••

وليست الأمية الجهل بالقراءة والكتابة فقد يكون حامل ليسانس أميا •• فالثقافة طبقة أعلى بكثير من التعلم ••

الثقافة شفافية روح ورفيف وجدان وأناقة حركة وترف تعبير وعمق تفكير وأسلوب شخصية •

وقد وجد الشعب هذا أو معظمه عند أم كلثوم فتعلق بها على الرغم من أنها لا تحمل شهادة • ولكن مدرسة الحياة علمتها ما فاتها تحصيله فى المدارس والجامعات •

ومع هذا فقد سمعت ، ليلة ، فرقة الموسيقى العربية فى قاعة سيد درويش • وغنت ثلاث فتيـات من الفرقة طقطوقة (أنت فاكرانى ولا نسيانى) وبذلن جهدا واضحا ، وأدينها أداء جيدا • ولـكن الأصوات الثلاثة المدربة لم تبلغ مجتمعة من سـمع الناس مبلغ أم كلثوم فردا بلا ظهير •••

صوت ام كلثوم :

مرة أخرى نستمع الى رأى الاختصاص :

يقول عنها عبد الوهاب انها **المغنية الوحيدة** التى جمعت بين القوة والعاطفة والحساسية فى صوتها ، وأنها **الصوت الوحيد** (اللى) يقدر يتمرد على ذل الميكروفون ويقول :

انها واجهت الجمهور وحدها فى أول حياتها من غير سند وهـذا أعطاها **الشجاعة والشخصية والقدرة** على (**القفلة**) **السليمة** •

ويقول زكريا (ان الجملة الموسيقية بأداء الملحن تكون عادة أفضل منهـا بأداء المغنية لأنه خالق الجملة **اما بالنسبة الى أم كلثوم فالعكس هو الصحيح**) •

ويقول الأستاذ سليمان جميل من مقال نشره فى عـدد الأهرام الصادر فى ١٠/١/١٩٦٥ •

(شخصية أم كلثوم أول عناصرها الصوت • وصوت أم كلثوم له مساحة من درجات الأنغام يمكن قياسها (بأوكتافين) أى عدد (٢) أوكتاف وكلمة أوكتاف معناها مساحة صوتية من (٨) درجات نغمية • والحقيقة أن مساحة الصوت فى حنجرة أم كلثوم والتى تبلغ حوالى (١٦) درجة نغمية تمتاز بأن كل نغمة فيها تخرج **كاملة الوضوح** وذلك من أول نغمة منخفضة (١)ف فى قرار مساحة الصوت ، الى آخر نغمة حادة ، فى قمة هذه المساحة الصوتية • المهم أن **صوت أم كلثوم لا نعرفه فقط بتقدير مساحته ، وانما ايضا بقدرته على أداء الحركة الموسيقية** ، أى الانتقال من نغمة الى نغمة أخرى • والمفروض أن كل أصـوات المغنين ــ لكى يتم صقلها لا بد من تدريبها على تركيز الصوت والانتقال بين درجات السلم الموسيقى صعودا وهبوطا ، وطبعا فى حدود مساحة الصوت التى تولد كامكانية طبيعية فى حنجرة المغنى •

---

(١) يقولون ان المرأة يبدأ صوتها من المقام الثالث ؛ اما الاول والثانى فوقف على الرجال ، وأم كلثوم يبدأ صوتها من المقام الثانى •

وأم كلثوم اكتسبت صنعة الأداء من المصادر الآتية :

أولا : التدريب العملى على القاء القرآن المنغم . وأيضا أداء ألحان الموشحات الدينية .

ثانيا : التدريب العملى على أداء ألحان القصائد والطقاطيق .

ثالثا : التدريب العملى على أداء الحركات اللحنية فى أغنيات القرية . وعلى الأخص الحركات اللحنية التى يتكون منها « الموال » . ولم تصل أم كلثوم الى ما وصلت اليه الآن من مهارة فى اخراج الصوت الموسيقى فى أنغام محددة واضحة ، أو فى شكل قفزات سليمّة بين درجات الانغام ، الا بعد مران طويل . والدليل على ذلك أننا لو رجعنا الى الألحان الأولى التى سجلتها أم كلثوم فى طفولتها ، سنلاحظ أن ذبذبات الصوت كانت تنطلق من حنجرتها دون أن نحدد درجات ثابتة للأنغام .

وهكذا يمكن أن نعتبر بعض ألحان أم كلثوم الاولى مجرد تدريبات لتركيز الصوت .

ولا ننسى أن أم كلثوم ظلت طوال عمرها الموسيقى ، تستلهم أشكالا متنوعة للحركات الصوتية من خيالها الموسيقى وتجسدها بحنجرتها . وخيال أم كلثوم الموسيقى هو المدخل الى حديثنا عن أسلوبها .

انها تبتكر خطوطا من الالحان بسهولة وبدون تحضير سابق ، انها بذلك **تتمتع بموهبة ارتجال اللحن** ويساعدها على ذلك أن حنجرتها تدربت على تجسيد النغم . وأم كلثوم لا تستعرض عضلات حنجرتها . وانما تستخدم قدرتها على اخراج الصوت وتلوينه لخدمة التعبير الموسيقى . وقد يقال ان الحركات اللحنية التى صقلت حنجرة أم كلثوم فى مرحلة التدريب أصبحت قوالب موسيقية متكررة ، وأن هذه القوالب هى التى نخطىء ونقول عنها أنها خيال موسيقى خصب تتمتع به أم كلثوم والحقيقة الموسيقية غير ذلك ، لاننا بالاستماع الى مئات الأغانى التى غنتها أم كلثوم سنلمس الاختلاف فى تكوين الالحان ولونها النغمى وروحها الايقاعية . وأقصد الألحان التى ارتجلتها من وحى خيالها الموسيقى فى مختلف الأغانى . والفرق بين أسلوب الارتجالات اللحنية والتلحين هو الفرق بين ابداع لحن وابداع شكل موسيقى محدد من هذا اللحن .

ان أم كلثوم الشخصية الموسيقية ، لها أثر عميق فى نفوسنا لأنها صوت صقلته تجربة موسيقية مصرية أصيلة ، هذه التجربة بدأت بأبعاد أصوات ترتيل القرآن ، ومجموعة ألحان الموشحات والقصائد الدينية ، وارتجالات مغنى الموال فى القرية ٠

والحق أن صوت أم كلثوم يتميز بأنه مشحون بروح بيئتنا ، وظلت أم كلثوم طوال عمرها الموسيقى تتذوق ألوان مقامات الموسيقى العربية وفيها أبعاد النغم الشعبى ، وتنمى قدرتها على تجسيد ألوان النغم فى خيالها ، وهكذا ابتدعت أم كلثوم أسلوبها فى تنويع ألحان الأغنية التى تغنيها **وأم كلثوم تبتكر هـــذه التنوعات اللحنية من وحي اللحظة التى تغنى فيها أمام الجمهور ٠ وهذا دليل على فطرتها الموسيقية الأصيلة ٠**

انها فرع حى من نهر موسيقانا الشعبية ، تعكس خلجاتها بطبيعة صوتها وأسلوبها فى كل أغنية تغنيها ٠

ويعتبر الملحن زكريا أحمد هو أقرب الملحنين الى الروح الشعبية فى صوت وأسلوب أم كلثوم ٠ ان معظم ألحانه مبنية من لغة الايقاع النابعة من لهجة الناس فى الكلام والسلوك اليومى فى الحياة ٠ وهكذا كان سيد درويش) ٠

* * *

هذا هو صوت أم كلثوم بعيدا عن تهويل الحب أو جنوح الهوى ٠

وأريد أن أزيد هنا أن (القفلة) عند أم كلثوم طبيعية سهلة من موهبة مؤاتية حين يحتشد لهـــذه القفلة المغنون من تهيبهم ٠ وبعـــد الاحتشاد ، يتسلخ الصوت وتضيع منهم القفلة فى معظم الأحـــوال ٠٠ ولكن أم كلثوم بالصوت الظافر **لم تضع منها القفلة فى حياتها مرة واحدة كما يقول عبد الوهاب ٠٠٠ الذى يقول أيضا ان كل مغن فى صوته منطقة** تمثل نقطة القوة عنده **ولكن أم كلثوم صوتها مناطقه كلها قادرة** وهذا سر تنقلها بين النغمات والدرجات **بسهولة وتكافؤ وكفاءة ٠**

* * *

ان المسألة ليست (القوة) فقد يكون صوت قوى لامع مرن ولكنه يفتقد أو يفتقد سامعه ، فيه الاحساس ٠ أليس الجرس مثلا ذا صوت قوى ورنين ؟ هل يشجى الجرس ؟

صوت أم كلثوم يجمع بين القوة القادرة والاحساس العميق وهى ميزة عزيزة ٠

وصوت أم كلثوم بالاحساس المشحون فيه قادر على التلوين والاضافة ٠٠ وهل كان التكرار للتوقيع أو الاستعادة ، مما يتقبله السامع الا باضافة جميلة تجعله أمنية ؟ ان التطويل من أم كلثوم محبة لها من الناس ٠ انه جواز دبلوماسى آخر أو جواز شعبى ٠٠ كذلك الذى بلغ قمة الحب فلم يجد وصفا أبلغ من هذا البيت :

من الخفرات البيض ودجليسها اذا ما انقضت أحدوثة لو تعيدها

ان الانسان يمل نفسه وطعامه وبيته فيستعين على الملل بالتغيير والتبديل تحت اسم الموضة والترويح ، ولكن أم كلثوم كعصفور المازنى لا يبدل ريشه ومع ذلك يبدو فى رأى العين جميلا كل يوم ٠

وقد ظل هذا الصوت يؤدى على المدى الواسع خمسين عاما ٠٠ نصفها على الأقل متفردا بلا منافس والمطربون والمطربات كثيرون ولكنهم يعشون الى ضوئه دون أن يشائيه أحد ٠

صوت أم كلثوم بين الأصوات كاللون الأخضر بين الألوان : أغناها ، وأوفرها ، وأكثرها تنوعا وأخصبها حياة ، وأشدها تأثيرا على النفس بما يوحيه ٠٠ وبما يضفيه ٠

هناك أصوات حلوة : فايزة ٠٠ نجاة ٠٠ فيروز ٠٠ شادية ٠٠ وردة ٠٠ ولكن ليس بينهن المطربة التى تستغرقك وحدها وتشغلك عمن سواها ٠ ليس بينهن واحدة مشبعة أو (جامعة مانعة) وانما هن ألوان تسمع الواحدة بعد الأخرى بدرجات متشابهة من التأثير تقريبا ٠ وانما الصوت الذى (يغدى) هو صوت أم كلثوم ٠٠٠ ان من الناس من يعيش بعد حفلة أم كلثوم فى حالة اكتفاء فنى أسبوعا لا يفكر فى سماع أحد ، بل يهرب من السماع ويتعمد الصد عن أى صوت ليخلو لسماع الحفلة مرة ثانية بينه وبين نفسه ٠٠ فى الذاكرة ٠

ولا تعنى القمة بالتزكية استنامة صاحبتها أو اعفاءها من النضال ٠٠ والنضال القاسى ٠ فالطريق الى القمة اذا كان صعبا ، فان الاحتفاظ بها أصعب ٠ ولكن من حسن حظها أنها عرفت بلقانة الفطرة ، وجدية الطبع ، ومواهب الارادة الماردة ، وطاقة الجلد والصبر ، أن تحافظ

على هذه النعمة ٠٠ على هذا العطاء بالتدريب المتزايد ، والعمل الموصول ، والتوفر الطويل ، والبــذل من ذات النفس وفــاء للفن ولجمهوره أو جمهورها تارة ، وبالتعفف عن المبــاح ، تارة أخرى ٠ فهى لا تأكل ما تشتهى اذا تعارض هذا مع فنها ولا أقول صحتها فان مفهوم الصحة عندها قد استحال كغيره من المفاهيم الى (الفن) أو الى خدمته ٠

انها من أجل هذا الصوت تعيش فى معركة أو معارك ضد اللذات ٠٠ ضد السهر ٠٠ ضد الراحة وتحاول أن تخرج من هــذه المعارك جميعا منتصرة ٠ ولكنه ككل نصر يجتاز فى طريقه ألما كبيرا ٠٠ ألم الكبت على الأقل ٠٠٠ ألم الصراع ٠٠٠

انها معركة مع الزمن أيضا ٠٠٠ الزمن العاتى الذى لم يســتطع أن ينال من هذا الصوت على الأيام غير طبقتين أو حتى ثلاث فى خلسة منا ومنها حتى أننا لا نكاد نشعر بعملية السطو هذه بفعل ما تضــفيه هى أو تضفيه الخبرة والأستاذية والصقل والتمكن والأصالة والاقتدار من صفات نوابغ ، بعضها التركيز والدسامة والعمق والبلورة والنضج حتى ليقول قائلنا ان صوتها يحلو على السنين على غير المألوف وكأنه الخمر الحلال يزيدها (العتق) نكهة وطيبا ٠٠٠ ويقسم سامعوها غير حانثين عقب كل حفلة أنها لم تغن فى حياتها كما غنت لهم !! ٠٠ **انها هكذا تبدو**٠

يقول الأستاذ العقاد (المصور ٢٠/١٠/١٩٤٩) ، (ان أشــهر أصوات النساء فى اصطلاح الأوربيين هى « الســبرانو » Soprano ونصف السبرانو Mezzo-soprano و الكنترلتو » Contralto ونحن نفضل أن نترجمها بالصوت المديد ، والصــوت الوسيط والصــوت الرخيم ٠٠ والمتفق عليه أن صوت أم كلثوم من السبرانو المديد) ٠

أم كلثوم وفن الأوبريت :

وفى رأيى أن صوت أم كلثوم خامة نفيسه للأوبريت لو أنه نشىء نشأة فنية لهذا الغرض ودرب عليه وشكل فى قالبه ٠ ولكن هــذه

الخامة ، أو صوتها شكل تشكيلا آخر ودرب تدريبا آخر مختلفا جدا ٠ وأصبحت النقلة بعيدة بين التطريب والسبرانو ٠

سبب آخر يتصل بالأول أيضا وهو أن غناء التخت يكيفه الطابع الشرقى ٠٠٠ غناء مزاج ٠٠ وهى فى هذا اللون تتركز الأضواء عليهـــا وحدها وتحيط الهالات بهـــا وحدها حتى ليكاد هيلمانها يحجب المؤلف والملحن ! وهما شريكان نظيران فى الأغنيـــة ٠٠ ان عين المشـــاهد كأذنه لا ترى غيرها حتى لينسب الأغنية اليها فى بساطة وبديهية فيقول (أغنية أم كلثوم الجديدة) مثلا ٠٠ انها صاحبة الأغانى **وصاحبة الأمر تغنى ما تشاء وقتما تشاء ٠٠ حيثما تشاء** ٠٠ وتهيمن هيمنة كاملة على التخت والمتصلين به من مؤلفين وملحنين وعازفين وجمهور ٠

والأوبرا تحتاج الى نظير Fellow-mate وهى تعتقد أنها لا يشائيها أحد واذا وجد هـذا النظير فهى فى قرارة نفســها لا تريده ٠٠٠ لا تريد الكاميرا أن تتحول عنها قيد شعرة ٠

هذا بينما فى الأوبريت والأوبرا العمل الفنى جماعى مشترك ٠٠ هى فيه جزء من كل ٠٠ جزء فقط مهما كبر دورها ٠ وسيطرتها محدودة ان لم تكن معدومة ٠ فهى تخضع للتدريب المضنى ٠ وهى تحفظ أغانى متعددة فى وقت واحد ٠ وهى تخضع مرة ثانية للمخرج ، وهى محكومة بالوقت والمكان والمجموعة الفنية ٠ فاذا نجح العمل بعد هذا كله توزع الفضل أقباسا ٠٠٠ لكل من شارك فيه نصيب ٠

واذا نجحت وحدها شـــاب نجاحها ، تخلف الآخرين لأن طبيعة الأوبريت ككل عمل جماعى تقيم كوحدة ٠

والأوبريت بعد هذا (عمل يومى) أى أنها عليها أن تظهر كل ليلة وتغنى كل ليلة فترة معلومة ٠٠ وهـــذا فوق ما فيه من ارهاق وضنى يناقض سياستها التى وضـــعتها لنفســها والتى تقوم على التصـــون و « التشويق » ٠ فهى لا تريد لفنها أن يبلى بالعادة وبالرتابة بل تحجبه بالقدر الذى يبدو معه ، عند ظهوره ، جديدا براقا ولو كان معادا ٠٠٠

فالأوبريت لا توافق أسلوبها ، ولا توافق طبيعة أصيلة فيها هى حب التفرد ، ولا توافق مزاجهـــا الشـــخصى الذى يفزع من « التجنيد الفنى » ٠

انها تريد أن تسود حين تغنى ٠

على أن هناك بعد هـــذا اعتبارات فنية أخرى بعضها ما تتطلبه الأوبرا من نفقات واعـــداد ، وما يتطلبه تأليفها الأدبى والموســـيقى من جهد ووقت طويل لأنه يقوم على العلم والدراسة والعمق ٠

والأدب الموســـيقى على المسرح بأقســـامه الثـــلاثة : الفودفيل والأوبريت والأوبرا يتطلب استعدادا خاصا من موسيقى مسرحية وجوق ومدير خبير مجرب ٠

بقى سؤال : الآخرون من مطربين ومطربات لاسيما من يلحنون ، لماذا لم يؤدوا الأوبريت ؟ عبد الوهاب مثلا لماذا لم يقدم الأوبريت منـــذ الأربعينات ، اذا استثنينا « مجنون ليلى » ؟ وهى غير كامله :

هل قدم أحد الأوبريت ثم منعته أم كلثوم ؟

واذا كانت المطربات يدرن فى فلكها فما عذر الآخرين ؟

أم كلثوم والكلمة واللحن :

وهى لا يستهويها الجديد فهى لا تهرول وراءه ٠ ولكنها تتأمله فى وعى وتفكر فيه فى هدوء ، وتقيسه على الزمن والناس فاذا اقتنعت به ولمست غلبة التيار فهى بذكاء الحصيف لا تعترض التيار هـــذا ولكن تسايره مجاراة أو مداراة على أن مسايرتها بحساب دقيق لا يميل الى الطفرة بل يتطور فى تدرج وأناة ٠

ومن هذا استقبالها أوبريت الأرملة الطروب التى غنتها الســـيدة رتيبة الحفنى بحفاوة وتقدير ينبع من تفتحها للجديد أو فهمها للعصر أو ذكائها الفنى ٠

وقد كانت قادرة على الأوبريت ولو تسجيلا لو أن مستشاريهـــا

الفنيين أخلصوا الاخـــلاص كله ، أو تنبهوا . لا سيما بعد نجـــاح « رابعة العدوية » .

يقدم اليها النص فتقرؤه واذا راقها شرعت فى وزن الكلمات من حيث قابليتها للأداء وقابلية الجمهور لها واحساسها فى هـــذه الناحية لا يخيب بحكم التجربة والخبرة .

تطلب من الشاعر تغيير ما تريد .

تعطى الأغنية للملحن الذى ترتضيه .

تفعل الشيء نفسه مع اللحن الذى يكون صاحبه قد سجله بصوته على شريط أو يسمعها اياه على العود .

كتب عنها الأستاذ رامى يقول :

(يعرض عليها اللحن فتقول لصاحبه : « أسمعنى » . وتسـمعه وهى مقبلة على هذا الجديد من النغم وفى وجهها اشراقة السرور . وتظل تنصت اليه ساكنة ، ثم تقول له : « أسمعنى » وتغنى معه بصوت خافت لا يقطع عليه انطلاقه فى الغناء ، ثم تنظر اليه وهى تقول « الآن اعزف أنت وأغنى أنا » ثم تغنيه وحدها وهو يعزف ، فما تند عن الأصـــل قيد شعرة وقد تضيف اليه من ألوان صوتهـــا الغنية ما يزيده عذوبة وحلاوة .

... وهى بعد ذواقة دقيقة الاحساس ، تفطن الى الخفى من الجمال فى القول الكريم واللحن الرخيم ، فلا تكتم عن صاحب اللحن اعجابهـــا بما أبدع ولا تخفى عنه رغبتها فى اطالة أو مد ، أو ميلها الى ســبيل جديد لاستقرار النغم . وأحسب أن الملحن لها يقتبس من فرط اعجابها وحسن أدائها شيئا جديدا يضيفه الى ما أبدع .. وهى شدة الاخلاص لهذا الفن) .

***

وملحن أم كلثوم يتمثل صوتها وهو يلحن ويتمثل طريقتها فى الأداء فيوحى اليه تمثلها أشياء وأشياء . وهى توحى الى الملحن مرة أخرى عندما تؤدى لحنه بعد أن يفرغ منه ، فان صوتها فى تموجه وانسيابه وتثنيه

وتحليقه وهدهدته يمده بألوان وظلال يضيفها الى لحنه ، بعد أن تفرغ هى من شدوها فتكون هذه الاضافة بمثابة اللمسة الأخيرة بالنسبة الى اللحن ٠ ولكنها حين تؤديه للناس تلمسه من جديد فى آكثر من موضع بما لا يدخل فى تقدير الملحن بل بما لم يدخــل فى تقديرها هى نفسها قبل أن تبدأ ٠

وبعد أن تحفظ اللحن تعهد به الى الفرقة الموسيقية أو الى رئيسها الأســتاذ عبده صــالح ٠ وهى تحضر بروفات حفظ الفرقة للحن **لتزداد معاشرتها له وامتزاجها** به وكثيرا ما يحــدث أن تطلب من الملحن التبديل والتعديل على ضوء الأداء الموسيقى وعلى ضوء تفاعلها مع اللحن والفرقة الموسيقية معا ٠

وهى تجرى على الأغنية الجديدة ما يربو على عشر بروفات وقد تصل الى ١٥ بمعدل شهر يوما بعد يوم تقريبا ٠٠ غير صحيح ما تقوله الدعاية لأغانى معينة من أن بروفاتها بلغت الأربعين ٠٠٠

وهى كالمطرب القديم الكبير ، نشأت على (بطانة) امتدادا لعــرف المشاهير فى القرن التاسع عشر ٠٠٠ والبطانة التى أعنيها هنا السميعة **الأصول** الذين يتجاوبون ويفهمون عنها ٠

حتى بين أفراد فرقتها الموسيقية تحب دائما اصطحاب عبده صالح لا كرئيس فرقة ، ولكن بحكم امتزاجه بالعمل الفنى ومسئوليته عنه حتى غدا جزءا منه أو منها فهى تهوى رفقته ليستقبل اشاراتها (المصلحية) وايماءاتها ذات المعنى عند اللزوم ٠

انه خبير بطبقات صوتها ولذلك فهى تترك له مهمة اللقاء الأول مع اللحن فى كل أغنية جديدة ليزنها على صوت أم كلثوم ، ويستطيع أن يطلب من التعديلات ما يعرف بخبرته أنه يناسبها أو يرضيها ٠ ولكن عند الغناء أو التجلى فيه يبحث لاهثا عما يناسب (قانونه) الذى يحبه ويخــاف عليه من تحليقاتها العــالية فيجنح بهــا الى التطريب ليحد من انطلاقهــا ٠٠٠ أما القصبجى فقد كان عنــدما يخاف على أوتاره يزحف بكرسيه الى الأمام ويرى العارفون ويبتسمون ٠

وقد أورثتها نشأتها الأولى وملازمة ابيها واخيها لها عادة الاصطحاب ٠٠ حب السنادة ٠٠ فهى أبدا راغبة فى (سند) تحب معها السيدة

سعدية والمهندس دسوقى فى كل خطوة · لكأنه يقوم الآن مقام جده وخاله فى مطلع حياتها · وان كانت مهمته تختلف · فملازمته ليست للحراسة والحماية والمحافظة ، ولكنها للرعاية والاطمئنان على سلامة كل خطوة من خطواتها ولتوفير الحنان لها ·

تغشاها بين حين وآخر غاشية ألم فتنسى أو (يروح منها الـكلام وتنساه) وهنا يأتى دور عبده صالح قائد الفرقة الموسيقية فيحتال على الموقف الحساس باعادة الجملة الموسيقية مرات حتى تسترد نفسها أو يسلمها طرف الخيط ثانية بتلقينها وتسليمها مفتاح النغمة ·

ويقول عبده صالح ان صـوتها يتبع جسمها ونفسيتها وان كانت تحاول أن تتبع كل شيء له ·· لهذا الصوت ·· قلت مرة لعبده صالح : أى الحانها تحبه أكثر ؟ فقال الرجل الخبير : أى لحن تقوله وهى معتدلة الصحة والمزاج · انها عندئذ ، كل شيء تأتيه أو تغنيه جميل رائق ، أما اذا كانت معتلة فالغناء هنا صناعة وعمل ··

وعبده صالح يضبط طبقة الصوت فى كل حفلة وفقا لحالتهـــا هى التى يعلمها جيدا · فهى ، انسانة ، لا تستطيع فى كل الحالات أن تؤدى بدرجة واحدة من الاقتدار ، أو بطبقة واحدة من المقامات ·

وهى الى جانب نوبات الكبد والمرارة تعانى أزمات الغـــدة الدرقية وما ينجم عنها من توتر الأعصاب وضيق النفس · اننا لا نرى على المسرح الا البريق ، واللألاء ولكن هذا الاطار يخفى وراءه أشياء وأشياء ·

مازال السؤال : أى أغانيها أحب اليها ؟

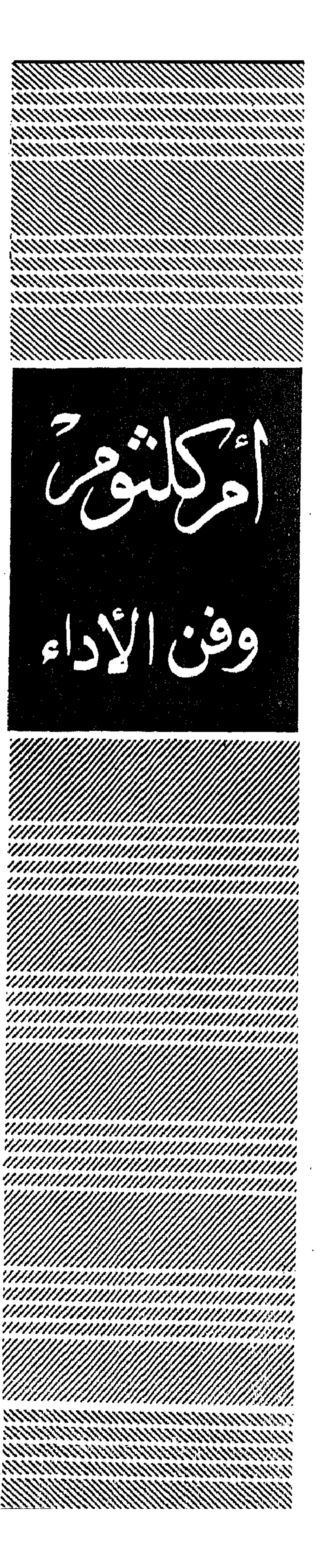
أستطيع أن أجيب : الدينية و الوطنية · لهذا تغنى لمصر كأنهـا تصلى ·

وتقول طوف وشوف كأنها تملك كل شبر ·· كل ورقة شجر ·· كل أثر ·· كل حجر ·· كل ذرة تراب · فطوف وشوف منها زهو منغم ، وعز المالك ، وفرحة حبيب ·

وبهذه المناسبة كانت أحب أغانيها الى نفسها من الوطنيات طوف وشوف ـ مصر التى فى خاطرى وفى فمى ·

وفى ليل عام ١٩٦٧ طلبت الى الاذاعة ألا تذيع لها الا (مصر التى فى خاطرى وفى فمى)

أحب أغانيها اليها : الحماسية ٠٠ القصائد ٠٠ « ســـلو قلبى » و « النيل » و « الهمزية » و « نهج البردة » و « الأطلال » لأن هذه القصائد العصماء لفظا ولحنا وغناء تعطيها دورا أكبر من مطربة ٠٠ انها الشىء الذى لا يقدر عليه غيرها ٠٠ هنا التفرد ٠


أم كلثوم
وفن الأداء

ام كلثوم وفن الأداء :

ويقف الى جانب صوت أم كلثوم نطقها والقاؤها واخراجها للأغنية ٠

النطق المصقول :

فنطق أم كلثوم نطق (مثقف) ٠٠٠ نطق أديب ٠ وقد كان النطق سلاحها الذى اقتحمت به مسارح القاهرة فى العشرينات ٠ فأم كلثوم على المدى الطويل لم تخطىء غير مرتين لا يلحظهما الا مختص حتى ليطلق عليها أحد النقاد (مطربة النحو والصرف) ٠ أما المرة الأولى فعندما تصل فى قصيدة (سلوا قلبى) الى البيت ٠٠

فمـــن يغتر بالدنيا فانى لبست بهــــا فأبليت الثيابا

يغتر فعل الشرط مجزوم والقاعد النحوية فتح المشدد للتخفيف فى حالة الجزم ٠ فصحة الكلمة يغتر بالسكون فاذا أدغمت الراء فالجائز فى الشعر كسرها لا ضمها ٠ وفصاحتها يغتر بالفتح ولكن أم كلثوم تنطقها بالضــم (يغتر) ٠ وقد نبهت الى هــذا فاصــلحت الخطأ عند تسجيل الاسطوانة ٠

أما المـــرة الثانية ففى قصيدة : (قالوا أحب القس ســـلامة) والبيت :

كانمــا لـــم يدر طعم الهـوى والحب الا الرجـــل الفـــاجر

فنطقت كلمة الحب بالضـم والصـواب (الكسر) . ولا وجه عند النحويين لضم هذه الكلمة في هذا الموضع . ولو نطقتها أم كلثوم بالفتح لأمكن للنحويين أن يجدوا لها تأويلا نحويا مقبولا يجعلها معطوفة على كلمة (طعم) .

وسلامة النطق والاعراب - فيما عدا هذين - ينسحب على القصائد الأولى أيضا التى غنتها فى مطلع حياتها الفنية مما لم يكن لدربة المران الطويل دخل فيه .

ان الأمر موهبة واستعداد ولقانه غذاها جميعا حفظها صـغيرة للقرآن الكريم ، ذلك الحفظ الذى ينم عنه (الغن) فى هذا البيت من قصيدة النيـــل :

واليك يهدى الحمد خلق حازهم   كنف على مـــر الدهـور مرهق

يستحيل على غـير أم كلثوم نطق الميم فى لفظة (حازهم) بهـــذه السلامة والفصاحة والترنيم ...

ان قصيدة النيل كلها تعزز مزية أم كلثوم فى النطق والأداء ... هذه القصيدة العصية بقافاتها على النطق القارىء فما بالك بالغناء ولكن أم كلثوم لم تطوعها فحسب ، ولكنها رقرقتها فى المطلع ثم هدرت بها فى خفة الفرح بالمهرجان فتدفقت كالفيضان الذى يحتفل به صوتها المزغرد .

فى مهـرجان هـــزت الدنيا به   أعطافهــا واختــال فيـــه المشرق

وقد أكسب أم كلثوم حفظ القرآن فى سن مبكرة صقلا فى النطق ، وتقويما فى اللسان ، وسـلامة فى مخارج الحـــروف من جوفية وحلقية وشفوية كما أكسبها علما بصـــفات الحروف من حيث الشدة والرخاوة والانطباق والانفتاح والقلقلة والتكرير الى آخر هذا الفن الدقيق .

وبفضل تعلمها القرآن الكريم وما وهبها الله من لقانة بلغت أم كلثوم فى الالقاء ذروة لايشائيها فيها أحد ممن سمعنا .

وليست هذه القدرة من قدرات أم كلثوم بالشىء القليل فان الدكتور طه حسين أزعجه فى كتابه (الأدب المعاصر) نطق مطرب لامع للراء مفخمة فى مقام الترقيق لتحركها بالكسر فما عساه يقول عن الشعر الذهبى فى وصف الحبيب وما عساه يصنع فى وضع (كسرى) على الايوان وهو الذى علا ايوانه .

أم كلثوم وفن الالقاء :

ان (القاء) أم كلثوم فن وظاهرة ٠ لقد خطب فى الأمانى الوطنية رؤساء حكومات وأقطاب أحزاب ودعاة نهضة وطلاب تحرير ٠٠ ولا أنكر تأثر الشعب بهم جميعا على درجات ، ولكن هذا الشعب لم يتسعر حماسة ولم يلتهب وطنية كما فعل عندما سمع منها :

وما نيـــل المطـــالب بالتمنى ولـــكن تؤخـذ الدنيـا غلابا

ولا أحاج هنا بعامل الموسيقى والتلحين ٠ فان هذا البيت بالذات خال من التطريب والتنغيم حتى ليكاد أن يكون تعبيرا مجـردا ٠٠ ولكن الشعب غدا كأنه البحر ماجت به العاصفة ٠ لم تكن هبة الشعب يومئذ تحية الاعجاب فحسب بل كانت هتافا للصوت الذى عرف كيف يستنفره ٠ والقيادة الروحية للشعوب من رسالة الفنان الحق وقد عرفت كيف تؤديها بالهام من الله الذى تنسب اليه الفضل دائمـا ٠٠ وليس من الفن النواح والبكاء المتصل ٠٠ حتى فى أناشيد الوطن الحماســـية وما أبعد الفرق وأوسع الشقة بين (سلوا قلبى) و (نشيد الشباب) و (نشيد الجامعة) وبين الأناشيد الحماسية التى يغنيها بعض الرجال ٠

لو أن الوضـع انعكس وتحمس الرجل وترققت المـرأة لكان الأمر طبيعيا ٠ فصوت المرأة من عادته أن يكون رقيقا ليشدو ترانيم الطفولة أو يهمس بلغة القلب ٠ ولكن صوت الرجل يكون على غرار طبيعته الصلبة ليقوى على الكفاح ٠ فى معترك الحياة ٠٠ ولم تكفر هى بطبيعتها حين كفر الرجل ، بل استعلت عليها وحملتها على أن تؤدى ما تؤديه الطبيعتان معا ، فغنت مع (سلوا قلبى) ، رق الحبيب ، والأمل ، والآهات ٠

ليس مبالغة أن نقول ان أداء أم كلثوم يضيف أشياء من ذات نفسها الى النص أو اللحن ٠ حقا كلمات الأغنية مصوغة بصورة معينة وهى تنطقها على هذه الصورة لا تبدل حرفا ٠٠٠ وحقا ان اللحن مرسوم لها رسما وهى تؤديه كما شاء لها الملحن وكما دربهـــا عليه ٠٠٠ كل هذا حق لا ريب فيه ٠٠ ولكن المؤلف والملحن كلاهما يؤلف لأصــــوات كثيرة فلا تؤدى ولا تعمل عمل أم كلثوم ٠٠٠ لقد قال لى الأستاذ رياض السنباطى انى

أعتبر لحن قصيدة (النيل) نعمة أنعم الله بها على ولكن أين كان مكانها الآن لو لم يقيض لها صوت أم كلثوم يؤديها ٠٠ هذا رأى أحـــد فرسان الحلبة وكان الظن به أن ينسب الخير كله الى نفسه ٠

ومن ذكاء الوعى فيها أنها تعـرف امكانياتها فلا تقحـم نفسها فى ميدان التلحين ، وان كانت تضيف الى اللحن ألوانا ٠

وتسمع منها الأغنية من أغانيها مرات متواليات فتتفتح لك فى كل مرة عن جمال جديد ٠٠ وتدرك فى المرة التالية من ألوان أدائها ما فاتك فى المرة السابقة ٠ لهذا لا يمل سامعوها من التكرار بل تزيد حفاوتهم بالأغنية كلما قدم عليها العهد ، لكمال تذوقهم لها وتمام فهمهم اياها ٠ ويستعيدونها فتعيد ، أو تدعهم ، فيلحون فى طلب المزيد ٠

يقول الناقد كمال النجمى (ان أم كلثوم تأخذ اللحن فتكلثمه ، أى تجعله لحنا كلثوميا خالص المذاق واللون والرائحة٠٠ وتصب فيه نبراتها ، وتفرشه على قدر ما يناسبه من مساحة صوتها التى تتسع لكل الألحان ، وتهيىء له عمليات فنية دقيقة متأنية ذكية ، حتى تجلوه فى آخر الأمر على صورته الكلثومية التى يحار فى روعتها السامعون وتلبس قلوبهم وعقولهم وأجسـادهم كأنهـا مس من الوجد الصـوفى ، أو طائف من السـحر العجيب !

وفى تاريخ الغناء العربى ، لا مثيل لأم كلثوم فى هذا المجال الا فيما ندر ، ولا يذكر تاريخ الغناء العربى الا أصواتا قليلة جدا ، غنت للناس وتفننت عشرات السنين ، بقوة دائمة ، وتجديد لا ينقطع ٠٠ وصـوت **أم كلثوم فى مقدمة هذه الأصوات ، وأكثرها خلودا بلا جدال)** ٠

يتحدث الكاتب الفرنسى جان جيرودو (١٨٨٢ ـ ١٩٤٤) عن العلاقة الجميلة الحميمة بين المؤلف المسرحى وشخصياته ، حديثا يصلح أن نسوقه هنا لكشفه عن دور « الأداء » فى الاضافة الى الأصل ٠

يقول جيرودو فيما نقله عنه الأستاذ أنيس منصور (كل شخصية ألفها صاحبها هى كائن طيع أليف ٠٠ الى أن تظهر على المسرح ٠٠ فاذا

ظهرت أمام الجمهور أصبحت غريبة عن المؤلف الذى خلقها ·· فكل ممثل يؤدى هذه الشخصية بطريقته ، أى انه يضيف اليها شيئا من نفسه أى يجعلها مختلفة عما كانت عليه) ·

* * *

مخرجة الحان :

الأداء هو (التجسيد) وهو ما تفعله أم كلثوم ·

يقول الشيخ يونس القاضى فى حديث له (مجلة المسرح ١٩٢٦) عن المذهب والدور (المغنى هو الاسطوانة تدار لا يملك التصرف فيما أعطى له ولو كان فنانا) ·

وهذه الكلمة لا تصدق اليوم على أم كلثوم ··· بل على العكس من هذا يلعب أداؤها الخاص دورا كبيرا فى نجاح الأغنية نجاحا أكبر مما تستحقه كلماتها أو لحنها حتى لينطبق عليها المثل : المغنى لا الأغنية · The Singer not the Song

لقد نقد أحد نقاد الموسيقى لحن (أنت الحب) لعبد الوهاب نقدا مرا ، وبرر نجاحها الشعبى بأن أخطاء الملحن الفنية اختفت خلف صوت أم كلثوم · (صوتها المصقول وأسلوبها فى النطق الصحيح للألفاظ ، واخراجها المسرحى لألحان الأغنية عندما تصاحب هذه الألحان بحركات تعبيرية بيديها وملامح وجهها وحركة رأسها ، ثم تفسيرها المتنوع للحن الواحد بواسطة تنويع الأداء الصوتى ·

وهذا يبعدنا عن الانتباه الى الجمال أو الضعف الموجود فى الاطار الفنى للأغنية التى تؤديها) ·

نماذج حية :

أما الاخراج الذى يشـير اليه الناقد الموسـيقى فيتمثل عندى فى غنائهـا :

الميـــه فى الأرض جفـت والزهــر ع الغصـن نادى
والشمس فى الغـرب راحت وآدى الشـفق لسـه بادى
والطـير سـكت بعدما غنى وآدى صـداه رايح وغـادى

انها تقف بالسكون على التاء فى (**جفت**) لتصـور النشف وتطوح صوتها فى (**راحت**) حتى ليخيل اليك أن بين الراء والحاء عشرات من حرف الألف · وكلما مدت خافتت من صوتها حتى تلاشيه كما تتلاشى حمرة الأصيل ساعة الغروب ·

وكما تفعل أم كلثوم وهى تصور الصبح اذا تنفس فى هذه الأغنية الرقيقة العذبة (يا صباح الخير) :

يا صباح الخـير يا لى معانا الـكروان غنى وصـحانا
والشمس أهى طالعة وضحاها والطير أهى سـارحه فى سـماها
يا للا معاهـا يا للا معاهـا يا صباح الخير يا اللى معانا
يا هنـاه اللى يفـوق من نومه قاصـد ربه وناسى همـومه
يفـرح قلبه ويسـعد يومه فرحه طول عمـره ما ينساها
والشمس أهى طالعه · · ·
الصبح أهـو نور وتبسـم والدنيا ضـحك لى محياهـا
ونسيم الأزهـار أهو نسـم على أهـل الدنيـا وأحياها
البـدريه سـاعه هنيـه
يسـعدنا جمـالها وبهـاها ياما أحـلاها ياما أحـلاها
والشمس أهى طالعه وضحاها والطير أهى سارحه فى سماها
ياللا معـاها ، ياللا معـاها يا صباح الخير ، ياللى معانا

فى هذه الكلمات جميعا يخفق صوتها فى خفوت عذب يصور سعادة الخلى بمولد يوم من أيامه الهائئة ·

(أهو نسم) تعيدها لنا فى ترنيم · وأنا ما سمعتها **تعيد (أهو نسم)** إلا أحسست أنى استاف عبير الأزهار ·

(الدنيا) تضغط عليها وتغنى اللفظة من قلبها فتصل منا الى القلوب · **(ساعة هنية)** وهذه أيضا تضغط عليها ولكن فى خفوت هنىء ·

والأغنية كلها رقيقة فيها فرحة الدنيا بمولد الفجر وفيها خفة وفيها مرح وفيها سعادة الخلى ، وفيها عذوبة ليس الى تصويرها من سبيل ·

* * *

وفى معرضها لوحات للقلب فيها مناجاة وفيها غزل وفيها شوق وفيها أمل وفيها لهفة وفيها حنين · وسأقف عند خطوط بعض اللوحات على سبيل المثال لا الحصر فمن **(هلت ليالى القمر)** :

الموج يناغى النسيم يحكى له قصة هوانا
واحنا فى ظل النعيم والجو ردد لغانا

يختلج صوتها فى لفظة **(الموج)** بين حرفى الواو والجيم اختلاجه ناعمة توحى حركة المويجات فى ظل نسمة صبا · ويرق صوتها رقة المناغاة ويطيب طيب النسيم فى **(يناغى النسيم)** من ترقيقها للحروف ومدها الصوت وأمالته فى الشدو ·

(يحكى له) تضغط على اللام فى غنة فى **(له)** حتى ليخيل اليك أن الموج الذى يحكى للنسيم معشوق يسترخى فى الحديث من الدلال ·

(قصة) تنغم قصة بأمالة الصوت فيها لتوقن أنت أن قصتها جميلة شائقة ··

(هوانا) يطول صوتها فى لفظة هوانا ثم يتماوج ويتثنى ويبعد

فى مدى تثنيه ليقرر أن القصة طويلة طويلة مسلسلة ولكنها مستعذبة لا تروى النفس منها ٠

واحنـــا فى ظـــل النعيـــم والجـــو ردد لغـــانا

ان وصل كلمة ظل بلفظة النعيم فى امالة وتطريب لتصور فرحـــة الوصال ونعيمه ؛ وهى تكرر الشطر فى استعذاب فعل المنتشى باللقاء ٠

(ردد) انها ترتفع بالصوت فيها كالمزهو باستجابة ما حوله له ، ثم تقف بعد هذا لتثير الشوق الى ما ردده الجو ٠٠ ترى ما هو ؟

(لغانا) يعود صوتها الى التثنى من التيه حتى تصـــل باللفظـــة الى قرار ٠

يا لى القمـــر من بهـــاك نـــور فى قـــلبى ســـناه

(يا لى القمر) تخفف الهمزة فى الأمر) حتى تكاد تذيبها وتخفف الميم وهو ترخيم من نوع آخر يصطنعه المحب والمحبوب افتتانا ٠

(فى بهاك) انها تهمس بالبهاء فى شهقة تحكى خفقة القلب العميد وتعيد فى هذا الشطر من استغراقها فيه وتعيده بعد البيت كله وتترنم به مجزوءا وتشدو به موصولا ويتراقص صـــوتها كما يتراقص ضـــوء القمر على صفحة النيل فى ليالى الربيع ٠

(تعال جدد) تديرها على لسانها مرات فى صـــوت عالى النبرات يضىء فى بحة ولكن كما تضىء الشمعة تتالق وهى تحترق ٠

* * *

ومن تغريدة (الأمل) :

يا شـــبيه البـــدر وحـــده فى ارتفـــاع برجـــه وسعده
يشـــبهك هـــو فى جمالك وأنت فى نـــوره وبعـــده

(يا شبيه البدر وحده) تهدأ هدأة المستعطف وتشجو فى (وحده)

(فى ارتفاع برجه وســـعده) يشبهك هو فى جمالك (وانت فى نوره وبعده) تحلق بالصوت فى نبرات رفيعة ممدودة بعيدة المدى صافية

لتصور المطمح البعيد الذى ترمى اليه الألفـــاظ من وصف الحبيب فى جماله ، وامتناعه ، وبعد مناله · بالبدر فى عالى سماه ·

ما التقتش اليــك وســـيلة غـــير ســـكوتى وانتظـــارك

ان البيت كله شجى خالص ووجد مذاب وهى ترقرق صوتها فيـــه فى استسلام اليائس الذى أعيته الحيل فقنع بالانتظار ··· لعله ···· وصوت هذا البيت عندى أرق ما فى الأغنية كلها على عذوبتها واشراقها ·

ومن تغريدة (يالى ودادى صفالك)

وان كان نسيم الليــل سارى عاطر بأنفــاس الياســـمين
يسبح خيـــالى وأفكـــارى وألقى هـــواك أشواق وحنين

(**الليل**) و (**افكارى**) و (**هواك**) هـــذه الألفاظ يتثنى فيهـــا صوتها حالما نديا ·

وقت السحر والليل أوهـــام
ســـاعة القمر والنـــور أحلام

(**وقت السحر**) همسات عميقة تجاوبها رؤى وخيالات يوحى بهـــا خفوت الصوت فى (**الليل اوهام**) وتلاشيه فى (**النور احلام**)

* * *

ومن (**سهران لوحدى**) :

نام الوجـــود من حواليـــا وأنـــا ســـهرت فى دنيايـــا
أشوف خيـــالك فى عنيـــا واســـمع كـــلامك ويايا

تخافت بصوتها فى الشطر الأول لتنيم الوجود ثم تجهـــر به وهى تقول (**وانا سهرت فى دنيايا**) وتثنيه فى (**دنيايا**) فعل الخلى الذى صفا من حوله الجو ·

أشـــوف خيالك فى عنيـــا وأســـمع كلامك ويـــايا

تسمع منها هذا البيت موصولا أول مرة وفى صوتها وعينيها لهفة الشوق وترقبه ثم تعيده مجزوءا وتردده كلمة كلمة وتستخدم (**الامالة**)

فى الحروف فتسمع منها لفظة (أشوف) وقد كادت الواو أن تنقلب ياء ويميس صوتها ويغن فى كل لفظة على حدة ·

يااللى رضـــاك أوهـــام والســـهد فيـــك أحـــلام
حتى الجفـــا محروم منـــه يا ريتهـــا دامت أيـامه

فى البيت الأول تتناغى ولكنها تشجو وتتحرق من وقدة الحرمان فى فى (حتى الجفا محروم منه) · وترددها فى كل مرة بلون وتبذل من نفسها فيها حتى تستحيل أم كلثوم الى آهة حنانة تصعد أشجان الأرض كلهـا الى رحبة السماء · ومثل هـــذا تفعله فى (أهـــل الهوى يا ليل) عندما تقول :

فيهم كســـير القلب والمتـــألم والللى كتـم شـــكواه ولم يتكلم
واللى قعد بعد الحبـايب وحـده وبات حزين يشكى هيامه ووجده
يشكوا ولا مخلوق سمع شكواهم الا الكواكب فى السما سمعاهم

من (أهل الهوى) أيضا :

ناس من قلوبها تقول يا ليـل وناس على ارغول تقول ياليـل

يكفى أن الآلات الموسيقية جميعا تسكن لتنادى أم كلثوم الليـــل بصوت الأرغول · وتدق منها المحاكاة حتى تنقلنا من حفلتها الحالية بصقل الحضارة الى قرانا فى الريف حيث الطبيعة ساجية تنصت بأشجارهـــا وغدرانها وأطيارها الى زامر الريف يبعث من أرغوله فى هدأة الليل شجى الأنغام ·

ومن (أنا فى انتظارك) :

عايز أعرف لا تكون غضبـــان أو شـــاغل قلبك انســـان

أرق ما يكون استعطافها فى هذا البيت ، انها تزيد فى نظمه وتعيد ترتيبه فيحلو ويرق · تسمعه منها على هذا النسق ·

عايزة أعرف لا تكون غضبان ·· أو شاغل قلبك انســـان ····
عايزة أعرف لا تكون غضبان ·· أنا عايزة أعرف ·

ومثل هذا فى البيت :

توعـــدنى بســـنين وايـــام وتجينى بحجج وكـــــلام

(**توعدنى**) تمد صوتها وتطوحه فيما بين الواو والعين فتصور المماطلة فى الوعد والتسويف فيه .. وتزيد من عندها بعد (**وتجينى بحجج وكلام**) ده كلام ده كلام ده كلام ، فتترجم اليأس من المواعيد ترجمة مشوبة بسخرية خفيفة مستملحة .

النسمة أحسبها خطاك والهمسة أحسبها لغاك

تخافت بصوتها فى النسمة فيرق كالصبا وتهمس فى الشطر الثانى حتى لا تكاد تسمعها .

ومن (**رباعيات الخيام**) :

أولى بهذا القلب أن يخفقا وفى ضرام الحب أن يحرقا
ما أضيع اليوم الذى مر بى من غير أن أهوى وأن اعشقا

(**أن يخفقا**) ان الغنة فى النون وخفوت الصوت فى (**يخفقا**) لتصور حلم القلب بالحب . كما يصور الشطر الثانى شوقه الملح اليه . أما البيت الثانى فتتغنى به مجزوءا مرنما وينثنى صوتها فيه كأن الصبابة مسته ، ويحلو السكون بعد (**الذى**) وتضغط عليها لتجرى صوتها لينا رفيقا رقراقا فى (**مر بى**) .

يا من يحار الفهم فى قدرتك وتطلب النفس حمى طاعتك
أسكرنى الاثم ولكننى صحوت بالآمال فى رحمتك

فى هذه الرباعية والرباعيتين بعدها تشف روحها ويختلج كيانها كله ، وتتألق الدموع فى عينيها وتسبح نظراتها وتعلو وجهها سحابة رقيقة من الحزن الرفيع ، وتنداح فيه ابتسامة طامعة فى العفو آملة فى الغفران . ويضفى الحزن الممزوج بالابتسام عليها هالة من نور ترفعها فى عيوننا فوق مكانها العالى درجات .

(**يا من يحار**) يجأر صوتها فى النداء وتلج به الحيرة فيبعد فى مداه فلا تطامن منه الا فى الشطر الثانى عندما تلوذ بحمى السماء .

(**صحوت بالآمال**) تهب فيها هبة الغارق فى الظلام لاح له من الفجر شعاع .

ان لم أكن أخلصت فى طاعتك فاننى أطمع فى رحمتك
وانما يشفع لى أننى قد عشت لا أشرك فى وحدتك

(**ان لم أكن اخلصت فى طاعتك**) فى هذا الشطر تجهش بالغناء لو جاز هذا التعبير •

(**اطمع**) ينثنى صوتها فى هـــذه الكلمة كمن له دالة تطمعـــه فى الغفران •

تخفى عن الناس ســـنا طلعتك   وكل ما فى الكون من صـنعتك
فأنت مجـــلاه وأنت الذى   ترى بديع الصنع فى آيتـــك

تســكن قليلا بعد (**الناس**) فى البيت الأول ، وبعد (**ترى**) فى البيت الثانى لتجلجل بعد الترقب فى (**سنا طلعتك**) و (**بديع الصنع فى آيتك**) •

ونلاحظ أن اللحن فى هذه الرباعيات الثلاث يحتم عليها أن تقف بالسكون وهو لا يستساغ فى الغناء ومع هذا تغلب هذه الرباعيـــات بالذات على أسماعنا ••• أليس السر فى أن صوتها وأداءها يغطيان صعوبة التسكين فلا نحس بها ، واذا نحن تنبهنا اليها لا نأبه لها لأننا مسحورون ومشغولون عنها ، **بها** •

ان تنفصـــل القطرة من بحرهـــا   ففى مـــداه منتهى أمرهـــا

تمعن فى مد (**بحرها**) لتصور بعد الفصـــل بين القطرة والبحر (**مداه**) وتمعن فى ضم الهاء فى (**مداه**) كأن بعدها عشرة من حروف الواو (**مداهوووو**) لتصور ترامى المدى وفسحته وعظمته •

(**أمرها**) ترقق الميم والراء فتخرج الكلمة أفصح فى النطق وأبين فى الدلالة على هوان القطرة وضآلتها الى جانب البحر المحيط •

* * *

ومن أغرودة (**يالى كان يشجيك انينى**) وقد شاهدتها تغنيها فى حفلة خيرية ، مهدت الموسيقى لها مطلع الاغنية ، وكانت تتابع النغـــم بعينين سابحتين وكيانها كله يهتز اهتزازا خفيفا من سريان اللحن فيه ، ووقفت تغنى فساد السكون واشرأبت الرءوس واتلعت الاعناق وبدأت هادئة كالماء ينساب فى الغدير انسيابا نغميا مرنا • كان مطلع الأغنية :

يالى كان يشجيك أنينى كل ما اشكى لك أسايا
كان مناى يطول حنينى للبكا وأنت معايا
حرمتنى من نار حبك وأنا حرمتك من دمعى
يا ما شكيت وارتاح قلبك أيام ما كنت ابكى وأنعى

غنت هذا المطلع مترفقة عاتبة فى صوتها شجى وهو يردد (**أبكى وأنعى**) ولكن هدوءها استحال دويا عندما تحدث ·

عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك
وتجيب خضوعى منين ولوعتى فى هواك

كان كيانها كله يختلج اختلاجا قويا أعدى الحاضرين وهى تغنى هذين البيتين · كانت عيناها تتساءل وصدرها كموج البحر يعلو ويهبط· كانت قوة عاتية كقوة الاعصار تحرك الجامد · واستحال السكون الذى أوحته فى أول الأغنية عاصفة من تهليل الاعجاب وضجيج الحماسة المستعيدة ·

وهدأت بعد التحدى مرة أخرى وهى تذكر وتعاتب فى رقة :

فضلت أحافظ على عهدى واسقى الوداد دمع عنيا

وكان عتابها يحلو باعادة (**الوداد**) فى الشطر الثانى وكان يعمق فى النفس عندما تنشج بهذا البيت :

لما الزمان ضيع ودى وطول البعد (**على**)

لم يكن هذا البيت غناء بل نشيجا مؤثرا وشجوا خالصا · كانت تضغط على لفظة (**ضيع ودى**) فى ألم يذيب الصخر لا قلب الانسان · لم تكن مغنية تردد كلاما بل كانت فى وقفتها نبعا انسانيا للعاطفة ينهل جمهورها منه فيحسون آنا الحنان ، وتارة العتاب ، وطورا الألم ، وآونة الغضب ، وحينا الرضا ، وساعة الغبطة ·

وانتقلت من الشجى الى هذا البيت :

صبحت أحب الحب من بعد عشق الحبيب

وهمست بلفظة الحب همسا عذبا وكأن صوتها فى هذه الكلمة يتهادى الينا من واد عميق أو من أفق بعيد ·· بعيد ·

أضحك مع الفرحان وابكى مع الباكين
وابات وانا حيران .. أضحك وأبكى لمين

كان وجهها فى (**أضحك مع الفرحان**) يشرق بابتسامة السرور . فاذا غنت وأبكى مع الباكين علته مسحة من الحزن . وتعيد البيت فينسخ الابتسام ذلك الحزن . ثم يعلوه فى الشطر الثانى من جديد والناس من حالها فى عجب .. كيف تمثل لونين من الشعور فى وقت واحد ؟ فلا يخرجهم من دهشتهم الا تحديها مرة ثانية .

عزة جمالك فين من غير ذليل يهواك

وهى فى تحديها هذه المرة تحلق عاليا كمن عز عليه أن يستسلم لليأس والسلوان عن الحبيب .

ثم يسكن غضبها الجميل فتهدهد النغم فى هذين البيتين :

صبحت أعيش بقلوب الناس وكل عاشق قلبى معاه
شربوا الهوى وفاتوا لى الكاس من غير نديم أشرب وياه

كان صوتها حزينا متكبرا معا وهى تقول (**صبحت اعيش بقلوب الناس**) . فلما شدت (**شربوا الهوى**) انساب فى هاتين الكلمتين متموجا عذبا فى لذة الهوى وسحره . وسكر الناس فى تلك اللحظة حقيقة لا مجازا وكان كلا منهم رشف من رحيق الكأس .

وتغنى أم كلثوم (**من غير نديم اشرب وياه**) وتعيد كلمة (أشرب) من أعماقها فتحس من صوتها حرارة الظمأ ووقدة الحرمان . لكان هذا الصوت صنع من القدرة فلا يعجزه تصوير معنى مهما دق .

ويخلق الناى بعد هذا جوا حالما يتوام مع ختام الأغنية الشجى ويسكت الناى لترجع قيثارة الله

يالى بكاى شجاك
وسمعت لحن الغزل من طول أنينى
ياما بكيت من جفاك
وضحك لى طيف الأمل من بين جفونى

لو أن شخصا حقيقيا معنيا بهذا الاستعطاف وسـمعه منها وهي ترقرقه نغما خلابا ، لعاد اليها وخر بين يديها في أسى الندم يبكي

* * *

وغنت في الفاصل الثاني القصيدة التي صاغها أمير الشعر شوقي :

سلوا كؤوس الطلا هل لامست فاها
واستخبروا الراح هل مست ثناياها

استهلت هادئة كعادتها في المطالع حتى اذا وصلت الى البيت :

هيفاء كالبان يلتف النسيم بها
ويلفت الطير تحت الوشي عطفاها

هنا بدأ صوتها يميس ، كعطفها ، الذى ألهم شوقى هذا الشعر

حديثها السحر الا أنه نغم جرت على فم داود فغناها

لقد أشاعت السحر في البيت كله • وكان همسها كلمة (السحر) يهدهد الحواس كلها ويغرقها في لذة من طراز رفيع تنتشى بها وتنعم• وتنتشى هي نفسها فتخرج عن النطاق المرسوم للبيت في اللحن وتتصرف فيه وتبدىء وتعيد في روعة تأسر •

حمامة الأيك من بالشجو طارحها ومن وراء الدجى بالشوق ناجاها

قد لا يعرف بعض الناس ـ غير ملومين ـ أن معنى (طارحها) يشاكيها الهوى ويبثها الوجد ، ولكن اللفظة عندما جرت على لسان أم كلثوم أدرك الناس جميعا ، من أدائها وتعبير وجهها ، المعنى واللفظ •

ألقت الى الليل جيدا نافرا ورمت اليه أذنا وحارت فيه عيناها

وتلين من صوتها في (حارت) وتسبح عيناها وهي تؤديها فيدرك من فاته معنى الالفاظ ما أراده الشاعر الذى صاغها فلونتها له وجسمت معناها فأضافت بهذا التلوين والتجسيم الى فنه فن المصور والرسام •

وعادها الشوق للأحباب فانبعثت
تبكي وتهتف أحيانا بشكواها

وفي هذا البيت مثلت هزة الشـــوق ورجع الحنين وصرخة الألم . لم يكن ترديدها لهذا البيت غناء فقط ، بل كان ترجمة لأقوى العواطف الانسانية الحب والألم .

يا جارة الأيك أيام الهوى ذهبت كالحـــلم آها لأيام الهــــوى آها

ان كلمة **ذهبت** في اللغة ليست من الألفاظ الرنانة . ولكن من سمع منها هذا البيت يشـــهد أنها أحلى كلمة فيه . كان صوتها يتهــادى عند هذه الكلمة مستأنيا حزينا عميق الوقع في النفوس ، وكان وجهها في تصويره الأسى وهي تنطق هذه الكلمة أبلغ تعبيرا

كانت في القصـــيدة كلها روحا فنانة ترفرف من عمق احساسها بما تقول . كانت تطيل الضغط على الميم في كلمة (**كالحلم**) لتشـــعرك ببعد الماضي . وكأنها تقول ان الحلم مضى من زمن بعيد ولم يبق منـــه الا ذكرى . وكانت في ترديدها هذا البيت مرة بعد أخرى كمن يتشبث بهذه الذكرى .

* * *

ومن صور المعرض الفائق صورة فرحة العودة الى الوطن (**على بلد المحبوب وديني**) ، وصورة (**مهرجان النيـــل**) وبهجة المصريين بوفائه في هذه الأبيات :

في كل عام درة تلقى بـــــلا ثمن اليك وحـــرة لا تصدق
حول تسائل فيه كل نجيبة سبقت اليك متى يحول فتلحـق
والمجـــد عند الغانيات رغيبـة يبغى كما يبغى الجمال ويعشق
زفت الى ملك الملوك يحثهـا دين ويدفعها هوى وتشـوق

(**زفت الى ملك الملوك يحثها**) يتثنى صوتها في (**يحثها**) وتضاعف من حروف الكلمة فتسمعها منها (**يحثهها**) .

(**هوى**) يخفق صوتها فى حرف الهاء لتصور الشوق .

في مهرجان هزت الدنيا بــه   أعطافها واختال فيه المشرق

(**مهرجان هزت**) يخفق صوتها فى حرف الهاء من الكلمتين لتصور الحركة ويختال صوتها مجلجلا في الشطر الثانى من البيت زهوا بنهـــر الوادى :

مجلوة فى الفلك يحدو فلكهـا   فى الشاطئين مزغـرد ومصفق

تغنى الشطر الأول مجزوءا فى جلجلة تبلغ شأوها فى (**فلكهـــا**) و (**مزغرد ومصفق**) حتى ليكاد صوتها يزغرد من خفة الفرح التى تسرى فيه فى هذا البيت خاصة .

ألقت اليك بنفسها ونفيسهـــا   وأتتك شـــيقة حواها شـــيق

(**ألقت اليك**) تميل الهمزة فى النطق لتصور ارتماء عروس النيل (شيق) تثنى الياء وتمد فيها لتفخم النيل .

خلعت عليك حياءها وحياتهـــا   أأعز من هـــذين شيء ينفـــق

أظهر ما يمتاز به هذا البيت بحة فى الصوت تأسر .

ومن الطريف أن (رامى) يسميها « **شق القمر** » كما نسمى الشق الأحمر فى عود القصب الشديد الحلاوة . يقول رامى عندما يكون صوتها صافيا يكون رائعا ولكنه عندما يكون مبحوحا يكون أروع «**يعجبنى اكثر**» .

وتسأله أم كلثوم رأيه فيقول :

ــ النهاردة شق القمر .

فتضحك لأنها تعرف ما يعنيه هذا الوصف .

(هذين) تنطق الهاء بين الهاء والغين على سبيل التلميح .

واذا تناهى الحب واتفق الفـدى   فالروح فى باب الضحية الـبـــق

يدوى صوتها فى هذا البيت لأنها تقرر حقيقة كبرى حقيقة التضحية والفداء .

وفى معرضها صور للألم كتلك الأغنية الدامعة (**اليتيم**) وأغنيـــة

(ظلموني الناس) وأغنية (ليه يا زمان) وأغنية (عين يا عين) وأنا ما سمعت هذه الأغنية الا يكي قلبي وان لم تدمع عيناي •

وساشير الى روائع هذه الاغنية بحروف بارزة تومىء ولا تحيط :

تهـــون على الروح لو فارقت جنبي
ولا فراق محبوب سكنته في جلبي
والله أنا ماأنساه يا عين مهما البعاد طال
بي ولا نحب سواه مهما يجيبـولي
فرحة وبانت لي من بعد طول صبري
هي اللي كانت لي ياوب في عمـري
كانت منام في الليل وصحيت من بدري
ولا فرح بيها قلبي ولا عيـنني
اصبر انا واجيب على زمـاني اللوم
يحطني في قوم ويردني في قـــوم
وأدور مع الأيام ولا أشوف في يوم
غير اللي بايعني ولا اللي شـــاريني

* * *

وفي (اصون كرامتي) يفعل صوتها العجب ، يأسى ويتمنى ويخشى ويترفع ويغضب وأكثر من وصفي هذه الأبيات :

فما هانت لغيرك في هواها ومما مالت لغـــيرك في التصبي
ولكني أردت هـوى عفيفـــا ورمت لك الهنا في ظل قربي
ولما أيقنت روحي بشـــر وكان الغدر في عينيك ينبي
هجرتك والأسى يدمي فؤادي وصنت كرامتي من قبل حبي

وفي معرضها فوق الصور صلوات وطنية نسمعها منها خاشعــــة كقولها :

يا نيل أنت بطيب مانعت الهـدى وبمدحة التوراة أحـــرى أخلق

هنا يتهادى صوتها كما يتهادى النيل بعد رحلته الطويلة عنــــد القاهرة •

أصل الحضارة فى صعيدك ثابت ونباتها حسن عليك مخلق

(حسن) تخافت بصوتها فى هذه الكلمة كمن بهره النبات فقال لرب السماء من قلبه : سبحانك ·

ولدت فكنت المهد ثم ترعرعت فأظلها منك الحفى المشفق
ملأت ديارك حكمة مأثورها فى الصخر والبردى الكريم منمق

(الصخر) تضغط بعمق على هذا اللفظ فى النطق كأنها تقده من جبل لتصور صلابة الكلمة :

وبنت بيوت العلم باذخة الذرى يسعى لهن مغرب ومشرق
واليك يهدى الحمد خلق حازهم كنف على مر الدهور مرهق

؛ تغن الميم فى « **حازهم** » غنة مديدة تصور شدة أسر المصريين بالنيل الذى يعيشون على مر الدهور فى كنفه وحماه ·

* * *

ومن غنائها لآلامنا قصيدة (السودان) التى تزأر فيها زئير الأسد الغضوب فى هذا البيت :

ودعوى القوى كدعوى السباع من الناب والظفر برهانها

وتسكن قليلا بعد الظفر ، ويأسى صوتها فى (**برهانها**) فيصور السكون والأسى ، الجهد الضائع للضعيف المهضوم أمام القوة الغاشمة ·

ومن ترديدها لحجتنا :

أمن العدل أنهم يردون الـ ماء صفوا وان يكدر وردى
أمن الحق أنهم يطلقون الـ أسد منهم وان تقيد أسدى ؟

تجأر بالغناء فى هذين البيتين فى قوة صاحب الحق ويرن صوتها فى (**وردى**) و (**اسدى**) فى حماسة الذائد عن عرضه المنافح عن حماه ·

انما الحق قوة من قوى الرحمـ ان أمضى من كل أبيض هندى

في هذا البيت تحلق بصوتها في تحد وتسمع منها (أمضي) فتحس أنها تستعدي السماء على ظلم الأرض ·

وارفعوا دولتي على العــلم والأخـ   لاق فالعلم وحده ليس يجـدي

انها تخطب في هذا البيت وتنطقه بصيغة الحزم لا سيما في لفظة (وحده) ·

* * *

وفي معرض أم كلثوم الفني تسابيح دينية تعطر جونا بها (نهـــج البردة (١) و (ســــلوا قلبي (٢)) و (عرفات (٣) و (الهمزية (٤)) وأنا هنا أشير لأني لست في حاجة الى التفصيل ولا طاقة لي به خاصة في هذه الألحان · لهذا سأكتفي بتحليل الهمزية ، وهذا قبس منها :

ولد الهدى فالكائنات ضـــياء   وفم الزمـــان تبسم وثنـــاء
الروح والمـــلأ الملائك حــوله   للدين والدنيـــا به بشــــراء

هذا هو مطلع ولد الهدى ، وهي فيه هادئة متهدجة الصـــوت في خشوع اجلالا لممدوحها الكريم متزنة النبرات مع بعد مدى ثم يستحيل هذا الهدوء جلجلة وهي تعلن البشرى في الشطر الثاني من البيت الثاني :

«والعرش» يزهو والحظيرة تزدهي   والمنتهى والســـدرة العصـــماء
والوحي يقطر سلسلا من ســلسل   واللوح والقــلم البـــديع رواء

هنا يتماوج صوتها من هزة السرور حتى اذا وصلت الى البيت الثاني قطعت الحروف ورتلتها وحدات صغيرة في تطريب واستعذاب المتــــذوق للسلسل ، المتنسم لريحه ، المستطيب لحلاوته · وضغطت على حــروف لفظة « يقطر » لتصور التقطير وتشيع جرسه ومعناه

يا خير من جاء الوجــود تحيـــه   من مرسلين الى الهدى بك جـــاءوا
بك بشر الله الســـماء فزينت   وتضوعت مســـكا بك الغبراء

ويتهادى الصوت المحلق ، في البيت الأول ·· انه يزجي التحايـــا عاطرات ·· حتى اذا وصلت الى البيت الثاني ماس صوتها في بهجة البشير

---

(١) ، (٢) ؛ (٣) ؛ (٤) انظر الملحق رقم ٣ ·

الذى تجاوب دعوته زينة فى السماء وعطر على الأرض وســـعادة فى القلب ·

يوم يتيه على الزمان صباحـه ومســاؤه بمحمد وضـــاء

من أراد أن يعرف كنه « التيه » فلينصت اليها وينظر اليهـا أيضا وهى تقول (صباحه ومساؤه) ·

يوحى اليك النـور فى ظلمــائه متتابعا تجــلى به الظلمـــاء

حسب هـــذا البيت غنة النون فى لفظة (النور) وترقيقها لتحكى شفافية نور فجر طالع ينساب رويدا رويدا فى كنف ليل دامس فتجلى به الظلماء ·

والآى تترى والخــوارق جمــة جبريل رواح بهــا غــداء

ان الوقار والجدة التى تعلو وجهها ، والارتفاع والهامة التى تظهـر فى صوتها عندما تقول (والخوارق جمة) مع تنوين التاء والضغط عليهــا فى (جمة) ·· كل هذا مجتمعا يلمسك روعة معجزات الرســول ·· (رواح) ان ما فى هذه اللفظة من لين وترقيق وتطريب ليرسل الى أذنك رفيف جناحى الملك الذى يدعوه الله جبريل وهو يغدو ويروح بروائع الكلم وبدائع المعجزات ·

بك يا ابن عبد الله قامت سمحـــة بالحق من ملل الهدى غــــراء
بنيت على التوحيــد وهو حقيقة نادى بها ســـقراط والقدمـاء
ومشى على وجه الزمان بنورهـــا كهان وادى النيــل والعرفاء
الله فوق الخلق فيها وحــده والناس تحت لوائها أكفـــاء

أما الأبيات الثلاثة الأولى فترتيل متصل متساوق كانسياب الغدير أما التفخيم فى لفظة الجلالة (الله) والسكون الخفيف بعد لفظة (فيها) لابراز الوحدة والتفرد فخير ترجمة لسمو هذه العقيدة ·

والدين يســر والخلافة بيعـــة والأمر شورى والحقوق قضـــاء

انها تلقى هذا البيت وكأنها تقول للمسلمين :

أفيقوا ··

هذه هي مبادىء الاسلام الكبرى ..

أين أنتم منها اليوم ..

الاشـــتراكيون أنت امامهـــم لولا دعاوى القـــوم والغـــلواء
داويت متئـدا وداووا طفـــرة وأخف من بعـــض الدواء الداء

لو أن غيرها فى مكانها قال « متئدا » لاستعصى معنى اللفظ عـــلى كثيرين ، ولكنها تعرف مهمتها جيدا .. انها تدرك أننا ننتظر منها الكثير وأننا ننشد عندها نعيم الروح كنعيم السمع سواء بسواء .

وهى لهذا تأخذ على عاتقها القيام بمهمة الشـــاعر والخطيب والداعى فوق مهمتها الأولى التى تتمثل فى الشدو والتغريد . لهذا تضفى على هذا البيت ألوانا متباينة تعكس معانى ألفاظه .

فلفظة (متئدا) تنطق بها حرفا حرفا لتطول المسافة ويتحقق معنى البطء الرفيق الذى يصطنعه الطبيب الآسى فى معالجة الأدواء . وتصـــنع غير هـــذا عندما تقول (طفـــرة) فتنطقها لمحا وفى عنف لتحقق معنى السرعة والخطورة فى أسلوب الاشتراكية غير الاسلامية .

الحرب فى حق لديك شريعـــة ومن الســـموم الناقعـــات دواء
والبر عندك ذمـــة وفريضة لا منـــة ممنونة وجبـــاء

أظهر ما فى هذين البيتين الضغط على مخارج الحروف والسكنات التى بين الالفاظ لتصوير أهميتها :

جاءت فوحدت الزكاة ســـبيله حتى التقى الكرمـــاء والبخـــلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى فالكل فى حق الحياة ســـواء

ان البيت الأول منها هادىء الصـــوت شأن المطمئن الذى يقف وراءه قانون يسنده وشريعة تحميه .

أما البيت الثانى فانها تبذل من قلبها فى القائه . وهذا البذل يتمثل خاصة فى حروف الهاء من الشطر الأول من البيت .. وفى الشطر الأول من البيت شجى وفى شطره الثانى تحد .

يا من له الأخلاق ما تهوى العلا منها وما يتعشق الكبراء
زانتك في الخلق الرفيع شمائل يغرى بهن ويولع الكرماء

وهذان البيتان يسيلان رقة خاصة فى (**تهوى العلا**) و (**يتعشق الكبراء**) و (**يغرى بهن ويولع الكرماء**) ٠

فاذا سخوت بلغت بالجود المدى وفعلت ما لا تفعل الأنواء

ان السخاء والصفاء والعذوبة والتألق الذى يتجلى به صوتهافى لفظة (**سخوت**) لأجل من وصفي ووصف الكاتبين ٠ والشطر كله شجى وتطريب ٠

واذا عفوت فقادرا ومقدرا لا يستهين بعفوك الجهلاء

أما (**عفوت**) فهى على مثال من (**سخوت**) أما (**قادرا ومقدرا**) ، فيمتازان بروعة القوة التى يضفيهما عليهما ما فى صوتها عند نطقها ، من ارتفاع وحسم ٠

وأظهر ما فى الشطر الثانى تمثيلها بالصوت الجميل معنى الاستهانة فى كلمة يستهين ٠٠

واذا رحمت فأنت أم أو أب هذان فى الدنيا هما الرحماء

انها لا تغنى هذا البيت ، ولكنها تنشج فيه وتبكى نشيج من عرف روعة الأمومة ورحمة الأبوة ، ثم سلبهما ٠ ودموعها والنشيج يبكيان عين الخلى ، ويذيبان قلب الشجى ٠

واذا خطبت فللمنابر هزة تعرو الندى وللقلوب بكاء

ليس فينا من لم يهزه هذا البيت ومن لم تعله منه رعدة من تحليق صوتها واختلاج كياتها كله فى (**هزة**) ٠ ومن عجب أن تستحيل روعة القوة فى الشطر الأول الى رقة الدموع فى الشطر الثانى ٠

يا من له عز الشفاعة وحده وهو المنزه ما له شفعاء
لى فى مديحك يا رسول عرائس تيمن فيك وشاقهن جلاء
هن الحسان فان أردت تكرما فمهورهن شفاعة حسناء

ان من يرى عينيها تصعد النظرات هائمة حالمة دامعة ، وهى كلها تستحيل الى قلب يخفق وروح ترفرف فيوحى رفيفها بما فى هذه

الأبيـــات ٠٠ فيها ضراعة وفيها رجاء ، وفيها أمـــل وفيها دعاء ، وفيها سبحات للخيال ، وفيها تسام وفيها استشراف وفيها لهفة وفيها عذوبـة وفيها جمال وفيها تصوف ٠ وهى فوق هذا كله صلاة خالصة عميقة ٠

ما جئت بابك مادحا بل داعيـا ومن المديح تضرع ودعـــاء

وفى هذا البيت تهدأ وكأنه القرار الموسيقى فى لحن رائع فريد وترجع فيه وتعيد وتبدأ فيه من حيث انتهت وتشدو به مجملا وتشدو به مجزوءا وتسكن قليلا بعد « **مادحا** » لتبرز الاستدراك (**بل داعيا**) ، التى تضغط عليها وتشجو فيها وتظل تلهج بالبيت فى دعاء متصل حتى تحيله الى مثل آذان الفجر فى هدأة ليل ساج بليل ٠

أدعوك عن قومى الضعاف لأزمة فى مثلها يلقى عليك رجـاء

انهـــا تجأر بالدعاء فى الشطر الأول من عمق احساسها بآلامنا وما نحن فيه ٠ وتنتهى بالشطر الثانى الى قرار لهذه القصيدة العصماء شـعرا وتلحينا وغناء ٠

هذه هى أم كلثوم ٠


أم كلثوم
والفن

أم كلثوم وشوقى :

كم قصيدة لشوقى يغنيها الآخرون ·· فلا نميزها عن كلام غيره · وان ميزناها فهيهات ينفذ بنا قائلوها الى أغوار معانيها · بل ان شوقى عاش ومات ، وكثير من شعره لم يدركه الا قلة ممتازة لا يقاس عليها · ولكنه اليوم بعد أربعين عاما من وفاته أصبح شعره صعبه وسهله يدور على ألسنة الجميع المثقفين منهم والعامة ، بعد أن ترنمت به أم كلثوم · وطرب الناس لنهج البردة ، بعد أن كانت تبدو لهم كالطلاسم فى حياة شوقى · وبعد شوقى حتى غنتها أم كلثوم ·· فهللوا وكبروا · وأم كلثوم فى هذا الباب تذكرنا بعبده الحامولى · فقد كان أثناء غنائه يصور معانى أغانيه · وتروى الطرائف عنه فى هذا الباب فى أدواره : (أشكى لمين غيرك حبى) ودور (متع حياتك بالأحباب) ودور (المطر يبكى يا ناس لحالى)·

وغير هذا مما يرويه عنه كتاب (الموسيقى الشرقية والغناء العربى)·

وبمناسبة عبده الحامولى نذكر أنه أحد الذين غنوا قصيدة (أراك عصى الدمع (١)) وأنه هو الذى أبدل كلمة (نعم) بكلمة (بلى) الأصلية · وغير خاف وقع (بلى) على الأذن المصرية المرهفة وما يمكن أن تثيره من التندر و (التريقة) المعهودة ·

---

(١) من هؤلاء الشيخ على محمود والشيخ ابو العلا ·

فأم كلثوم كما يقولون امتداد لمدرسة الارتجال الفورى فى الألحان أى امتداد لعبده الحامولى وسلامة حجازى ٠

وأم كلثوم حين تسجل على شريط تجيد ، ولكنها عندما تغـــــنى للناس تتفوق على نفسها لأنها فنانة ، تتجاوب روحها مع أرواح حيـــة فدور الجمهور هنا أشبه بدور الصندوق الرنان فى الآلة الموسيقية ٠

يقول روبين جورج كو لنجوود فى كتابه (مبادىء الفن) (١) ان (السبب الذى جعل موسيقى الجراموفون لا ترضى من اعتادوا الاستماع الى موسيقى حقيقية « حية » ليس رداءة الصوت الذى يظهر فى المسجلات الآلية ــ اذ من المتيسر القضاء على هذا العيب اعتمادا على خيال المستمع ، بل هو عدم وجود صلة بين القائمين بالأداء والمستمعين فلا وجود لمشاركه بين هؤلاء المستمعين وبينهم ، والاستماع فى هذه الحالة هو مجـــرد سمع عرضى ٠٠ والامر بالمثل فى حالة السينما ٠ وفيها مشاركة قوية بين المؤلف والمخرج ، الا أنها معدومة بين المؤلف والمخرج متحـــدين وبين المشاهدين ٠ والقائمون بالأداء فى الراديو يصادفون عيبا مماثلا ٠ وأدى هذا الى صلاحية الجراموفون والسينما والراديو وســـائل للترفية أو الدعاية ، لأن مهمة المستمع فى مثل هذه الحالة تقبلية محضة ، وليس فيها أى مشاركة فى الخلق) ٠

حين تخرج أم كلثوم عن اللحن الأصلى :

وكثيرا ما تكون أم كلثوم « مسحرة » بالجو الفنى فتنطلق مع طبيعتها وكأنها تغنى لنفسها ٠ تقول من حديث لها مع مجلة الجيل (١١/١٧/ ١٩٥٨) (عندما أغنى على المسرح أنسى الدنيا كلها ٠ وعندما أبدأ فى الاندماج فى الغناء أدرك باحساسى ان كان جمهورى منسجما مع الأغنية

---

(١) مبادىء الفــن تاليف روبير جــورج كولنجوود ــ ترجمة الدكتور أحمد حمـــدى محمود ــ مراجعة على ادهم ٠

ومع ذلك فأحيانا أردد أحد المقاطع التى تعجبنى حتى ولو لم يطلبها الجمهور · وقد يعبر جمهورها عن استجابته لها واعجابه بها بالتصفيق فلا تتوقف بل تسترسل فى غنائها لأنها « مسحرة » بالجو الفنى الذى يستولى عليها فى تلك اللحظة ، وبودها لو أن السكون يعمق ويعمق حتى لا تشوب صفوها ، وقتئذ شائبة من ضجة أو هتاف ولو كانت ضجة الاعجاب وهتفة التقدير ·

انها وقتئذ تستولى عليها الفكرة ، ويستولى عليها النغم وتتفتح مغالق نفسها فتنسى أو تتناسى اللحن الاصلى وتخرج به عن نطاقه المرسوم فتحلق به تارة وتدنو به أخرى وتبغم وتبين وترجع وتعيد وتبتهج فتشيع الفرحة فى المكان كله وتحزن فتشجى وتناغى وتسبح وتتصوف وتتأمل وتتضرع ·· كل هذا فى وقت واحد · **ولعل هذا هو السر فى أنها تبدو لناظرها أحلى منها ، وهى تغنى** · وقد ينال منها المجهود الجبار الذى تبذله فلا تفارق وجهها الابتسامة الرفافة لأن الفنان يخفى دائما تعبه ليهب الراحة للآخرين ·

وأم كلثوم بعد أن تفرغ من غنائها تذهب لتسمع التسجيل · والفنان الصادق يشعر فيعبر عن شعوره لنفسه · وهو بعد أن يفرغ من عمله الفنى ينقلب ناقدا فنيا ، وكثيرا ما يجد أشياء لم يشعر بها أثناء تعبيره الفنى ·

كتب عنها الأستاذ أحمد رامى (١) ·

(وهى مخلصة للفن ، تشرف بنفسها على كل اعداد للتسجيل ، من مراجعة لآلة كل عازف ، ومن نقص لآلة كل مهندس · لا يخرج للناس من صوتها صدى الا اذا مر على أذنها الدقيقة فرضيت عنه · وهى فى هذا تقول « ألست أسمع قبل أن أغنى » · وهى مخلصة للفن فى صبرها على مقتضياته · تحدد موعد العمل فتكون أول الحاضرين وآخر المنصرفين وتصبر فى سبيل ذلك على العطش والجوع ، ولا تنال آخر الأمر من الطعام الا ما لا يسمن ولا يطعم من جوع · وتقف أمام الاضواء الحامية عند الاشتغال بالسينما حتى ينصهر جسدها وتدمع عيناها ، وهى لا تشكو ولا تتبرم ، حتى اذا انتهى العمل على ما ترضى انتحت ناحية قصية وجلست فى الظلام مطرقة الرأس مغمضة العينين · وتعود بنفسها رويدا رويدا الى

---

(١) الهلال عدد نوفمبر سنة ١٩٤٧ ص ٥٨ ·

ظلها المأنوس • وهي لا تريد في كل ذلك جزاءا ولا شكورا الا على الذى تستحقه أمام نفسها •

* * *

تقول مجلة الاذاعة في ١٩٥٩/٥/٣٠ تحت عنوان :

(أم كلثوم « في العمل »)

وأم كلثوم ليست متعبة في تسجيل أغانيها • **ويعتبر صوتها أقوى كثيرا من الأصوات العادية ، ولذلك يحتاج الى ميكروفون خاص بها** ولم يحدث أنها تناولت في ساعات التسجيل مهما طالت ، أى طعام ما عدا قدحا من القهوة أو بعض المرطبات •

وينتشى الموسيقيون والمهندسون بصوت أم كلثوم ، الذى يشدهم اليه طيلة وقت التسجيل • وتتأثر هي بصوتها جدا ، وتندمج مع اللحن • وعندما تسمع صوتها بعد التسجيل تبدى الكثير من الملاحظات عليه أو على اللحن نفسه •

قلق أم كلثوم :

وهي تسجل الأغنية مرتين كاملتين ثم تختار احداهما بعد سماعها • وأحيانا توافق على التسجيل دون عمل أى مونتاج • أما التسجيلات الكبيرة التى تتم في الحفلات الخارجية التى تقيمها الاذاعة شهريا ، فتستمع اليها وتختصرها ، حتى توافق الوقت المناسب للاذاعة •

وهي تستغرق في تسجيل القصائد وقتا أطول • وقد حدث أنها كانت تسجل قصيدة (**ولد الهدى**) من معهد الموسيقى تسجيلا خاصا للاذاعة فظلت في بروفات وتسجيل حتى الساعة الثانية صباحا • واضطرت للانصراف بعد تسجيل نصف القصيدة فقط • لأن عبد الوهاب كان سيسجل بعدها من نفس المعهد •

وكان التسجيل فى ذلك الوقت يتم على شرائط من الصلب ، يزن ما يستغرق منها ١٫٤١ ساعة حوالى ١٥ كيلو جراما • ولذلك كانت عملية المونتاج متعبة جدا ، لأنها كانت تتم بالنقل على شرائط أخرى لا بالقص الذى يحدث فى الشرائط الحالية المصنوعة من البلاستيك •

وتسألها مجلة الجيل (١٩٥٨/١١/١٧) عن حقيقة شعورها عندما تسمع صوتها فتقول :

انه شعور بالضيق !

(وسبب ضيقى أننى عمرى ما رضيت عن أدائى لأغنية من أغنياتى رضاء تاما • عمرى ما اعتقدت اننى قد نجحت فى أداء أغنية مائة فى المائة • وفى الوقت الذى قد يكون فيه الناس معجبين بصوتى وأدائى أكون أنا فى حالة حساب عسير مع نفسى •• ففى كل مرة استمع فيها الى نفسى أحس أنه كان يمكننى ان أؤدى الأغنية بطريقة أفضل • وأنا اعتقد ما دمت أستطيع اكتشاف عيوبى الفنية فى الأداء فسأظل أتقدم ولن أقف ولن أتأخر) •

نشرت الأهرام فى عددها الصادر ١٩٥٨/٦/٢٦ أن (أم كلثوم أعادت أمس للمرة الخامسة تسجيل أغنيتها الجديدة من ديوان الأمير عبد الله الفيصل) •

ودلالة الخبر هنا طاقة الجهد فيها والصبر والتصوف فى العمل والحرص على التجويد والاحساس بالمسئولية •••

ماذا اعطى الأدب لأم كلثوم :

وقد ارتفع اللحن فى أغانى أم كلثوم • ولعل اللحن ارتفع الى هذه الطبقة لأن اللفظ ارتفع اليها قبله فكان لابد له ، لكى يتحد به ، أن يرتفع

اليه ويسامته · ان من الألفاظ ما يقدر على العطاء والسخاء فيه ·· عطاء شحنة من الاحساس والشفافية والقدرة على التحليق ·· قد يفعل هذا بجرسه أو حسه اللغوى أو الصور المأخوذة فيه ·· فعمل الاديب أو الشاعر هو المناخ الفنى للملحن ·· ولن يستطيع ملحن أن يتنـــــاول (الستارة) فى أى مكان بمثل الاحتشاد الذى يلحن به لا أقول قصيدة رائعة بل طقطوقة رقيقة دافئة مثل :

انت فاكرانى ولا نسيانى

ومن هنا يظهر بوضوح الدور الكبير الذى أداه فنا الأدب والموسيقى كلاهما لتاريخ أم كلثوم ومكانتها الفنية ·

سألت آخر ساعة (١٩٦٠/٥/١٨) أم كلثوم رأيها فى دور التأليف فقالت :

(ان الأغنيه الناجحة يجب أن تتوافر لها ثلاثة عناصر : التأليف الجيد ، والتلحين الجيد ، والأداء الجيد) ·

ـ وما هى أهم هذه العناصر فى رأيك ؟

ـ التأليف طبعا ·

ـ أهم من التلحين والأداء ؟

ـ طبعا أهم ·· الأغنية فى رأيى تعتمد قبل كل شىء على الكلام ·· **اذا كان الكلام جميلا انفعل به كل من الملحن والمغنى فيجىء اللحن جميــلا والأداء ممتازا ·· وكلما كان الكلام جميلا زادت حلاوة الأغنية ·**

حتى حين أخذت تفاضل بين أغنية وأخرى عزت الفضـــل الى عنصر التأليف ·

ـ ما هى أحلى أغانيك فى رأيك ؟

ـ أنا راضية عن جميع أغانى من ناحية التلحين · والذى يميز أغنية عن آخرى فى نظرى هو الكلام · ولهذا أنا أحب أغنية (**ســهران**) لأن كلامها حلو جدا ·· وموضوعها طريف جدا ·· فلم يسبق لشاعر أن تحسر على عهد الجفا والحساد بالجمال ده قبل هذه الاغنية · كلهم كرهـــــوا عهد الجفا الا رامى ·

* * *

وقد راعى القضـــاء المصرى قيمة الكلمة ودورها فحكم فى قضية أقامها الأستاذ الأسمر ضد محطة الاذاعة وأم كلثوم مطالبا بنصيبـــــه فيما تدفعه الاذاعة لقاء كل مرة تذاع فيها أغنية من تأليفه · حكم القضاء مقرا حق المؤلف وجاء فى حيثيات حكمه :

(ان جمال الكلم هو الذى يعين على جمال النغم · ولا يكون الغناء شيئا حتى يكون المعنى طريفا والصياغة حلوة ، ولا يجود التلحين حتى يكون موقع الكلمة فى التأليف الى جوار أختها مرضيا مصوغا بحكمة) ·

ويشير بعض النقاد من قريب أو بعيد بصراحة أو بأسلوب المدح الذى يشبه الذم الى أن أم كلثوم بصوتها العريض وجمهورها الاعرض تقف سدا دون تيار التطور فى الغناء · فالأصوات التى تتصـــارع عند السفح طاقتها محدودة وصوتها الضيق لا يسعدها ولا يعين على اســـعاد الآخرين ·

ورأيى أن (التطور) حين يوجد ، فى أى ناحية من نواحى الحياة والفن ، فيه ، من قوة الدفع الذاتى ما يجعله يفرض نفسه ·

ويطيب للبعض الآخر أن يقرنها بالبارودى فأم كلثوم فى رأيهم ردت الى الغناء العربى بهجته كما رد البارودى الى الشعر العربى قوتـــه وقدرته على التعبير فى جزالة فخمة وهذه المقارنة تختلف ·· فالبارودى لم ير أمامه أو وراءه الا ركاما غثا من الضعف والركاكة والتهافت يرقد تحته الشعر العربى مريضا يتنفس بصعوبة · فأزاح البارودى وحده عنه هذا الركام · ونفض عنه تراب السنين ووضع عنه أوزاره التى أثقله بها البديع والمحسنات اللفظية التى تعمدها أصحابها لتخفى خواءه · كان الشعر العربى هزيلا سقيما فأخذ البارودى يطب للمريض ويعطيه الغذاء الصحيح فى عملية احياء مغايرة وكاملة حتى انتعشت روحه وانتفض على يديه من جديد سليما قويا قادرا على الحركة والسير فى ركب الحياة الساعيـــة الشاعرة ·

أما أم كلثوم فقد جاءت بعد البارودى بنصف قرن عمر بالأصوات العريضة ، والموشحات العربية ، وأعلام الموسيقى والتلحين ، وأصحاب الكلمة المبدعة المضيئة المعطرة · ووقف وراء أم كلثوم من هؤلاء — يبنيها ويزكيها ، ويمكن لها — الشيخ أبو العلاء وزكريا أحمد والدكتور صبرى النجريدى ثم القصبجى والسنباطى ·· ومن الشعراء أحمد رامى الذى

جمع بين الشعر والزجل من أجلها · ان فضل أم كلثوم أنها أحسنت التلقى والتعلم والاستفادة بهذه الهبات · حاولت فى صدق واصرار واستمرار أن تثرى نفسها وموهبتها بالتهذيب والصقل والمران والمحافظة فوصلت حين تخلف الآخرون ·

قد يكون أقرب الى الصواب قول الناقد ولعله تفسيرا للمقارنة التى ذهب اليها ، ان صوت أم كلثوم أتاح للملحنين أن يجوبوا آفاقا باهرة ما كانت تخطر لهم على بال لولا وجود هذا الصوت الذى حملهم الى تلك الأفاق ·· فصوت أم كلثوم بمقدرته الهائلة ومساحته الخصبة · ومقاماته المصقولة المضبوطة ذات التناسب العجيب ، وذبذباته السحرية . ونبراته الوضيئة التى تتمثل فيها ألوان من لمحات الجمال والجاذبية والقوة ، لا نهاية لها ·· صوتها هذا هو الذى أشعل مواهب الملحنين وأثار التنافس بينهم ، وألهمهم ألحانا حاولوا دائما ما وسعهم الجهد أن تكون على مستواه · وحرصوا دائما على أن يلبوا متطلباته من الألحان التى لا يستطيع صوت سواه أداءها ، والتصرف فى أدائها . واضافة اللمسات الفنية اليها لتكوين مذاقها الفنى الفريد الذى ربط المستمعين به أكثر من أربعين عاما ·

ويقول فى موضع آخر ان الشيخ أبا العلاء والمشايخ الآخرين جددوا الغناء العربى وردوه الى أسلوبه الاول أو قريب منه · وكان صنيعه شبيها بما صنعه البارودى فى الشعر العربى ، (ولما كانت ألحان الشيخ أبو العلا قد تسللت الى الاسماع من خلال صوت أم كلثوم فان ظهور **أم كلثوم** منذ أربعين عاما ، **ارتبط بثورة قومية فى جمال الغناء والموسيقى وكان صوتها من أكبر عوامل النجاح السريع لهذه الثورة** فقد كان يصعب على الأسماع التى أفسدتها ألحان الأتراك والفرس والغجر أن تصغى الى ألحان الشيخ أبى العلاء ذات الأسلوب العربى لولا هذه المصادفة التاريخية التى تمثلت فى صوت أم كلثوم ·

وقد قامت الدعوة الى تلحين الباليه الذى يعين عليه الايقاع الذى تزخر به الموسيقى الشرقية خاصة فى التواشيح ·


الدعوة
الى موسيقى
علميّة

مرحلة جديدة :

ان الفن المصرى العربى اليوم على أبواب مرحلة جديدة نبشر بها تطلعاته الحاضرة • فقد ارتفعت الدعوة الى موسيقى علمية بتخصيص برنامج موسيقى ثقافى ، وتدريس قواعد الموسيقى العالمية فى المدارس ، وانشاء مكتبات موسيقية فى الأندية والجمعيات ، والى انشاء قاعة كبرى للعزف على نمط الدول الكبرى فى الفن تحتضن المواهب الشابة •

كما نادت الدعوة بالتدوين الموسيقى (١) • والعجيب أن هذه الدعوة لم تلتفت الى مؤلفات العالم الموسيقى أو جندى الموسيقى المجهول أحمد خليل مصطفى الفحام (٢) •

عندنا دعوة الى قيام مسرح غنائى ثابت ومتنقل يستطيع الملحن أن يقدم عليه عملا فنيا كاملا ينتقل بموسيقانا من ١/٤ الربع تون

---

(١) اقرأ كتاب (الاغانى العصرية) لكامل الخلعى •

(٢) اقرأ كتاب (أصوات وألحان عربية) تأليف كمال النجمى ١٢٨ – ١٣٠

(٣) وبمناسبة الربع تون يظفر متحف معهد الموسيقى العربية ببيانو مزود بربع المقام هو الوحيد فى العالم •

والثمن تون (٣) الذى يقف عقبة فى سبيل الموسيقى الشرقية وتطورها (١) الى مستويات عالمية الفن كالأوبرا (٢) والأوبريت حيث الأوركسترا والمؤلف (٣) هما وسيلة التعبير الموسيقى والخلق والأصالة فيه • اقترن هذا بالحملة الواعية على « الاقتباس » والتنبيه الى مواضعه ـ لا سيما وأن هذا الأوج عرفته مصر قبلا على يد سيد درويش وكامل الخلعى وداود حسنى والشيخ (أبو خليل القبانى) والشيخ سلامة حجازى (٤) • ففى مطلع

---

(١) الغناء المسرحى والغناء الدينى كانا وراء تطوير الموسيقى والغناء فى العالم • واذا كانت الموسيقى صوت وزمن وايقاع فان لنشأة الديانات المختلفة أثرا غير مباشر كما يقول الأستاذ الشجاعى ؛ فى تكوين الأزمنة الموسيقية اذ كانت أكثر الاغانى الدينية تلحن فى زمن ثلاثى فى أول الأمر أخذا بعقيدة التثليث •

(٢) من الأسماء المصرية الآن فى مجال الأوبرا الدكتور محمد محمود سامى خريج كونسرفتوار باريس •

(٣) من أعلام التاليف الموسيقى المصرى : الشجاعى وأحمد عبيد وحجاج والظاهرى ونويرة •

(٤) من جهود مصر فى مجال المسرح فى مطلع القرن العشرين هذه الروايات : لص بغداد ، طيف الخيال ؛ الثالثة ثابتة ؛ كلام فى سرك ؛ كارمن ، تاييس لكامل الخلعى •

صباح ، شمشون ودليله ؛ معروف الاسكافى ؛ ناهد شاه ، أحب افهم ؛ أيام زمان ؛ البرنسيس ، مجلس الأنس ؛ ورشة المركب ؛ الفلوس لداود حسنى •

تليماك ، شهداء الغرام ؛ عايده للشيخ سلامه حجازى •

على بابا ؛ عزيزه ويونس ، يوم القيامه وغيرها لزكريا أحمد •

فرجت لابراهيم فوزى الذى ألف عددا كبيرا من الاسكتشات وكذلك عزت الجاهل •

أما سيد درويش فله : هدى ، الدره ؛ فيروز شاه ؛ كلها يومين ، راحت عليك ؛ ولسه ؛ الهلال ، الانتخابات ؛ العشره الطيبه ؛ شهرزاد ؛ الباروكه ، كليوبطرا ؛ ولو ، قولوله •

ولكن هذه الآثار كلها محاولات فحسب لأصحابها نعم ؛ الا أن خطوات الرواد المصريين العظام كما يقول الدكتور حسين فوزى (وقفت من الغناء المسرحى عند حدوده البدائية ، لا نتيجة ضعف أو تخاذل من الموسيقيين المعاصرين ـ كما يزعم اغلب النقاد اليوم ـ بل لأن موسيقانا قد استنفدت كل ممكناتها التعبيرية على المسرح ، وغدت بحاجة الى استئلاف عناصر جديدة للتعبير الدرامى مفردا ومجتمعا ومستندا الى الأوركسترا بكامل تكوينه وألوانه) •

وليس هذا عيب فيها ، فان (كل موسيقى وقفت عند حدود السطر اللحنى المفرد ؛ سواء غناء شخص اوعدد من الاشخاص ، عزفه فرد أو مجموع) •

دكتور حسين فوزى ـ الاهرام ـ العدد ٢٩٠٢٢ ـ السنة ٩٢ ـ الصادر فى يوم الجمعة ٢٧ مايو سنة ١٩٦٦ بعنوان (الجلسة مستمرة) •

القرن العشرين قامت بمصر نهضة مسرحية باركها طلعت حرب الذى أنشأ شركة التمثيل العربى وتياترو الحديقة الذى مثلت عليه أوبرات كاملة أو أوبرا كوميك مثل (شمشون ودليلة) و (صيادو اللؤلؤ) ٠٠ كمـــا لحن سيد درويش (العشرة الطيبــــة) التى كتبهـــا له محمد تيمور و (شهر زاد) ٠

وهذا المصرى الذى وهب الصدق فى التعبير مع البساطة وعمق الاحساس هو الذى خلص الاغانى المسرحية بصورة حاسمة من التخت حين أشاع فيها الحياة والنضرة ٠ وقد استطاع سيد درويش فى حياته القصيرة أن يحدث دويا لم يخفت صداه بل امتد شأن النهضات الأصـــيلة ٠ ومن امتداداته ابراهيم فوزى وزكريا أحمد والقصبجى ومحمود الشريف وأحمد صدقى ٠

وتبعا لهذه النهضة وجدت الأوركسترا والتأليف الموسيقى والمقدمات الموسيقية للمسرحيات ، كما وجدت المعاهد الموسيقية بل أرسلت البعثات الموسيقية الى فرنسا لتكوين نواة للثقافة الموسيقية ٠ ولأول مرة فى الشرق تتكون الأوركسترا الكبيرة على يد مصر ٠ وغدت أوركسترا الاذاعـــــة المصرية تضم جميع الآلات السيمفونية ٠

والمسرح الغنائى الذى تطمح اليه مصر اليوم له مقتضيات معينة ذات قيمة خاصة ٠ فليس كل صوت يصلح للغناء المسرحى ٠ ان الصـــوت المسرحى هو المتعدد الطبقات القادر على الأداء القوى ٠ وهى صفات صوت أم كلثوم لولا أنها ألفت التخت حتى غدا جزءا من شخصيتها الفنيـــــة تبدو معها النقلة بعيدة فاقعة اذا أدت عوضا منـــه مقطوعات من الأوبرات العالمية ٠

على أن الربع تون له أنصاره فالأستاذ أحمد صدقى يراه أســـاس موسيقانا وعلامتها المميزة اذ لا يوجد فى الموسيقى الغربية الآن ٠

وينادى المختصون بوجوب قيام التأليف الموسيقى على أسس دولية عالمية لا سيما وأن الموسيقى التى نسمعها من العود والقانون انما هى موسيقى شرقية بعامة ، تركية فارسية بخاصة من دلالات أسمائها – الجهار كاه والحجاز والنهاوند والبياتى ٠ وان كانت شخصية مصر تبدو واضحة فى (القفلة) التى يحلو للموسيقيين المصريين أن تنتهى بها كل حركة من الحركات الغنائية حتى ليعد الاستاذ أحمد صدقى القفلة أهم ميزة فى

الأسلوب المصرى اذ أنها لا توجد عند الأتراك الذين يتركون (المقـــام) مفتوحا (١) .

وليست المسألة موسيقى شرقية وموسيقى غربية انما موسيقى جميلة وأخرى غير جميلة . ليست المسألة الات شرقية وآلات غربيـــة فالقيثارة آلة موسيقية فرعونية عثر على أنواع كثيرة منها فى المقابر المصرية يرجع صنعها الى آلاف السنين والبعض منا يحسبها آلة غربية .

الموسيقى الشعبية :

أما الموسيقى المصرية الخالصة فهى الموسيقى الشعبية التى استوحاها فناننا الاصيل سيد درويش والتى يجب أن تجمعها وتستوحيهـــا الآن الموسيقى المصرية والمشتغلون بها ، وأن تطورها وتنظمها علميا وتنبع عنها فى تأليف جديد واخراج جديد كما فعل بارفوك فى هنغاريا وكورساكوف وموسوسكى وبالاكريف فى روسيا .

واليوم عندنا محاولة لهز الرتابة فى المعانى والأداء وهذه المحاولة تستند الى الفولكلور والتنقيب فيه عن احساس الشعب المصرى ،الحقيقى وجلو هذا الاحساس وتطويره وكان يقف وراء هذه الظاهرة الفنان على اسماعيل الذى لحن مايربو على مائة لحن فى هذا المجال . ان قماش الأغنية الفردية يضيق اليوم عن أغانى الجماعات والطوائف .

ومن الأصوات الجديدة التى نجحت فى أداء الاغانى الشعبيـــة المطرب المهندس محمد حمام الذى يشبهه أحد النقاد بصوت روبسون المطرب الزنجى الأمريكى .

اين تقف موسيقانا ؟

ان موسيقانا الحاضرة تدخل تحت عنوان (موسيقى الشعوب) أى أنها موسيقى محلية . ومن الطبيعى أن يحبها الشعب على علاتها باعتبارها

---

(١) اقرأ فى هذا كتاب الأستاذ كامل الخلعى (الموسيقى الشرقية)

بضاعته ولكنها لا تثبت على التقويم العلمي · ان اللحن بمفرده كما يقول الدكتور حسين فوزي (معزوفا على آلات أو راكبا الكلمة ، محدود الأبعاد والقدرة ولو أنه مرتبط بالقوة الأساسية الفسيولوجية والسيكولوجية للموسيقى بعامة) ·

انها موسيقى غنائية فحسب قصاراها تلحين الكلمة أى رسم البعد الأول الذى يلبس اللفظة ثوبا نغميا ، دون اعطاء الشاعرية أو الجو · موسيقى أغان لا موسيقى تقوم بذاتها كالموسيقى الغربية التى تصل من انفساح التعبير الى آماد أبعد من (الكلمة) ولو كان قائلها أعظم الشعراء (١) ·

نحن لا نلوم (٢) ولكننا مخلصين نطمح ونستشرف الى هذا

---

(١) يقول الدكتور حسين فوزى (استطاعت الموسيقى الأوروبية ؛ على خلاف موسيقات العالم القديم كله ، من الشرق الاقصى حتى الشرق الأدنى وافريقيا ؛ أن تبلغ ما بلغته اليوم من طاقة عظيمة على التعبير بالآلات الموسيقية وحدها · أو مشاركة للكلمة الملحنة · فلم يعرف فى الحضارات التى تداولت تاريخ العالم، والتى أورثتنا كنوزا من فنون العمارة والنحت والرسم والتصوير · ان الموسيقى قدرت على الانتقال من دور الغناء من خط لحنى واحد ؛ أو مشاركة لآلات فى اداء خط لحنى واحد ، الى وسائل الغناء والعزف تتطور فيه الأصوات الآدمية ؛ والآلات ، من بسائط الاكتشافات الأولى الى مانعرفه فى العالم الحديث من تنوع آلات الاوركسترا ، وتحول طرق الغناء من المولودية ـ أى غناء السطر اللحنى الواحد ـ الى البوليفونية ؛ أى الغناء والعزف من أسطر لحنية متعددة ومختلفة ، فى وقت واحد ؛ واستنباط علم جديد يقنن أصول توافق النغمات فيمايعرف بالهارمونية ، أو تعارضها فيما يعرف بالكونترا بنط ؛ ثم الى تلوين الألحان بواسطة آلات بلغت فى تطورها حدا معجبا من التنوع والطلاوة والقدرة على التعبير) · ويقول :

(استطاعت أوربا ـ وحدها ـ أن تحول الموسيقى من فن اللحن المعبر بذاته ، الى أبنية شامخة من التمثيليات الغنائية (الأوبرا) والسيمفونيات ؛ والرباعيات الوترية ، تشترك فى أدائها مجموعات من أصوات آدمية لاتغنى سطرا لحنيا واحدا ، وآلات بلغت غايتها من التطور ؛ لتعبر عن أعمق خوالج البشر ، وترتفع الى مراقى الفلسفة ؛ وما هو أبعد من الفلسفة فتغدو فنا بالغا حد الروعة ، يقف كتفا لكتف مع أسمى ما بلغه الروح الانسانى فى فنون الشعر والتمثيل والرواية ؛ والفنون التشكيلية ـ وفى أعمق ما يسبره التفكير من اغوار النفس) ·

الأهرام - العدد ٢٩٠٢٢ الصادر فى ١٩٦٦/٥/٢٧ ·

(٢) ان الموسيقى كفن عميق جدا لا ينعم به كما يقول الدكتور حسين فوزى (ويعى معانيه وينفعل بالجمالية ، حتى فى أوربا بكتلتيها الشرقية والغربية سوى الألباء ممن استوفوا قدرهم من الثقافة بمعناها الحضارى الواسع) « المصدر السابق » ·

المستوى على أن الموسيقى الغربية لم تصل الى هذا الاوج بين يوم وليلة ‥ فقد استغرقت عملية التطوير والبلورة والنضج قرونا (١٣٠٠ – ١٩٠٠م) ومع عنصر الزمن عوامل أخرى كثيرة ‥ فالموسيقى أبطأ الفنون تطورا لأنها أصعبها ٠ ودليلنا اليابان ٠

فاليابان حين أخذت بوسائل أوربا حذقت الصناعة والعلوم فى سرعة مشهودة ثم الآداب ‥ وأخيرا الموسيقى

لقد استطاع سلامة حجازى عندنا التجديد فى أسلوب الغناء ، واستطاع داود حسنى وسيد درويش التجديد فى التعبير ، واستطاع زكريا والقصبجى والسنباطى تعميق الكلمة حتى غدا اللحن يصور المعنى ويضيئه ولكن الأغنية المصرية مع هذا لا تعدو – فى الأعم الأغلب – خمس كلمات موسيقية تتكرر بصورة أو بأخرى ! قد تصل أغنية أم كلثوم الى عشر كلمات موسيقية ‥ وقد تصل الى الجملة الموسيقية بل والعبارة الموسيقية ولكن الفقرة الموسيقية لا ٠

ما زال اللحن عندنا لا يستطيع البناء الموسيقى

والذين يمدون أبصارهم الى ما وراء الموسيقى الشرقية ويطمحون الى آفاق أخرى ليس هدفهم كما يقول الدكتور أبو بكر خيرت ، قتلها ، بل انهم يشعرون أنها لا تقوم بدورها الذى تؤديه كل موسيقى ناجحة فى وجدان المثقفين وحياتهم وقد ظلت على أساسها القديم أو ما يقاربه ولم تتطور فى عنصرها أو أساسها بطريقة ما مع الثقافة الحديثة ‥ منذ أن شرح الفارابى الموسيقى الشرقية وقف نموها عند هذا الحد فى الوقت الذى تتطور فيه الدنيا حولنا ، وبسرعة ، ونشهد نحن من معالم هذا التطور فى الأفلام والاذاعات الأجنبية ما لا نستطيع أن نقف أمامه متبلدين فى قنوع أو خنوع راضين بالأدوار والقصائد بما فيها من رتابة وبطء بليد ، وطرب معاد ، وحركة متثائبة كان يغطيها الأصوات القوية العذبة القادرة على الأداء والاستهواء ‥ أصوات قماشها واسع كما يقولون تسمع بغير مكبر (١) ، وتنقل السامعين من مقام الى مقام ، حسب المقام ٠

---

(١) نشرت الأخبار فى ١٩٥٨/٩/٦ عن حفلة أم كلثوم فى دمشق أنها (لاحظت فى الوصلة الاولى ان مجموعة الميكروفونات الموجودة أمامها على المسرح عالية أكثر من اللازم فأشارت الى الشخص الموكل بالامر أن يخفضها قليلا لخفضها أكثر من اللازم ٠وهنا تركت أم كلثوم الميكروفونات وراء ظهرها واخذت تغنى فى صالة رحبة ازدحم فيها أكثر من اربعة آلاف شخص وضجت بالتصفيق وبالدعاء الى الله أن يحفظ أم كلثوم وصوت أم كلثوم) ٠

محال أن تجد الدنيـــا وتعبث فنكتفي بالطقاطيق الذى تؤدى فى لحظة وتنسى فى التالية كصواريخ الاعياد : بهرجة ٠٠ ولألاء خاطف ثم هباء ٠٠ بغير المسرح لا تكون للغناء حياة طويلة خاصة بعد أم كلثوم ٠

ومرة أخرى أقف وراء كلمة العلم فى الموضوع يقولها الدكتـــور حسين فوزى أنه (اذا أريد لموسيقانا أن تتقدم وترقى وتؤدى فىمجتمعنا الناهض المتحول دورها العظيم الى جانب الفلسفة والعلوم والآداب والفنون التشكيلية والتعبيرية ، فان اللحن الغنائى وحده لن يسعفها ٠ والاضافات السطحية الساذجة التى تزعم خدمة السطر اللحنى الواحد بمجموعـــات من آلات حديثة أو قديمة ، تؤدى مقدمات وفواصل طويلة أو قصيرة ، أقول ان هذه الاضافات السطحية الساذجة أضعف من أن ترقى بفنالموسيقى الى ذروات الفكر فى أسمى معانيه ، وأن تغوص الى أعماق الوجدانالانسانى فى أدق ، وأرق ، وأقوى ، وأفعل ما تجيش به الروح ٠

وما لم نواجه حقيقة الموسيقى الكبرى ونعمل على وعى معانيهـــا ، والسعى اليها ، فان الموسيقى المصرية سوف تظل هذا الطفل الذكى الجميل ٠٠ يناغى فى قماطه (١) ٠

* * *

على أن مصر الآن قد أنشأت أوركسترا سمفونيا وأنشأت الكورال ، مرقاة الى أداء الأوبرات العالمية بأصوات مصرية ٠

وعندنا الآن مؤلفون موسيقيون كالدكتور جمال عبد الرحيم مؤلف موسيقى تراجيديا (حاملات القرابين) ورفعت جرانة صاحب الأسـلوب الخاص فى تطوير الموسيقى المصرية ، وحافظ سلامة الذى كتب عـــدة أعمال سيمفونية مثل (السد العالى ــ مراكب الشمس ــ ياسين وبهية) ٠

عندنا عزيز الشوان وهو امتداد للدكتور أبو بكر خيرت (وفتحى الصنفاوى) صاحب تجربة الكورال فى مسرحية السحاب ٠

عندنا الآن حركة دائبة لنشر الوعى الموسيقى على رأسها الدكتور

---

(١) الاهرام ــ العدد ٢٩٠٢٢ الصادر فى يوم الجمعة ١٩٦٦/٥/٢٧ ٠

حسين فوزى الذى تولى عن طريق الاذاعة منذ ١٩٥٧ تقديم مئات الأحاديث الموسيقية العالية بالبرنامج الثانى فشرح وحلل فيها أعمال أعلام الموسيقى مثل سمفونيات بتهوفن وشوبان وبرامز وهايد وموزار وشوبرت ومندلسون وكونشرتوات موزار وبتهوفن وشوبان وبرامز ومندلسون وجميع رباعيات بتهوفن ومعظم رباعيات هايدن وموزار .. كما عنى بالمعاصرين الكبار من أمثال سترافنسكى وبروكوفيف وشوستاكوفتش وهونيجر وروسل وفون ويليامز وبارطوك وكوداى وانيسكو وداريوس فيلو .

ومن مظاهر الجديد ، الأغنية الاعلانية التى عبرت عن السرعة والخفة ، والتى تشكل الآن ظاهرة فنية تعجب الناس وتطرفهم ... ومن الظاهرات الجديدة عملية ربط الدين بالفن تمثيلا وتصويرا واخراجا وانشادا وتنغيما ومن هذا حلقات التليفزيون عن أسماء الله الحسنى بما يمكن أن يعتبر أوبريت ريفية .. ومن هذا ما حاولته فرقة طنطا من اجتذاب الشيخ النقشبندى لمصاحبة لوحاتها ورقصاتها التعبيرية بالانشاد .

أم كلثوم بين الأمس واليوم :

ولكن أم كلثوم على الرغم من ارتفاع الدعوة الى الجديد تتمتع بأكبر جمهور مستمعين عرفه الغناء الى يومنا هذا . كانت أم كلثوم فى أول طريق المجد لم تخط منه غير بضع خطوات . وكتب محرر الكشكول بالعدد ٥٧ الصادر فى ١٨ يونية سنة ١٩٢٢ يقول تحت عنوان (ارادة الشعب وأم كلثوم) .

« لم تتهيأ لى فرصة أستمع فيها صوت الآنسة أم كلثوم التى كثر الاعلان عنها وتحدث الناس بها الى أن كانت ليلة السبت الماضية وعلمت أنها تغنى الناس أو على الأصح تنشدهم فى تياترو برنتانيا تلك الليلة . فشخصت اليه فى رفقة من صحبى . وبعد الجهد أصبنا لوجا فى الطبقة الثانية ، اذ كان التياترو كله قد غص بالناس على اختلاف طبقاتهم . وقد

أجلت طرفي وسرحته طويلا فى جميع أقطار المكان فلم أجد ثم كرسيا واحدا خاليا .

واندفعت أم كلثوم تغنى فكانت رائعة الصوت ، بارعة الصنعة ، حسنة الالقاء ، بديعة الاشارة ، لطيفة الايماءة تجتهد بكلها فى أن ترضى الناس وتدخل السرور على البابهم . ولقد كان لها من هذا ماارادت » .

وكتب الأستاذ حماد فى مجلة الناقد سنة ١٩٢٧ يقول :

« تقف للغناء أمام الجمع الملتئم فلا تزال كل جارحة فيها تشعرك بقلق وحركة دائمين كأنها تتصل بأسلاك الكهرباء أو كأنها ريشة في مهب الرياح . وما هو الا أن تستجمع قواها وتبادل الجمهور التحية حتى تبدأ غناءها في نغمة رقيقة تنساب في هدوء كمجرى النهر العذب ، وما تكاد تملك زمام الجمع المنصت حتى تعلو رويدا رويدا فى أنغامها وأنت تلمس ما وراء تلك الضلوع من الثورة المكتومة ، فاذا تملكها الانفعال وجاشت الألحان تعترك فى قرارة نفسها أرسلتها رنينا عاليا فيعم الجميع الشجو والطرب فيثور هو أيضا .

وصوتها عذب ينساب فى رقة النسيم . وهى ترسله على حريته وما أخالك الا مقدرا ما فى الحرية من جمال وما لها من سحر ! ثم انها لا تلزم نفسها بكثير أو قليل من القواعد والقيود ، بل تكاد تساير طبيعتها التى نشأت على أتم معانى الحرية وأوسع حدودها يوم كانت تمرح فى فضاء الله متنقلة بين المزارع ووسط مناظر ريف مصر البهيجة » .

وكتبت الكواكب سنة ١٩٣٢ تقول :

« أخذت عن أبى العلا الكثير من أصول الفن وقواعده ولم يكن ينقصها الصوت الموسيقى فجمعت بين الفن فى أحكم مواضعه وجمال الصوت فى سحره وعذوبته .

وانتقلت بعد ذلك من دور الانشاد الى دولة الغناء على التخت . وساعدها أن وجدت فى القصبجى خير ملحن يخرج لها أدوارها فاستمعنا من لذيذ النغم ما حببها الى نفس الجمهور . ثم رددت الاسطوانات حلو ذلك الغناء . وانتشرت فى كافة بقاع مصر والشرق . ولاقت رواجا كان فى ذاته اعترافا بما لها من المنزلة ، وما لصوتها من السحر والأثر . ولم يقعدها ما وصلت اليه من نجاح منقطع النظير عن متابعة جهودها

ودرســـها ، بل ظلت ولا تزال تدأب على الاستزادة لتروى الجمهـــور المتعطش •

ولأم كلثوم ميزة تمتاز بها عن غيرها ، تلك هى حسن اختيار الأدوار التى تلائم الوسط الذى تغنى فيه • فقد رأيناها فى حفلة المؤتمر الشرقى للموسيقى العربية فى حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك تغنى قصيدة :

أفديــه ان حفظ الهوى أو ضيعا   ملك الفؤاد فما عسى أن أصنعا

كما شاهدناها مرة وقد جلس يستمع اليها لفيف من شيوخ الأدب العربى تهز أوتار قلوبهم بنغماتها الجميلة حين غنتهم :

عارضــا بى ركب الحجــاز أســا   ئله متى عهده بســكان جمـع
واستعيدا حديث من سكن الخيف   ولا تكتبـــاه الا بـدمعى
فاتنى أن أرى الديــار بعينى   فلعــلى أرى الديار بســمعى

حتى اذا جمعتها الفرصة بالشباب سمعتها تصدح : « ان حالى فى هواها عجب » واذا اختلت بالجنس اللطيف آثرت أن تنشد « اللى حبــك يا هناه) • وفى الحفلات العامة تؤلف بين هذا كله لتروى كل طائـــفة بما يناسبها •• فهى كالطير الذى يحسن الهبوط على مختلف الغصون •

ومن أهم مظاهرها تمسكها الشديد بما يلقى عليها من نغم • فاذا أخذت عن المرحوم الشيخ أبى العلا مثلا طريقة ما لالقاء قصيدة من القصائد فانها خير من يخرج بها على الجمهور ، وكأنك تسمع أبا العلاء من خلف ذلك الغصن الرطيب •

ولا بد أن نشير هنا الى الحفلة التكريمية التى أقامها معهد الموسيقى الشرقى أخيرا للآنسة أم كلثوم لنبوغها الذى تمثل فى أروع صـــــورة وأبهاها فى مؤتمر الموسيقى الشرقية الذى رفعت أم كلثوم بحق رأس مصر فيه وحازت اعجاب أعضائه ورضاء جلالة الملك وثناءه العالى » •

هذه الاشادة بها من الصحف كانت كما وضحت فيما بعد بين سنة ١٩٢٢ وسنة ١٩٣٢ أى فى العشر سنوات الاولى من ظهورها ، فاذا كانت أم كلثوم سنة ١٩٢٢ يحتاج الساعى اليها أن يجيل طرفه ويسرحــــه طويلا فى جميع أقطار المكان فلا يجد كرسيا واحدا خاليا ، فما بالك بجمهور أم كلثوم وهى فى أوج المجد ؟

ما بالك .. بجمهور الهمزية . ونهج البردة .. وعرفات .... والرباعيات ؟

وأنا لا أقصد هنا جمهورها فى مصر وهو كبير ، ولكنى أقصد ما وراء حدودنا أيضا .. كنت أسمع أثناء دراستى بالجامعة زملاء لى من مختلف الأقطار العربية يروون قصصا شائقا عن حفاوة مواطنيهم عبر الحدود بليالى أم كلثوم . كان أحدهم وهو عراقى يروى عن مواطن له أنه كان يوم الخميس من أول كل شهر وهو اليوم الذى تذيع فيه مصر على موجات الأثير صوت أم كلثوم كان هذا الجار العراقى يولم لأهله وأصدقائه وينثر فى داره الورد كأنه فى يوم العيد . وكان زميل حجازى يروى لنا أن الحكومة عندهم تحرم السماع الى المذياع عند الغناء الا فى أغانى أم كلثوم . وهناك يتنادى مواطنوه فى ليلة اذاعتها (الليلة الست) كما تتبادل البشريات .

* * *

أما فى مصر فانك ترى فى يوم الخميس من أول الشهر قومنا يعيشون فى دنياها من مطلع النهار . فهذا يدعو صديقه الى سماعها فى بيته ... وذلك يسأل زميله أين تسمع أم كلثوم ، ويتصايح العامة متخاطبين على بعد (الليلة سومه) ، وتطلع علينا الصحف بأن شخصا استطاع بجهاز تسجيل أن يحدد الوقت الذى قطعته فى غناء (أتقلب على جمر النار ، واتشرد ويا الأفكار ..) .

حين كنت طالبة بالجامعة سمعت عامل التذاكر بالترام يذكر اسمها فى حديث له مع السائق ـ وكان موعد حفلة لها ستذاع . فاستبحت لنفسى وقتئذ أن أسمع لأدرس شعور الناس نحوها .. فهل تعرف مضمون الحديث ؟ كان عامل التذاكر يحدث السائق أنه اتفق منذ الصباح مع زميل له على أن يكون دوره فى العمل نهارا ويحل الآخر محله ليلا حتى يتسنى له أن يسمع أم كلثوم .

وكثيرا ما تسمع هذا الشعب يهتف لجميل الصوت رجلا كان أو امرأة « يا سومه » كان هذا الاسم أصبح علما عنده على الجمال وبلوغ التمام فيه .

وحين درس الدكتور سيد عويس ظاهرة اجتماعية هي ظاهرة الكتابة على هياكل السيارات واللوريات والعربات ، فى المجتمع المصرى المعاصر باعتبارها احدى وسائل التعبير عند الصامتين من أعضاء هذا المجتمع ، ويكون مضمونها الثقافى جزءا من المناخ الاجتماعى الثقافى له يؤثر فى نفوس أعضائه ، ويؤثر على اتجاهاتهم نحو الحياة ·· حين درس الدكتور عويس هذه الظاهرة أسفرت الدراسة التى ضمنها كتابه (هتاف الصامتين) أو أسفر الاحصاء عن (أن نصيب أم كلثوم من عبارات الأغانى الحديثة أكبر نصيب ، اذ بلغ عدد هذه العبارات ٤٨ عبارة من ٩٤ عبارة ·

ويطيب لى عندما أحضر حفلة من حفلات أم كلثوم أن أتوسم وجوه الحاضرين وخاصة أصحاب المقاعد الأخيرة · فترى بينهم الوجوه السمر التى لوحتها شمس الصعيد الاعلى كما ترى بينهم وجوها شاحبة وعيونا فترت نظراتها من طول ما يكابد الجسم كله من جوع وارهاق · وترى بينهم متواضع الثياب · وكل هؤلاء فى أمس الحاجة الى الثمن الذى دفعوه لقاء الدخول الى ساحة أم كلثوم · فما الذى حدا بهم الى البذل وبهم خصاصة ·

ان هؤلاء البسطاء مظهرا ، العظماء نفسا وروحا يؤمنون بغذاء الروح ويؤثرونه على غذاء الجسم الضارع المحتاج الى الغذاء ·· انهم يريدون أن يهربوا من دنياهم وينسوا ولو قليلا واقعهم المرير · وعندما يجدون المهرب، لديها ينشدون السلوى والعزاء ·· بل ان صوتها يبدل شقاءهم نعيما وحسراتهم آهات مرحة سعيدة ·

وتنظر الى الوجوه الشقية التى غاض فيها الابتسام ، وقد شرعت أم كلثوم فى الغناء ، فاذا بالابتسام النافر يعود الى الوجوه الكادحة فتشرق ويذهب عنها رهق العمل المضنى · وتتجلى أم كلثوم فتلمع العيون الذابلة ، وتشرئب الأعناق الكليلة وتدوى الأكف المشفقة قبل الناعمة بالتصفيق ·

وفى احدى حفلات أم كلثوم رأيت واحدا من مستمعيها لا يهلل ولا يصفق ولا يتكلم ولكنه يبكى بدموع صامتة من شجاه ·

* * *

ولا يغيب عن أم كلثوم هذا كله فتتفانى فى البذل وتمعن فى الاجادة· كتب عنها الأستاذ الشاعر أحمد رامى يقول :

(رأيتها تغنى ذات ليلة وعلى وجهها مسحة الاعياء ، وفى صوتها نبرة الوهن ، وأسرعت فى فترة الاستراحة أطمئن عليها فوجدت طبيبها يقول « كفاك الليلة غناء » وهى تقول « لا يسرنى أن يهرع الناس الى من كل صوب ثم أحرمهم متعة سماعى » . ورأيت الطبيب يعد لها حقنة تعينها على الوقوف ساعة وهى تشكو ألمها غناء عذبا وطربا فياضا) .

بماذا نعلل وفاء أم كلثوم لمستمعيها ؟ قد يؤول البعض محاولتها ارضاء الجمهور سنة ١٩٢٢ وما بعدها بأنها كانت فى بداية الطريق تطمح الى الشهرة وتسعى الى خلق جمهور تنم كثرته على نجاحها ... ولكنها وقد دانت لها الشهرة وتسنمت من المجد الفنى شامخ الذرى لماذا تتحامل على صحتها وتستعين على الجهد المضنى بحقنة الطبيب ؟

لا شيء غير علمها أن من بين مستمعيها من يفدون اليها من بلاد بعيدة ومنهم المتحامل على صحته أيضا ولكنه يسعى الى حفلتها حتى لا يفوته سماعها . ومنهم .. من يدل حضوره على المغالاة بفنها والكريم يأسره التقدير . وهذا هو سر اكرام أم كلثوم لمستمعيها وبذلها لهم فى حين ترفض الألوف اذا لم يصادف العرض هوى فى نفسها وضميرها .. وقد روت لى أم كلثوم أن الموسيقى العظيم (شوبان) عزف لشحاذ لمس تقديره العميق لفنه بينما رفض أن يعزف للقيصر وهو يأكل .

***

وجمهور أم كلثوم ككل شيء قد تطور مع الأيام ، وربا عدده أضعافا وتباين جنسا وثقافة ومشربا . فى حفلة أم كلثوم اليوم ترى غير المصريين أبناء الاقطار الشقيقة كما ترى فى جمهورها اليوم الأدباء خاصة والعلماء وحكاما ومحكومين . وعديدا من السيدات حين كان جمهورها فى أول ظهورها يخلو منهن وفقا لمقتضيات الحجاب وقتئذ . فلم يكن صوتها يصل اليهن الا عن طريق الاسطوانات .

وجمهور أم كلثوم فى جملته مصقول رفيع المستوى ذواق . وان ما يحدث من تهريج أحيانا فبعضه يعزى الى طبيعة أصحابه اذا طربوا . وبعضه يصدر من أناس لم يؤهلهم لدخول حفلتها غير قدرتهم على شراء أماكنهم وهم بعد هذا عاطلون من كل ما يهذب المشاعر ويسمو بالاحساس

وهؤلاء لا يخلو منهم مجتمع عام ولا حيلة فى التخلص منهم ما دام المال ـ وهم يملكونه ـ جواز المرور .

وفهم نفسية الجمهور وهواه ليس بالجديد على أم كلثوم فقد غطت الريف طفلة بالموشحات والمدائح النبوية . وعاشت فى العاصمة فغنت الطقطوقة وأحست ارتفاع مستوى الشعب بارتفاع مستوى التعليم فيه فغنت القصيدة الجزلة .

* * *

وتغنى أم كلثوم فتتسابق عدسات الصحف الى تصويرها فى لفتاتها وتعبيرات وجهها وفيها من البلاغة ألوان . ولا تخبو هذه اللهفة من الصحافة مهما توالت الحفلات وكثر عددها .. والصحف بهذا لا تخدم أم كلثوم فليست فى حاجة الى الاعلان أو المزيد من الشهرة ،ولكنها تخدم نفسها فهى تقدر سلفا تضاعف الاقبال عليها ما دام فيها لأم كلثوم ذكر أو خبر .

نشرت مجلة المصور سنة ١٩٤٨ أغرودة (غلبت أصالح فى روحى) مصورة أى تتبعت تعبير وجه أم كلثوم وهى تؤدى معانى الأغنية كما جالت العدسة بين مستمعى أم كلثوم ، وسجلت لبعضهم صورا فى نشوة الطرب . ثم عرضت الصور على الأستاذ الشاعر أحمد رامى فعلق عليها بأبيات تترجم مشاعر أصحابها . وبين يدى هذه الصفحات صور أم كلثوم

* * *

وغناء أم كلثوم فرح قومى . والدليل أن الحكومة فى الأحداث الوطنية التى يستشهد فيها من أبنائنا أبرار تتحرج محطة الاذاعة من اقامة حفلة أم كلثوم . فى حين تدع الآخرين والاخريات يغنون كالمعتاد ... وهذا اعتراف رسمى صريح بأن حفلة أم كلثوم مهرجان وفرح عام لايتناسب مع حزن الشعب على شهدائه .. أما الآخرون .. فدعهم يغنون .

وفى السنوات من ٦٥ الى السبعينات انضم الى قاعدتها الشعبية الكبيرة جمهور المراهقين الذى عرف عبد الوهاب بذكاء التاجر الطريق الى قلوبهم فى ألحانه التى وضعها لأم كلثوم وخاصة لحن (أمل حياتى)

أم كلثوم التى تعز عليهم فى ألحان رياض السنباطى المعمقة

كما تعز على الأداء من الآخرين فى قصائده ذات السمت الخاص ٠٠ ذات (المستوى) ٠

وهكذا أخذت الحان عبد الوهاب (ندنى) أم كلثوم من جمهور جديد وهى ظاهرة ان لم تغن فنيا فهى تغنى ماديا وهو كسب على أى حال ٠

يوفر عبد الوهاب فى ألحانه لأم كلثوم أكبر عدد من الجمل الراقصة ليعجب سامع الترويح أو التفاريح ٠ والأمثلة كثيرة ففى أغنية (انت الحب) مثلا معنى شجى حزين ولكنه فى لحن عبد الوهاب يرفل فى ثوب من الخرز والترتر الملون كأثواب الرقص الشرقى وأنا أقصد :

تجرى دموعى وانت هاجرنى ولا ناسينى ولا فاكرنى ٠

ومعنى آخر فى الأغنية نفسها يشترك فى حلبة الرقص وهو حائر:

لـــكن غـــرامك حـــيرنى وليـــل بعـــادك ســـهرنى

ان عبد الوهاب بعد (انت عمرى) استسلم كما يقول كمال النجمى (للصيغة الخطابية فى التلحين لأم كلثوم وللايقاع الذى يفصل معنى الكلام عن معنى اللحن ٠٠ وبلغ فى ذلك مرحلة لم تخطر على بال أحد فان عبد الوهاب هو أول من جعل « الطبـلة » تدق منفردة دقا راقصا عنيفا « على واحدة ونص » وهو أسلوب فى التلحين لا داعى له اطلاقا فى اغانى أم كلثوم التى يجب أن تنعطف الآن نحو التطور ٠٠ بدلا من هذه « الفانتازيا » الموسيقية التى لاندرى لها مبررا فنيا ٠٠) ٠

ولكن السنباطى هو المكمل الطبيعى لأم كلثوم ٠ انهما مدرسة واحدة ــ مدرسة الموسيقى الشرقية ، وبلد واحد أعنى منطقة واحدة هى محافظة (الدقهلية) ونشأة واحدة على طريقين ٠

بلاغة اللحن أى وفاؤه بمعنى الألفاظ تجدها ، وكثيرا ما تكون متألقة ، عند السنباطى والقصبجى وزكريا ٠

لقد عاشت أم كلثوم الألحان وملحنيها واحدا بعد واحد ، ومثلهم أصحاب (الكلمة الحلوة) ٠ ويمضى الذاهبون منهم بل تكر الأجيال على امتداد خمسين عاما وهى هى لا تنضب بل كانت تزداد نضجا ويزداد صوتها كالعود طيبا ويزداد الضوء حولها ألقا وهذا سرها ٠٠ وحدها ٠

انها فلاحة مصرية ٠٠ من طبيعة هذا الوادى ٠٠ هذه الأرض الطيبة الفذة الخصوبة التى تطلع نبتا بعد نبت وغلة بعد غلة لا يحتجب عطاؤها ولا يضن رفدها ولا ينضب لها معين ٠

فلاحة مصرية من ذلك الطراز الذى صنع نفسه وصنع تاريخنا معه كرفاعة الطهطاوى والعقاد وطه حسين والزيات وأحمد أمين وأمين الخولى والشيخ محمد عبده وسعد زغلول ٠

كل هؤلاء نبتوا فى الريف وضربت جذورهم فى أعماق تربته فاستمدت منها صفاتها الأصلية من عطاء موصول وخصب فذ وقدرة على الامتصاص والبقاء ٠

ان منبتهم الريفى المتواضع أمدهم بطاقة الفلاح المصرى على الجلد وقدرته على الصبر وصبره على الصعب ، وتصوفه فى العمل ٠

من هذا المعدن النفيس الذى يزخر به منجم مصر صاغ الله أم كلثوم ٠

وبعد هذا تتساءل جريدة (العلم) المغربية (١) ويتساءل كاتبها : هذه السيدة من هى ؟

(ماذا فى صوتها يغيبنا عن أرضنا ، عن شعورنا ، عن كل همومنا٠٠ ماذا فى صوتها ينسينا واقعنا ويأخذنا الى عوالم أخرى بعيدة ٠

يقولون عنها انها أكبر مخدر للشعب العربى ٠٠ مائة مليون عربى

وفى الخميس الأول من كل شهر تتحول جميع مؤشرات الراديوهات فى كل العواصم العربية الى القاهرة وصوت العرب ٠

والآن أحول مؤشر الراديو بلا اتفاق سابق الى عشر اذاعات فأجد فى سبع منها صوت أم كلثوم ينطلق : هذه ليلتى ٠٠ ألف ليلة ٠٠ فكرونى ٠٠ الأطلال ٠٠ هجرتك ٠٠ بعيد عنك ٠٠ سيرة الحب ٠

هذه السيدة الظاهرة هل كتب علينا أن نظل سجناء لها فلانستمع الا اليها ، ولا نعجب الا بها ، وحول مقامها الكبير تتساقط كل الأصوات الصاعدة ، كل الأصوات التى كانت واعدة بعطاء جيد ؟

---

(١) العدد الصادر ١٩٦٩/٤/٨ كتب المقال الاستاذ عبد الجبار السحيمى ٠

انها فى رأيى ، ما كانت لتكون كما هى ، بمقوماتها الآن ، لووجدت فى غير مصر بالذات ، وفى غير الوطن العربى بعد ذلك) .

ومضى الكاتب بعد هذا يقيم الدليل بل يسوق الأدلة الواحد تلو الآخر .

(ففى فرنسا ، أو نجلترا ، أو أمريكا ، هناك مستمع له وعى آخر ، له عوامل أخرى تؤثر فى ذوقه وتقبله للأشـــياء . وفى أمّريكا مثلا ، حيث الانسان يأكل غذاءه وهو سائر فى الطريق ، ربما للوقت ، لن تجد أم كلثوم مستمعا واحدا يسهر معها فى أغنية تستغرق ساعة وبعض الساعة . وفى أى منطقة من أوربا ، حيث الأغنية ذات الدقيقتين هى الشعار ، وحيث لا يفهم الفن الكبير الا بقدر ما ينتمى الى أصـول كلاسيكية وقواعد ، لن تنجح أم كلثوم الا داخل عمل أوبرالى .

يعنى ذلك أن أم كلثوم نجحت لأنها خلقت فى تربة صالحة ، يعنى أنها نجحت بنا أكثر مما نجحت بنفسها) .

يحسن بنا أن نتوقف هنا أولا لنناقش هذه النقطة . ان أوربا وأمريكا شىء ، ونحن شىء آخر وسيظل الشرق شرقا والغرب غربا لكل بيئة ولكل قوم ذوقهم وطابعهـــم . ولا يعنى هذا تفضيل أحـد عـــلى الآخر ، ولكنه يعنى أن الطبائع تختلف باختــــلاف البيئات . والخير فى هذا الاختلاف .

ثم ان أم كلثوم خامة كبيرة للنجـــاح فى أى مكان . فقـد أشرت فى موضع سابق أن صوت أم كلثوم بما يضمه من مقامات لو هيىء تهيئة غربية لنجحت فى الأوبرا والأوبريت نجاحها الآن فى الغناء الشرقى .

اذن أم كلثوم كانت ستفرض وجودها فى أى صورة شكلت ، وفى أى مكان وجدت .

لن يستطيع أهل الأرض قاطبة أن يخلقوا من الفشل نجاحــــا ومن الخامل الخامد غير القابل للتضوؤ واللمعان شيئا براقا .. قصارى ما تفعله البيئة أن تصقل (الموهبة) التى لا بد أن تكون موجودة أصلا .. وتعينها على الظهور . وتمد لها فى النماء بالعون الصادق والتقدير

المسعد ٠٠ أما اذا لم تمنح السماء الموهبة أصـــلا فلا تستطيع الأرض وأهلها خلقها ولو اجتمعوا له ٠

اذن أم كلثوم كانت ستنجح في غير تربتنا لو وجدت بها ٠٠٠ وأم كلثوم **نجحت بنفسها أولا** لا كما يقول الكاتب نجحت بنـا أكثر ٠٠ والا فلماذا لم ينجح غيرها بنا ؟ مرة أخرى أقول لقد ذكرت فى موضـع سابق أن هناك أصواتا غيرها ، جميلة ولكنها لم تصمد ما صمدتـه أم كلثوم ٠ اذن المسألة ليست الصوت الجميل ثم لا شيء بعده أو لاشيء معه ٠٠ **وأم كلثوم صـــوت وفن أداء والقاء وصبر وجلد واحســـاس كامل بالمســـئولية وتصوف في العمل ورغبة حميمة فى التجويد ٠٠٠** أم كلثوم التى ترهبت شطرا كبيرا من عمرها وفاء لهـــذه المعـــانى ووفاء بها ٠

حتى لو لم يكن عمل أم كلثوم الا أعطاءنا ما نريده كما يقـــول الكاتب فهو فضل لها وذكاء منها ٠

يقول الكاتب (فنحن كشعب عربى عاطفيون الى درجة السخافة أحيانا ٠ ومن هذه الناحية ، فقد غزتنا أم كلثوم جيدا لأنها ما أعطت شيئا من نفسها ، بل أعطت لنا ما نريده نحن أو ما يمكن أن نتقبله بالأحرى ٠

ونحن كشعبعربى ، مثقلون بالهزائم والنكسات على مستوى تاريخى عام ، وعلى مستوى فردى : الاستعمار الطويل ، الحكم الغريب عن الشعب فى عدد من أوطاننا العربية ، سقوط بغداد هارون الرشيد ، سقوط الأندلس ، المؤامرة على فلسطين ، آنعدام كرامة الانسان تحت ضغط الحاجة المستمرة ، قيام الاقطاعيات وانسحاق الفئة الكبيرة من الشـــعب ٠٠ كل ذلك وغـيره كثير ، جعلنا نتقبل أم كلثوم ، فى عملية هروب مع ســـبق الاصرار من واقعنـــا المرير ، وغيبة فى متاهات حلم تنقذنا ، ساعة وبعض الساعة ، من الهزيمة النفسية ومن عدم القـدرة على تغيير الواقع أو الثورة عليه) ٠

اذن هى منطقة الضوء فى ليلنا الحالك ٠

ثم لماذا لم نهرب عند غيرها من النساء أو الرجال ؟

ولماذا نلتف حولها كما لم نلتف من قبل ، **بعد زوال الاقطاعيات ؟** وفى الانتصارات ، كالهزائم سواء بسواء ؟

أما مسألة الهروب التى يثيرها الكاتب ٠٠**ان وسائل الهروب كثيرة فلماذا أم كلثوم بالذات ؟**

وأم كلثوم مرة فى الشهر فماذا يصنع الهاربون أو المتهربون بقية الشهر ؟ واذا كان الهروب ساعة او بضع ساعات فماذا فى بقية اليوم ؟ ٠ ألست ترى معى أن المسألة أكبر من هذا وأعمق من هذا السطح ؟

(ثم نحن – من قول الكاتب – شعب عاش عمره الطويل يخاف من الحب ، ويعتبر حديث الحب حراما ، وقد أهدرت دماء العدد الكبير من الشعراء لأنهم تغزلوا فى الحبيبات ومنعت ليلى عن قيس لأنه (فضحها) فى قصيدة حب ٠ وفى كثير من جهات وطننا العربى ، ما زال هذا « الحب » غولا مخيفا واذن ٠٠ فالانسان العربى الذى يعيش محروما من امكان الاعلان عن حبه ٠٠ هذا الانسان المكبوت قد وجد فى أغانى أم كلثوم رسائل مفتوحة تنطق باسمه لتقول ما يخشى أن يقوله ٠٠ وما لا يستطيع أن يقوله !) ٠

وأريد أن أسائل الكاتب : ماذا يقول المطربون الآخرون ؟ هل ينشدون الأذكار ؟ كل من غنى عد النجوم وأوقد الأشواق حتى ضاق بيرم وقال مقطوعته الساخرة :

يا أهل المغنى دماغنا وجعنا دقيقة سكوت لله ٠

فلماذا لم يذهب الانسان المكبوت الى غير أم كلثوم ؟

* * *

ثم ان هذا العصر به عشرات ومئات من دواوين الغزل. **لماذا لم يلتمس العشاق متنفسا عند الشعراء بدلا من أم كلثوم**.٠٠ ان أى ديوان أرخص من تذكرة حفلة أم كلثوم ٠

وهل الشعب الايطالى مكبوت أيضا والحب عنده حرام حتى نبغ فيه فنانه المشهور كروزو ؟

ومن حديث الكاتب :

(ولأمر ما تلتقى فى بلادنا العربية ظاهرتان : **الاعجاب المدهش الغريب بأم كلثوم** ، **والاقبال على الحشيش والمخدرات بكل أنواعها** ٠٠ مع ملاحظة التأثير الواحد الذى تحدثه أم كلثوم والمخدرات : **الغيبوبة** !)٠

أولا أم كلثوم لا تحدث غيبوبة **بل تحدث يقظة ٠٠ يقظة احساس ٠٠** هل أحدثت أم كلثوم غيبوبة عندما قالت :

وما نيــــل المطــــالب بالتمنى ولكن تؤخــــذ الدنيــــا غلابا

ثم المخدرات التى يشير اليها الكاتب ٠٠ ان البلاد **التى تزرعها تفعل** ذلك **قبل** أم كلثوم ٠٠ وانما تروجها فى حفلات أم كلثوم باعتبارهــــا فرحة ومهرجان ٠

ان التاجر يرى فى كل شىء سوقا فماذنب الفن ؟

ومن حديث الكاتب الذى يلبس ثوب الجد **ويصطنع أســــلوب** المنطق فيأخذ العين فى بادىء الأمر حتى اذا تفحصته بدا لها غريبا ٠٠٠

يقول الكاتب : (ولأمر ما ، أيضا ، تلتقى فى بلادنا العربية ظاهرتان عبادة الأشخاص وتأليههم والقبول التلقائى لأم كلثوم كشــــخص هو ٠٠ « معبود الجماهير » كما تقول الوسائل الاعلامية) ٠

ان الوسائل الاعلامية كما يعلم الكاتب علم اليقين تحيط أشخاصا كثيرين بهالات وتسبح بحمدهم ليلا ونهــارا ولكنهم **لم يبلغوا ولن يبلغوا** من نفوس شعوبهم الخاصة ما بلغته أم كلثوم من نفوس شعبها الخــاص والشعب العربى العام ٠


الغروب

غنت أم كلثوم حفل يناير سنة ١٩٧٣ ·· وبكت فجأة على المسرح وهى تغنى فبكى خلق كثير ، لبكائها ، لا لأنه حفل الوداع ·

وجاء الخميس الأول من فبراير سنة ١٩٧٣ وهو اليوم الأول أيضا وبدأت الاستعدادات · وفجأة ، انتهت الاستعدادات · فقد ألغت (الست) الحفل ·

وأخذت الاذاعة تعلن عن تأجيله وأصحاب التذاكر يحرصون عليها حتى جاء يوم أعلنت الاذاعة أن الحفل تأجل الى أجل غير مسمى · ومع هذا ، ظل أصحاب التذاكر متشبثين بها فلن تغيب عنهم أم كلثوم ·ولكنها غابت فى الخارج للعلاج ، وفى الداخل للاســـتجمام بلغة المتفائلين ، وللمرض أو رهقه بلغة الحقيقة ·

وقال الأطباء فى الخارج ان كليتها تفرز الملح أولا بأول فلا يبقى منه للجسم ما يحتاج اليه ·· والعمل · ايه العمل كما تقول على المسرح · العمل أو العلاج أن تشرب ملحا باستمرار هى التى تسقى الناس الشهد المصفى ·

شمس الأصيل :

وهذا التوقيت يعنى أنها كانت فى الرابعة والسبعين من عمرها اذ كان مولدها ٣٠ ديسمبر سنة ١٨٩٨ كما زعم البعض ٠ أو كانت على مشارف السبعين اذا اعتبرنا ميلادها سنة ١٩٠٤ كما تقول شهادة الميلاد ٠

اذن استطاعت أم كلثوم أن تغنى بكل هذا الاقتدار والجمال والجلال الى ما فوق السبعين أو دونها وهو شيء خارق حقا ٠

واستطاعت فى هذه السن المرتفعة التى لا تعين على الحياة اليومية العادية بله الغناء الذى يستأدى صاحبه الكثير من عافية القلب والجسم ٠٠ استطاعت أم كلثوم فى هذه السن المعجزة أن تكون معجزة ٠٠ وأن تخمل كل صوت يعشو الى سنا ضوئها ٠ والى ضوء سناها ٠

وكان صباح ٠

التاريخ ١٩٧٥/١/٢٢ ٠

عمودان وكاتبان فى صحيفة الأخبار يشيدان بأم كلثوم اشادة تعتصر ٠ قال أحدهما وهو الأستاذ أنيس منصور ٠

(وحشتنا أم كلثوم ٠٠ هذه الأبهة والفخامة والدلال والسمو ٠٠٠ هذه السيدة التى تقف باعتزاز وتتجه اليها الرءوس وتغمض العيون وتستسلم الآذان ٠٠ وتقول ما يحلو لها ٠٠ فلا قال قبلها أحد ٠٠ انها فريدة الغناء والأداء ومن خمسين عاما ولمئات الأعوام القادمة ٠٠

ماذا بقى تراه أو تسمعه الآن ؟

خيبة أمل من كل نوع وحجم ولون٠٠٠ فالتى تستطيع أن تقول جملة واحدة تجد من يقول لها : يا ست ٠٠ والتى تستطيع أن تهتز لتقول جملة ونصفا أو جملتين تجد من يقول لها : يا عظمة على عظمة ٠

الناس يريدون أن يجدوا البديل أو التعويض ويبسطون انفسهم بانفسهم ــ ويتوهمون أو يريدون أن يتوهموا أنهم ما يزالون فى حفلات أم كلثوم ٠

وبعد أم كلثوم من الأصوات المصرية : نجاة ومها وأحيانا شادية.. وأصوات أخرى صغيرة بين الأغنية والمونولوج والرقص . وآمالنا أن تنمو وتكبر هذه المواهب التى تظهر على استحياء فى برامج الاذاعة .

ولولا فايزة أحمد السورية ،وسعاد محمد اللبنانية ووردة الجزائرية وعليا التونسية ما وجد الناس أحدا يستمعون اليه فى مصر هذه الأيام. وسوف يؤدى ارهاب الناس وارهاقهم بالتكرار الممل الى الفرار من هـذه الأصوات . وليت الناس يقومون ويديرون بأيديهم الراديو ويستمعون الى أم كلثوم .

أنا أفعل ذلك وكثيرون غيرى .

ومنذ يومين استمعت الى أغنية « رق الحبيب » تلحين محمدالقصبجى وقبلها استمعت الى « ولد الهدى » تلحين سيد الملحنين رياض السنباطى، فمـا الذى لا تستطيعه أم كلثوم . وما الذى تستطيعه أية مطربة معاصرة اذا ما قورنت بأم كلثوم .. لا قوة الصوت ، ولا طوله ولا عرضه ولا جماله ولا سهولة الأداء ولا طول النفس .. ولا حلاوة كل حـرف وكل كلمة .. انها منجم من الذهب اللامع الذى لا يصدأ ومنجم من الفضـة المضيئة الخاطفة للأذن والعين .. وهى سرب من الطيور الرقيقة ترفرف على كل قلب .. وتروح وتجىء .. من المحيط الى الخليج .. بل حـول الكرة الأرضية .. استقرت واستمرت وسوف تبقى فى كل بيت .. انها جزء من تاريخ الحب والكرامة والعزة والقومية لكل عربى .. فمن الذى اذا خفق قلبه لم يسترجع صوت أم كلثوم .. ومن الذى اذا أظلمت الدنيا حوله وفى داخله لم يجد فى أذنه جملة أم كلثوم .. وكأنها السحر ، أو هى الساحر نفسه .. ينفرج كل شىء ويهون وتحلو الدنيا لأن أم كلثوم طبيب قلبه .. من نوع خاص .. انها على رأس جيش من الجمـال والجلال والدلال : جيش وحداته أجمل الكلام وأحلى الأنغام .. جيش عنده خطة واضحة : أن يجعل للدنيا طعما يحببك فى الدنيا والدين والوطن والفن وأم كلثوم !) .

واستشعر القارىء شيئا خفيا .. احساسا غير مريح على الرغم من صدق وجمال القول عن أم كلثوم .. هذا الشىء الخفى ما لبث أن وضح

عند قراءة العمود الثانى الذى دق كاتبة ناقوس الخطر ٠٠ كتب الأستاذ على أمين :

(أحسست اليوم برغبة شديدة فى أن أصلى لأم كلثوم ٠

أحسست أنها فى حاجة الى دعائى ودعاء كل عربى سمعها ،وأحبها وعشق صوتها ٠٠٠

وكان فى امكانى أن أمسك سماعة التليفون ، وأطلب بيتهـــا لأسأل عن صحتها ٠٠ ولكنى شعرت أنها ليست فى حاجة الى ســـماع صوتى ، ولكنها فى حاجة لأن تسمع السماء دعائى ٠

يا رب !

لقد أعطيتنا أم كلثوم فلا تأخذها منا ٠٠ اتركها لنا فترة أخرى ٠٠ جراحنا لا تزال مفتوحة ٠٠ قلوبنا لا تزال تقطر دما ٠٠ صوتها وحــده هو البلسم حينا ، وهو الترياق أحيانا ٠٠٠

يا رب !

أبقها للسعداء فى حبهم تضاعف سعادتهم ، وللأشقياء فى هواهم تخفف عذابهم ٠

يا رب !

ان صوتها كان يبكى فى أحزاننا ، وكان يزغرد فى أفراحنا ٠٠ وكان يدفئنا فى وحدتنا ٠٠ وكان يجعل ليلة واحدة فى الشهر أحلى من الشهر كله ٠

يا رب !

نحن على موعد قريب من النصر الكامل ٠٠ اتركها لنا حتى تعلن بصـــوتها الملائكى انتصـــاراتنا ٠ لقد انتصرت أم كلثوم فى كل معركة دخلتها !

يا رب !

انصرها فى هذه المعركة ٠٠ فهذه هى معركتها الأخيرة

يارب !)

وملأت أم كلثوم الأيام والساعات منذ قرأ الناس العمودين ... لا هم لأحد الا أم كلثوم .. وفى الوقت نفسه وجدت الاشاعة جـــوا تفقس فيه وتفرخ فيزداد الناس اضطرابا .

وكان صباح .

التاريخ ١٩٧٥/١/٢٤ .

الأنباء فى الصحيفتين الكبيرتين تضع صحة أم كلثوم فى صدرهـا وصدارتها .

الأخبار تحمل عنوانا كبيرا (اطمئنوا تحسنت صحة أم كلثوم) .

الأهرام ينشر تقريرا طبيا كاملا عن مرض أم كلثوم . ولم يحدث أن نشرت الصحف تقريرا طبيا عن صحة مريض فنانا أو وزيرا أو كبيرا .

رئيس الجمهورية من مصر .

والأمير عبد الله الفيصل من السعودية يتابعان صحة أم كلثوم .

القصر الجمهورى بتونس

والقصر الملكى بالرباط .

والقصر الكويتى .

وسائر أنحاء الوطن العربى .

وأرسل أهل قريتها طماى الزهايرة اليها هذه البرقية :

الست أم كلثوم

شارع أبو الفدا بالزمالك .

(اخوتك وأحبابك .. أهالى طماى الزهـــايرة مركز السنبلاوين يطلبون من الله أن يتم شفاءك .. وأن يسعدك بالصحة دائمـــا .... يا ست الكل) .

وتلقت مصر آلاف البرقيات والمكالمات من الداخل والخارج تستفسر . وتلقت وكالات الأنباء آلاف الاستفسارات تطمئن .

وتلقى بيت أم كلثوم آلاف الورود تعبر عن أماني الشفاء ·

وهكذا كل يوم

وما أجمل تعبير التليفزيون المصرى حين قال : (لم يكن يعالج أم كلثوم عشرون طبيبا فقط بل ان الملايين وضعت أذنها مع سماعة الأطباء على قلب الغناء تسمع خفق أم كلثوم) ·

واستقرت قلوب ·

وقرت عيون ·

زال الشر عنها ·

عن أم كلثوم ·

ومضى يوم ويومان والأنباء فى الصحف يوميا تزيد الاطمئنان ، اطمئنانا ·· وأعلنت الصحف أن مواطنين من أبناء الشعب تبرع كل منهما لها بكليته ··

كما أبدت حرم سفير عراقى سابق بالقاهرة استعدادها للتبرع بدمها لأم كلثوم · بل تبرع مواطن بمخه أى بحياته لأم كلثوم وأضاف أن زوجته مثله تتبرع بمخها لأم كلثوم ··· ماذا بقى عند هذا الشعب الوفى ليعطيه من أعطته كل شيء ؟

وسافرت بعض المجلات الى قريتها طماى الزهايرة لتكتب عنها من هناك معددة ما شاهدته من آثار برها بمسقط رأسها وأهل قريتها ·

وكان يوم الأربعاء أحسن الأيام بما حمل من بشائر تحسن صحتها وارتفاع روحها المعنوية ·· وعادت خفة الروح التى تسمى أم كلثوم تمارس هوايتها فى الفكاهة والتندر مع أطبائها ··

وجاء يوم الخميس من جديد فاذا بكل هذا ينهار ·· اذ داهمتها فى فجره أزمة صحية حادة على أثر ارتفاع شديد فى ضغط الدم أدى الى نزيف فى المخ مع تدهور فى الكليتين أدى الى مضاعفات القلب ، وتنقل الى مستشفى القوات المسلحة وتوضع تحت عناية مركزة وتتصل

الاذاعة السورية تليفونيا من دمشق بمستشفى المعادى للاستفســـــار عن صحة أم كلثوم وتطلب أن تتحدث مع زوجها وتسجل الحديثوتذيعه فور تمامه .

وصدرت صحف الجمعة منذرة بخطورة الحالة وتفاقمها .

وفى نشرة أخبار الساعة الثانية والنصف من يوم الجمعة قال المذيع أن نبضها عاد كما كان قبل الأزمة ولكن الحالة لا تزال خطيرة وأن الاطباء سيصدرون فى الساعة السابعة نشرة طبية أخرى .

ولأول مرة تذيع نشرة الأخبار تقريرا طبيا هو النشرة الحقيقيــة عند الناس .. كل الناس .

وفى صباح السبت تستهل نشرة السابعة بأنباء صحة أم كلثوم واتصال رئيس الدولة بالمستشفى للوقوف على نتائج العلاج .

وتردد على المستشفى الوزراء ورئيسهم وطافت الجماهير ببيتهـا تارة وبالمستشفى تارة أخرى وكأن كل مكان كانت فيه أو حلت به كعبـة ومزار .

وكان مساء .

انه الثالث من فبراير .

انفرط العقد وانفطر القلب

ذهبت .. لقد اختارت أكرم جوار .

وانضمت موجات الاذاعة فى موجة واحدة كما كانت تفعل فى حفلاتها ولكن .. لتذيع النبأ الفاجع .

وبكت مستشفى المعادى كما لم تبك من قبل على كثرة من ودعت من شباب وشيوخ .. وترك المرضى أسرتهم وجروا فى طرقات المستشفى لا يريدون أن يصدقوا وهم أقرب الناس الى المأساة التى تدور فى غرفة الانعاش .. حتى الأطباء الذين كانوا يعرفون اجهشـــوا بالبكاء وأغمى على احدى الممرضتين اللتين قامتا بتمريضها .

قطعت الاذاعات فى مصر ثم فى العالم أجمع جميع برامجهـــــا لتعلن النبأ الجسيم .. نعاها فى مصر وزير الثقافة باسم الفنانين والأدباء والمثقفين .. ولم يبق فى مصر والعالم العربى حاكم أو محكوم الا نعاها توالت برقيات الملوك والرؤساء والمجامع العلمية والفنية من العالم أجمع.

ورأت مصر أن تؤجل تشييعها يومين عندما رأت وفود البلاد العربية تتوالى منذ توالت النذر عن صحتها .

وســـيرت البلاد العربية خطوطا اضافية قبل اعلان النبأ بثلاثة أيام ...

أسعدتنا على اختلاف الأعمار والأجيال والمهن والظروف .. كانت سعد أيامنا وفرحة الليالى .. كانت تجمعنا وان اختلفت أمكنة وتعددت بلاد .. فلما عاقها المرض ، عقها الوفاء . وكان من حقها أن يحاط مرضها فى العامين الأخيرين باللهفة والاهتمام والحنان والتســـابق فى تكريمها والتنافس فيه . كان من حقها أن نملأ غيابها بالحضور .. وكان من حقنا وواجبنا معا أن نقدمها ومن حقها التقديم .. أن نقدم أنفسنا من خلالها .. ولكننا كنا بلهاء .. كنا ، بالذكاء ، أغبيـــــاء . وتألمت أم كلثوم من الجحود ، وهى التى أعطت بلا حدود . وهى التى وقفت والكل جلوس يستمعون ويهنأون .. شقيت والكل يرشف حبات عرقها رحيقا بسمعه ونفسه .. لم نعرف أن نقدم لها كرسيا ويقف منا واقف يقول لهـــا شكرا وعرفانا ..

وفى بداية المرض كان عزاؤها أنها فى وقفة واحدة تستعيد كل شىء ..

ولكن المرض طال .. ـ أكثر مما توقعنا على الأقل ـ والصمت من جانبنا طال .. وبكل الكبرياء لا تعتب لأن الذى ملأ ســـمع الزمان لا يذكر النسيان .

كانت تكتفى من وقت الى آخر أن توحى بالعودة لينقلب القياس المغلوط ، أو ينعدل الميزان المقلوب .. وكانت تعرف أن نوبة الكلى لا تعين ولكنها تريد أن تقول انها « أم كلثوم » . تشير فيعتدل كل شىء مائل ..

كما كانت على المسرح يكفى أن تصمت لحظة فيعم السكون من احساس الحاضرين بأن هناك خطأ وقع ٠

واحسسنا بهذا كله دفعة واحدة فكانت انتفاضتنا فى الأسبوعين الأخيرين ٠

ونفضت هى المرض يوم الأربعاء الأخير وعاشته بكل الحضور والصحة اذ عرفت حقيقة مشاعر مصر والعرب نحوها واطمأنت وهنئت مستقرة وقريرة ٠ وغمرتها السعادة حتى أخذت تنثر دعاباتها الحلوة كعادتها ٠٠ خمس ساعات سعيدة من فضل ربى حتى اذا غابت بعد خمس ساعات أخرى تكون رجعت الى ربها راضية مرضية ٠

وكان الوداع ٠

الوداع المهيب الذى لم يحدث حتى اليوم على كثرة من رحلوا من ملوك ورؤساء وقواد وعلماء وفنانين ٠

أنا لا أنسى يوم انتقلت اليها مستشفى المعادى قبل أن تنتقل هى اليها ٠٠ وما كاد الناس يرون عربة الاسعاف تقترب من بيتها حتى تدفقت الجموع من كل صوب تحيط بالبيت الذى خرج منه موكبها مريضة اذ سارت خلفها عشرون سيارة وقام أمين شرطة من تلقاء نفسه باخلاء الشوارع على الجانبين ٠٠ وسار أمامها حتى وصلت مستشفى المعادى ٠ وأدرك الناس ٠

وخرجت المستشفى لاستقبالها تسبقها دموعها ٠٠ لم يبق مريض فى سريره ولم يبق ممرض أو ممرضة أو طبيب فى مكانه ٠٠ الكل تجمع فى فناء المستشفى حتى وصلت الغالية على مصر والدنيا كلها ٠٠

وشقت طريقها وسط الباكين والملهوفين ٠٠ التقدير الذى افتقدته فى عامها الأخير ، حين جاء ، لم تره ولم تحس به لأنها كانت فى غيبوبة فى طريقها الى السماء ٠٠ غير أن مستشفى المعادى استوقفتها قليلا رحمة بالناس ٠

وكما احست هى حين ماتت أمها أنها فقدت كل شىء ، احست دنيا القيم والفن الرفيع حين غابت أم كلثوم أنها فقدت كل شىء ٠

رحل معها فن الغناء العربى مخلفا على الأرض أصواتا تقول

ولا تأسر ، تعجب ولا تطرب تشرئب وتشب ولكنها لا تصل ولا تنال ٠٠ اذ الأفق منها بعيد بعيد ٠

وجاء يوم الوداع الأخير ٠

وفى الفجر أضاء مستشفى المعادى انواره كلها ٠٠ وفى خطـــوات حزينة تقدم عدد من الأطباء الى حجرة أم كلثوم أو حجرة ثلاجةالمستشفى وبدأ الغسل بماء زمزم وماء النيل وماء العيون التى فاضت من أجلهـــا ثم عطرت ببخور الحجاز الذى أرسله الأمير عبد الله الفيصل بالطائرة لتضمخ به كما بات الكفن ليلتين فى مسجد الحسين ٠٠ وأدرجت فى أحد عشر ثوبا آخـرها من الملس الأخضر الفلاحى رمزا للأرض الخضراء التى نبتت فيها صاحبة الصوت الأخضر الموهوب ٠٠ منها خرجت وعليهـــا شبت واليها تعود لتمتزج بها وتتحد ويصيرا كلا واحدا فى عملية فنـاء صوفية فلم يكن ما بينهما حبا جارفا بل عشقا وتصوفا ٠

وحضر الى المستشفى أمام المسجد الحسينى ليصلى عليها فترك المرضى أسرتهم مرة أخرى واصطفوا خلفه للصلاة وللوداع ٠

وخرجت من المستشفىفى السادسةصباحا فى سيارة اسعافتسبقها على كورنيش النيل عـــربة مرور تعـــطى اشـــارات الضوء الأحمر وكأنها قطرات دم القلب المصرى المجروح ٠

وفتح جامع عمر مكرم صحنه ومحرابه ليستقبل الغالية فى تابوت ملفوف بالحرير الأخضر والأزرق الفاتح وكان سماء مصر ونيلها وارضها وأم كلثوم صحبه كما فى الحياة ٠٠ صحبة لم يفرقها الموت ٠

وارتفع دعاء وزير الأوقاف والمصلون من ورائه يرددون :

(اللهم أجزها عن أهلها وأمتها ودينها خير ما تجزى به عبادك ٠

اللهم تقبلها فى رحمتك ورضوانك ٠

اللهم انها أحبتك وأحبت عبادك فاجعلها مع من تحبهم فىجوارك)٠

وبعد أن وصلت هى تغير نظام المرور ، وأقفلت الشوارع المؤدية الى ميدان التحرير حيث تبدأ الجنازة من جامع عمر مكرم ٠٠ وتوالتنداءات

وزارة الداخلية تناشد الناس مساعدة الأمن على حفظ النظام صونا لهيبه الموكب وجلال أم كلثوم ٠

واصطف رجال البوليس سدا منيعا فى مدخل الشوارع المؤدية ولكن ٠

فى الحادية عشرة بدأ سير الجنازة وعزف ١٥٠ مائة وخمسون عازفا من الأمن المركزى اللحن الجنائزى ٠ وخلف العازفين باقات الزهور التى بلغ عددها اثنتين وخمسين باقة ٠٠ ثم ٠٠ أم كلثوم يحمل الجثمان رجال شرطة المطافىء وخلفها رجال الدولة ووزراء الاعلام فى العالم العربى كله ورجال الأدب والفكر والسلك الدبلوماسى العربى والأجنبى ٠

وما كادت الجنازة تخطو عدة خطوات حتى غدا النعش الأخضر قاربا سابحا فى بحر من البشر ٠٠ المناديل الملوحة فيه حمائم بيضاء ٠٠ ونحى الشعب رجال المطافىء ؟ أليست ابنته ؟ حملها هو ٠ تبادل أبناء البلد حملها ٠٠ وغيروا سير الجنازة الرسمىفلم يرضوا أن تنتهىكجنازات الكبراء عند جامع جركس انها أكبر كثيرا ٠٠ لهذا قرر الشعب أن تكون مسيرة الوداع أطول وأطول فانعطف بها فى شارع قصر النيل ثم فى ميدان الاوبرا ثم ميدان العتبة فشارع الأزهر وجهتهم الامام الحسين حيث صلوا عليها هناك ٠٠ ولولا أن امام المسجد أمام ضغط الجموع صاح فى سيل البشر : من يحب أم كلثوم فليجلس فى مكانه ويقرأ الصمدية على روحها ٠٠ فاستجاب له الناس لأنهم يحبونها ويريدون أن يفعلوا لها أى شىء ٠

وبهذا أمكن اخراجها الى السيارة التى تنتظرها على باب المسجد لنقلها الى البساتين بيتها الأبدى ٠ دائما فى الشرق ٠٠ (من شرق الدلتا مولدها ٠ وفى شرق النيل مثواها ٠ وهى بين هذين كوكب الشرق) ٠

وكانت الجماهير تريد أن تذهب بها بعد الحسين الى مسجد السيدة زينب ٠٠ انهم يباركونها وفى الوقت نفسه يتملونها من وراء حجاب ٠٠ اللحظات غالية ٠٠ لو كانت تطول ٠٠ قالها ابن البلد بغير حروف ٠٠ قالها رجل الشارع المتهم بالفقر الفنى فجاء وداعه لأم كلثوم وارتفاعه على همومه اليومية وفقره المادى لا الفنى ، دليلا ودلالة على براءة ساحته واصالة فطرته ٠

لقد احترمته أم كلثوم فى الحياة حين قدمت له القصائد العصماء ولم تتعلل به ، فاحترمها فى الحياة وبعد الحياة ، ولعل الشعب فى هذا كان مسيرا بوحى من فنها الدينى ·· انه يحفظ لها ابتهالاته النقية كآذان الفجر ، ومدائحها فى الرسول، ودموعها المنغمة، وأنغامها المرتلة ترتيلا·· ان ما حدث فى هذا اليوم ·· علامة ·

رفعتها مصر الشعبية والرسمية الى أعلى من انسان ·· أعلنت الاذاعة الحداد عليها يوما · وأعلنت المسارح والفرق الموسيقية الحداد ثلاثة أيام ·· حتى ملاعب الرياضة وقفت دقيقة حدادا عليها ·

كانت أم كلثوم فى حياتها لحنا أقوى ما عزفت مصر من ألحان ··

وكانت أم كلثوم بعد الحياة أقوى ما عزفه الشعب من ألحان ··· لقد جعلت أم كلثوم الدين موضوعا للفن كما أشرت فى موضعه والجماهير العريضة بغير دراسة أو فلسفة تحس هذا بوجدانها ·

وشيوخ الدين يقرون هذا حتى لقد وجه رئيس اتحاد قراء العالم الاسلامى دعوة عاجلة الى أعضاء الاتحاد لعقد مجمع قرآنى ترحما عليها ·· وهكذا استطاعت أم كلثوم أن تؤكد مكانة المرأة فى البلد الذى رفعت حضارته المرأة الى أعلى مكان ·· استطاعت أم كلثوم أن تؤكد انفساح أفق رجل الدين فى مصر ، وفي عام المرأة ، فحين تسفر المصرية المسلمة للعطاء فى أعلى مستوياته فهى طهر ونقاء وهى كريمة على نفسها وعلى الحياة والناس ·

ومنذ بداية الأزمة الأخيرة والصحف المصرية قاطبة تملأ صفحات منها كل يوم عن أم كلثوم ·· ويعقد رئيس وزراء مصر مؤتمرا فيطلب الى الصحف ألا تتوسع فى نشر أخبار المؤتمر ايثارا لأخبار أم كلثوم · ومضت الصحف المصرية بلا استثناء على هذا النحو أسبوعين ووراءها الصحف العربية بل الصحف الغربية ، والاذاعات · جميع المجلات أصدرت أعدادا خاصة ولم ينفد الحديث بعد عن أم كلثوم ·

وقد تنتقل الصحف بعد أيام أو أسابيع الى موضوعاتها التقليدية ولكن المعاهد الموسيقية والدوائر الموسيقية ستستمر طويلا تحلل الظاهرة العجيبة التى سمتها القرية المصرية (أم كلثوم) ·

لقد خصص القاموس السويدى الدولى للموسيقى ، لها تعريفا مستقلا حيث أصبح لها كما يقول سكرتير تحريره « هنركك كارلسون » جمهور من المستمعين فى مختلف الجنسيات الأوربية يودون معرفة ما هى الخصائص الموسيقية التى جعلت منها أم كلثوم ٠

وبعد غيابها تاخذ عملية التقييم لدورها صورة لا تنسب الى المجاملة خاصة من أهل الاختصاص ٠

يقول الدكتور حسين فوزى عن أم كلثوم : (انها تمثل فى نهوضها وارتقائها آخر ما يبلغه الفن المصرى العربى الفارسى العثمانى ٠٠٠٠ وليست هذه قط صورة من الرجعية ، لأن أم كلثوم ، عاما بعد عام لم تعرف التراجع ، وفنها لم يتوقف حتى آخر الشوط الذى تحدده حياة الفرد) ٠ داعيا الى الاحتفاظ بتراثنا الموسيقى صافيا ، محدد الطرائق والوسائل ، بحيث يقف معهد الموسيقى العربية بأكاديمية الفنون فى محاذاة الكونسرفتوار ٠ ثم يقول :

(وأن يعود فضل الحفاظ على قوميتنا الموسيقية ، والارتفاع بها الى أوسع وأعمق وأحلى وسائل التعبير بالصوت الى لقيدة الفن العربى أم كلثوم فذلك ما وعاه الشعب العربى بأسره ٠٠ وكانت أم كلثوم فيه علما على مصر الفنية بعلمائها وأدبائها وفنانيها ، نموذجا يحتذى ودربا يسير عليه العالم العربى بأسره ٠ هذه ، والله ، مأثرة المآثر لها)٠

هذه كلمة العلم ٠ أما كلمة الفن فقد رقرقها لأم كلثوم الرسام والمثال والملحن والشاعر ٠٠ انها سجل قائم وضخم يوم ينتظم ما أوحته أم كلثوم على الأرض ، وفى السماء ٠٠٠ ففى تمجيدها حاضرة وغائبة كتبت أقلام ورسم رسامون ونحت لها مختار والسجينى كلاهما تمثالا وسيوضع تمثال مختار لأم كلثوم فى مدخل مدينة الفنون ٠ ونظم شعراء وزجالون ولا يزال ٠

أما جامعة الاسكندرية فقد قررت أن يقوم معهد الصوتيات التابع لكلية الآداب بدراسة موسعة لصوتها ٠

كان يوم الخميس الأول من كل شهر ملكا كاملا لأم كلثوم وقــد قررت الاذاعة المصرية أن يكون ملكا لها أبدا بما ستذيعه لها وعنها فى الموعد نفسه من كل شهر ٠

ممجدة فى الدنيا

مخلدة فى الأخرى

عاشت كما لم يعش أحد ٠

وظفرت من الحب والتعظيم وعلو المكان ، وسمو الاسم ، بما لم يظفر به أحد ٠ واهتز الناس والصحف والاذاعات فى العالم أجمع لمرضهـــا كما لم يحدث من قبل لأحد ٠

وصدرت عنها النشرات الطبية ساعة بساعة كما لم يصـــدر عن أحد ٠

واستهلت نشرات الاخبار بأنباء صحتها قبل الأخبار العـــامة كما لم يحدث من قبل لأحد ٠

وهيأت الصحف النفوس للفاجعة من عظم الاحساس العام والخاص بها كما لم يحدث لأحد ٠

وعلى الرغم من هذا كله حين دوى الخبر زلزل كيان الناس من الأعماق كما لم يحدث من قبل لأحد ٠

لقد توفيت معها أم كاتبنا الكبير « توفيق الحكيم » واذا بالرثاء الذى يكتبه توفيق الحكيم فى ٠٠ أم كلثوم أما شاعرنا أحمد رامى فلم يكتب رثاء لأنه كسر القلم بعدها ٠٠ وهجر الشعر والناس ٠٠ وهو الآن رهين المحبسين المرض والاكتئاب النفسى اللذين تشتد وطأتهما عليه ، لغيابها (١) لم يعرف الأدب العربى الملحمة فكتبتها له بصوتها وشخصها أم كلثوم ،

(١) بعد عام وفى ذكراها الأولى انشد قصيدة امتزجت أبياتها بدموعه ودموع سامعيه

انها كأبطال الاغريق قدرتهم الفنية وقدرتهم الجسمية خارقة رغم الكلى وما فيها ٠

لقد كانت أم كلثوم (ظاهرة) فى الحياة ٠

(وظاهرة) فى الممات ٠

وذهبت الأيام الحلوة ٠

الليالى الساهرة الساحرة ٠٠ ليالى الهنا ٠

ذهبت فرحة جيلين عاشا وأجيال ستولد وتعيش ويســـمع أبناؤها (حاجات) مختلفة ولكنهم عندما يدركون سيتمســـكون بها ، وينتمون اليها ، مثلنا ، وان لم يروها ٠

ذهب فن الأداء وفن الالقاء وفن الشـــخصية

ذهبت التى كانت تلقى الشـعر وتتذوقـــه

تلقى النكتـة وتصنعها وتسير وتحلو باسمهـا

كان شخصها الفرد موكبا فخما لنماذج كثيرة ، ومعانى كبـــيرة لا يقدر عليها أحد ، ولا يجمعها فى وقت واحد أحد ٠٠ لأنها أصـــعب كثيرا من الغناء ٠٠ لأنها روحه وسره وكيمياء خلوده ٠

يا جارة الأيك أيام الهـــوى ذهبت
كالحلم آهـا لأيام الهـــوى آهـــا

يا أم كلثـــوم أيام الهنـــا ذهبت
كالحلم آها لأيام الهنـــا آهـــا

***

صنعت تاريخا ٠٠ وصنعها تاريخ ٠

وفى الشخصيات التاريخية بين النساء نجد « الذكاء » حينا أساسا فى « تاريخية » سيدة من سيدات التاريخ ، وآنا نجد الجمال والظرف ،

وأحيانا نجد الفن ، وآونة أخرى نجد « البطولة » سياسية أو حربية مثل « حتشبسوت » و « تيتشرى » ••• ولكن أم كلثوم شخصية تاريخيـة بكل هذه المقاييس بما تهيأ لها من ذكاء وظرف روح ولطف احساس •• وفن غناء •• وفن أداء •• وأسلوب شخصية •• و ••

أم كلثوم شخصية تاريخية بالمواقف الحضارية فتزعمها للتجمع الوطنى فى محنة ١٩٦٧ ودورها السياسى والحربى بما جمعت للمعركة من عملة صعبة ، ومن قلوب الناس وتأييدهم وهو عملة أصعب ••• عامل محسوب فيما أحرز الرجال من نصر فى الميدان •

أم كلثوم شخصية تاريخية بمقياس القومية العربية بما ربطت من شعوب العرب فى مختلف ديارهم حتى فى ابان انقساماتهم الشـــخصية والرسمية •• كان صوتها يجمعهم وكأنه مغفرة وكأنها عاصمة فنيـــة لهم يتقاربون فيها ، ويتقربون اليها اذا تباعدت العواصم السياسية •

كانت محبة بما أيقظت من عواطف وما ألفت من شعوب •

وكانت خيرا بما در فنها على وطنها فى الحياة وبعد الحياة ••

وكانت علامة بما اضافت الى الفن وأضفت على الفنان •

وكانت رمزا بما مثلت من معان وقيم •

وهى بهذه الأبعاد كلها ، أكبر كثيرا من مطربة •

انها ملحمة امة •



١ ــ محمد عبده صالح	رئيس الفرقة
٢ ــ محمد القصبجى	العود
٣ ــ أحمد الحفناوى	من سنة ١٩٣٥
٤ ــ عبد المنعم الحريرى	عمل معها ٢٠ سنة تقريبا
٥ ــ كريم حلمى	عازف كمان
٦ ــ أحمد العريان	عازف كمان
٧ ــ محمود القصبجى	عازف كمان

٨ ـ عز الدين حسنى	عازف كمان
٩ ـ محمد نصر الدين	عازف كمان
١٠ ـ عبد الفتاح خيرى	عازف كمان
١١ ـ لبيب حسن	عازف كمان
١٢ ـ عباس فؤاد	أقدم عازف كونترباس
١٣ ـ محمود الحفناوى	عازف شيللو
١٤ ـ حسان كمال	عازف شيللو
١٥ ـ مجدى بولس	عازف شيللو
١٦ ـ محمد ماضى	عازف كمان
١٧ ـ ابراهيم القبانى	عازف كمان
١٨ ـ حسين معوض	ضابط ايقاع (الرق)
١٩ ـ مدحت طه	عازف اكورديون
٢٠ ـ محمد سعيد هيكل	عازف كمان
٢١ ـ عبد الغنى غنيم	عازف كمان
٢٢ ـ كمال الشيخ	عازف كمان
٢٣ ـ مكرم جرجس	عازف كمان
٢٤ ـ مصطفى حميدو	عازف آكورديون
٢٥ ـ سيد سالم	عازف الناى

وفى أغنية (فات الميعاد) أضاف الملحن بليغ حمدى الى هـــــذه الآلات آلة جديدة فقد أدخل الســـــاسكفون وجعله ، مع أنه ليس فيه « ربع تون » يؤدى الألحان الشرقية فى سهولة وبساطة ٠



قصائد شوقى : نهج البردة ١ ، سلوا قلبى ٢ ، عـــرفات ٣ ، الهمزية ٤ ، النيل ، وقى الأرض شر مقاديره ، سلوا كئوس الطلا ٠

(١) وهذه القصيدة تبلغ فى ديوان شوقى مائة وتسعين بيتا وقد عارض بها بردة البوصيرى التى مطلعها :

أمن تذكر جيران بذى ســـلم   مزجت دمعا جرى من مقلة بدم

ولهذا سميت قصيدة شوقى نهج البردة ٠ وقد اقتطف منها للغناء ثلاثون بيتا ستة فى الغزل وثلاثة فى الحكمة وخمسة فى الضراعـــة والاستغفار واثنا عشر فى مدح الرسول وأربعة فى الدعاء ٠

أما الغزل فقد احتذى حذو القدامى فى الصــورة والألفاظ · وقد اتسعت الأحداق عندما غنت أم كلثوم هذه القصيدة أول مرة · وتفكهت المجالس بتعليق أحدهم على الشطر الاول من بيت المطلع (ريم على القاع بين البان والعلم) ·

هو الريم يبقى على القاع ولا على السطح ·

(٢) وهذه القصيدة فى ديوان شوقى تتألف من واحد وسبعين بيتا اقتطف منها واحد وعشرون بيتا للغناء · الستة الأولى فى الغـــزل والخمسة التالية فى الحكمة يلى هذا مدح الرسول ·

(٣) وهذه القصيدة فى الديوان ستون بيتا تغنى أم كلثوم منهـــا بعد التقديم والتأخير خمسة وعشرين بيتا · منها ستة غناء وحداء لركب الحجيج وثمانية دعاء لرب الكعبة وانابة واستغفار · وبيت فى الحكمة وعشرة فى زيارة الرسول وما يطوف بها من ذكريات وعبرات ودعوات ·

وفى القصيدة بيتان اختلفا عن نظيريهما فى الديوان ، بيت المطلع :

الى عـــرفات الله يا خـــير زائر   عليك ســـلام الله فى عرفــات

وهو فى الديوان الى عرفات الله يا ابن محمد ·

والتغيير هنا حسن فى موضعه اذ يخرج بالقصيدة من مدح فرد بعينه الى تحية كل زائر من المسلمين على السواء ·

والبيت الثانى :

أرى الناس أفواجا ومن كل بقعة   اليك انتهوا من غربــة وشتات

وهو فى الديوان :

أرى الناس أصنافا ومن كل بقعة   اليك انتهوا من غربــة وشتات

وأفواجا فى مكانها أوسع ابعادا وأعمق شاعرية وأزخر حركة ، هذا حين تبعدنا كلمة (أصناف) عن الجو الشعرى كلية ·

(٤) وهمزية شوقى ليست معارضة كاملة لهمزية البوصيرى لأنه لم يلتزم الا الغرض والقافية أما البحر فقد خالفه فيه ·

وهمزيه شوقى تتألف من ١٣١ بيتا انتخب منها للغناء ٣٤ بيتا لم يراع فيها الترتيب الذى جاء في الديوان اذ أن الاختيار قدم وأخر حتى استوت القصيدة على النسق الذى نسمعه · تسعة فى بشرى مولد النبى ، وثلاثة عشر بيتا فى الاشادة بدعوته والدين الذى جاء به ، وسبعة فى مدحه والاشادة بكريم سجاياه ، وخمسة فى التوسل والدعاء ·

وفى القصيدة التى تغنيها أم كلثوم بيتان يختلفان عن نظيريهما فى الديوان أولهما :

يوحى اليك النـــور فى ظلمائه　　متتابعـــا تجلى بـــه الظلماء

وهو فى الديوان : يوحى اليك الفوز فى ظلمائه ·

والبيت الثانى هو :

دين يشـــــــيد آيـة فى آيـة　　لبناتـــه السـورات والأضـواء

وهذا البيت فى الديوان :

دين يشـــيد آية فى آية　　لبنـــاته السـورات والاضـواء

فهرس

البشارف ــ مدرسة الحامولى (سفينة الفلك) ــ أعلام الموسيقى والطرب والغناء من الرجال والنساء ــ المطربون والآذان ــ الموسيقى العربية وتجويد القرآن ٠

الغنـــاء

فى العصر العثمانى ــ عصر محمد على ــ فى الحملة الفرنسية ــ أهم الأسماء ــ أشهر الطقاطيق ــ مؤلفو الأغانى ــ وضع أسس موسيقى التخت ــ نشأة البروفات ــ اسماعيل صـــبرى ــ الشيخ على الليثى ــ خروج الغناء الى الحياة العامة ــ الالدراتو القديم ــ أشهر المغنيات ــ السميعة ــ ســـيد درويش ــ لحن البحر بيضحك لى ــ مسرحية العشرة الطيبة ٠

مولد تاريخ وتاريخ مولد : ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ص ٥٩ ــ ١١٢

القريـــة

المولودة بنت ــ الطفلة أم كلثوم ــ الجميزة والعروسة القطن ــ جلابية العيد ــ رمضان القرية ــ قصة مولد النبى ــ القصائد والتواشيح والمدائح ــ أول حفلة ــ شيخ البلد ــ حجاب لمنع الحسـد ــ الطرحة الســـوداء وطفلة العاشرة ــ الكتـــاب ــ فونغراف العمدة ــ ليلة عاصفة ــ كرسى الســـلطان ــ قصص الكتاب ــ حرم سيدنا ــ المفتش ٠

مع الأيام

طريق العرق والدموع ــ مطربة فى السادســـة من عمرها ــ فرح المأذون ــ فرح الخفير ــ أول أجر ــ أول قطار تركبه ــ أول مدينــة مصرية ــ أول مرة ترى جنيها ــ تمنسح القرى والمدن ــ
أمام الكاميرا لأول مرة ــ العودة الى الكتاب ــ مقالبها فى الكتاب ــ مدرسة السنبلاوين ــ تغنى بخمسة مليمات ــ أول موشح ــ تبكى من النكتة ــ تشترك فى البطانة ــ الاصطدام بالتقاليد ــ قصص الكفاح ــ تتجمد من البرد ــ ركوب الحمار ــ الطفلة المريضة تغنى ــ أول عقد ــ افتراش رصيف المحطة ــ الغناء لناظر المحطة ــ النوم فى الحظيرة ــ قصة الجمل ٠

المدن بعد القرى

وتى فارسكور ـ لقاء تاريخي فى محطة ترين ـ فنان الساعات ـ قصة البيض ـ بشرى القاهرة ـ توفيق زاهر ـ المحلة الكبرى ـ دمياط ـ السنبلاوين ـ أعظم مغن سمعته فى حياتها ٠

أم كلثوم فى القاهرة

حفلة حلوان ـ الشيخ اسماعيل سكر ـ بداية الشـــهرة ـ كوم الشيخ سلامة ـ أول فندق ـ ضياع تحويشة العمر ـ الشيخ زكريا فى السنبلاوين ـ وليمة الوزة ـ الشيخ زكريا يكتب لها ـ الشيخ زكريا يهديها ألحانه ـ ترفض الخطاب ـ تختار الفن ٠

القــرن العشرون : ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ص ١١٣ ـ ١٥٤
القاهرة (١٩١٠ ـ ١٩٣٠)

ثورة ١٩١٩ ـ اليقظة ـ مظاهرة الممثلين والممثلات ـ التشخيص الوطنى ـ الأزهر والمحكمة العسكرية ـ كيف أفلتت الفنـــون من المستعمر ٠

الأدب والشعر ـ مولد القصة ـ الموسيقى والغناء ـ النشيد الوطنى ـ كامل الخلعى ـ القصبجي ـ محمود رحمى ـ داود حسنى ـ أشهر العوادين ـ أشهر الملحنين والمطربين ـ تقليـــد امتحان الأصوات الجديدة ـ بداية كتابة النوتة الموسيقية ـ عودة الفرق الأجنبية ـ القاهرة مركز ثقافى ـ نهضة المسرح الغنائى ـ تلحين الأوبريتات ـ تطور الموسيقى ـ عطاء سيد درويش ـ ظهور محمد عبد الوهاب ـ عبد الوهاب يلحن لأم كلثوم سنة ١٩٢٥ ـ ندوات الفنانين ٠

شركة الاسطوانات

بيضافون ـ كولومبيا ـ جرامفون ـ اسطوانة (ان كنت أسامح) ـ الشيخ يونس القاضي والتأليف بالجملة ـ الفرق الموسيقية ـ تلحين الأوبرا ـ معاهد الموسيقى ـ كتب الموسيقى ـ مؤتمر الموسيقى العربية ـ الألحان المسرحية ـ التيـــاترات والمسارح ـ طرائف الممثلات ٠

بيرم وزكريا ـ الابيقوريه ـ الشيخ ابو العيون ـ طريقة من الجنة •

أم كلثوم بين ألمانيا وانجلترا

تنافس الدعايات على اسطواناتها ـ الميدان يخلو من المنافسات ـ الاذاعة والمطربين القدامى ـ فيلم دنانير ـ أم كلثوم تقيم مصيفا ـ من طرائف أم كلثوم ـ أسرع لحن غنته أم كلثوم •

انجلترا تقرر الاستيلاء على أم كلثوم

ماذا حدث بعد استيلاء روميل على طبرق ـ رأى أم كلثـــوم فى الموسيقى القديمة والحديثة ـ دور الموشحات ـ الموسيقى والأدب ـ رأى أم كلثوم فى عبد الوهاب ـ سن عبد الوهاب ـ المنافسة على رئاسة نقابة الموسيقيين •

فيلم عايدة

أعضاء الفيلم ـ الهجوم على الفيلم ـ يوسف وهبى ينقد أم كلثوم ـ سقوط الفيلم ـ أسباب سقوطه ـ تعـــديل الفيلم ـ هل نجح التعديل ؟

أم كلثوم والغزوات :

صراع المطربات من لبنان ومصر ـ نور الهدى ـ اسمهان ـ ليلى مراد ـ نجاح سلام ـ مطربون شبان ـ محمد أمين ـ جلال حرب ـ وديع الصافى ـ لماذا رفعت أم كلثوم سعر غنائها ؟

قصة الأطـــلال

متى بدأت القصة ـ ثروة أم كلثوم ـ الضرائب ـ الأغنية التى تنازعها عبد الوهاب وأم كلثوم ـ المولد الذى غنت أم كلثوم فيه ـ لماذا خاصم بيرم التونسى الشاعر أحمد رامى ـ أين ومتى يلتقيان •

الثورة أم كلثوم ـ أم كلثوم عضو فى جمعية مارك توين الأمريكية مع ايزنهاور ومستر تشرشل •

زواج أم كلثوم

الزوج الطبيب ـ سرقة أم كلثوم وهى تغنى ـ حفلاتها تتعرض للنسف ـ أم كلثوم والطاقة الذرية ـ وسام الآرز من لبنان ـ وسام النهضة من الأردن ـ وسام الاستحقاق ـ الحجز على أغنية (الآهات) •

أم كلثوم والقرآن

انحسار موجة الأفلام الاستعراضية ـ الصحف تحاسب أم كلثوم ـ موقفها ١٩٥٦ ـ أم كلثوم تدعى لحضور افتتاح البرلمان ـ رابعة العدوية ـ أم كلثوم المذيعة ـ تسجيل القرآن بصوتها ـ العناية الالهية •

الجائزة التقديرية

ترشيح الجمعية التاريخية أم كلثوم للجائزة التقديرية ـ وترشيح اللجنة الموسيقية العليا ـ مبررات الترشيح ـ وسام الأرز برتبة كومندوز ـ هدية المغرب ـ معهد السينما ـ معهد السيناريو ـ قصتها مع فندق هيلتون •

ام كلثوم والأغنية القصيرة

حقيقة أغانيها ـ الغناء فى المسرح والغناء فى السينما ـ أم كلثوم والأوبريت ـ أغانيها القصيرة •

جمهور أم كلثوم فى الخمسينات

نماذج فردية وجماعية ـ رواد دائمون ـ أصحاب الصف الأول ـ اصحاب التقليد الثابت ـ رأيهـا فى نفسها ـ نماذج طريفة

الساعات ـ برقية منيرة المهدية ـ عنصر الطرافة ـ النقد بعد السكرة ـ واعظ المسجد الذى أفتى فى صوت أم كلثوم ـ حملة عنيفة ـ دفاع الأهرام .

فرقة أم كلثوم الثانية

هدية عجيبة ـ مدير الطب البيطرى وبلاغ الى بوليس النجدة ـ مقهى التوفيقية ـ احتفالات البلاد العربية ـ حجز الطائرات ـ حجز التذاكر بالتلغراف ـ سر الشوارع المغلقة بالعراق .

رحيل القصبجى

موت منيرة المهدية ـ وفاة القصبجى ـ دور القصبجى فى حياة أم كلثوم الفنية ـ القصبجى يعلم عبد الوهاب ـ نجية سلامة ـ برقية من لبنان ـ الاسم الذى لم يعجب الأرياف وتيمنت به القاهرة .

أم كلثوم ومصلحة الضرائب

نزاع متجدد ـ ماذا سجلت للكويت ـ رائعة ١٩٦٦ ـ شعراء جدد ـ لماذا تراجع رامى .

أم كلثوم بعد النكسة

صمت وذهول ـ تحرك المسرح والموسيقى ـ الفرق الشعبية والفنية ـ حركة أم كلثوم ـ جمع المال للمجهود الحربى ـ قصيدة (حديث الروح) ـ قرار وصلتين بدلا من ثلاثة ـ جائزة الدولة التقديرية .

رحلات وطنية

ليبيا ـ وفاة عبده صالح ـ بعلبك ـ تقدير البلاد العربية والاسلامية السودان ـ الكويت ـ لبنان ـ باكستان ـ المغرب ـ تونس العراق .

حين تخرج أم كلثوم عن اللحن الأصلى

الجلوة ـ حين تطرق برأسها وتغمض عينيها ـ كيف تسجل أغانيها •

قلق أم كلثوم

وسوسة أم كلثوم ـ ولع التجويد ـ شعورها عند سماع صوتها •

ماذا أعطى الأدب لأم كلثوم

دور الأدب فى فن أم كلثـــوم ـ كلمة القضاء المصرى ـ أم كلثوم والبارودى •

مرحلة جديدة

الدعوة الى تدريس الموسيقى بالمدارس ـ الدعوة الى تدوين الموسيقى• الدعوة الى قيام مسرح غنائى ثابت ومتنقل •

حملة على الاقتباس ـ نهضة العشرينات ـ الدعـــوة الى التاليف الموسيقى على أسس عالمية •

ما هى الموسيقى الشعبية

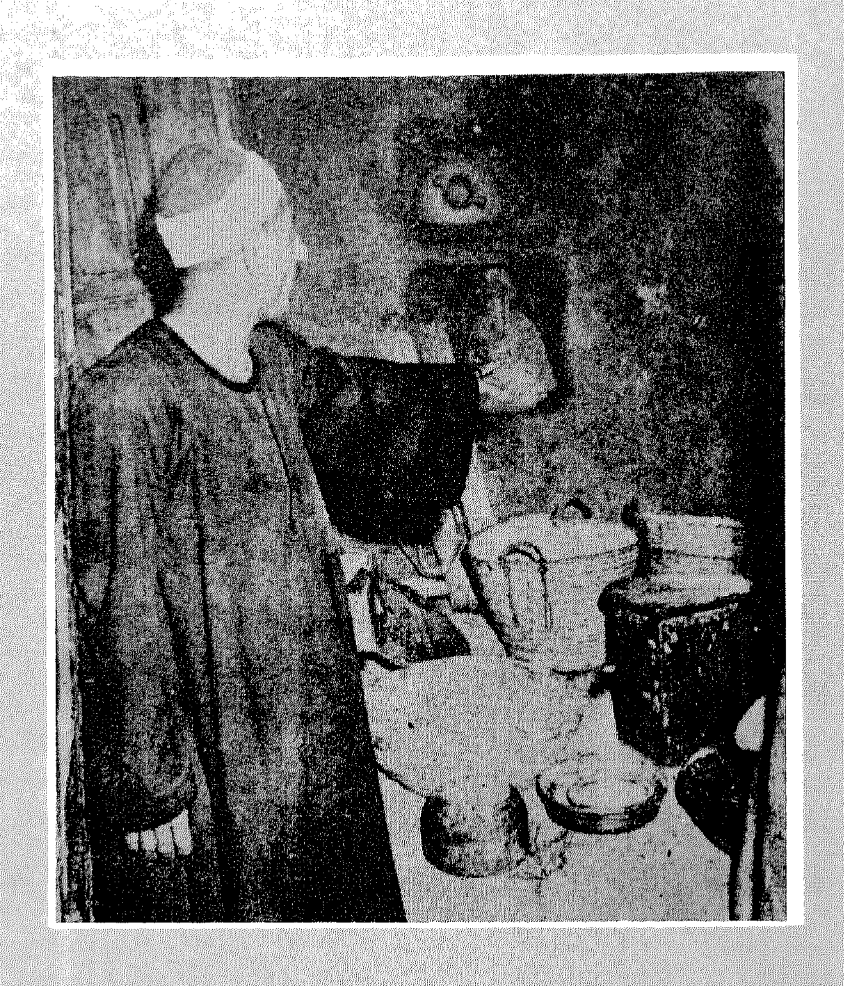
دور سيد درويش ـ محاولة لهز الرتابة ـ البحث عن الفولكلور ـ الأصوات الجديدة •

اين تقف موسيقانا ؟

موسيقى الشعوب ـ اللحن بمفرده ـ الشاعرية والجو ـ كم يلزم التطوير والبلورة ـ الكلمة الموسيقية والجملة والعبارة ـ ما هو الحل ـ نحن والتاليف الموسيقى ـ المؤلفون الموسيقيون ـ أعـــلام الحركة الجديدة •

أم كلثوم

صور... ووثائق



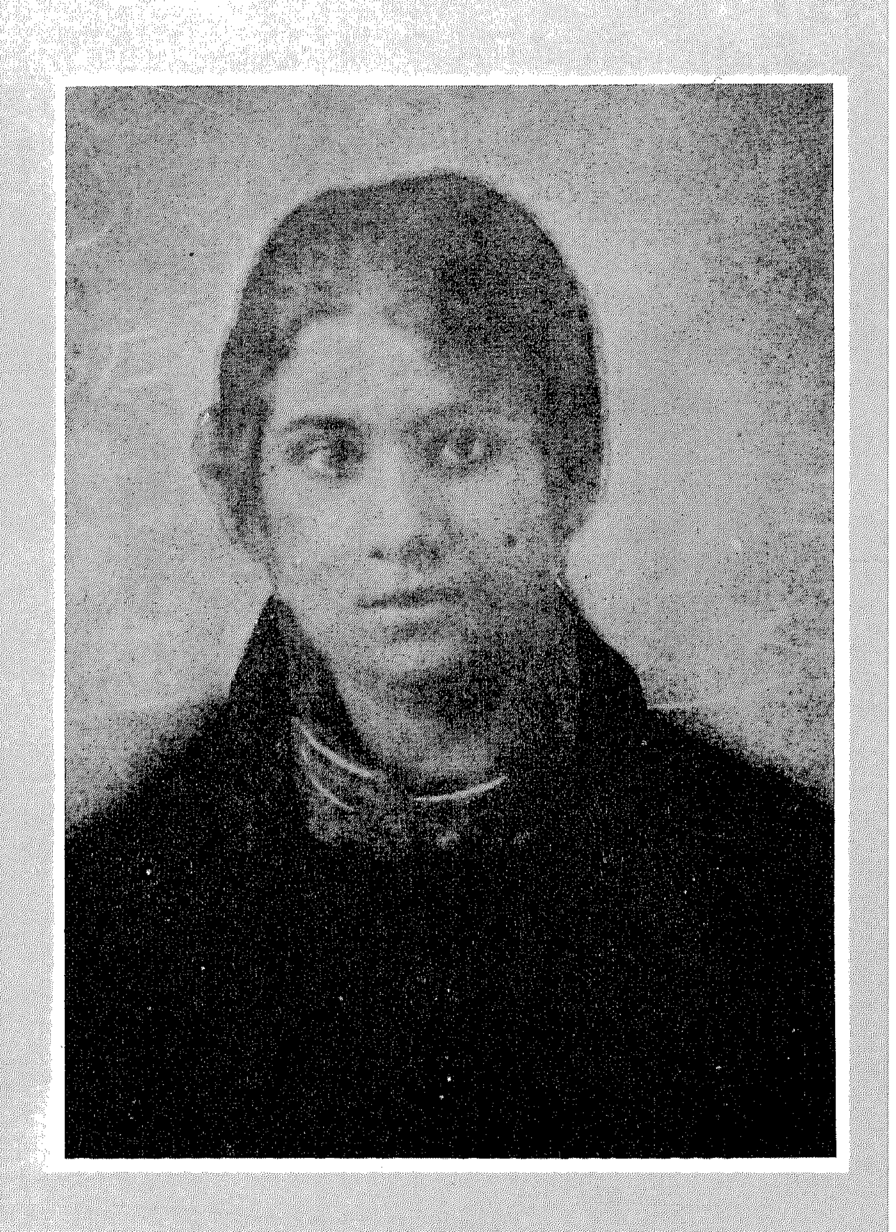
كما تخرج « الزهرة » و « العنبة » من الأرض
ولدت في هذا البيت المتواضع : أم كلثوم

لم تكن « سيدة » بل كانت فتـاة صـغيرة ...
طفـلة يتـولى ابوها امرها ويتعـاقد عليهـا

قد تحرر وبناه بقصد الطالع بشرط فيه وبناه الحسيني السيد
من حارة ومن المشهوره دلماره من احمد اسماعيل من الكرم
الطويل ومن لطف الشيخ ابراهيم السيد البلتاجي السيد
ام كلثوم لتلاوة القصة الشريفة النبوية والمولد وهو
يوم الخميس ٤ ذو الحجة ١٣٣٩ ليلة الجمعة ٥ منه على ان تعطي لها
قدر ١٥ مبلغ ٩٥٠ تسعمائة وخمسون قرش صاغ ميري وصاغا
عربون مبلغ ٤٠٠ اربعمائة قرش صاغ ميري والباقي طرف المذكور
مبلغ ٥٥٠ خمسمائة وخمسون قرش صاغ ميري وقد حررت هذه شروطا بين
الطرفين

كاتبه
ابراهيم السيد
البلتاجي

عمل
احمد
من كفر الطويل



ام كلثوم الفتاة الصغيرة البسيطة بنت الريف المصرى بصباحته .
وسماحته التى لا تحجب قوته ، والتى تطل من نظرتها بعيونها المصرية .

العنوان التلغرافي
السنبلاوين - طماي - أم كلثوم

السيدة أم كلثوم ابراهيم
مقرئة السيرة الشريفة النبوية
بوستة السنبلاوين
طماي الزهايرة

طماي في ٦ يناير سنة ١٩٢٢

حضرة المحترم الشيخ زكريا أحمد دام

بعد إهدائكم [illegible] السلام والسؤال عن صحتكم
[illegible] مع [illegible] محمد [illegible]
على [illegible] والسلام [illegible]
أم كلثوم

[illegible] لك خطاب ولم [illegible]
[illegible] نمرة [illegible]

أخلص التحيات
أم كلثوم ابراهيم

خطاب آخر الى الشيخ زكريا مؤرخ هـــذه المرة بل مكتوب على ورق مطبوع باســمها .. وان لم يخـــرج عن السنبلاوين وطماى الزهايرة

فى ابان نشأتها وان لم يحمل تاريخا كعادة أهل الريف
خطاب صادق المودة والعبارة من الصغيرة أم كلثوم الى الشيخ زكريا

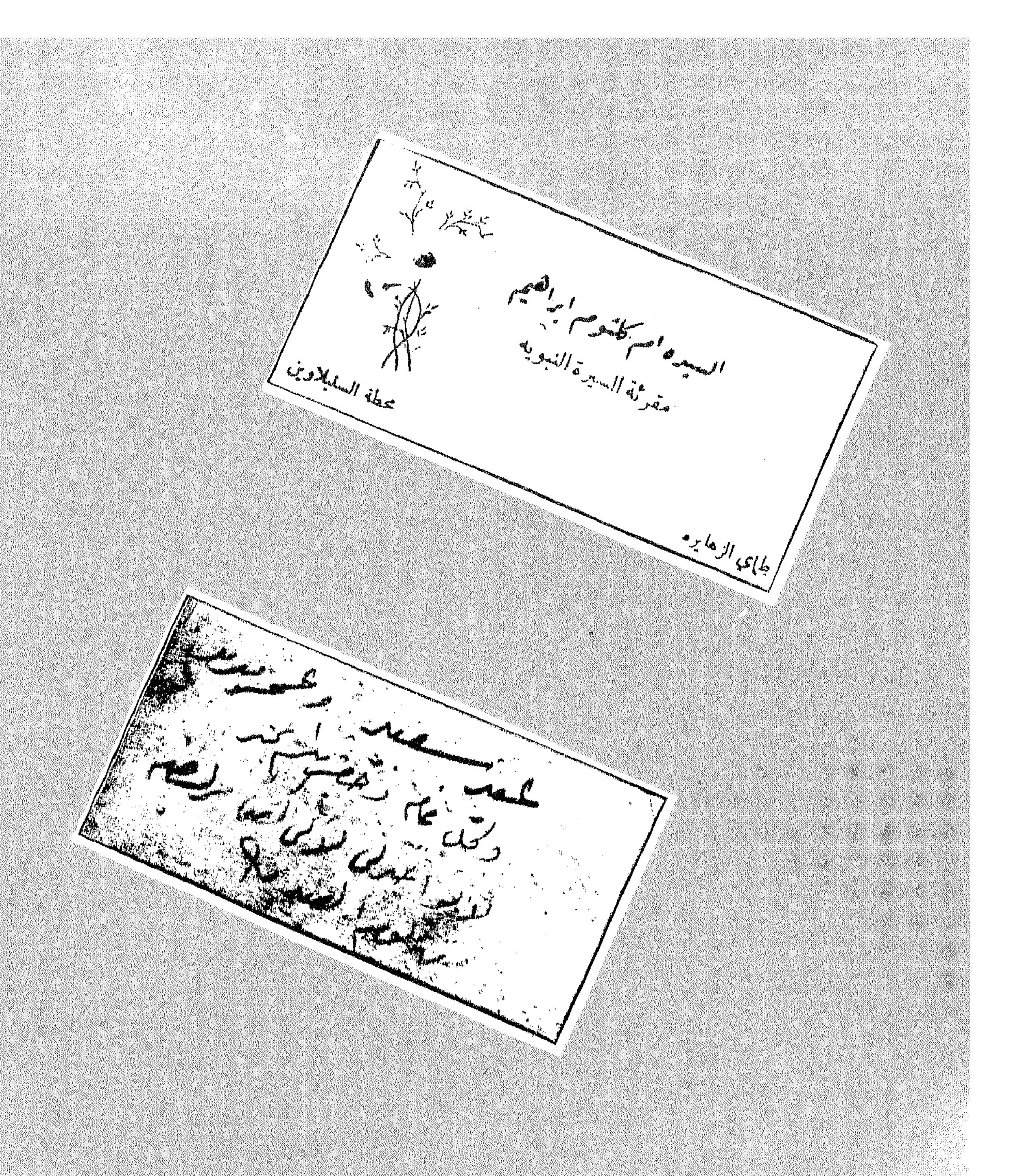


بروح الفكاهة المصرية
والعذوبة الكلثومية
علقت ام كلثوم على صورتها
فلا تعليق



هذا الوجه
هذا الوجه من مصر




السيده ام كلثوم ابراهيم
مقرئة السيرة النبويه
محطة السلبلاوين
طاي الزهايره

فرع جديد لمبيع الاسطوانات بالقطاعي بسعر الجملة

تابع محلات المليم الكبرى لصاحبها محمود عزت المفتي

شارع جامع جركس نمرة ٤ بجوار ميدان باب اللوق

سعر ١٨ قرشا

ان كنت اسامح لام كلثوم
وحقك انت المنى »
على عيني الهجر دامنى »
زارنى طيفك »
بعدت عنك بخاطرى »

الابرة الذهبية

(ماركة نجاة) ابرة مصنوعة من الذهب والصلب والشمع تلعب ٤ اسطوانات ونظرا لما بداخلها من الشمع فهى لا تتلف الاسطوانة. فحافظوا على اسطواناتكم الجديدة باستعمالها دون غيرها وثمن العلبة ٦١ مليما فقط

سعر ١٥ قرشا

أفديه ان حفظ الهوى لام كلثوم
أما نا أيها القمر المطل »
تشوف أمورى »
خلى الدموع لعينى »
حبيت ولا بفتش على »
البعد طال والله على »
ياروحي بلا كتر أسيه »
ان حالى فى هواها عجب »
الشك يحيى الغرام »
قلبك غدر بى »

سعر ١٢ قرشا

ذكرى سعد لام كلثوم
الصب تفضحه عيونه »
ايقظت في عواطفى »
خيالك فى المنام »
ياريتني كنت النسيم »
تراعي غيري وتبتسم »
ولمد امنى حدارى حبك »
ما تروق دمك »
صحيح خصامك والاهزار »
صدق وحبك »

الاسطوانات الجديدة للاستاذ عبد الوهاب

توجد بالفرع المذكور كذا جميع الاسطوانات من جميع الماركات — خمسة قروش خصم فى كل اسطوانه
تشكيلة اسطوانات سودانية من جميع الماركات باسعار رخيصة جداً
(يمكن الاستعلام عن طلباتكم بواسطة تليفون ٤٤٥٣٨)

تاريخ ... لفن الاعلان وفن الغناء


تعزف أناملها على العود وتطربكم بكل جديد مدهش

يوم الخميس ٤ ديسمبر ٩٣٠

مسرح رمسيس

بشارع عماد الدين تليفون ٣٠٨ مدينه

سواريه الساعه ٩ ونصف مساء

يوم الخميس ١١ ديسمبر ٩٣٠

تغنى وتغرد كما يغرد الكروان بصوتها الساحر الجنون الى ما بعد منتصف الليل

الموسيقيه الفنانه

ام كلثوم

صوتها ساحر ملائكى

تلقى منولوجات وقصائد وطقاطيق وادوار جديده لم يسبق سماعها على تخنها المؤلف من القصبجى . والعريان . وكريم ورمى — الاسعار مخفضة لمناسبة الازمة الماليه الحاضرة فبادروا بحجز محلاتكم الاماميه قبل نفاذها من شباك التياترو تليفون ٣٠٨ مدينه

الى اصحاب دور السينما بالقطر المصرى كل من اراد ايجار « فلم زينب » فليخابر صديق افندى احمد بمسرح رمسيس بشارع عماد الدين تليفون ٣٠٨ مدينه

في البداية
كانت تعزف على العود
وتغنى



الشاعر رامى) : الى سومه : الي آلهة الوحي . أقدم هذه القصيدة
عبد الوهاب) : حاتب ياثى رامى .. انت بتعطيها قشيدتى أنا .

في ذلك الوقت كان عبد الوهاب
ينافس أم كلثوم لا يلحن لها

استلمت شيك بمبلغ عشرة
جنيهات مصريا من [illegible] عن حضرات [illegible]
اتحاد كلية الطب وذلك من أصل المبلغ
المتفق عليه وقدره ثلاثون جنيه لإحياء
حفلة الكلية على مسرح حديقة الأزبكية
مساء الأحد ١٢ أبريل ١٩٣٦

ام كلثوم

[illegible]
ابراهيم

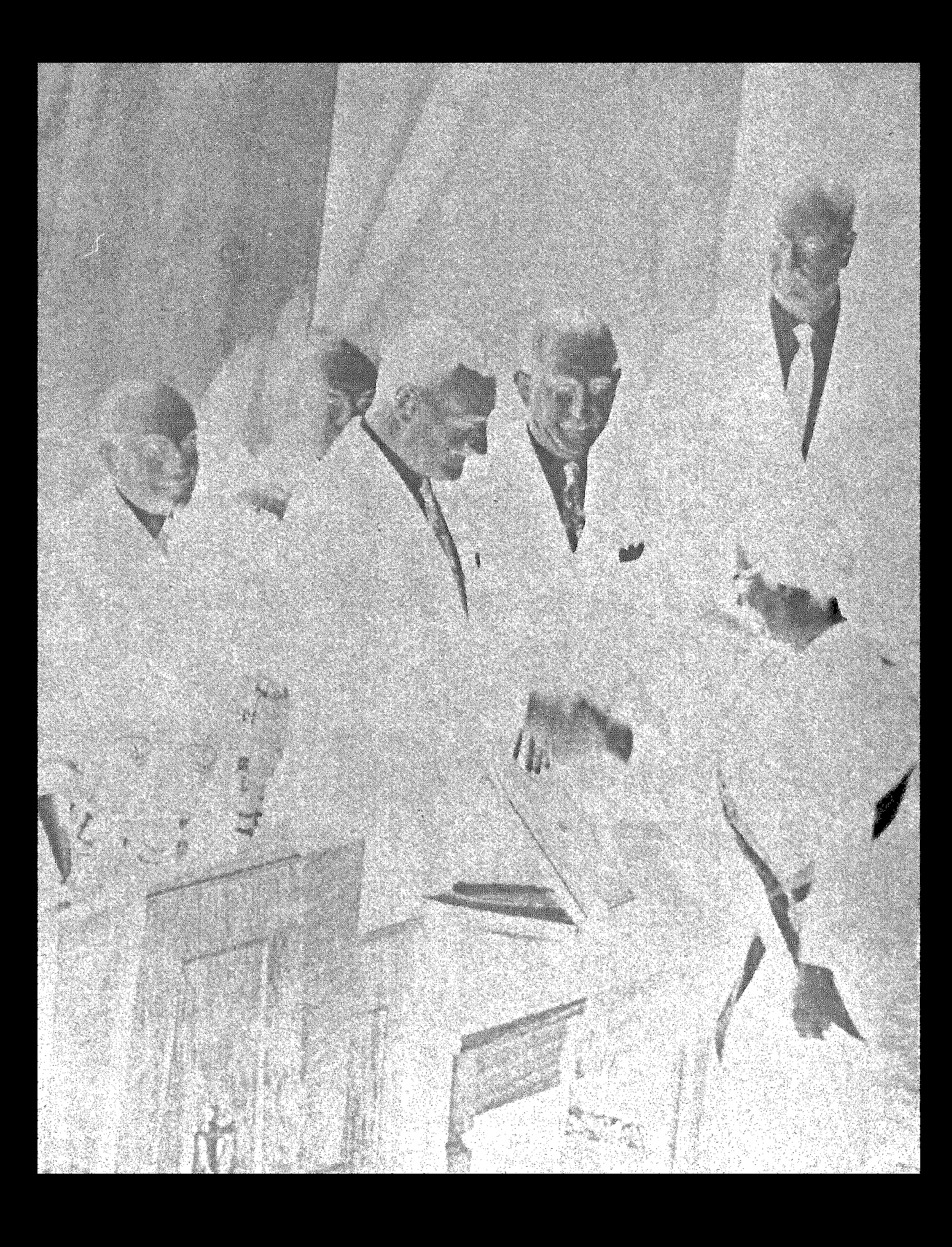
...لة حتى سنة ١٩٣٦



اللفتة الجميلة ...
لم يعد التصوير يضحكها
كما فعلت أول مرة .



لمن التكريم ؟
لأم كلثوم
ام للفن الغناء العربي ؟



في ذلك الوقت ..
كانت نفرتيتي في برلين
وكانت أم كلثوم في باريس

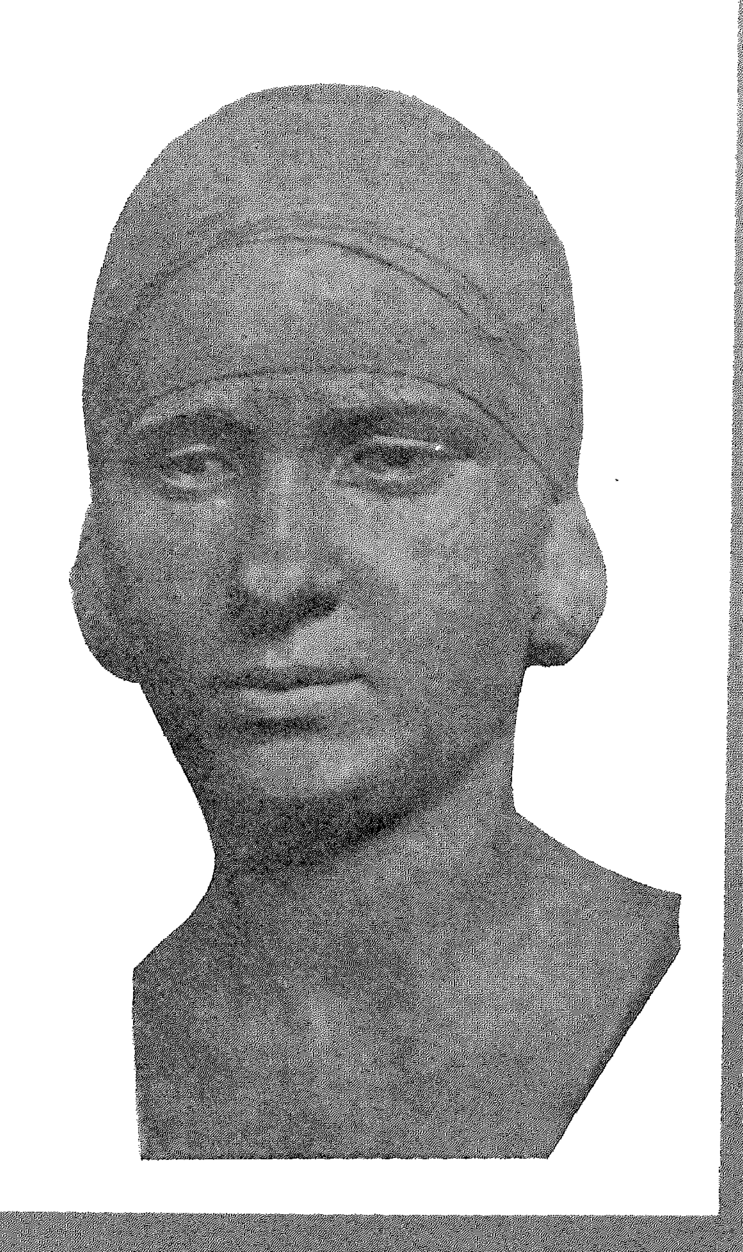




مرفوعة الراس . وبها ارتفع راس مصر بل راس العرب قاطبة .



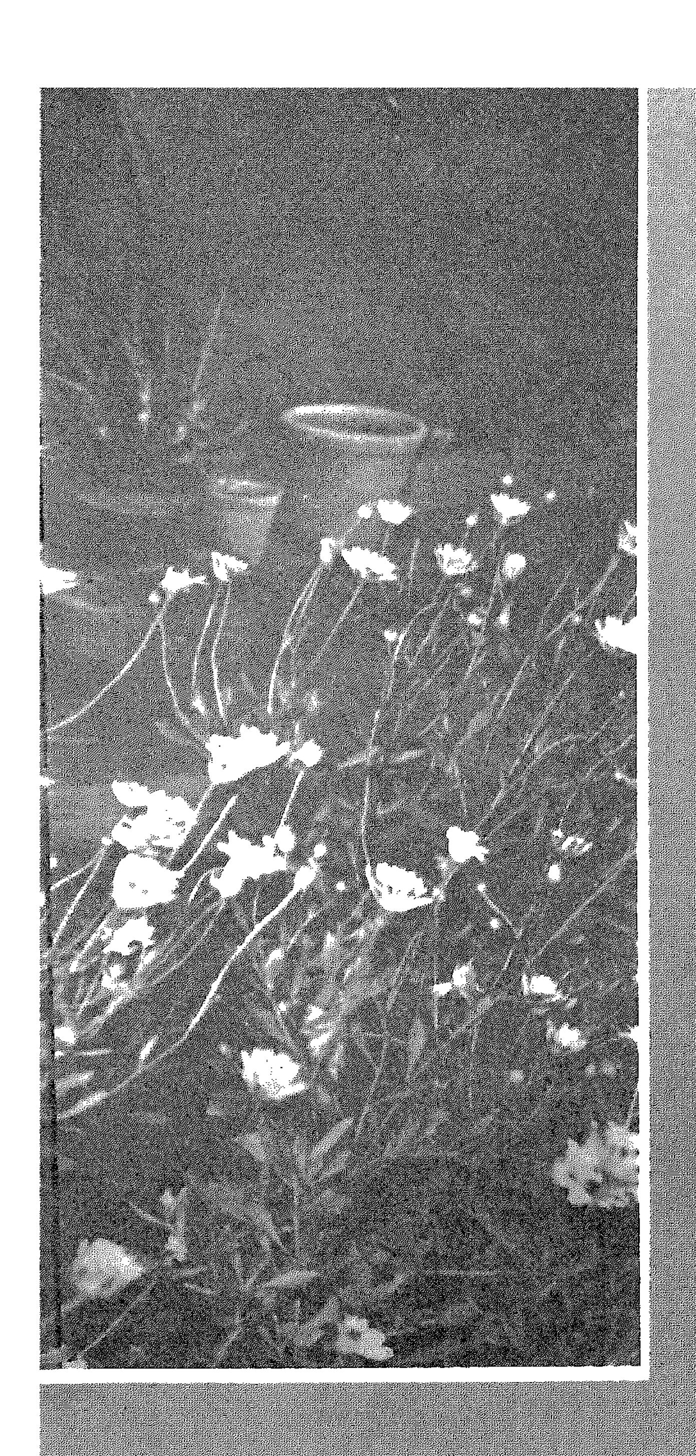
موكب ام كلثوم .. حتى الى باريس



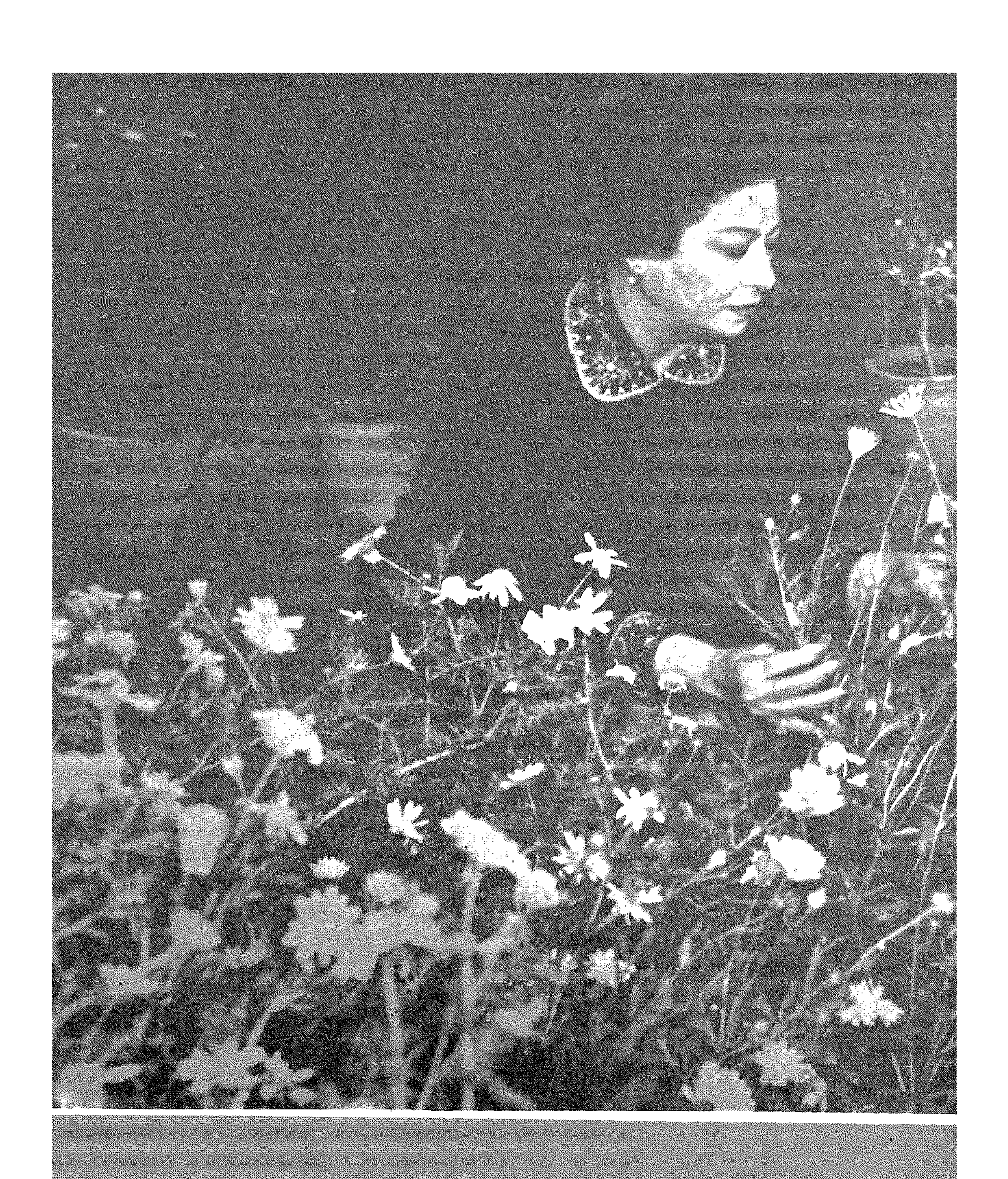
من فن مختار : تمثال نصفي لأم كلثوم
ومن صنع الله : ام كلثوم تمثال كامل لمصر

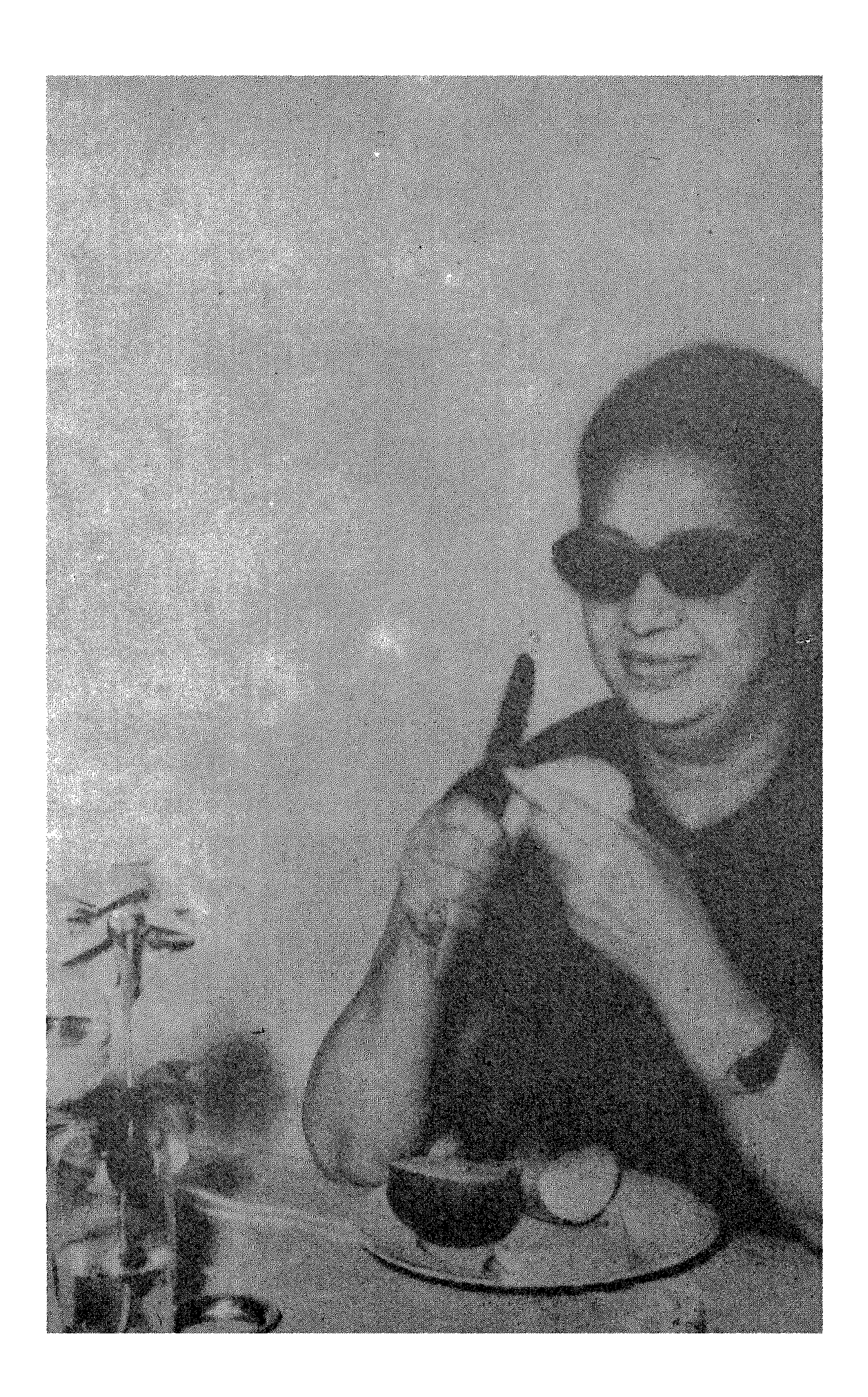


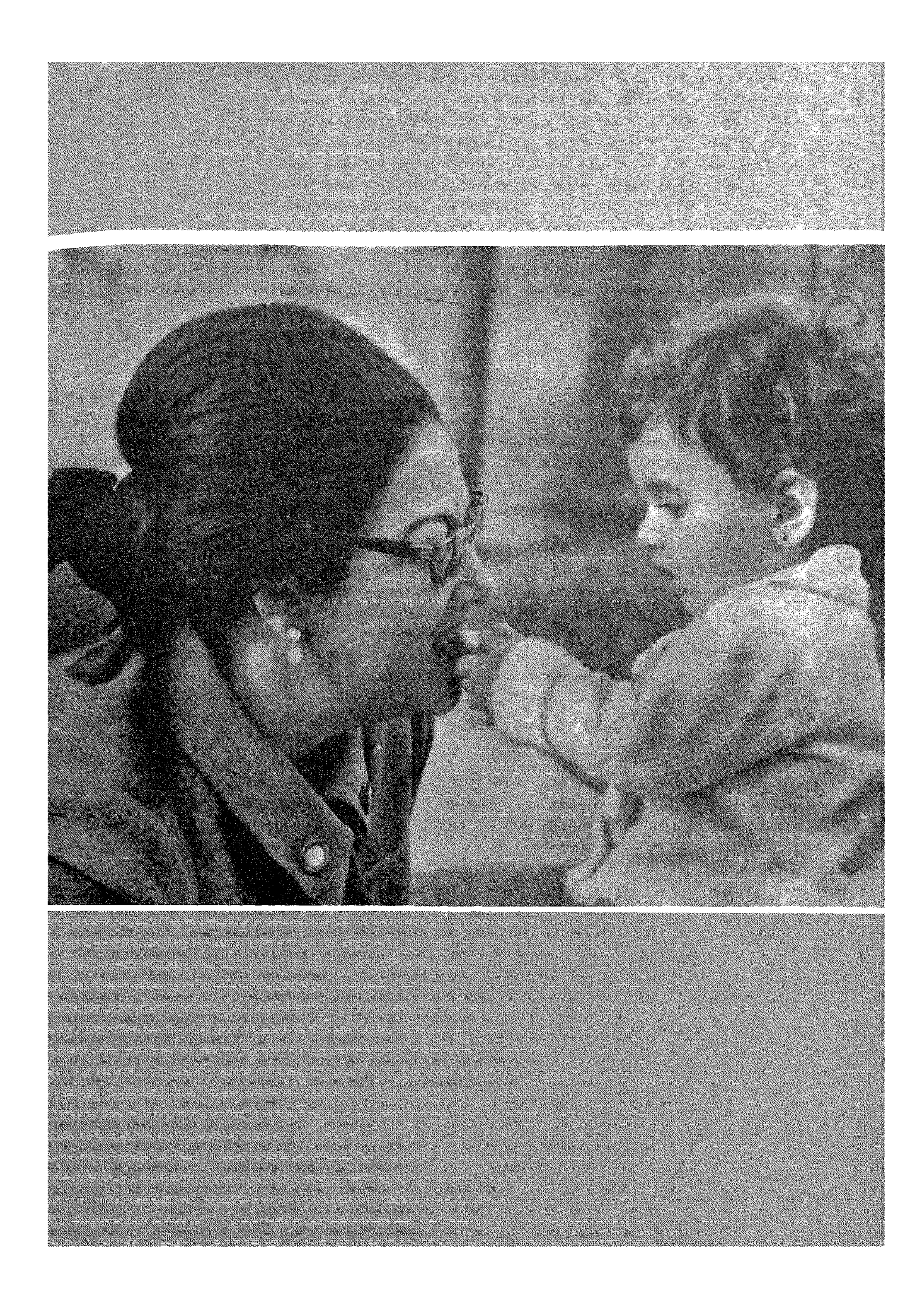
انها السيدة

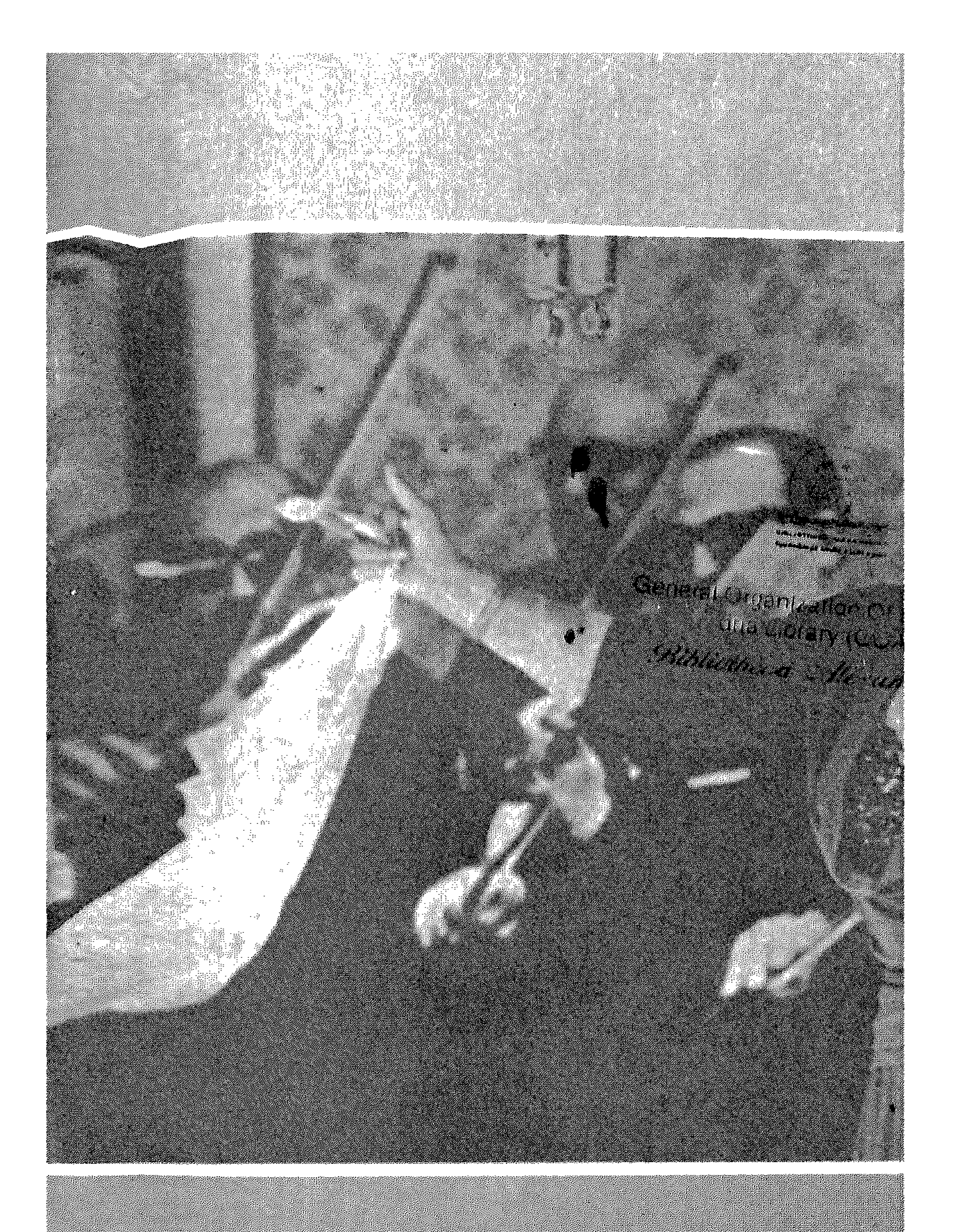


يا روح ... يا روح الروح
سم هواك عمره ما يسلاك
سمع غناك عمره ما يسلاك
لورد جميل ... كله

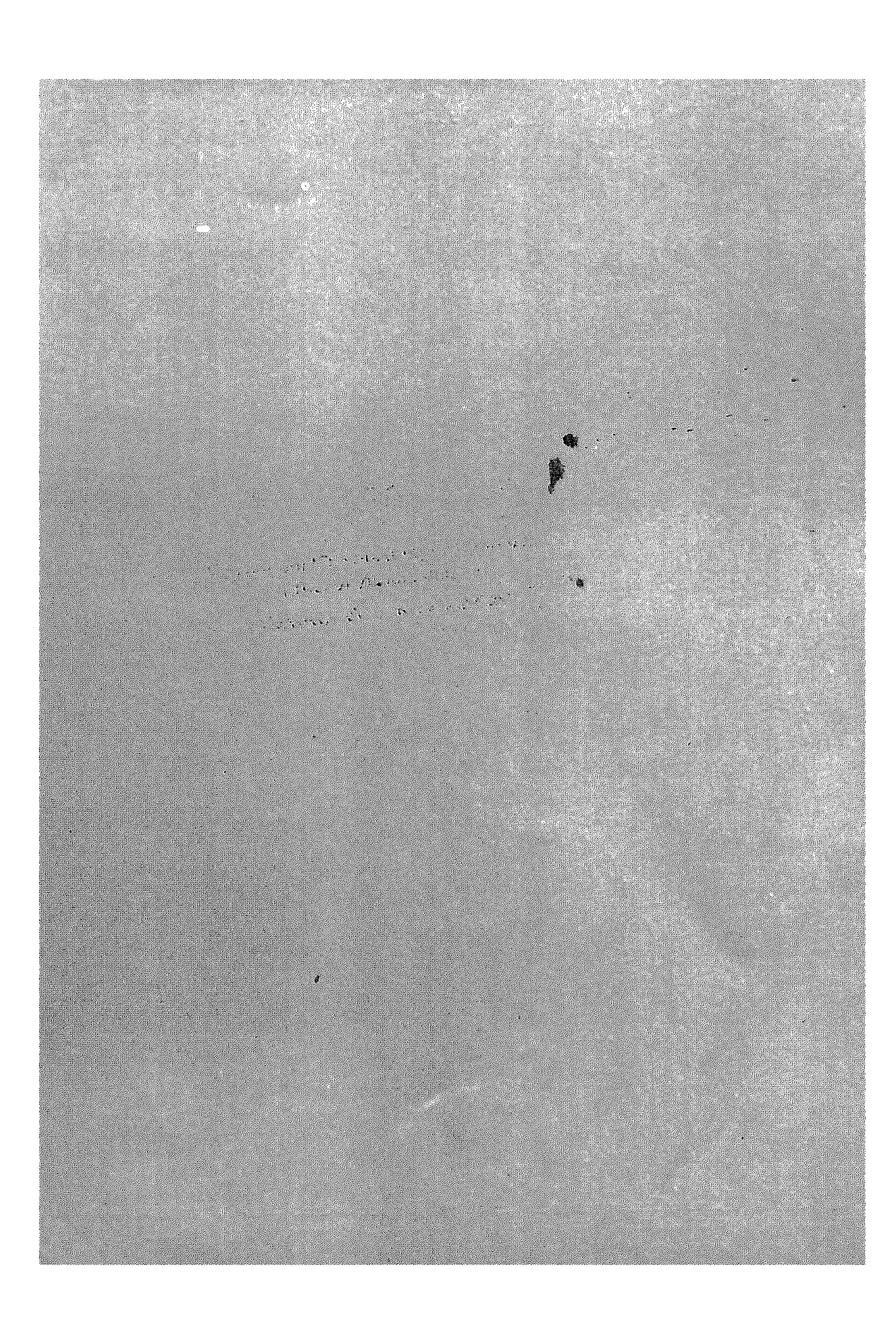








قال ابوالعلا عنها صغيرة : البنت دي بتغني بدمها
وحين استوت عل القمة : الست دي بتغني بدمها



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٩٠ / ٨٣

ISBN ٩٧٧ ـ ٠١ ـ ٠١٥١ ـ ٦

يا عقد الفل على صدر مصر
يا ست الكل بين سيدات مصر
صوتك آية
واسمك راية
والكلثوم هو الحرير يكون في أفضل العلم ٠
وقد كنت لنا حريرا ، ونغما ، وخيرا كثيرا ، وذخرا كبيرا ٠
كنت لنا علما ومعلما
ثم غدوت لنا التراث والرصيد
والتاريخ والنشيد
والفخر والتمجيد
انت أم كلثوم وستبقين أم كلثوم

٦٥٠ قرش
مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب